عدد خاص
بمناسبة العيد العاشر
لجامعة قطر

حولية كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد السابع
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

جامعة قطر

عدد خاص بمناسبة العيد العاشر لجامعة قطر

حولية
كلية الإنسانيات والعلوم الاجتماعية

العدد السابع
١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م

حولية تصدر عن

كلية الانسانيات والعلوم الاجتماعية

بجامعة قطر

أسرة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين

قرآن كريم

بيانات حول النشر في حولية كلية الانسانيات

١ - ترحب أسرة التحرير بالأبحاث التي لها صلة بتخصص حولية كلية الانسانيات وتولي الاهتمام بالموضوعات التي لها صلة بالخليج والجزيرة العربية وقد يقع الاختيار على أبحاث في تخصصات أخرى لها صلة بتخصصات المجلة .

٢ - تنشر حولية كلية الانسانيات البحوث العلمية الأصيلة التي تتوافر فيها شروط البحث في الإحاطة والاستقصاء وأسلوب البحث العلمي وخطواته والأمانة العلمية في الإشارة إلى الأفكار وذكر المراجع والمصادر ولا يلتفت إلى المقالات الوصفية والإنشائية ويتقيد مقدمو البحوث بالتسميات والحواشي والمراجع والرموز وذلك بالطريقة المتعارف عليها عربياً وعالمياً .

٣ - يشترط في البحث ألا يكون قد نشر في أي مكان آخر . والبحث المقبول للنشر يرفق بوثيقة تعهد من صاحب البحث بعدم نشره في مكان آخر .

٤ - تتلقى الحولية البحوث للنشر من داخل جامعة قطر ومن خارجها من الجامعات والمؤسسات العلمية الشقيقة والصديقة باللغة العربية والانجليزية .

٥ - يقدم البحث مكتوباً على الآلة الكاتبة بنسختين وألا يقل حجم البحث عن ١٥ صفحة وألا يزيد عن ثلاثين صفحة كوارتر (٢١×٢٧ سم) أو ٢٥ صفحة فولسكاب (٢١×٣٢ سم) .

٦ - تقدم الرسوم والأشكال والخرائط مرسومة بالحبر (الصيني) على ورق مصقول أو ورق شفاف Tracing Paper ويراعى في مساحتها ألا تزيد على مساحة المجلة طولاً وعرضاً .
أما الصور الفوتوغرافية فتكون واضحة المعالم ومقدمة على ورق مصقول وبحجم البطاقة البريدية .

٧ - يعطى صاحب البحث المنشور مكافأة مالية تحددها جامعة قطر مع ٥٠ فصلة (مستخرج) من بحثه المنشور .

٨ - البحث المقبول للنشر يأخذ دوره للنشر سواء في أول عدد يصدر أو الأعداد التي تليه .

٩ - تعرض البحوث المقدمة على خبير متخصص سواء من داخل جامعة قطر أو من خارجها ويكون رأي الخبير ملزماً كما يبقى اسم الباحث واسم الخبير مكتومين .

١٠ - الأبحاث والمواد التي ترسل إلى الحولية لا تعاد ولا تسترد سواء أنشرت أم لم تنشر .

١١ - ما ينشر في الحولية يعبر عن وجهة نظر صاحبه ولا يعبر بالضرورة عن وجهة نظر الحولية .

١٢ - ترتب الأبحاث عند النشر وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة البحث أو الباحث .

١٣ - توجه الخطابات والمراسلات باسم رئيس التحرير الأستاذ الدكتور يحي الجبوري وكيل كلية الإنسانيات - جامعة قطر ص . ب ٢٧١٣ الدوحة - دولة قطر .

جامعة قطر في عيدها العاشر

كانت هناك جملة أهداف تمثلت أمامنا منذ بدأنا نرسم مسيرة هذه الحولية وجعلنا لها أولويات أو دوائر ، فالدائرة الأولى التي نُعنى بها هي الدائرة القطرية ، وقد انصرفت العناية فيها إلى البحث عن فكر قطر وأدبها وتاريخها وآثارها وطبيعة أرضها وأحوال مجتمعها وماضيها وحاضرها ، والدائرة الثانية هي الدائرة الخليجية التي تكمل صورة قطر في محيطها الواسع ، أما الدائرة الثالثة فهي الدائرة العربية التي تبحث في الفكر العربي الإسلامي في شتى مناحيه تراثاً ومعاصرة ، ولم ننس الفكر العالمي فقد كانت له ومازالت إسهامات في حوليتنا .

وقبل كل هذا وذاك فإن البحث العلمي الموثق المحكم الأصيل الرصين هو الأساس والمنطلق ، فعلى ركنه الراسخ تقوم الجامعات وتنهض الحضارات وتترسخ المعرفة وتتهيأ أسبابها .

والجامعة - لاريب - مؤسسة علمية لها دور حضاري في قيادة الأمة ، وإن الأساتذة العلماء الواعين المخلصين هم الذين يخططون للرقي بالأمة ، ويرسمون لها سبل التطور الحضاري الذي يقوم على دعامتين أساسيتين هما التعليم ، والبحث العلمي ، والتعليم وحده لا يكفي والجامعات التي تقتصر على التعليم وحده تسير برجل واحدة ، وكذلك فإن دور الجامعة لا يقتصر على تعليم الأجيال وتخريجهم ، بل يتضمن أيضاً إيجاد الحلول لمشكلات العصر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . بحيث تؤدي تلك الحلول إلى التطور الحضاري الذي تسعى إليه الأمم .

إن الجامعات في الدول المتقدمة تحشد كل الكفاءات العلمية والامكانات المالية والبشرية في سبيل البحث العلمي ، لأنه ضرورة من ضرورات التقدم ، وان كثيراً من الجامعات الأوربية والأمريكية وكذلك مراكز البحوث والمؤسسات العلمية ، تتسابق في اقتناص الكفاءات من شتى أنحاء المعمورة وتوفر لها الامكانات المطلوبة سعياً للوصول إلى أحدث منجزات العلم وقد استطاعت أن تحرز تقدماً عظيماً في مختلف مجالات الحياة .

وقد كان لهذه الحولية دور مرموق في التفاعل مع المجتمع والاستجابة لمطالبه على قدر ما أتيح لها ، وكانت استجابتها لحاجات المجتمع القطري والخليجي بأن أسهمت في أبحاث في مجالات البيئة والاجتماع والسكان والمدن والآثار والتاريخ والفكر والأدب وما إلى ذلك ، ونستطيع أن نكون

فكرة واضحة عن هذه المعالجات من خلال استعراض عنوانات الأبحاث الخاصة بالقضايا القطرية والخليجية ، فمن ذلك :

- المجتمع القطري ومؤشرات التنمية .
- دراسة عن التصحر في الوطن العربي .
- قضية التحديث في ضوء الاتجاهات المعاصرة لعلم الاجتماع .
- ملامح عن الشخصية الخليجية ، دراسة في التحليل الاجتماعي للأدب .
- مدن الخليج ، تطورها ومشكلاتها المعاصرة .
- تميم تحركها وسياستها في العراق والخليج العربي في العصر الجاهلي .
- الوطن العربي ، دراسة في السكان والأرض والغذاء .
- الحركة الأدبية والفكرية في قطر .
- أشكال الأرض وحياة النبات في قطر .
- الاتجاهات والقيم المرتبطة بالزواج لدى الشباب القطري .
- المقومات الفنية والاقتصادية للتنمية الصناعية في المجتمعات النامية .
- الكفاءات اللازمة للمعلم في قطر .
- تميم في الإسلام .
- المشكلات التي تعترض الخدمات الاجتماعية العمالية في الوطن العربي .
- اللؤلؤ القطري .
- الثبات والتغير في عادات القطريين .
- الشكل والمضمون ، وجهة نظر في النقد الخليجي .
- استخدام المؤشرات الاجتماعية في نظام النقل العام في المجتمع الكويتي المعاصر .
- ملامح القصة القصيرة في الأدب القطري .
- البحرين والقوى المتنافسة في الخليج .
- الخرائط في دولة قطر .
- الجوانب الاجتماعية والايكولوجية للتكامل الإداري والتنظيمي بين المدن المعاصرة .
- الحاجة إلى تصورات وتوجهات جديدة ومتوائمة في التعليم العالي والجامعي .

- دراسة عن النقوش الصخرية في قطر .
- ديوان أبزون العُماني .
- الآثار الاجتماعية والنفسية للتحضر .
- مشكلة نمو المواهب الابداعية عند الأطفال .
- التنشئة الاجتماعية الأسرية للطفل القطري .

وبعد فهذا غيض من فيض .. وكلنا ثقة وأمل بأن تتواصل الجهود وتتضافر الهمم لمواصلة المسيرة العلمية الخيرة ، وان عافية هذه الحولية وازدهارها ان هي إلا أقباس متألقة من عافية جامعة قطر وازدهارها .

وما أبحاث هذا العدد إلا اضامة أزاهير فواحة الأريج تقدمها كلية الانسانيات إلى جامعة قطر في عيدها الميمون عيد الأم الرؤوم التي غرست فأحسنت الغرس ورعت فأحسنت الرعاية وقد آن لها أن تقطف الزهر وتجني الثمر .

نسأل الله سبحانه أن يحقق لجامعة قطر وهي تودع عيدها العاشر كل ما يخفق في جنباتها من طموح كبير وأمل واسع وغاية علمية نبيلة ، مهتدية أبداً بالآية الكريمة التي اتخذتها هدفاً وسلوكاً وشعاراً : ﴿ **قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين** ﴾ .

يحيى الجبوري

فهرس الحولية

الحاجة إلى تصورات وتوجهات جديدة
ومتوائمة في التعليم العالي والجامعي

الأستاذ الدكتور
محمد ابراهيم كاظم
مدير جامعة قطر

١ - عندما نفكر في قضايا التعليم العالي في مثل هذه الندوة ، فنحن نمسح ببصائرنا منطقة الخليج العربية في حاضرها وواقعها الذي هو ثمرة تفاعلات عديدة بين عناصر شتى ، بعضها ينتسب إلى الماضي الذي انقضى ، وبعضها ينتسب إلى الماضي المستمر وفي جميع الحالات فالمنطقة في حركة ، تسير بتفاعلاتها وعناصرها شاقة طريقها نحو المستقبل .

وقبل الحديث عن التصورات والمفاهيم والتوجهات في التعليم العالي ، ربما يبدأ الحوار مع النفس حول هذا الموضوع بسؤال مبدئي عن مدى الحاجة إلى تعليم عال . وطبيعي أن يكون في الإجابة عن هذا السؤال بعض عناصر الإطار الذي لابد من تحديد ملامحه ، عند التوجه إلى التعليم العالي والتفكر في قضاياه .

والتعليم العالي يقوم شكلاً أو موضوعاً ، أو شكلاً وموضوعاً ، بناء على مدى ونوعية الحاجة إليه . بدءاً من المعالم أو الصروح التي لابد منها لاستكمال شكل مجتمعات القرن العشرين ، بصرف النظر عن مضمونها ووظيفتها ، أو يقوم مبتسراً متخفياً دون إعلان أو إعلام كإضافة ملحقة بالتعليم العام استجابة لحاجة موضوعية وموضعية ، كأن يكون المجتمع

* اللفظ الانجليزي لكلمة موائم هو relevant

وكلمة تواؤم هو relevancy

قد وصل إلى المرحلة الحضارية التي لم يعد التعليم العام بوظائفه وطاقاته قادراً على الوفاء باحتياجاتها ، ودون أن يكون المجتمع قد أعد نفسه بصورة واعية لقيام تعليم عال مستكمل العناصر .

وأخيراً أن يعي المجتمع سرعة حركته واتجاهاتها ، وما يترتب على ذلك من تصور لاحتياجات المجتمع ، واحتياجات سرعة التغير ، من منطلق مقوماته الأصلية وديناميا ته وأيديولوجياته ، ومن منطلق الوعي باحتياجات العصر ، ونوعية واتجاه حركة المجتمعات الأخرى المعاصرة والمتفاعلة معه .

٢ - وباختصار فمن المتفق عليه أن التعليم العالي والجامعي مقوم أساسي من مقومات الدولة والمجتمع العصري وعندما تتقدم الدولة والمجتمع لهذه المرحلة يصبح التعليم العالي حاجة أساسية ، يترتب على تأخر قيامه عواقب محسة . وبالنسبة للمجتمع العربي في الخليج بانتمائه إلى الأمة العربية - مع تفاوت أقطارها في مراحلها الحضارية - وبانتمائه للإسلام كطريق وكحياة متكاملة ومسئولية عقائدية حضارية ، وبانفعاله بآثار حركات التقدم في مجتمعات العالم المعاصر مع مجمل الظروف الخاصة به ، والامكانات التي أتيحت له ، هذا المجتمع مرتبط بظرف تاريخي نادر هو وجود البترول كسلعة استراتيجية هائلة الأثر بالغة القيمة . فهو مصدر الطاقة والمال والتكنولوجيا وعنصر من عناصر السياسة الإقليمية والدولية والاقتصاد العالمي ومجال لنشاط القوى العاملة وعنصر من عناصر إعادة توزيع البشر ، وتغير البنيات الاجتماعية والأطر القيمية ، وهو مع ذلك ، ومهما بلغت أبعاده ، محدود مؤقت ، كما أن آثاره ليست بالضرورة إيجابية فحسب .

وظرف تاريخي نادر آخر ، هو أن العديد من الأقطار العربية القريبة والبعيدة تمر بمخاض حضاري واقتصادي وتحديات جسام ، جعل من الممكن توافر القوى البشرية العربية بالإضافة إلى العمالة الأجنبية التي يمكن أن تحتشد للمشاركة في برامج التنمية وتحمل أعباء النمو .

وعندما نقول إن التعليم العالي والجامعي هو مقوم أساسي من مقومات الدولة والمجتمع العصري ، فنحن نلمح إلى أن المجتمع العربي في الخليج وصل إلى المرحلة الحضارية التي برزت فيها الحاجة إلى قيام هذا التعليم بتولى مسئوليات ووظائف محددة ، وغير محددة لا تتم بدونه .

٣ - هذه الوظائف المحددة على وجه الخصوص هي :

(أ) تنشيط وتوجيه التفاعل الاجتماعي ، بحيث يؤدي إلى قيام البنية الاجتماعية المناسبة والصالحة للمجتمع العصري مع الحفاظ على هويته المتميزة .

(ب) تحقيق التوازن بين البنية الاجتماعية المتحركة إلى الأمام وقياداتها في مجالات التخصص المختلفة ، وبين باقي القوى البشرية من القاعدة العريضة في المجتمع ، وذلك ببرامجها المخصصة للوقاية من ظواهر اغتراب الخريجين ، وتقليل الفجوة بين الأجيال .

(جـ) إعداد القوى البشرية اللازمة من الخريجين والمتخصصين التي يعتمد عليها في تحقيق الأهداف الدينامية المتطورة للمجتمع ، وحمل آماله قدماً بصورة مطردة .

(د) وإذا كان إعداد القوى البشرية يدخل في نطاق المهام التعليمية للجامعة ، فهذه المهمة ترتبط أشد الارتباط بمهمة العمل على زيادة الحصيلة البشرية من المعرفة وتطبيقاتها بصورة منهجية متدفقة ، أو ما يسمى بالبحث العلمي والتطبيقي ، ونشره واذاعته وتداوله ووضعه موضع التطبيق .

٤ - وإلى جانب الوظائف المحددة للتعليم العالي والجامعات فللجامعات أيضاً وظائف غير محددة . بعضها سوف يبرز في المستقبل أي أنه مجهول في الوقت الحاضر . وهي ليست موضعية الأهداف محدودة المقاصد ، بل هي مجتمع يتسم بكل ما تتسم به المجتمعات البشرية والكائنات الحية ودينامياتها . الجامعة مجتمع بشري ، لا يعد للحياة ، بل هو الحياة نفسها ، في بعض مراحلها التي تتتابع لتكون حياة البشر : الفرد والجماعة . بمعنى أنه أحد أنماط الحياة وصيغها . وهي ليست عدداً من طلاب العلم : دارسين ومدرسين وبعض العاملين ، ولكنها أيضاً تفاعل بين هؤلاء وأولئك جميعاً . وبقدر حيوية هذا التفاعل ونشاطه وصحيته واستمرار المقومات اللازمة لذلك ، بقدر ذلك تكون للجامعة القدرة على العطاء الإيجابي - تميزاً عن مجرد إثارة الزوابع . والتفاعل الجامعي يتميز بميزات خاصة ترتبط بهذه النوعية الخاصة من البشر ، في مرحلة خاصة من الحياة ، وباهتماماتهم الخاصة بالعلم والتعلم والتعليم ، وبأولوياتهم وطموحاتهم كأفراد وكمجتمع .

ولكن ، ولهذه الخصائص ذاتها ، يتميز المجتمع الجامعي بقابلية عظيمة للنشاط والحركة والاندماج والانتماء والعطاء ، يفتح لها - إذا استوفيت الشروط - مجالات لا نهاية لها من

التجديد والتغير والتدفق والقدوة والقيادة ، يحدد للجامعة أبعادها وموقعها من التفاعل المحلي والقومي والانساني الشامل .

وهو أيضاً ككل مجتمع وكل تفاعل ، قابل أيضاً - إذا قصرت الشروط - قابل للضعف والتفكك والهوان والتصلب .

٥ - وكمجتمع منتم إلى دوائر مجتمعية أكبر ، بدأ بالمجتمع المحلي والاقليمي والقومي والأمة والمجتمع الإنساني المعاصر والماضي كله ، وبتطلعه إلى آفاق المستقبل وتفاوت وعيه لبعد الزمن والتاريخ ، وامتداداته الطولية والعرضية ، يكون لانتمائه أو انتماءاته المتفاوتة الحدود ، المتشابكة العناصر ، المتراوحة بين الغموض والوضوح والتحديد والهلامية ، يكون لهذا الانتماء غير المحدود أثر يؤدي إلى تلقائية دينامية تتجاوز الموضعية والحدود الثابتة .

هذا التجاوز لا يعني حركة عشواء ، ولكنه يشير إلى حدود الإنسان وقصور قدراته وبصائره ، أي وجود حدود ، أياً كانت ، لهذه القدرات والبصائر ، عندما تنفذ إلى ما وراء الحجب . ولكنه يشير أيضاً إلى أن الإنسان يستطيع أن يرى ما وراء الحجب عندما يتجاوزها فلا تصبح حجباً ، ثم يتطلع إلى الأمام مرة أخرى فلا تمتد بصيرته إلا إلى أمد محدود يكون ما وراءه محجوباً عنه وهكذا .

وبناء عليه يكون الوعي بهذه الحركية في وظائف الجامعة رؤية لابد منها لأي توجه حكيم في العمل الجامعي اليوم ، والإعداد للمستقبل في نفس الوقت . ويكون التخطيط الحكيم مؤسسا على التعامل مع المعلوم اليوم ، والمعلوم غداً ، وهو الذي سوف يظل مجهولاً إلى حين .

٦ - لابد الآن من وقفة نجلو فيها أبصارنا ونتطلع إلى المستقبل . عندما نتحدث عن القرن الحادي والعشرين والإعداد له ، يجب أن نتخلص من آثار المبالغات السينمائية والمسلسلات التلفزيونية ، وما تلح عليه في تضخيم عناصر اختلاف الحاضر عن المستقبل وسرعة التغير المتوقعة .

ومن المهم أن نؤكد على أن المستقبل لا يتكون فجأة ، بل إن ملامحه تتحدد وتتكشف بالتدريج - أياً كانت سرعة هذا التدرج - ومن ناحية أخرى فان المستقبل لا يقع علينا

من اطار خارج عنا ، وكأننا مشاهدون سلبيون ينظرون الأحـداث تتتابع في معزل عنهم . فالواقع أن المستقبل يتكون في الحاضر ، الحاضر هذا الذي تكون تـدريجيـاً عبر زمن مضى ، ومن عناصر تكونه : أفكارنا وأعمالنا وتوقعاتنا ورؤانا .

والقرن الحادي والعشرون على بعـد يقل عن عشرين عـامـاً ، والأرجح أن غـالبيـة منـا سوف تشهده. كما أن من بين أطفال اليوم وشبابه من ستكون بأيديهم مقـاليـد الأمور في عقود عديدة منه .

وصحيح أن التغير التكنولوجي والاجتماعي تتزايد سرعته إلى درجة مقلقة ، ولكن لابـد من إدراك أن سرعة التغير في نهاية المطاف مرتبطـة بقـدرة الإنسـان على احتمالهـا . وهي لا تتجاوز أبداً احتمال الإنسان . فالتغير في نهاية المطـاف مفهوم إنسـاني لا يستقل عن الإنسـان ولا يكون إلا منسوباً له . وإذا كان النمو لا نهائياً ، فان سرعة النمو رغم تسـارعهـا المشـاهـد اليوم ، مسألـة أخرى لأنهـا متزامنـة مع تغير الإنسـان وقـدرتـه على التعـامل مع السرعـة في التغير .

٧ - والتعامل مع التغير يحتاج إلى الخيال والطموح والثقة بـالنفس وبـالآخرين ، فـالتغير يفـاقم مشاعر القلق والتوتر التي لا يخلو منها الإنسان . وخصوصاً وان التغير المشاهـد اليوم يرتبـط بالتكنولوجيا والمعلومات والسكان ، وهي عناصر تزيد من سرعته ومن الاحساس بمدى هذه السرعة .

ولقد كان من آثار سرعة التغير على المجتمعات الخليجية العربية المسلمـة ، في تعـاملهـا مع نفسها وتعاملها مع المجتمعـاتـالأخرى ، بروز عنـاصر الاتفـاق والاختلاف في النظرة ، والأطر القيمية ، والتطلعات الحياتية والأهـداف ، وتجاوز الأنمـاط التقليـديـة مع الأنمـاط الحـديثـة وبخاصـة الصيغ الغربيـة ، ممـا يحتم النظرة المتـأملـة إلى تقييم العلاقـة بين الإسلام والحضـارة الغربية والتحديث .

٨ - يتمثل في اسلوب الحياة الغربية في الوقت الحاضر أبرز النماذج للحياة العصرية المتطورة . ولا يعني هذا أن هذه الثقافة لا تتميز فيما بينها باختلافات جوهريـة أحيـانـاً ، ولكن المقصود أن الخطوط الرئيسية في كل صورها واحدة ، ويتضمن ذلك الصيغ المشـاهـدة في أوربـا وأمريكا

والاتحاد السوفيتي ، بل واليابان(*) مع بعض التحفظات .

وتكاد صيغ هذا النموذج حيثما حل تشترك في :

(أ) إنتاجية عالية في القطاع الصناعي والزراعي ترتبط باستخدامات تكنولوجية دائمة التطور ليس من حيث استخدام الآلة فحسب ، بل من حيث تواؤم البشر والآلة في مسيرتها الدائبة التطور ، متضمنة بالنسبة للبشر تطورات سريعة في الثقافة ، تتجلى بالنسبة للفرد في التعلم والتدريب والكفاءة في العمل من ناحية ، ومن ناحية أخرى من حيث القيم والاتجاهات والاهتمامات والسلوك ، وبالنسبة للمجتمع في العلاقات والمؤسسات .

(ب) استهلاك عال انتقائي في مجالات الحياة المختلفة ، بدأ بالطعام واللباس والسكن وأوقات الفراغ وازدهار الفنون والآداب والنواحي الجمالية والليبرالية ، والاهتمام الواضح بالأمن والتأمين .

مما تقدم يتضح أن الانتاج الرفيع ومستوى المعيشة العالية وما يرتبط بها يكادان يتصدران كل ما يهم الإنسان في الثقافة الغربية في حياته على الأرض باعتبارها هي « الحياة » ، وهذا بيت القصيد .

٩ - إن المجتمع الصحي المترابط في حاجة إلى صيغ من مستوى رفيع من التعليم أي إلى مستوى من تعليم جامعي ، في صورة متطلب جامعي عام ، بهدف تأكيد عناصر الثقافة المشتركة في المجتمع وقياداته الفكرية والروحية . وبالنسبة للمجتمع العربي المعاصر بظروفه وتفاعلاته المعروفة ، وفي ظل التوجه الواضح إلى الفردية والعمل على المحاور الذاتية تشتد حاجة المجتمع إلى تدعيم الوعي العام ، والتوجه المجتمعي . إن الحاجة المجتمعية إلى قيمة العطاء عطاء الأفراد ، تكون أعظم الحاحاً عندما يكون التوجه السائد في المجتمع هو « الأخذ » والفردية ، والعمل لصالح الذات وعدم الانشغال الكافي بالصالح العام .

وعندما نعود إلى الحديث عن عناصر الثقافة المشتركة ، نذكر بأن التعليم في البلاد العربية ، في الماضي ، كان يرتكز على العديد من المصادر ، بعضها قراءات مشتركة من

(*) لاحظ دلالة تدريس الموسيقى الكلاسيكية الغربية في التعليم العام في اليابان .

المحيط إلى الخليج . ورغم غيبة التخطيط القومي الثقافي ، ورغم عدم وجود المنظمات الثقافية الاقليمية والقومية ، فأن كبار أبناء الجيل الحالي قد استمعوا إلى بعض الموسيقى الواحدة ، وقرأوا بعض الكتب المشتركة . وأقروا بالقيادة الفكرية والثقافية العامة لعدد من الأعلام لا يختلفون حول قيمهم الثقافية . وكان القرآن الكريم مقرراً عاماً يحفظ الأطفال بعض سوره ويقرأونه جميعاً . وما زال النظام التعليمي في كل مراحله في أشد الحاجة إلى القرآن الكريم : قراءة وحفظاً وفهماً - ليس كواجب إسلامي فحسب - ولكن كرابطة أساسية لثقافة مجتمع عربي يدين بالإسلام ، ويميز هذا الدين هويته وما يترتب على هذه الهوية من منطق وسلوك . وإذا كنا نتحدث عن أهمية التربية الحرة Liberal education ومصادر الثقافة في الغرب في بناء هوية المجتمع الغربي والحضارة الغربية ، فلا محيص من الاشارة إلى أن التوراة والإنجيل وتعاليم الكنيسة وكتابات الاعلام والمفكرين ، على تنوع توجهاتها ، مثل : شكسبير والقديس توما وديكارت وكانت ومنتسكيو وفولتير وشوبنهور وهيجل وجيته وتلستوي وفرويد ودارون وماركس وكينز وشو ورسل وديوي ، وموسيقى : باخ وبتهوفن وتشيكوفسكي ، بل وخشادوريان ، بل ودالي وبيكاسو ، بل والفرق الحديثة بأنغامها الصاخبة ، محل اعجاب الأجيال الحديثة ، كل هذه العناصر التي تنتشر على ساحة الحياة الغربية العريضة ، والتي تتعارض أحياناً ضمن اطار الانتماء المشترك لهذه الساحة الثقافية العريضة ، هي ماتميز الهوية المشتركة للفكر الغربي والحضارة الغربية ، وتجعل لها ضمن اطارها معنى وقيمة يدركها الغربي وتدفعه إلى الائتلاف أو النفور من أنماط الحياة القريبة أو البعيدة عن ثقافته .

ولا يعني هذا الحديث أن عناصر التعليم المشترك ، أو حتى الهوية والثقافة المشتركة ، تصنع من البشر قوالب متكررة أو متشابهة ، فحتى عناصر التعليم المشترك تؤكد أحياناً على حاجة المجتمع إلى أفراد يختلفون لكي يتكاملوا ، وتؤكد على اختلافاتهم حتى يفسح المجال لكل منهم للقيام بدوره في صنع النسيج الموحد من العناصر المختلفة . ولكن العناصر المختلفة إذا تنافرت استحال تكون النسيج الواحد . والمجتمع الذي ينحرف أفراده عن الحد الذي يتحمله المجتمع فإما أن تستوعب طاقته في الصراع والمقاومة الداخلية فلا يبقى منها شئ لعمل ايجابي يجعل لاستمرار بقاء المجتمع وظيفة أو رسالة أو معنى ، وإما أن ينخفض مستوى تفاعله ويصل تفككه به إلى درجة العجز عن أي انجاز حضاري يبرر استمرار وجوده .

وإن نوع التعليم وكمه ليميز بين الانسان والانسان بل يمكنه أن يباعد بينهما إلى غير لقاء أكثر مما تميز الطبيعة بين الانسان والحيوان الأعجم . ومعنى ذلك أنه مع تقدم نوعية التعليم وحملات التعليم العام الشامل الالزامية فانه ما لم ينتبه إلى دور العناصر والقيم المشتركة في التعليم المشترك يصبح هذا التعليم المتطور أدوات للتفريق بين الأفراد والجماعات ، بدلاً من أن يكون أحد عناصر الترابط والاستقرار المجتمعي .

والمجتمع يحتاج إلى المتخصص ، ولكنه يحتاج إلى المتخصص المدرك لدوره الاجتماعي وانتمائه المجتمعي وهويته الذاتية . وانطلاقاً من هذا المفهوم يمكن أن نرى بوضوح معنى تعريض العربي المسلم – أو غير الغربي بعامة – إلى تربية غربية وثقافة غربية . إن الحضارة الغربية والتربية الحرة بالمعنى الغربي – الذي أسلفنا الاشارة اليه – تؤكد هوية الانسان الغربي ولكنها لا تجعل من غير الغربي غربياً أبداً ، الا أنها تستطيع أن تغلف هويته الأصلية بغلاف كثيف من الغموض ، تحجب عن بصيرته الاحساس بالاتجاه وتقعده عن النمو والتطور ، وتفقد حركته وضوح الرؤية والهدف .

ويؤكد الواقع وجهة نظرنا هذه بالنسبة لآثار محاولات تغريب المجتمعات غير الغربية ، ليس من ناحية عدم قدرتها على الالتحاق بسيرة الحضارة الغربية فحسب ، بل من ناحية القصور في القدرة على النمو والتنمية ، ضمن اطار الثقافة الأصلية التي فقدت من أصالتها حسب درجات اهمال مقوماتها .

١٠ – ومما لاشك فيه أن التقدم والعصرية والتنمية ، والتغريب – بمعنى من المعاني – أحد نماذجها ، ترتبط بالانتاج الرفيع والقدرة عليه من ناحية ، والاستهلاك المؤدي إلى رفع مستوى المعيشة من ناحية أخرى . وعندما يكون الاستهلاك الرفيع المؤدي إلى رفع مستوى المعيشة أثراً للإنتاج الرفيع تكون المعادلة الطبيعية ان هذا المستوى الإنساني الرفيع مؤد هو الآخر لمزيد من القدرة على الانتاج . ومما يلاحظ أن استخدام التكنولوجيا المتقدمة في الدول المتقدمة يؤدي الى زيادة الانتاج بالدرجة الأولى ومزيد من أوقات الفراغ بالدرجة الثانية ، في حين ينظر الى التكنولوجيا المتقدمة في العالم الثالث وكأنها وسيلة للتقليل من جهد الفرد أو المجتمع ، الذي هو محدود أصلاً ، أو لتغطية هذا الجهد المحدود ، بدلاً من الزيادة الكلية في الانتاج لمزيد من التقدم . وعلى ذلك يرتبط التقدم والتنمية بمدى الاستفادة ، والقدرة على الاستفادة ، من أقصى ما يصل إليه الانسان . وهذه الاستفادة تشير

الى الاستهلاك كما تشير الى الاستفادة في عملية الانتاج أيضاً . وهذا هو الشق الاستهلاكي والانتاجي معاً . كذلك يرتبط التقدم والتنمية بتوافر البشر المتطور وتوافر سبل تطوره لدفع طاقات الإنتاج ، بمعناه الشامل ، الى مزيد من التطور الى الأكثر والأفضل ، وإذا كانت التنمية والتقدم مفهوماً انسانياً اجتماعياً فلابد أن ترتبط بانسان قادر ، أو قادر على أن يعد ليتطور وليكون البنية الاجتماعية القادرة على التغير وتحمل تبعاته . ومن الواضح أن التقدم والتنمية ترتبطان بالضرورة بدرجة تماسك المجتمع وصحته وحيويته وأمنه . ومن ثم قدرته على العمل الإيجابي والإنتاج . وواضح أيضاً أن القدرة على العمل الإيجابي مفهوم يتغير بتقدم علم الإنسان ومهارته وتصوراته . وكما ذكرنا ، فالإنتاج المتقدم هو الإنتاج الذي يتم باستخدام أقصى ما وصل اليه عقل الإنسان وعلمه ، من الآلات والوسائل والطرق اللازمة لاستخدام هذه الآلات والوسائل .

فإذا كان عقل الإنسان وخياله ومعامل أبحاثه تخرج لنا كل يوم تحسيناً جديداً لوسائل الإنتاج ، مما يزيد من فعاليتها وكفاءتها ، فمعنى هذا أن التقدم لابد أن يتطور هو أيضاً للاستفادة من هذا الجديد . وهكذا يصبح الإنتاج المتقدم والاستهلاك الرفيع – بنفس القياس – بل والتقدم والتنمية بعامة : عملية واجراء ونتيجة معاً وهما دائما التغير ، والحركة ، والتطور .

١١ – والأمم ، كمجتمعات ، هي تفاعلات بين أفراد . وكلما كان التفاعل سلساً ميسراً ايجابياً صحياً يستند إلى أسس واضحة – معلنة أو غير معلنة – كانت الأمة أقرب إلى الاستقرار والقوة والقدرة على الفعل الإيجابي ، أي رؤية رسالتها والتوجه لأدائها ، أو ما يسمى بالعطاء الحضاري ، وهو المعيار الذي يميز التاريخ به الأمم العظيمة من الأمم العابرة .

إن تركيبة المجتمع ، وعناصره ، ونوعية تفاعله ، تفرز نظمه السائدة في الميادين المختلفة وتؤثر في مستوى كفاءتها . وهذه النظم في الميادين الاقتصادية والاجتماعية ونظم القيادة والحكم ، بدورها تغذي – تعزيزاً أو كبحاً – عناصر القوة والضعف المجتمعي ، خصماً أو اضافة لفائض طاقات المجتمع وقدراته ، ومن ثم قدره .

والمجتمعات التي ينشغل أفرادها بهموم اليوم والساعة ، والقضايا الملحة المتلاحقة ، وما يترتب على ذلك من الاستغراق في قرارات آنية ، سريعة ، اسعافية لا مفر منها ، هذه المجتمعات تتجه لأن تكون هشة ضعيفة غير قادرة على العطاء الحضاري الكافي .

وهذه الظواهر من سمات المجتمعات التي تنوء تحت وطأة فقدان الوجهة وحس الاتجاه الذي يرتبط بالغربة الثقافية الراجعة الى عدم مواءمة الثقافة بما فيها من عدم مواءمة التعليم .

١٢ - إن المظهر السلوكي للأصالة هو العفوية والتلقائية والبديل في حالات التقليد - تغير التربة - هو السلوك الذي يتسم ، بالضرورة ، بالكثير من الحساب والمحاكاة . والجهد المبذول في هذا النمط من الحياة يصل الى الدرجة التي لا يتبقى فيها للأفراد ولا للمجتمع فضل ، أو بقية من طاقة ، يمكن أن توجه لعمل ايجابي أو جهد خلاق .

ومن هذا التعميم يصبح التغريب أو التحديث غير المنبثق عن الجذور والأصالة عبئاً على التنمية ، ونمطاً للتغير يوقف - بالمنطق وبالواقع - حركة التطور الايجابي والنمو السلس .

وإذا كانت البيروقراطية بالمعنى الدارج ، وسوء الإدارة مثلاً ، احدى السمات الشائعة والأمراض المعوقة لحركة دول العالم الثالث في العصر الحديث ، فهذه البيروقراطية ، وهي بالمناسبة ليست احتكاراً للعالم الثالث ، مع تفاوت في المستوى ، نتيجة حتمية لتفاوت مواءمة الثقافة والتعليم ، وتفاوت ترابطهما ونتيجة للاستخفاف بالأصالة وهوانها وحجبها البيروقراطية بالمعنى الدارج وسوء الإدارة مثلاً هي صعوبة اتخاذ القرار ، والتخبط والتناقض في البت ، وعدم الاهتمام بربط القرار بآثاره ، والتأكيد على النظرة الجزئية والمراحل ، وغيبة النظرة الكلية ، والسلبية بالنسبة للعمل والعاملين والمجتمع ، وتأكيد معاني اليأس والقعود والفردية ، والتشرذم .

وكمثل آخر من السمات الشائعة في دول العالم الثالث ، المرتبطة بعدم مواءمة الثقافة والتعليم وعدم ترابطهما ، هو صعوبة القيادة . وفي صياغة أخرى : تناقضات الظروف التي تتم فيها القيادة ، وعدم ترابطها ، وبمنظور آخر : غيبة القيادة القادرة .

وكلما تخلف مجتمع صعبت قيادته ، وان سهل التحكم فيه . والحديث هنا عن قيادة نحو انجازات ايجابية وعطاء حضاري ، وعن تحكم يضعف التلقائية ويعجز عن الفعل .

ذلك أن القيادة الناجحة هي عملية تعليم بالدرجة الأولى . والقائد السياسي المحنك هو أولاً وقبل كل شئ ، معلم موهوب صقل مواهبه وتعلم باتقان مستلزمات التعليم ، وتمكن من شرائط التعلم .

وفي الثقافة المتوائمة لا يحتاج القائد المعلم إلى تركيز القوى أو الصلاحيات بين يديه ، فهو قـادر على نقل وجهـة نظره ، وهي قـابلـة للتعـديـل والتطـوير ، وهم قـادرون على تقبلها وقبولها أو تعديلها وتبنيها كما هي أو بعد تعديلها باعتبارهـا وجهتهم جميعـاً ، وبـذا يتحرك الجميع حركة مطردة متناغمة .

والمجتمعات المتخلفة في العصر الحديث مجتمعات غير متوائمـة ثقـافيـاً ، وهي تفرز قيـادات محدودة الكفاءة ، بمستوياتها المتفاوتة ، ويسمح لها تفككها بأن تكون في مقدمته . وعنـدمـا تعجز القيادة عن التفـاهم والاتصـال يفقـد التقبل من الجمـاعـة ، وعنـد ذلـك امـا أن تعرقل المسيرة ويرتفع التوتر ، واما أن تطالب القيـادة بمزيـد من الصلاحيـات واطلاق اليـد ، أي اتخاذ قرار لا يشارك فيه الآخرون ولا يهم اعتراضهم عليه . وبـذا تزيـد الفجوة بين القيـادة والجماعة ، وتضطرب أحوال المجتمع وتهن قواه ، ويقل عطـاؤه ، وينهمـك المجتمع في صراعـات داخلية ، وقضايا جانبية ، وتوتر وضياع .

١٣ – بعد كل هذا وفي اطـار الحـديث عن المواءمـة في الثقـافـة والتعليم والهويـة ، لابـد من وقفـة – ولو قصيرة – عن الإسـلام والعروبـة . والإسـلام بـالنسبـة لأمـة تـدين بـه هـو هـويتهـا الثقافية ، ومنطلق عطائها الحضاري الذي يتحدد على أساسه وأساسها مكانتها بين الأمم .

وبدهي أن الإسلام يقبل من أبناء القوميـات المختلفـة دون فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى . وعندما يدين ويلتزم به أبناء قوميـة معينـة ينفعلون بـه ، فلا يكون لهم رسـالـة غيره ، وان اختلفت صيغـة العطـاء الحضـاري بحكم حـدود قـدراتهم الأصليـة أو المكتسبـة ومقـومـات وخلفيـات تميز الأقـوام بعضهم عن بعض . ومن هـذا المنطلـق فـان القـوميــة لا تتعارض بالضرورة مع الإسلام ، ولا تتنافس معه ، ولا تتقاسم معه ولاء اتباعه ، طالمـا كان الالتزام الـديني والثقـافي والسلوكي بـالإسـلام يمثـل تـوجهـاً لا يعترض بـل يتضمن ، كـواقـع وحقيقة ، مشاعر انتماء الأفراد إلى القومية التي ينتمون إليها ، في حدود الاطار الإسلامي .

وطريق الإسلام يتضمن النظرة الدينامية إلى الحياة على أساس :

(أ) الإيمان بالله ، خالقاً واحداً قادراً على كل شئ عـادلاً ورحيماً وذا فضل عظيم ، وفعـالاً لما يريد ، واليه وحده يرجع الأمر كله ، سبحانه وتعالى .

(ب) ان الدين الإسلامي رغم اتساع مداه ومجالاته له ملامحه المحددة وقسماته الواضحة كما نزلت في القرآن الكريم وبينتها سنة الرسول ﷺ .

(جـ) ان الحياة لها معنى وغاية وهدف وهي ملك لله (**وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون**) (سورة الذاريات : ٥٦) ، والعبادة هنا أوسع من الشعائر ، بل إنها تشمل السعي لتحقيق أمر الله عز وجل . وإن المرء يثاب على هذا السعي ، ويتحمل مسئوليته في تحديد نوع السعي وكمه ، وقراءة هذا الأمر في آيات القرآن الكريم وأوامر الرسول ﷺ واجتهادات الصحابة والتابعين والعلماء ، والجمهرة من العامة من المستنيرين الملتزمين .

(د) ان الحياة مستمرة بعد الموت ، وإن السعي في الأرض لتعميرها وتطويرها وكشف حجبها ، وتحقيق تسخير مواردها ، وتوسيع آفاق العلم بعناصرها ، والتصرف بها وفيها ، وتطوير النفس لمزيد من النمو في تحقيق قدرات أكبر على ذلك ، كل ذلك يرتبط بالعلم بوجود الحياة الآخرة والحساب . (**أيحسب الإنسان أن يترك سدى**) (سورة القيامة : ٣٦) .

وعلى ذلك فواجب المسلم أن يعمل للآخرة وهو يعمل للدنيا ، وأن يعمل للدنيا وهو يعمل للآخرة . وأن الحياة الموقوتة على الأرض ليست نهاية المطاف .

(هـ) في ضوء ما سبق وفي ضوء أن الإيمان بالله مرتبط بالسلوك ، يكون لهذه المعتقدات انعكاسات سلوكية في :

١ - علاقة الفرد بالفرد .

٢ - علاقة الفرد بالجماعة .

٣ - علاقة الجماعة بغيرها من الجماعات .

وهذا ما يعنى به التشريع الإسلامي .

(و) ان الإنسان مسئول عن عمله ، ومخير ضمن نطاق ما يستطيع .

(ز) حياة الإنسان وفكره ، رجلاً أو امرأة - عندما يخطئ وعندما يصيب - مصونة وآمنة ، وهو مسئول عنها . كذلك فان ، كرامته والعدل معه واجب وحق . الانسان حر ومسئول .

وإذا كان هذا التصور السهل للإسلام مقبولاً ، فالإسلام :

- يشكل تحدياً لأي فكر ينظر إلى الحياة على الأرض ، باعتبارها الغاية النهائية .
- يشكل تحدياً لأي فكر ينظر إلى الحياة باعتبارها قضية مادية فحسب .
- يشكل تحدياً لأي فكر ينظر إلى الحياة نظرة جزئية .
- يشكل تحدياً لأي فكر ينظر إلى الحياة على أنها عبث لا طائل تحته - وليس بعدها شئ .
- كما يشكل تحدياً لأي فكر ينظر إلى الحياة باعتبارها مجرد إعداد للحياة الآخرة ، وأنه يجوز الاستهانة بها واهمالها ، والقعود عن السعي الطبيعي فيها ، واتقاء التعامل مع عناصرها وناسها . (**يابني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون**) (سورة الأعراف : ٣١ ، ٣٢) .

(**هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور**) (سورة الملك : ١٥) .

وإذا كان الإسلام يشكل تحدياً لهذه الأفكار فليس بمستغرب أن تمثل هذه الأفكار تحدياً له ، وإذا كان القرن العشرون قرن سيادة الحضارة الغربية ، بالأسس التي تقوم عليها ، والتي أشرنا اليها ، فيكون هذا هو مضمون الحوارات الشهيرة بعنوان « الإسلام وتحديات العصر ، أو تحديات القرن العشرين » .

ومن هنا نجد أن كلمة « تحدي » ليست أفضل التعابير فالتحديات المتبادلة هي صميم الصراع وهي سمة أية حياة طبيعية . دون وجه للاستنكار أو الاستغراب .

والصراع بين ثقافة الإسلام والثقافات الأخرى حدث منذ قام ولم يتوقف ولن يتوقف .

١٤ - والقضية إذن ليست قضية الاشفاق من الصراع الحضاري الحادث ، ولكنها البحث حول مقومات النجاح في هذا الصراع .

وأهمية النجاح في الصراع الحضاري قضية تهم المسلم ، لأنها ترتبط بوجوده ، لأنها ترتبط بهويته .

ومن غير المعقول أن تكون أدوات النجاح في مثل هذا الصراع : الاشفاق ، أو اليأس ، أو الشك البالغ ، أو الاتجاه نحو التحلل من الهوية ، أو الاندفاع نحو الثقافة الأخرى ، غربية كانت أو غير ذلك .

وإذا كان الغزو الثقافي أحد معالم الصراع المعاصر ، فان التعامل معه لا يكون باهماله ، ولا بالاستسلام له ، أو الهلع منه وانكاره ، بل يكون مدخل التعامل مع هذا الموقف هو : الأمل والثقة بالنفس الذي يقوم على أسس موضوعية ، وليس أحاديث الأماني ، وأحلام اليقظة ، وفي السعي لتوثيق الصلة بالله عز وجل ، والسعي لمزيد من التعرف على الإسلام والعلم به ، والتفقه والتفكر فيه ، وتميز الحقائق الإسلامية عن الانطباعات والخرافات ، والنظر المتفرس المقيّم في قضايا الحياة المعاصرة ، وتنقية الساحة من المشكلات المستوردة غير المواءمة والتفرغ للمشكلات الحقيقية .

وفي مجال العلوم والتكنولوجيا مثلاً يمكن تجلية نظرة إنسانية إسلامية بعيدة عن النظرة الغربية التي تأثرت بتاريخ العلاقة بين العقل والعلم والدين ، فمفهوم مثل « علمانية العلم والمعرفة » في الغرب مفهوم دارج ومبرر إلا أنه لا يقوم على أساس ولا ينبغي أن يمثل قضية في مجتمع مسلم . فالإسلام بعقلانيته لم يصطدم بالعلم ولا بتطوره ولا بتقدمه ، بل أمر بالعقل وبالعلم بل وبتطبيقاته .

(وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون) (الأنبياء : ٨٠) .

(ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبي معه والطير وألَنَّا له الحديد . أن أعمل سابغات وقدر في السرد واعملوا صالحاً إني بما تعملون بصير) (سبأ : ١٠ ، ١١) .

وعندما كان العلم بتطبيقاته في الصناعة والزراعة والانتاج الاقتصادي والثقافي ، فكراً وفناً ، وفي الحرب والسلام والحل والسفر ، عندما كان العلم السائد في العالم صادراً عن أمة الإسلام ، كانت انطلاقته باسم الإسلام ، ولم تكن على حسابه . بل إن الأرجح أن الحركات

العلمية في أوربا ارتبطت في قيامها وتقدمها ، بانفعالها بالفكر الإسلامي ومنطقه ، وليس بمجرد ممارساته . وكان مفهوم التجريب ، واحكام العقل ، وتنظيم الأحكام والتوجه نحو العمران والتحسين ، والتحكم في موارد الطبيعة ، والاستفادة من خيراتها ، والاستمتاع بطيبات الحياة ، في غير خيلاء ولا اسراف ، لرفع مستوى المعيشة ، على أساس من زيادة الانتاج لتوفير الخير واستهلاكه على نطاقات أوسع ، كل هذه المعاني والحقائق كانت معروفة عند بناة النهضة الأوربية الذين تعلموا في الجامعات الإسلامية ، وعرفوا العربية ودرسوا الإسلام بما يتضمنه من هذه الأفكار والمبادئ . وإن الأرجح أن علمانية العلم وحيادية التكنولوجية إذا كان لها وجود بيننا ، فهو وجود مستورد لم يمحص ولم يقيم ولم ينقد .

بل الأرجح أن التبعية العلمية القائمة ، والتخلف التكنولوجي الحادث ، إن هي إلا أثر من آثار هذا الفكر الطارئ على ثقافتنا دون جذور أو روافد .

إن مفهوم التنمية بالنسبة لنا لا يمكن أن يكون مجرد الزيادة في الانتاج أو الدخل بل يجب أن يكون متوائماً مع احتياجات مجتمعنا وتطلعاته من ناحية وامكاناته ومقوماته من ناحية أخرى . وسئولية الجامعة واضحة في تحديد ثقافة المجتمع وتطلعاته في ضوء هويته ، ثم محاولة استشراف خطى المستقبل .

وعلى هذا الأساس فان قضية التنمية المتوائمة ليست قضية بسيطة ولا ثابتة ، لأنها لا تمثل طريقاً مطروقاً ، بل نهجاً مستحدثا مليئاً بالكثير من الغموض في الرؤية .

ومفاهيم التنمية ونماذجها تتغير بتغير أهدافها وصيغها . ومهمة الجامعة في هذا المجال تتضمن تحقيق عناصر المواءمة بين المجتمع والتنمية ، وتحديد مساره لتحقيق الالتحاق بالعصر والسير المطرد قدماً الى الأمام ، مع الحفاظ على هوية المجتمع ، حيث أن أية حركة تفقد معناها إذا تنازلت عن الحفاظ عن هويتها .

١٥ - إن الهوية التي نتحدث عنها مثل المواءمة مفاهيم دينامية بالضرورة . فالهوية ليست تشبثاً بالماضي ، وليست عداء لصيغ معاصرة يمكن أن نتفاعل معها كما يمكن أن نؤثر فيها .

فالعالم اليوم يتجه إلى التميز والتقارب ، بالمعنى الحضاري ، في نفس الوقت ، مما يكسب الصراع الحضاري المعاصر أبعاداً جديدة عندما نصر على هويتنا الإسلامية العربية الدينامية المتميزة في الوقت الذي نحيا فيه على مائدة تكنولوجيا الغرب . والواقع أن أية حضارة تستمد

قيمتها من قدرتها على العطاء الحضاري فاذا كان العطاء الحضاري للثقافة الغربية ملموساً ولايمكن ولا يصح إنكاره ، فان قدرتنا على العطاء الحضاري في مثل هذا الواقع قابلة للتطوير والبروز ، ليس بما يبرر استمرار وجودنا فحسب ، بل بما يدعونا الى أن يكون لنا دور اثرائي في حركة الحياة الغربية التي تقف عاجزة أمام كثير من تساؤلات الفكر الجاد .

وبهذا المعنى يكون للتنوع الحضاري القائم والمحتمل معنى بالغ القيمة والأهمية .

وإذا كانت جامعاتنا العربية المعاصرة نتاجاً غربياً أكثر منها نتاجاً لتطور حضاري أصيل ، فان النظرة المستقبلية لجامعة الخليج يجب أن تتفادى آثار سلبيات هذا الاتجاه ، مع وضوح في اتجاهها نحو تكوين جامعة عصرية وأصيلة في نفس الوقت ، وإذا كانت الحضارة التقدمية الجديدة - العربية الإسلامية - الموازية والمتميزة والمتعاملة في نفس الوقت مع الحضارة الغربية ، تستمد أهميتها مما تستطيع أن تقدمه ، فان طبيعة الصراع الحضاري يمكن أن تكون صراعاً غير عدواني ، بمعنى ألا يقصد الى انتصار يؤدي الى القضاء على الطرف الآخر . أو أن يقصد الى حسمه بمعنى بقاء حضارة وحيدة ، بل توازن يقود الى صيغة جديدة من صيغ السلام المتجدد الحي القادر على الاعتراف بالعطاء الحضاري للحضارة الغربية دون الاستسلام والانصهار فيها .

ودور الجامعة هنا أن تبلور ، من منطلق أصالتها وثقتها في هذه الأصالة ، ملامح تطبيقات متطورة للثقافة العربية الإسلامية الديناميية المعاصرة . وإذا استطاعت جامعة الخليج أن تفعل ذلك فقد أثبتت وجودها بحسم نادر . ويكون عطاؤها حينئذ في تقديم ثقافة بديلة تكون عنصر اثراء للجميع بمجرد صياغتها ، وذلك بالتعبير عن وجودها الذي يتجه الى ازدهارها وازدهار الانسان .

وتكون الجامعة قد تجاوزت الأحاديث الطويلة في نقد الحضارة الغربية مع استمرار الدوران في أفلاكها . وإذا كانت الحكمة تؤكد على أن تقود الإرادة القدرة فعلى الإرادة ، وهي تفعل ذلك ، أن تكون ضمن نطاق هذه القدرة .

إن حقيقة الجامعة تستمد من ضروريتها ، وضروريتها معناها قدرتها على تقديم شئ لا تقدمه المؤسسات الأخرى ، أو لا تقدمه بنفس الكفاءة . وإذا كنا نتحدث عن جامعة الخليج كجامعة لا تكرر ولا تنافس ، بل كعنصر إثراء للجامعات القائمة في المنطقة ، بل مجال

العطاء العربي الإسلامي للمجتمع الجامعي الدولي الكبير ، فالمطلوب من هذه الجامعة العصرية الإسلامية الهوية ، العربية الجنسية ، أن ينعكس في برامجها ومناخها وتوجهها ، هذه العناصر كما تؤكد بالضرورة على بعدها العالمي .

والواقع أن العالم المعاصر قد تبين بجلاء أن الجامعة التي لا تحافظ على بعدها العالمي المتوائم بالضرورة مع وضوح هويتها وقسماتها ، هذه الجامعة لا تسقط إلى مستوى المحلية والإقليمية فحسب ، بل تتردى خطوة خطوة في برامجها التعليمية والبحثية ، مهما حسنت النيات المعلنة .

إن الجامعة الحقيقية - تميزاً عن الجامعة الشكل - جامعة حية لها مضمون وقدرة وهي لا تطيق عزلة العلم ولا التعليم ويصدق ذلك بالنسبة لجامعة الخليج كما يصدق على جامعات الشرق والغرب جميعاً .

وكما قد يعني ذلك تبعية الأضعف ثقافياً للأقوى ، فان الحالة التي نحن بصددها ليست كذلك ، إلا أنها تحتاج إلى تجلية ثقافتها المتميزة وايجاد الصيغ التطبيقية والسلوكية لها . وهي عندئذ مصدر للعطاء والاثراء ، وصيغة للاحتكاك الحميد ، والتحول العاقل ، بدلاً من الصراع المدمر لقوى تكون رغبتها في الفوز الضيق الأفق أكبر من الرغبة في التقدم نحو الأفضل .

١٦ - والجامعة قد تكون مؤسسة للماضي كما يمكن أن تكون مؤسسة الحاضر أو المستقبل ويتوقف ذلك على حقيقة دورها . وإذا أرادت جامعة الخليج أن تكون جامعة المستقبل فعليها من منطلق جذورها الضاربة في أعماق تاريخ الحضارة أن تنظر إلى المستقبل لتكون أحد عناصر تشكيله والإعداد للتعامل معه . وأن تعلم أن الجامعة لا تستطيع وليس من مهمتها أن تجهز الخريج لعمل معين ، وإلا أصبح على التعليم الجامعي أن يعد برامج شخصية وجامدة لكل طالب وهذا أقرب إلى مهمة مركز تدريب منه للجامعة . ولكن على الجامعة - كمجتمع - أن تعد برامجها ومناخها لتتاح للخريج أفضل الفرص ليكون قادراً على سرعة اتقان مهام عمل محدد ، بالإضافة إلى القدرة على سرعة تطوير نفسه لعمل آخر ، عندما يستدعى الأمر ذلك ، أو عندما تتطور ظروف العمل وامكاناته .

على أن من مهام الجامعة المتطورة أن تدخل في برامجها البرامج التدريبية والتجديدية

وبرامج الخدمة العامة لمساعدة الخريج على التطور بنفسه وتجديد امكاناته . ولقد كانت هذه المهمة مسئولية الخريج وحده حتى الماضي القريب . ولكن تحقيقها اليوم يزداد صعوبة بدون هذه البرامج . وليس الحديث هنا مقصوراً على برامج مهنية تخصصية فحسب فان التطورات السريعة حتى في حقول أساليب البحث وتصميماته والأجهزة بل وطرائق التدريس والاتصال ، تجعل الساحة التي نتحدث عنها تتسع لتشمل حتى عمل استاذ الجامعة ومهامه .

وهكذا يتبين كل يوم أن المعرفة التخصصية يحتاج نموها وتطورها إلى خلفية بشرية عريضة يدخل فيها المعلومات والمعارف والاتجاهات والقيم والمهارات والسلوكيات ، وهذا يقود إلى تأكيد ما سبق ذكره من أهمية التربية الحرة المنبثقة عن الثقافة الإسلامية العربية ، والتي تنفتح ، انتقائياً ، على التربية الحرة بالمعنى الغربي أيضاً ، طالما بقيت الملامح الحالية للحياة العصرية السائدة اليوم ، والثقافة المتنوعة والاهتمام والفضول وحب الاستطلاع في المجالات المتعددة .

إن جامعة الخليج التي تستمد حقيقيتها من ضروريتها جامعة تحتاج إلى أن تتوجه إلى المستقبل وهي تعرف دورها في الصراع الحضاري ، ومن هذا الدور تحدد دينامياً - برامجها لخدمة المجتمع العربي والخليجي والمساهمة في تأكيد هويته وهي تجهز طلابها وأساتذتها لمسئولياتهم التي يتصدون لحملها ، وهي مسئوليات يمليها طموح عال وآمال عراض . أما إعدادها لطلابها فهو إعداد لقادة قادرين ، مع العناية بالموهوبين منهم خاصة ، على تولي مسئوليات متخصصة ومتطورة في نفس الوقت على أساس تركيز الجامعة على مساعدة طالب العلم على التعلم والنمو أكثر من التعليم ، كما تضفي على قيادتهم شعوراً أصيلاً بالانتماء العربي والالتزام الإسلامي . ومعيارها في جودة أساليب الإعداد فيها هو مدى تمكنها من تحقيق أهدافها ، ومدى تقبلها لتعديل مساراتها نحو أهدافها .

كما أن مسئولياتها تتضمن أيضاً اقامة مجمع من العلماء والباحثين يستطيع أن يستشعر الخبرات التي يتطلبها المجتمع ويرتب للحصول عليها والتطور بها .

وهي قبل ذلك وبعد ذلك مجتمع تتسم تفاعلات أفراده بالإيمان ، والتقوى ، والتجرد ، والثقة ، والقدرة على العطاء الحضاري المتواصل .

١٧ - ان مرحلة قيام الجامعة مرحلة حاسمة باقية الأثر . وان الأعمال العظيمة لا تبدأ كاملة ولكنها تبدأ تامة ، والعمل العظيم لا يبدأ كبيراً ولكن يبدأ جيداً .

التنشئة الاجتماعية الأسرية
للطفل القطري

الأستاذ الدكتور
فاروق محمد العادلي
أستاذ بقسم الاجتماع

حول تعريف التنشئة الاجتماعية وأهمية موضوع البحث :

ترجع أهمية عملية التنشئة الاجتماعية إلى أن البناء الاجتماعي يهدف إلى تحقيق التوازن بين التأثيرات الثقافية وأساليب الضبط الاجتماعي لدى الأفراد أعضاء البناء ، وإلى إيجاد التوافق بين حاجات الشخصية ومطالب البناء الاجتماعي ، وإلى إيجاد نوع من السلوك يحقق رغبات الأفراد ويرضى عنه الآخرون . وينيب البناء عنه الوالدين منذ الميلاد لتنشئة الصغار تنشئة اجتماعية ، ولتكوين بيئة اجتماعية تحيل الطفل من كائن عضوي إلى كائن اجتماعي[١].

وعملية التنشئة هي عملية تعلم بالمعنى العام . وتهدف إلى إعداد الطفل ثم الصبي ، فالراشد للاندماج في أنساق البناء والتوافق مع المعايير الاجتماعية المقبولة ومطالب الأدوار الاجتماعية واكتساب قيم المجتمع . ومن هنا تدل التنشئة الاجتماعية على « العملية الكلية التي يُنمّي بها الفرد الذي يولد ولديه إمكانيات هائلة ومتنوعة ، سلوكاً فعلياً مقبولاً لديه ، ومعتاداً وفق معايير الجماعة التي ينتمي إليها »[٢].

ويرى تالكوت بارسونز Talcott Parsons عالم الاجتماع الأمريكي الشهير أن التنشئة الاجتماعية هي عملية « تعلُّم » تعتمد على التلقين والمحاكاة والتوحُّد مع الأنماط العقلية والعاطفية والأخلاقية عند الطفل والراشد ، وهي عملية تهدف إلى إدماج عناصر الثقافة في نسق الشخصية(٣). والتنشئة عملية مستمرة تبدأ من الميلاد داخل الأسرة وتستمر في المدرسة ، وتتأثر بجماعات الرفاق ونسق المهنة . ومن ثم تستمر عملية التنشئة الاجتماعية باتساع دائرة أنساق التفاعل كلما كبر المرء . فالتنشئة الاجتماعية عملية تبغي تحقيق التكامل في مجموعة من أنساق التفاعل والتوحُّد مع العناصر الثقافية والاجتماعية . ويستخلص بارسونز من هذا أن عملية التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة لا نهاية لها ، تعبّر عن نشاط البناء الاجتماعي . فالبناء الاجتماعي يضغط على الشخص لكي يتكيف مع الآخرين ، ويتعلّم كل يوم شيئاً جديداً(٤).

ويستبين لنا من تفسير بارسونز لعملية التنشئة الاجتماعية أن الوالدين أثناء تفاعلهما مع الطفل في المواقف المختلفة لا يقومان بأدوارهما الشخصية ، بل يؤديان أدواراً ينظمها المجتمع ، كما لا يحكم سلوكهما قيم شخصية ، بل يمثلان قيم المجتمع السائدة أثناء تفاعلهما مع الطفل . والموقف الذي تتم فيه عملية التنشئة الاجتماعية ، موقف مستقر منظم ، نظمه الأبوان حسب ثقافة المجتمع ، ويتقبّله الطفل . وحصاد التفاعل الاجتماعي المستمر في مواقف التفاعل المنظمة ، وهو حصاد عملية التنشئة الاجتماعية ، شخصية تتوحَّد مع الأهداف الثقافية والمعايير الاجتماعية في المواقف المنظمة . ويذهب بارسونز إلى أن عملية التنشئة الاجتماعية عملية مستمرة ، ولكنه يؤكد كما أكد عدد آخر من العلماء ، على أن سنوات الطفولة المبكرة (الست سنوات الأولى) هي أهم سنوات التنشئة في تكوين الشخصية ، لأن الطفل في هذه المرحلة لا يعدو أن يكون عجينة خام ، تشكلها الأسرة حسب القيم وأشكال السلوك السائدة . كما أن العناصر المتعلّمة في فترة الطفولة هي أكثر العناصر الاجتماعية المكتسبة استقراراً(٥).

ولا شك في أن الوظيفة الظاهرة Manifest function لعملية التنشئة الاجتماعية هي تدريب الطفل على أداء أنماط معينة من السلوك ، والتي يرضى عنها المجتمع ، ويتخذها الشخص دعامة لسلوكه طوال الحياة . أما وظيفتها الكامنة Latent function فهي توحُّد الطفل مع مجموعة من الأنماط الثقافية للمجتمع تعرف باسم (القيم الاجتماعية) التي يتكون منها البناء الأساسي للشخصية .

ويعرّف قاموس الاجتماع (فيرتشيلد) القيم الاجتماعية بأنها « مواضيع Objects تتعلق بها النفس ، وتشعر بالحاجة إليها ، أو باستحسانها ، أو بضرورتها . وقد تكون هذه المواضيع حيَّة ، أو غير حيَّة ، مصنوعة أو غير مصنوعة . والمهم أنه يوجد اتفاق على أهميتها في المجتمع »[٦].

والقيمة الاجتماعية Social Value هي كل ما يستثير في مجتمع انساني اهتماماً عامًّا ، سواء كانت القيمة متمثلة في موضوع حسِّي ملموس ، أو في صفة معنوية مستحبَّة . ومن شأن القيمة الاجتماعية أن تسد حاجة اجتماعية حيوية ، أو ترضى اتجاهات نفسية عامة في عدد كبير من الأفراد . والشعور نحو القيمة والاهتمام بها يتصف بالديمومة وبالاستمرار النسبي . ويتمثل هذا الاهتمام في وجود قواعد سلوكية تبيِّن كيفية التعبير عن أهمية القيم ، مع وجود جزاءات[٧] Sanctions (مثوبات وعقوبات) الأولى لمن يحترم القيم والثانية لمن ينتهكها ، ووجود رموز اجتماعية يتم بها التعبير عن احترام هذه القيم واكتسابها[٨].

ويتضح من العرض السابق أهمية الموضوع الذي نتصدَّى لدراسته . وتنبع تلك الأهمية من خطورة دور التنشئة الاجتماعية كميكانيزم لنقل الثقافة وبقائها ، مما يؤكد ويبرز أهمية دراسة التنشئة الاجتماعية كجزء هام من ثقافة الجماعة الإنسانية . هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإنه لا يخفى ما للتنشئة الاجتماعية - وخصوصاً في نطاق الأسرة - على الشخصية ذاتها ، حيث تجعل الفرد يساير مطالب ثقافية محدَّدة، مما يؤدي في النهاية إلى مسايرة «لشخصية منوالية» تميز جماعة بعينها . وهكذا تكون الأسرة عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية مسئولة مسئولية شرعية عن تكوين الطابع القومي للشخصية . وبالتالي تكون دراسات التنشئة بما تحويه من ضرورة توحُّد الطفل مع قيم مجتمعه مقدمة لاستنتاج الخصائص العامة المميزة لنمط الشخصية السائد Predominant أو الأكثر شيوعاً في المجتمع . أي الذي يطلق عليه سوسيولوجيا مصطلح الشخصية الأساسية Basic personality ، أو الشخصية القومية National character إذا كان المقصود بذلك الشخصية الأساسية لشعب أو أمة . ويقترح عالم النفس كورا دي بوا Cora du Bois مصطلح الشخصية المنوالية[٩] Modal personality مستفيداً من المفهوم الإحصائي للمنوال ، على أساس أن الشخصيات الاجتماعية في مجتمع معين ، تكثر نماذجها المشتركة وتتلاقى في شخصيات عامة . وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجيا لهم منهجهم في هذا الصدد الذي يقوم على فهم الثقافة ككل ، والنظم الاجتماعية التي تحتويها ، ومنها يستخلصون أو بالأحرى يركِّبون Synthesize نمط

الشخصية الأساسية ، ثم يتحققون من وجود هذا النمط في الحياة الفعلية . وهنا يجدي كثيراً أن يتعاون علماء النفس والأنثروبولوجيا والاجتماع في دراسات التنشئة والقيم . وذلك ماتحقق بالفعل ، كما نجد على سبيل المثال من تعاون عالم الاجتماع والأنثروبولوجيا رالف لينتون Ralph Linton مع عالم النفس ابراهام كاردنر(١٠) Abraham Kardiner .

دور التنشئة الاجتماعية الأسرية في نقل الثقافة وبقائها :

يمكن تعريف الثقافة بأنها أساليب السلوك النمطية التي يتعلمها المرء من خلال عضويته في جماعة اجتماعية . وهذه الأساليب السلوكية عبارة عن نظم وأنساق تسهل على الفرد عمليات التكيف العديدة مع مواقف الحياة المختلفة(١١).

تلعب الأسرة دوراً بارزاً من أجل نقل الثقافة والإبقاء عليها ، عن طريق عملية التنشئة الاجتماعية والثقافية . وتكمل الجماعات والمؤسسات الأخرى الرسمية وغير الرسمية وظيفة الأسرة في هذا الصدد . ولاشك أن الوظيفة الحقيقية للأسرة ذات طابع تربوي في المقام الأول بما تتضمنه من عمليات الترويض والتنشئة والصقل الاجتماعي لأفرادها . وتتمثل تلك الوظيفة في بناء وتكوين الشخصية الثقافية الاجتماعية للإنسان في إطار جماعة صغيرة ، تتميز علاوة على هذا بأن أفرادها تجمع بينهم مشاعر وأحاسيس شديدة الألفة والقوة . ويوضح لنا تراث الأنثروبولوجيا الثقافية بجلاء أن الإنسان لايستطيع أن يعيش بعد مولده أكثر من ساعات قليلة دون مساعدة الغير ، وذلك على خلاف أغلب الفقريات العليا التي التي تولد شبه « جاهزة » أو مستعدة للحياة معتمدة على نفسها دون مساعدة كبيرة من ذويها . ويقرر مالينوفسكي Malinowski بوضوح أنه « كلما ارتقى الحيوان في مدارج التطوُّر ، كلما زاد عجز الوليد الصغير وازدادت حاجته إلى رعاية وتدريب طويل من والديه »(١٢).

ويخضع البناء البيولوجي للإنسان إذن للظروف والاعتبارات الاجتماعية التي تصيغه وتكيفه . وهنا تبدأ الوظيفة الحقيقية لجماعة الأسرة ، والتي لم يكن هناك أي مؤسسة أو نظام آخر يستطيع أن يحققها ولا حتى بشكل جزئي ، خاصة في فجر الإنسانية .

ولهذا السبب ينتهي عالم الاجتماع الألماني الشهير « رينيه كونينج » René Köning إلى القول بأن الميلاد البيولوجي للفرد ليس هو الأمر الحاسم في وجود واستمراره ، وإنما العامل الحاسم هو

« الميلاد الثاني » أي تكونه كشخصية اجتماعية ثقافية ينتمي إلى مجتمع بعينه وتدين بثقافة بعينها . والأسرة بطبيعة الحال هي صاحبة الفضل في تحقيق هذا « الميلاد الثاني »[١٣] The Second birth

وتتم عملية تكوين وإعداد الشخصية الإنسانية للحياة في المجتمع على مرحلتين أساسيتين هما :

(أ) مرحلة التهيئة أو تنسيق القوى والاستعدادات البيولوجية والنفسية وغيرها ، بحيث يصبح الفرد مهيئاً لعملية التنشئة الاجتماعية أو التطبيع الاجتماعي Socialization .

(ب) عملية التنشئة الاجتماعية ذاتها .

ومن العناصر الأساسية التي تقوم على تحقيقها مرحلة التهيئة للتنشئة الاجتماعية تنمية القدرات الأساسية - التي تكون في حالة كمون أو قصور عند الولادة . وكذلك بذر البذور الأولى لثقة الإنسان في نفسه وتكوين إيقاعات الحياة الأساسية التي يختلف شكلها اختلافاً بعيداً من ثقافة لأخرى (كالجوع ، والعمل ، والاسترخاء ، والنوم ، والعطش ، والأمن الجسمي والنفسي ... الخ) . وكذلك تدريب الفرد على النظافة بمفهومها الواسع . وتعد العملية الأخيرة من أصعب عمليات التهيئة لما تنطوي عليه من تنظيم عمليات إخراج البول والبراز . ويضطلع بالدور الأكبر - وربما الوحيد - في إنجاز مرحلة التهيئة هذه والإشراف عليها الأم . وقد قام عدد كبير من علماء الأنثروبولوجيا الثقافية منذ ثلاثينيات هذا القرن ولاسيما في الولايات المتحدة الأمريكية ببحوث هامة حول هذا الموضوع ، ومن أشهرهم في هذا المجال رالف لينتون Ralph Linton وكلايد كلاكهون Clyde Kluckhohn وهنري موراي Henry Murray وديفيد شنيدر[١٤] David Schneider .

وتمثل المرحلة الثانية صلب عملية التنشئة الاجتماعية الحقيقية ، والتي تعدُّ إيذاناً بدخول الفرد عالم العلاقات الاجتماعية المنظمة . وهنا يبدو بأقصى درجة من الوضوح مدى ضخامة وتنوع تأثير الأسرة على الفرد . وتلخص علياء شكري هذه العملية بقولها :

« إن أعماق طباع الفرد وشخصيته تتكوّن في نطاق الأسرة الضيق ، أي في مجال العلاقات بين الطفل ووالديه واخوته وأقاربه المقربين الذين يشاركون الأسرة معيشتها داخل نفس البيت »[١٥].

وهكذا تتولّى الأسرة الطفل بالترويض على أن يكون كائناً اجتماعياً ومواطناً فاضلاً ، فتعلمه لغة الجماعة وعاداتها وعرفها وتقاليدها . وتكمل الجماعات الأخرى « حلقات اللعب ، الزمالة ، المدرسة ، الجمعيات والهيئات » وظيفة الأسرة في تنشئة الأفراد .

ويختلف الأفراد في مبلغ قابليتهم للاندماج في حياة الجماعة باختلاف التربية التي يتلقونها في الأسرة والجماعات التي تحيط بهم في نشأتهم الأولى . وهذا يفسّر لنا أن بعض الأطفال ينشأون اجتماعيين Social وبعضهم الآخر غير اجتماعيين Anti-Social .

وخلاصة القول أن الطفل يولد في أسرة تعطيه مكانته في المجتمع . ومنذ لحظة ميلاده ، وقبل أن يستطيع القيام بأية أفعال من جانبه ، يوجد في مجتمع ، وينتمي لطبقة معينة ، وينتسب لجماعة عرقية مسيطرة أو تابعة ، ويصبح عضواً في أسرة يحترمها جيرتها أو تحتقرها . وتؤثر أسرته ووضعه في هذه الجماعات العرقية على الخبرات التي سوف يكتسبها عندما ينضج . وسوف تحدّد أسرته ، إلى درجة واضحة جداً ، الفرص المتعلقة بالتنشئة الاجتماعية بالنسبة له . ومن ثم يتضح أن الأسرة جماعة هامة في حد ذاتها تمارس تأثيراتها المباشرة على الطفل[١٦].

وخلال مختلف أنواع التفاعل بين أعضاء الأسرة - ككون الطفل شخصاً يهتم به ، أو يتعلّم النظام ، أو يقبل كزميل أو رفيق في اللعب ... الخ ينمّي الطفل قدراته الأولى لإقامة علاقات مع الآخرين . وسوف تجد تلك القدرات فيما بعد تعبيرات وتطورات تالية في العلاقات الأسرية مع رفاق اللعب ، ومع العمال والموظفين ، ومع الشخصيات التي تملك السلطة ، ومع الأصدقاء ، وأخيراً مع ذريته وأبنائه .

والأسرة التي يولد فيها الطفل هي الجماعة المرجعية الأولى ، أي الجماعة الأولى التي يشير إلى قيمها ومعاييرها وطرق عملها عند تقييمه لسلوكه . ويتضمن ذلك أن الطفل يثبت شخصيته مع أسرته كجماعة لدرجة أن طرقها تصبح جزءاً من نفسه ، كما قرّر كل من تالكوت بارسونز Talcott Parsons وروبرت بيلز[١٧] Robert Beals . وهذه الطرق تنتج أساساً نتيجة التفاعل بين أعضاء الأسرة ، مما يؤكد أن أفراد الأسرة ليسوا هم الذين يكونون نماذج لسلوك الطفل ذاته . بل إن نمط التفاعل بين الأعضاء أنفسهم بعضهم البعض يصبح نموذجاً . ولا تتأثر التنشئة الاجتماعية للطفل بمجرّد أن له أبا جادًا في عمله أو أباً يتعاطى المشروبات الكحولية ، أو أماً محبة أو غير عابثة ، أو أخوة أو أخوات كبار مستبدين أو متباعدين . وإنما تتأثر التنشئة الاجتماعية بصورة واضحة بما إذا

كان التفاعل في الأسرة يتميز بالهدوء والطبيعة الجيدة أو التوتر والمراهقة ، وعما إذا كانت تتسع أو تضيق المسافة بين الآباء والأطفال أو بين الذكور والإناث ، وبما إذا كانت طبيعة العلاقات والتفاعلات داخل الأسرة تتسم بالتعاون أو التنافس(١٨).

التنشئة الاجتماعية الأسرية وغرس القيم في نفس الفرد(١٩) :

يمكن تحليل هذه العملية الهامة إلى العناصر الثلاث الآتية :

(أ) طريقة إشباع العائلة لحاجات الطفل البيولوجية .

(ب) أثر المعاملة في الحياة الوجدانية للطفل .

(جـ) غرس القيم عن طريق الجزاءات (المثوبات والعقوبات) .

(أ) أثر التنشئة الاجتماعية العائلية وطريقة إشباع حاجات الطفل :

يقول أوجبرن و نيمكوف Ogburn & Nimkoff إن للحياة العائلية أثرها في تشكيل الشخصية الأساسية ، وذلك لأن مرحلة الطفولة الأولى ، يتحدَّد فيها الطابع العام لنوع الاتجاهات الوجدانية ، هل تجعل الشخص سعيداً أو شقياً ، متكيفاً أو سيِّىء التكيف ؟ وتتكون هذه الاتجاهات في السنوات الأولى التي تسمَّى بالفترة التكوينية Formative period . وقد تمت دراسة طرق التربية في شعوب مختلفة الثقافات ، وجرت أسس المقارنة وفقاً للعناصر التالية :

حظ الطفل من الرعاية أو الإهمال ، وما إذا كانت معاملة الأسرة للطفل تتسم بالرقة أو الشدة في الأمور التي لها صلة بنوع المولود (الجنس : ذكر - أنثى) Sex والإخراج Elimination والفطام وما إليها . ذلك أن طريقة معاملة المولود أو الطفل في هذه النواحي هي التي تحدِّد نوع الأنا الذي يتميز بها الطفل : أهو أنا قوي ؟ أم أنا ضعيف ؟ ومعنى هذا أن قوة الثقة بالنفس ، ودرجة الاتزان العاطفي ترتبط بمعاملة الأسرة ، وبما تبديه من حب أو من جفاف في المعاملة .

ويلاحظ أن طريقة إشباع الحاجات البيولوجية للطفل ، تعكس مقدار ونوع ما تضفيه الأسرة من رعاية . ويسهم هذا وذاك في استثارة ردود أفعال نفسية معينة في الطفل ، ينتج عنها نمط معين من الشخصية الأساسية . وعلى سبيل المثال فإن الأم التي تتلقف طفلها ، فتحتضنه ، وتلقمه حلمة ثديها ، وهي تداعبه لا ترضعه لبناً فحسب ، بل تسكب في شخصيته أمناً نفسياً ، وحباً لها ، وتعلقاً بالحياة ، وتبعد عنه شتى مظاهر القلق مثل عصبية المزاج أو حدَّة الطبع أو الخوف أو التوتر ... الخ .

(ب) أثر المعاملة في الحياة الوجدانية للطفل :

إن قيم المجتمع تدخل إدخالاً (بصيغة المجهول) Introjected في نفس الإنسان ، عن طريق التنشئة الاجتماعية من خلال السلطة الوالدية (خاصة من جانب الأم في مرحلة الطفولة المبكرة) سواءً كان ذلك بطرق مقصودة أو غير مقصودة . ولا شك في أن لحاجة الطفل إلى أمه ، ولخدماتها له ، وحنوها عليه ، وإعجابه بها وحبه لها ، دور في تقمصه لشخصيتها ، فهو يحول نفسه موضوعاً يصدر إليه أوامر والديه . ومن مظاهر ذلك على سبيل المثال - أن يمسك الطفل بدميته ، فيأمرها ألا تكشف عن ساقيها ، وأن تكون مؤدبة ، وأن تأمر الصغيرة دميتها أن تنام في الموعد المحدَّد . وباختصار يمتص الطفل السلطة الوالدية ، لتتحوَّل هذه السلطة الممثلة للمجتمع إلى مانسمِّيه نحن بالضمير ، أو ما تطلق عليه مدرسة التحليل النفسي اسم الأنا الأعلى Super-ego أو الذات العليا أو الرقيب Censorship . وبحسب أنواع القيم التي يمتصها الطفل ، والأدوار التي يراها ويحاكيها يكون نوع ضمير الطفل ، ونوع شخصيته والأهم من هذا : طريقة معاملة الطفل وأخذه بالقيم والقواعد السلوكية يكون لها أثرها البالغ في نمط شخصيته ، فحتى حين تكون القيمة المطلوب غرسها واحدة بالنسبة لطفلين : مثل قيمة النظافة ، فإن الاختلاف في أسلوب تربية الطفل تنجم عنه ردود أفعال مختلفة .

● إذا كان ذلك مصحوباً بإشعار الطفل بالاشمئزاز منه والتقزز ، فإن هذا قد يولِّد حالة نفسية كالفزع من القاذورات Misophobia تجعل الشخص البالغ ، يبالغ في النظافة بأسلوب مرضي Pathological فيغسل يده مثلاً بعد مصافحة الآخرين ... الخ .

● وإذا كان تعويد الطفل على النظافة يتم بأسلوب فيه تدرج وتلطف ، شب الطفل متزناً في سلوكه وفي تقديره للنظافة كقيمة .

● وإذا كان في المعاملة تذبذب وعدم ثبات Inconsistency كان الطفل متردِّداً ، مضطرب الاهتمام بهذه القيمة ... الخ . وبطبيعة الحال فإن الأسرة ليست هي وحدها التي تغرس القيم الاجتماعية ، بل تشاركها في ذلك كل الجماعات التي يدخل الفرد في عضويتها أو يكوِّن علاقات مع أفرادها مثل : جماعة اللعب ، جماعة العمل ، والجماعة الدينية ، والمجتمع المحلي ككل . ولكن مما لا شك فيه أن دور الأسرة هام للغاية وبارز بصفة خاصة في مرحلة الطفولة المبكرة ، حيث يتأثر بالجو العائلي وبالمناخ الاجتماعي النفسي الذي يضفيه عليه هذا الجو العائلي ، ولا سيا الجانب الوجداني .

ومن المعروف أن الفرد يستجيب في خبراته بكل جوانب نفسه ، يستجيب فكرياً وسلوكياً ووجدانياً . ولكن أقوى جوانب التأثر فيه ، وأدومها آثاراً في حياته هي حياته الوجدانية . ومن ثم كانت القيم مصحوبة دائماً بشحنة انفعالية قوية ، حيث ترتبط القيم - ولو في تصوراتنا - بالعواطف العائلية وبالولاء للجماعة وبالدين ... الخ ولذلك فإن الشحنة الوجدانية التي ترافق غرس هذه القيم في نفس الفرد ، تكون من شدة الحرارة ، بحيث يصعب عليه أن يضع يديه عليها ، بقصد فحصها في هدوء يتسم بالعقلانية والمنطق .

ويتأثر الفرد في تكوين قيمه وشخصيته الأساسية بنوعين من الخبرات . ويقول في هذا الصدد ايمورى بوجاردس Bogardus :

« إن الاتجاهات النفسية والقيم الاجتماعية تتكوَّن نتيجة للخبرات الشخصية . والخبرة الشخصية هي مايحدث لإنسان في موقف ، مضافاً إلى ذلك مايستثيره الحادث في نفسه من استجابات ، ومن ردود أفعال . والشيء المهم في التجربة الشخصية هو المعنى الذي يسبغه الإنسان عليها ونوع رد الفعل ، أهو ودّي قائم على الحب ؟ أم سلبي عدائي ؟ وما هي التطورات التي حدثت في نفس الشخص وفكره وسلوكه نتيجة لرد الفعل الناتج عن الخبرة الشخصية »[٢٠].

وثمة نوعان من الخبرة يؤثران في القيم التي يمتصها أو يتعلمها الإنسان[٢١] :

(أ) الخبرة المباشرة Direct experience

وهي تجربة ذات طابع شخصي ، أو رد فعل على حادث يقع للشخص ذاته أو لشخص آخر على مرأى منه أو في حضوره . وتأتي الإنسان المعلومات في هذه الحالة عن طريق واحدة أو أكثر من حواسه . فإذا كانت الخبرة أو التجربة مصحوبة بانفعال شديد (كالفرح أو الحزن أو الغضب أو القهر أو الخوف) كان تأثيرها بالغاً فيما يتصل بعملية تكوين الاتجاهات النفسية والقيم الاجتماعية .

(ب) الخبرة المشتقة Derivative experience

وهي التجربة التي سمع الشخص أو قرأ عنها ، أو علم بها من آخر . ونظراً لأن مثل هذا النوع من التجارب يكون أبعد خطورة على الأقل من شعور من يمر رأساً بالتجربة ، فمن المحتمل ألا يتأثر بها الإنسان بنفس العمق والحرارة والانفعال التي يستشعرها نفس الشخص في حالة التجربة المباشرة .

وعلى أية حال ، فإن أخطر عامل في تطعيم الإنسان بالثقافة (بما فيها من قيم وقواعد سلوكية) يعتمد أول مايعتمد على التربية والتنشئة الاجتماعية سواء في نطاق الأسرة أو في غيرها ، والتي تعمل على تكييف الدوافع الفردية مع قيم المجتمع وقواعد السلوكية . وبحيث يمتص الإنسان في النهاية معايير ثقافته ، فيتصرف بعد ذلك وهو يعتقد أنه يسلك السلوك القويم إرضاءاً لضميره وخضوعاً لإرادته الذاتية ، أو بحسب تعبير اريك فروم Erick Fromm :

« إنه لكي تؤدّي أية ثقافة وظائفها بكفاءة عليها أن تحمل أفرادها أن يكتسبوا الخلق الذي يجعلهم يريدون أن يتصرفوا على النحو الذي يجب عليهم القيام به ، وعليهم أن يرغبوا أو يريدوا بطريقة ذاتية أن يتعلّموا ما هو مطلوب منهم أداؤه بطريقة موضوعية » .

ونحن نجد هذا الشرط أشد انطباقاً على البدائيين من المتمدينين أو المتحضرين . فإن الفرد البدائي ليقتل نفسه راضياً ، أو يعرِّض حياته لأشد الأخطار دفاعاً عن جماعته أو معتقداته على نحو وبإخلاص لاتجدها في كل المتمدينين[٢٢] .

(ج) غرس القيم عن طريق الجزاءات الاجتماعية Social Sanctions

تشتمل الجزاءات الاجتماعية على كل من الإثابات والعقوبات ، أي الأحكام الموجبة Positive sanctions (الإثابات) ، والأحكام السالبة (العقوبات) Negative Sanctions . والجزاء بصفة عامة هو عبارة عن رد فعل المجتمع أو عدد من أفراده إزاء أي شكل من أشكال السلوك . وهذا الجزاء كما يرى رادكليف براون Radcliffe-Brown يكون موجباً إذا ماتم الامتثال للسلوك ، ويكون سالباً إذا ماتم الإعراض عنه[٢٣].

والجزاءات الاجتماعية التي تفرض في عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية ليست كلها ذات طابع عقابي ، بل تشتمل على العقوبات المادية والمعنوية ، كما تشتمل أيضاً على المكافآت أو الإثابات . والالتجاء إلى العقوبات المادية بغرض توقيع العقاب على منتهكي القيم هو أدنى المستويات . ولذلك يمكن الرجوع به إلى أصول سلوكية حيوانية ،[٢٤] بحيث أن هذه الطريقة هي التي تلجأ إليها الحيوانات الأدنى من الإنسان . وهكذا نجد مثلاً بين قردة البابون Baboons أن حاكم الحريم المزواج يهاجم أي ذكر آخر يحاول أن ينتزع منه إحدى إناثه .

أما الإنسان فعلى العكس ، يستخدم الجزاءات المادية بصورة أقل ، ويستخدم الجزاءات النفسية والاجتماعية بصورة أعظم كثيراً ، أي هي الغالبة السائدة . ويرجع الفارق بين الإنسان والحيوان في هذا الاختلاف ، إلى أن البشر هم الذين يتميزون بأنهم ينتجون الحضارة ويعيشون بها ولقيمها . بالإضافة إلى أن الإنسان أكثر قدرة على استخدام الرموز Symbols في مجال الاتصال الاجتماعي . وعادة فإن البشر يستخدمون الجزاءات الرمزية أولاً ، ثم لا يلجأون إلى الجزاءات الأخرى إلا إذا فشلت الأولى . وآية ذلك أن تقول الأم لابنها المشاكس محذرة : كن مهذباً وإلا ضربتك . أو إذا لم تكفّ عن سوء السلوك فسأحرمك مصروفك . وكثيراً ما تندمج أنواع الجزاءات الثلاثة (المادية أي البدنية ، والنفسية ، والاقتصادية) . والعقوبة المادية (الجسدية) مثلاً تنطوي في ذاتها على قدر غير قليل من الإذلال النفسي أو العقوبة النفسية ، كما يحدث بين الهنود الحمر (الهوبي) Hopi حين يأتي عم الطفل أو خاله ، فيحمل الصبي أو الطفل سيء السلوك ، ويطوف به في أنحاء القرية ، فيروح القرويون يرشون وجه الطفل بالماء لتقويم سلوكه(٢٥).

كما تعني الجزاءات الاجتماعية نمط الإثابة أو المكافأة ، لمن يتمشى مع القيم الاجتماعية . وتختلط في المكافأة : النواحي المعنوية ، مع النواحي الجسمية أو المادية . وفي كثير من الأحيان لا تعدُّ النواحي المادية شيئاً ذا بال إذا هي قورنت بالجوانب المعنوية . خذ على سبيل المثال إعرابك عن الرضا أو الإعجاب أو الحب بمصافحة شخص أو تقبيله أو احتضانه ... الخ . كل هذه حركات جسمية ، ولكنها حركات رمزية ، والمعنى النفسي والاجتماعي فيها هو الأكثر بروزاً وسيادة وأهمية .

هذا وقد دلت الدراسات الأنثروبولوجية الاجتماعية أن المجتمعات البدائية تعرف وتمارس التنشئة الاجتماعية السليمة عن طريق الأساليب التربوية المعنوية ، بقصد حفز الصغار على الالتزام بالقيم العليا للجماعة . ومن ذلك مايفعله الهنود الحمر الكرو (أي الغراب) Crow حيث يولم الأب وليمة لابنه إذا قام هذا الأخير بعمل جدير برضا الجماعة وتقديرها . وفي أثناء هذا الحفل يتبارى الضيوف والمدعوون في امتداح الإبن ، وحث اخوانه على أن يحذوا حذوه(٢٦).

وثمة أسلوب معنوي آخر هو أسلوب التوبيخ والتكبيت للطفل إذا هو حاد عن جادة السلوك القويم . وفي أحيان أخرى يكون التأنيب غير موجَّه للشخص رأساً وجهاً لوجه ، بل عن طريقة (إياك أعني واسمعي ياجارة) ، وليست هذه الطريقة مجهولة حتى عند البدائيين . فإن بعض

جماعات الهنود الحمر - إذا ارتكب فيها شخص مايشين - التقت الجماعة كلها في الليل ، وراحوا يذكرون أشياء مرذولة أو مستقبحة ، أتاها شخص معيَّن ، دون أن يحدِّدوا اسمه ولكنه هو يكون شديد الإحساس بالذنب ، فيعلم أنه هو المقصود من بين إخوانه . وفي الأغلب يكون رفاق له ، وبعض أقاربه ، ومن يعرفون خفايا أموره ، هم الذين يقومون بعملية التنديد هذه ، فيهتفون مردّدين ما ارتكب من أمور معينة ، ويشفعون ذلك بالنكات اللاذعة . ويكون لهذا التأنيب العلني تأثيره العميق في نفس الخاطىء ، لأن الشخص يتربَّى في هذا المجتمع على رأي المحيطين به ، والحساسيَّة لكلمات الذم والمدح على السواء منذ طفولته المبكرة . وهكذا الشأن دائماً بالنسبة للمجتمعات الصغيرة عموماً . أي أن الشخص يعيش في جوٍّ تسوده علاقات مباشرة تتم وجهاً لوجه Face to face relations فيكون شديد الحساسية لرأي الناس فيه ، مهتماً باحترامه لنفسه ، حريصاً على احترام الناس له . وتصبح الوسائل المعنوية قهرية ومنها « القيل والقال ، والنبز بالكلمات والألقاب الكريهة لمن يرتكبون الأفعال المستنكرة » ومن شأن هذه الطرق أن تضعف من مكانة الشخص ومن مركزه الاجتماعي ، ومن إحساسه بالانتماء للجماعة . وفي جماعة أولية Pri-mary group كجماعة الأسرة ، فإن هذه الوسائل المعنوية تكون فعالة في حمل الأفراد على التوافق مع معايير الجماعة والعمل وفقاً لقيمها الاجتماعية .

الأسرة والتنشئة الاجتماعية : تصوُّرٌ نظري عام .

سبق وأن نوهنا بالدور الوظيفي لعملية التنشئة الاجتماعية في مجال نقل الثقافة والمحافظة والإبقاء عليها ، كما أبرزنا أهمية التنشئة الاجتماعية الأسرية في مجال غرس القيم في نفس الطفل . ونتابع في هذه الفقرة الحديث بتركيز عن عملية نمو الشخصية لدى الطفل . ولاشك أن عملية نمو الشخصية هي عملية نفسية تضع الأسرة دعامتها في فترة الطفولة . ورغم أن فترة الطفولة هي المرحلة الأولى من مراحل تكوين الشخصية ، إلا أن عدداً لا يستهان به من علماء النفس والاجتماع قد عضَّدوا أهمية مرحلة الطفولة المبكرة بالذات في تكوين ونمو الشخصية الإنسانية وفق خطوط متميزة . ورغم إيماننا بأن دراسة طور الطفولة لا يمكن أن نعتبره عملية تقتصر على الأسرة وحدها ، كما أنه لايمكن إرجاع السلوك الإنساني إلى طور الطفولة الأولى فحسب ، ذلك لأن توحُّدات الشخص مع القيم وأنماط السلوك عملية مستمرة ، وتبغي دائماً تحقيق تكيف الشخص مع المجتمع . ومن ثم فإن السلوك لن يستقر في طور معيَّن من أطوار الطفولة . كما أن من طبيعة عملية التنشئة

الاجتماعيـة ذاتهـا أنهـا عمليـة تراكميـة ، ومستمرة ، ومتغيرة من مكان إلى مكان ومن زمـان إلى زمـان ... الخ . ورغم إيمـان الكاتب بكل هـذه الحقـائق إلا أن دور الأسرة يبرز دائمـاً على السطـح كأول جماعة أولية تتلقف الطفل بالترويض والتهذيب والتثقيف .

وعلى هذا الأساس يرى جون كلوزين John Clausen أن عالم الطفولـة يبـدأ من الأسرة . ثم يتسع هذا العالم بعد ذلك ليضم عالم الرفـاق والزملاء في المـدرسـة . ويعمل الوالـدان عـادة لصـالح الطفل ، وهمـا يستجيبـان عـادة للمطـالب التي يفرضهـا المجتمع على الطفل النـامي من أجل إيجـاد الطابع الاجتماعي المرغوب حتى طور الرشد . وقد حدَّد كلوزين المسئوليـات الاجتماعيـة التي يتعيَّن على الوالدين أن يحققانها إذا ما أرادا لابنهما الطفل أن يعيش مقبولاً من والديه ومن الآخرين على النحو التالي[٢٧]:

(١) توفير العون والتربية للطفل .
(٢) توجيه وإعلاء الحاجات الفيزيولوجية مثل الحاجة إلى الطعـام والحـاجـة إلى الإخراج ليحقق التكيف مع الوالدين ولمواجهة المعايير الثقافية .
(٣) تعليم الطفل وتدريبه على المهـارات وإتـاحـة الفرصـة لممارسـة المهـارات الحركيـة والقـدرات العقليـة والمهـارات الاجتماعيـة ، بمـا يكفـل لـه الحمـايـة وتعـزيـز الأمـان ، وتنميـة القـدرات والإمكانيات على أداء السلوك المستقل .
(٤) توجيه الطفل إلى عـالم الرفـاق توجيهـاً مبـاشراً ، وإلى المجتمع المحلِّي والمجتمع الأكبر من خلال مجموعة من المواقف الاجتماعية .
(٥) نقل مجموعة من الأهداف الثقافية والقيم ودفع الطفل نحو الأهداف الوالدية والاجتماعية .
(٦) إبراز وصقل المهارات الشخصية والاهتمام بمشاعر الآخرين والاستجابة لها .
(٧) ضبط مجال سلوك الأطفال وتحديد الأخطاء وتصويبها ، وتقديم النصح والتفسيرات لهم .

وتحدِّد معايير كل مجتمع أغلب هـذه المسئوليـات والمهـام ، فـالمجتمع عـادة يحـدِّد كيف ومتى يقوم الوالدان بهذه المهام ؟ ومن منهما يؤدِّيها ؟ فمثلاً على الأم أن ترضع صغيرها وتغذِّيه ، وعلى الوالدين معاً أن يستثمرا الوقت والجهد لمراعاة أولادهما ، ويتأكدا من أنهم يتعلمون مهارات خاصـة مقبولـة ، ويتحاشون أداء أنماط معينة من السلوك الخاطىء والمرفوض في سن معينة[٢٨].

ويقسّم تالكوت بارسونز أطوار التنشئة الاجتماعية إلى أربعة أطوار ، ويربط كل طور منها بأنساق اجتماعية معينة . ويهمنا بصفة خاصة الطور الأول من هذه الأطوار ، أي ذلك الطور الذي يتم داخل الأسرة ذاتها . أما الطور الثاني فيتم أثناء مراحل الدراسة المتعدِّدة ، بينما يبدأ الطور الثالث من الخروج من دور التعليم إلى العمل ، ويبدأ الطور الرابع بتكوين الفرد أسرة جديدة . والطور الرابع يتداخل مع الطور الثالث وقد يسبقه عند بعض الأفراد . والمهم أن كافة الأطوار تتأثر بتجارب الفرد الأسرية المبكرة .

أما بالنسبة للطور الأول من أطوار التنشئة الاجتماعية ، وهو الطور الذي يتم داخل الأسرة وحتى دخول الطفل المدرسة ، فإن بارسونز يقسّمه إلى أربعة أزمنة على النحو التالي[٢٩]:

(الزمن الأول) : يعيش الطفل في هذا الزمن في جنة عدن ، ولا تمارس عليه أية ضغوط اجتماعية ، ويعيش في مرحلة كمون في بداية هذا الزمن . وتتحمل الأم فور ميلاد الطفل مسئولية رعايته وتنشئته ، وتمنحه الأم والأسرة كل الرعاية والحنان ، ولا تتوقع منه أية مشاركة إيجابية على الإطلاق . وتحاول الأم جاهدة أن تحافظ على التوازن بين الأدوار الأسرية وحبها لطفلها . كما يبدأ أنا الطفل في هذه الفترة في التكامل مع الأم من أجل استمرار حصوله على اللذة . ويتميز سلوك الطفل أثناء تفاعله مع الأم المتوحِّد معها حينئذ ، بأنه سلوك ازدواجي يتقبل الرعاية من الآخرين الذين يعتمد عليهم ويحبونه ، ويستطيع في الوقت نفسه أن يمنحهم الحب .

(الزمن الثاني) : تبدأ في هذا الزمن رياح التغيير ، وينتزع الطفل من جنة عدن التي كان يعيش فيها ، فقد بدأ ينضج فسيولوجياً واجتماعياً ، وبدأ أعضاء الأسرة يشعرون بأنه صار قادراً على أداء مستويات من الفعل أرقى من أدائه في الزمن الأول . كما تبدأ شخصية الطفل في النضوج ويتعلّم بعض المهارات الجديدة ويكتسب بعض الكلمات التي تسهل له عملية الاتصال بأعضاء الأسرة . وتبدأ الأم في هذا الزمن في تحقيق مطالب الأسرة بالسيطرة على سلوك الطفل . وتتحمَّل الأم مسئولية التنشئة في هذا الزمن ، وتنوب عن الأسرة في تقويم سلوك الطفل القطري ، وإعلاء سلوكه الغريزي إلى سلوك اجتماعي . ويشعر الطفل بأن سلوك أمه اتجاهه بدأ يتغير ، ولكن حجب الأم بعض حبها عن الطفل في هذا الزمن لا يتبعه أن يتحمل مسئولياته كاملة عن أفعاله ، إذ تتوقع الأم أن يؤدِّي الطفل أشكالاً من السلوك المنحرف والمستهجن احتجاجاً على فقدانه حب الأم . وتسمح الأم للطفل في هذا الزمن بأداء أنواع من السلوك ، وتبدأ من هنا مرحلة مايسميه

بارسونز طور السماح Permissive في التنشئة الاجتماعية . وتستمر شخصية الطفل في هذا الزمن في التكامل مع الأم ، وتنمو بعض العناصر العقلية عنده .

(الزمن الثالث) : وهو مرحلة تحصيل الأهداف عند الأسرة . ويحمل دور الأم في هذا الزمن الكثير من المعاني التعبيرية والمساعدة للطفل ، ولم يعد دورها دوراً نفعياً كما كان الحال في الزمن الأول . وتبدأ قدرة الطفل على تعميم الحب إلى ماوراء الأم والمشاركة في نسق الأسرة . وهذا يعني أن الأسرة قد نجحت في تحقيق هدفها من التنشئة الاجتماعية . ويبدأ الطفل في إدراك معنى عضويته للأسرة ، ومعرفة أن الأب والأم يمثلان موضوعاً واحداً عنده ، لاتفاق مواقفهما نحوه . وتبدأ مرحلة توحد الطفل مع أفراد الأسرة وقيمها . وتشجع الأم الطفل على أداء سلوك يتسم بمزيد من الاستقلالية والإيجابية . وتتخلّى الأم في هذا الزمن عن مسئولياتها للأب ، ويتم قبول الطفل كعضو مشارك في الأسرة . ويمنع حب الأم للطفل كل مايهدِّد من تفكك الشخصية أو يهدِّد الأنا ، ويعطيه هذا الحب الراحة والطمأنينة ، ويساعد هذا على نمو الأنا نمواً طبيعياً . فالأنا في تلك الفترة يعيش في مرحلة من الاضطرابات ، بعد أن فقد الاستقرار القديم في الزمان الأول الذي كانت تشبع فيه اشباعاته الأولى الفطرية . إذ تلاحق الطفل الآن مجموعة من الأوامر والنواهي التي تقيد حركاته وتضبط سلوكه ، التي يعجز عن فهمها رغم إدراكه لها . ويساعد مايحصله الطفل من خبرات ومهارات في هذا الزمن على اتاحة الفرصة للطفل على اكتساب مراكز جديدة في الأسرة .

(الزمن الرابع) : يبدأ الزمن الأخير في تنشئة الطفل في محيط الأسرة بالتوحُّد مع الأب كموضوع جديد . ويبدأ دور الأم في التغيير ويصبح دوراً والدياً . ويبدأ تكوين العنصر الجديد في بناء الشخصية ، أي نشوء الضمير ، وتدعيم نسق الجزاءات ، ويصبح الأب والأخوة موضوعاً هاماً عند الطفل يتبادل معهم العلاقات . وفي هذا الزمن تعترف الأسرة بالعضو الجديد اعترافاً كاملاً ، ويقبل هو هذه العضوية لتحقيق إشباعات جديدة غير التي تعوَّد عليها . ويبدأ دور الأب في البروز والتأثير على الطفل . ويؤدي الأب في هذا الزمن دوراً هاماً كموضوع للإشباع العاطفي ، كما تصبح الأم أكثر إيجابية نحو الطفل ، وأقل مساعدة له . وتؤيد الأسرة الأم في تحولها عن الطفل إلى وظيفتها الجديدة كإنسان قادر على الثواب والعقاب . ويدرك الطفل عقلياً معنى دور الأب والأم في الأسرة . ويدرك أن الأب والأم يكونان « نُسَيْقاً » يختلف عن نسيق الأم والطفل في الزمن الأول والثاني . ويفهم الطفل الفروق بين أفراد الأسرة على أساس الجنس والسن . وتبدأ مرحلة توافق الطفل مع أعضاء الأسرة ، وتكامل العلاقات الأسرية .

ونلاحظ أثناء عملية التنشئة الاجتماعية في الأزمنة المتتالية ، أن الإخوة والأب والرفاق يبدون للطفل مُثُلاً ونماذج تجسِّم شخصياتها وأفعالها القيم التي يتوحَّد بها . ويصاحب أطوار عملية التنشئة الاجتماعية تغيرات بنائية لنسق أدوار الطفل وأدوار الأسرة . وفي كل طور تزداد الأدوار التي يعرفها الطفل ، كما تحدث تغيرات في الأنساق التي ينتمي إليها . ولعلَّ من أهم أهداف عملية التنشئة الاجتماعية تكوين القيم لتحقيق توقعات الأدوار . فعملية التنشئة الاجتماعية تهدف إلى إعداد الفرد لأداء الأدوار المختلفة التي سيواجهها يوماً ما . فمن أهدافها إعداد الطفل لأداء دور الإبن والأخ والزميل والأب ، وإعداده لأداء دوره المهني . أي من وظيفة التنشئة الاجتماعية تعليم الطفل أشكال السلوك المرتبطة مع أداء الدور . فالفرد ينشأ داخل الأسرة على مجموعة من الحقوق والواجبات تعرف بعلاقات الأدوار . ويعي الفرد هذه الأدوار بعد فترة طويلة من التنشئة الاجتماعية . وهذا الوعي عملية يدرك بها الطفل أن الآخرين يتوقعون منه أن يسلك سلوكاً معيناً في موقف معيَّن حتى لا ينال عقاباً . ويتعلَّم أيضاً أن هذا السلوك المتوقع هو السلوك المقبول لمجتمعه . ويرى بارسونز أن عملية التنشئة الاجتماعية لا تعد أفراداً لأداء الأدوار على الوجه الأكمل ، بل تمنحهم التوجيهات العامة والتوقعات التي تساعد على إضافة مايراه الأفراد مناسباً بتأثير التعلُّم لتحقيق التوافق الاجتماعي .

الطفل القطري : بعض الجوانب الأساسية في عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية .

حاولت الفقرات السابقة أن تقدِّم إطاراً نظرياً متكاملاً لدراسة عملية التنشئة الإجتماعية الأسرية وأطوارها المختلفة . ودور الأسرة في عملية التنشئة الاجتماعية إجمالاً دور لا يمكن إنكاره ، لأنها المسئولة تماماً عن عملية التنشئة في مرحلة الطفولة ، بل أكثر من ذلك فإنها مسئولة مسئولية شرعية ، كما يرى عدد من علماء النفس والاجتماع ، عن تكوين الطابع القومي للشخصية[٣٠].

وبناءً عليه ، سنختبر في هذه الفقرة ذات الطابع التطبيقي أو الامبيريقي بعض الجوانب الأساسية في عملية التنشئة الاجتماعية العائلية للطفل القطري ، مستمدين من الفقرات السابقة التي قدَّمت إطاراً نظرياً وافياً نقطة الانطلاق والبداية على أساس علمي سليم . ولن يمكن في الصفحات القليلة المتبقية من هذا المقال أن نذكر كل شيء . لذلك وجب التركيز على بعض الجوانب الأساسية من عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية تعكسها عددٌ من الشواهد الإمبيريقية أو الواقعية ، المستمدة أساساً من دراسة انثروبولوجية مكثفة عن دورة حياة الفرد قام بها الكاتب في قطر حلال عام ١٩٨٠/١٩٨١[٣١].

وسيتم عرض هذه الشواهد والحقائق متبعين منهج التسجيل الوصفي الإثنوجرافي ، ومنهج الاستدلال والاستنتاج الثقافي .

● إنجاب الأطفال :

يحظى انجاب الأطفال في المجتمع القطري عموماً بقيمة اجتماعية عالية . لذلك يعدُّ انجاب الأطفال أهم حدث في حياة الزوجين . ولا يخفى ما لإنجاب الأطفال من أهمية في استمرار اسم الرجل وأسرته ، حيث يحمل الأطفال اسمه ، بالإضافة إلى حفظ ممتلكاته لاسيما إذا كان غنياً ، وبذلك لايحصل الغرباء على ماله وممتلكاته . وبعد وفاة الزوج لا يوجد رابط يربط الزوجة بأسرة الزوج مما يجعلها تعود لأهلها . ولعلَّ هذا هو السبب في تفضيل زواج أبناء العمومة ، وهو ما اصطلح الأنثروبولوجيون على تسميته باسم « الزواج التفضيلي » Preferential marriage .

وإذا ظلت المرأة دون إنجاب لمدة خمس سنوات تبدأ أسرة الزوج في القلق على ابنها ، ويطلبون منه الزواج بغيرها لأنها عاقر لا تنجب أطفالاً . وفي الغالب لا يطلق الرجل زوجته بسبب عدم الانجاب ، بل يتزوج عليها دون أن يطلقها بعد استنفاذ الأساليب المختلفة لعلاج عقم الزوجة والذي يتجه في معظمه إلى الوصفات الشعبية أو السحرية في المناطق القبلية . بل إن هذه الوصفات الشعبية أو السحرية موجودة ومعروفة أيضاً في المدينة (مدينة الدوحة) ولكن كمحاولة أخيرة بعد فشل الإجراءات الطبية في علاج العقم عند المرأة . ومن أهم الوصفات الشعبية تناول الخروع « والعشرج » وهي شربة سهلة للجهاز الهضمي ، وكذلك الذهاب للمشايخ وقراءة القرآن وعمل الأحجبة ، أو الاغتسال بماء غسل الميت ، أو نذر النذور .

ولا توجد وسيلة أكيدة لمعرفة سبب العقم سوى أن يقوم الرجل بالزواج من امرأة أخرى « حتى يشوف العوار منه ولا منها » أي حتى يعرف هل العيب من زوجته أو منه شخصياً أي الزوج . وإذا تمَّ التأكد من أن الزوج هو السبب في عدم الإنجاب ، فإنه يصبح في نظر الناس خاوي الظهر « مافيه رجا لعيال » نظراً لمرضه . أما إذا كانت المرأة لاتنجب ، وانتظر الزوج مدة طويلة ولم يتزوج نظراً لحبه لها مثلاً ، فإن الناس يعتقدون أن الزوج « مافيه عيال ، ولو فيه عيال لتزوج » . ومن الصعوبة بمكان حتى الآن أن يذهب الزوج بنفسه للطبيب أو للمستشفى لمعرفة هل هو سبب العقم أم لا ؟ فالرجل مازال يستكثر كثيراً أن يقوم بمثل هذا العمل حتى الآن إلا إذا استدعاه الطبيب مع زوجته .

ويحذر الناس حذراً شديداً من أن تقوم المرأة العاقر بزيارة امرأة أخرى قد وضعت حديثاً ، ثم تذهب في نفس الوقت لتهنئة عروس ، لأن نتيجة مثل هذا التصرف أن « تنكبس » العروس ولا تحمل . وعموماً فإن المرأة في معظم الأحوال هي سبب العقم .

ويتعلق بالحمل عموماً ظاهرة الوحم التي تحدث في الشهور الأولى من الحمل وخصوصاً ابتداء من الشهر الثاني . ويطلق على الوحم مصطلح (نساه) ويقولون عن المرأة الحبلى التي تتوحَّم « فيها نساه » . ويعتقد الأهالي أن من تميل لأكل الأطعمة (الحامضة) ستنجب ذكراً ، أما من تميل إلى أكل الأطعمة المالحة ستنجب بنتاً . كما قد تتوحَّم المرأة وتميل إلى أكل أشياء غريبة مثل أكل الفحم الأسود أو الطين الأحمر . وتأكل المرأة مثل هذا الأشياء الغريبة التي تميل إليها عن طريق الوحم خوفاً من ظهوره على جسم وليدها إذا لم تأكله . كما أن بعض النساء يملن في أثناء الوحم إلى كراهية معاشرة أزواجهن لهن[٣٢].

● ميلاد الطفل وأهمية الوليد الذكر :

هناك تمييز واضح بين الذكور والإناث في المجتمع القطري بصفة عامة ، حيث يفضل دائماً إنجاب الأولاد الذكور . وهي سمة واضحة في كافة المجتمعات القبلية بصفة خاصة . وعلى العموم فإن الطفل الذكر في المجتمعات العربية أكثر تفضيلاً من الطفل الأنثى[٣٣]. وقد عرضت الدراسات الفلكلورية القليلة المنشورة عن المجتمعات العربية لهذه الملاحظة بكل جلاء ودون أي لبس[٣٤]. ويعرف المعتقد الشعبي في المجتمع العربي عموماً كثيراً من التفاصيل التي تجب مراعاتها والممارسات التي يجب اتباعها لإنجاب طفل ذكر[٣٥]. وأهم خبر يترقبه أفراد الأسرة بمجرَّد أن تضع الوالدة طفلها هو معرفة جنس المولود من حيث كونه ذكراً أو أنثى ، رغم إيمان القطريين عموماً بأن الذرية هي من عند الله ، وكل شيء بأمره .

إلا أن طبيعة الحياة البدوية هي التي جعلت السلطة للرجل ، كما أن طبيعة حياة البحر جعلت الأهمية للذكور . وبالتالي فإن الناحية الاقتصادية هي التي حدَّدت مركز الذكور . وقد جرت العادة على أن المولود الأول يولد في بيت أهل والدته ، وعلى المرأة أن تذهب إلى بيت أهلها قبل الولادة بمدة ، أو عندما تشعر بالطلق أي المخاض . وأثناء هذه الفترة يكون أهل الزوج قد جهزوا كل مستلزمات الولادة من غذاء أو قماش . وتبقى المرأة الولود في بيت أهلها فترة النفاس

وهي أربعين يوماً ، ولها أن تبقى أكثر من هذا إذا اقتضت الظروف ذلك حتى تستريح جسمانياً ونفسياً .

وأثناء المخاض أي بداية الولادة تستدعي القابلة (الولاَّدة المختصة) إلى بيت أهل المرأة التي ستضع ، وذلك لكي تشرف على عملية الولادة بحكم خبرتها الطويلة في هذا المجال . وفي هذه الأثناء يدق عمود في الغرفة التي ستلد فيها المرأة ، ولا يقل ارتفاع هذا العمود عن مترين تقريباً ، وذلك لكي تمسك به المرأة التي ستلد ، وفي نفس الوقت تقوم امرأتان بمساعدة الولاَّدة ، وتمسكان بالمرأة من كتفيها لمساعدتها أثناء عملية الوضع . وتقوم القابلة بعملية الوضع ، وتقطع الحبل السرِّي للمولود ، ويفرح الجميع بالمولود وخاصَّة إذا كان ذكراً لأنه سيحمل اسم والده ، ويكون (عزوة) لأسرته وقبيلته وعوناً لهم في المستقبل . وعندما يكون المولود ذكراً يذهب (المبشِّر) وغالباً القابلة لأنها أول شخص تعرف جنس المولود إلى والد الطفل لتخبره بأنه قد رزق مولوداً ذكراً ، فيقوم والد الطفل بتقديم هدية تسمَّى (البشارة) إلى أول شخص أخبره بهذا النبأ السعيد . ويختلف حجم الهدية وقيمتها حسب استطاعة الوالد .

وتقتصر البشارة على الوليد الذكر دون الأنثى ، فعندما يرزق الأب ببنت تكون الفرحة أقل بكثير مما لو رزق ذكراً . ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى أن البنت أقل شأناً من الولد الذكر وذلك نظراً للدور المتدنّي الذي تحتله سواءً من الناحية الاقتصادية والاجتماعية . وتساعد عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية على تأصيل هذا الدور المتدنِّي للفتاة . ودائماً تنادي المرأة باسم أكبر أولادها الذكور سنًّا . وإذا كان أول أولاد المرأة ذكراً تقام له عرضة أو رزيف ، وهو احتفال غنائي يقام بهذه المناسبة وتطلق فيه الأعيرة النارية . ويستخدم تعبير « صبيّ » بتشديد الياء للدلالة على الذكر ، و « بنيَّة » بتشديد الياء للدلالة على الأنثى . ويؤثر نوع المولود على مركز الأم ، حيث أنه يفضل إنجاب الذكور كما سبق وأن نوهنا ، فنرى أنه إذا رزق الرجل بصبي وعندما يبشَّر بذلك يقال له « بشارة بالطارش » أي أن الولد سيقوم بجميع ما يوكل إليه الأب من أعمال أو شئون . فالطارش تعني المبعوث .

وتجدر الإشارة إلى أنه في السنوات الأخيرة تتم كثير من عمليات الوضع في المستشفيات وخصوصاً مستشفى النساء بمدينة الدوحة ، حيث تنقل إليه الحوامل اللاتي على وشك الوضع ، وإن كان بعض الأهالي مازال يفضل أن يتم الوضع بالمنزل .

ومن العادات الإسلامية المرعية عندهم الآذان في أذن المولود من قبل والده حينما يراه للوهلة الأولى بعد الولادة ، فيقف بجانبه واضعاً فمه على أذنه اليمنى ليؤذن بها آذاناً كاملاً ، ومن ثم يقيم الصلاة في الأذن اليسرى حتى يشب الطفل مسلماً حنفياً ، ويكون قد سمع أول ماسمع اسم الله ، وذلك ليقوي الوازع الديني في الطفل وينشأ متمسكاً بأهداب الدين والصوم والصلاة . وهكذا تحرص عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية على أن يشب الطفل متديناً . وتعكس الكلمات المتداولة في مجال الحياة اليومية هذه السمة « سمة التدين » كإحدى أبعاد الشخصية القطرية[٣٦]. فاسم الله (سبحانه وتعالى) يتردّد دائماً في مجال التعامل اليومي ، مثل حياك الله ، الله يسلمك ، الله يبارك فيك ، الله يطوّل في عمرك ، والله ماقصّرت ، الله يزيد إيمانك ، حسبي الله عليك ، في أمان الله ، الله يرحم والديك ، الله هداك ، والله ماتستاهل ... الخ .

كما يفضل من الأسماء أسماء الله الحسنى ، والرسول ﷺ . ثم يأتي في نفس الدرجة الأعزاء من الأقرباء المتوفين وخاصة الجد الأول . وأكثر الأسماء شيوعاً في المنطقة هي : محمد ، عبد الله ، عبد الرحمن ، خليفة ، حمد ، خالد ، سعد ، إبراهيم ، يوسف ، ناصر .

أما بالنسبة للإناث فأكثر الأسماء شيوعاً : مريم ، لولوه ، فاطمة ، عائشة ، نوره ، حصة ، شيخة ، لطيفة ، موزة . كما أنه يطلق على الأسماء المختلفة كلمات خاصة بالمنطقة فنجد أن خليفة يكنى بأبو دعيج ، وعبد الرحمن يكنى بو راشد ، ومحمد ابو جاسم ، ويوسف ابو يعقوب ، وعبد العزيز بو سعيد .

وتستطيع الواضعة الجديدة أن تغادر مخدعها في أي وقت تشاء ، إلا أنها لا تخرج من البيت إلا بعد « الأربعين » أي تجلس في البيت مُدَّة أربعين يوماً هي « فترة النفاس » . وبعد أسبوع من الولادة تذبح الذبائح وتوزع على الجيران والأقارب والأهل وتسمَّى « التمية » ويقدَّر عددها على حسب نوع المولود . وتزداد كلما كان المولود ذكراً . وهكذا تبرز نظرة الأسرة من خلال عملية التطبيع الاجتماعي أو التنشئة الاجتماعية فوارق الجنس منذ خروج الطفل بعد الولادة إلى الحياة بصورة واضحة وقاطعة . وهذا يرجع إلى مايتمتع به الذكر من مكانة عالية عموماً كما سبق وأن أوضحنا ، بل إن مكانة الأم تزداد كلما أنجبت ذكوراً . بالإضافة إلى بعض القيم البدوية التقليدية المتوارثة الخاصة بمفهوم الشرف والمحافظة على البنت إجمالاً . وهكذا ينمو الشعور لدى الطفل الذكر بأنه أعلى من الطفل الأنثى نتيجة لانتمائه لجنس معيَّن ، ويتولَّد عند الطفل الذكر الاعتزاز

بذكورته منذ الصغر ، ويتولَّد عند الأنثى الشعور بالنقص منذ إدراكها المبكر لنوع جنسها ، مما يجعلها تتمنى أن تتغير الأوضاع والأدوار ويحل كل منها محلَّ الآخر ، ولكن هيهات ! فالمجتمع القطري مثل غيره من المجتمعات العربية والإسلامية بصفة عامة مجتمع أبوي يعطي للرجل دائماً مكانة أعلى من المرأة .

وعلى الرغم من انتشار التعليم واعتباره مطلباً عاماً في الوقت الحاضر على الأقل ، فلا تزال هناك نسبة كبيرة من الأهالي ترى أن الوضع الطبيعي للمرأة هو الزواج وحياة البيت . وعلى الرغم من مكانة المرأة القطرية الثانوية في المجتمع ، من حيث مساهمتها في قوة العمل حتى الآن ، إلا أنها ولاشك تقوم بالدور الرئيسي في مجال الأسرة والتطبيع الاجتماعي للطفل نظراً لارتباطها بالبيت وارتباط الأطفال بها بالضرورة على الأقل حتى سن معينة (أي الزمن الأول والثاني على الأقل على النحو الذي حدَّده بارسونز)[٣٧].

هذه العناصر السابقة مجتمعة ، يمكن اعتبارها مسئولة مسئولية مباشرة عن كثير من الملامح الإيجابية والسلبية في شخصية الإنسان القطري ، فضلاً عن أنها تحدِّد الكثير من مظاهر سلوكه . وهو موضوع سنعرض له بالتفصيل في بحث مستقل . ولكن يمكن الإشارة إجمالاً إلى بعض الجوانب الإيجابية والسلبية الناجمة عنها . فمن النواحي الإيجابية الناجمة عنها الإعلاء من قيم الرجولة في تنشئة الأطفال الذكور وبخاصة في المناطق الصحراوية أو القبلية ، والعمل على غرس هذه القيم فيهم ، حيث ينشأ الطفل الذكر منذ الصغر على تحمل المشاق والمسئوليات والاضطلاع بكثير من الالتزامات والواجبات إزاء بقية أعضاء العائلة خاصة من يصغرونه سناً من ناحية وإزاء الجنس الآخر (النساء) من الناحية الأخرى . وكذلك شعور الفتاة بالانتماء إلى عائلة أبيها وعدم الانسلاخ عنها تماماً حتى بعد الزواج ، وأن أعضاء تلك العائلة خليقون بأن يمدوا إليها يد العون والمساعدة بل والحماية طيلة حياتها . وهذا يعطي المرأة إحساساً عميقاً بالأمن والاطمئنان لا نجده عند المرأة الغربية التي لا تشعر بالانتماء إلى عائلة أبيها ، والتي لا تقيم لروابط القرابة الأبوية كل هذه الأهمية . هذا إلى تنشئة الفتاة منذ طفولتها المبكرة على أنها ستكون زوجة وأماً وربة بيت ، واعتبار الأم العامل الأساسي في استمرار الحياة العائلية .

أما النواحي السلبية التي تنجم عن تلك العناصر فمنها المغالاة في الإعلاء من مكانة الرجل الاجتماعية ، والتسلط والاستبداد برأيه في كثير من الأحيان خصوصاً في الجماعات القبلية المحلية ،

حيث تكاد كلمة الرجل تكون هي القانون بالنسبة للمرأة داخل العائلة وبالنسبة لمن يصغرونه في السن ، وعدم مشاركة النساء في تحمل نصيبهن من الالتزامات والواجبات ، والتفرقة الواضحة في المعاملة بين الذكور والإناث منذ الولادة ، وإحساس الفتاة بالضياع إذا تقدمت بها السن دون أن تتزوج . وهذا معناه أن الزواج يعتبر مطلباً أساسياً تعطيه الفتاة أولوية مطلقة على أيٍّ مطلب آخر بما فيه العمل . ويترتب على ذلك أن تعطي المرأة المتزوجة العاملة أولوية لحياتها الأسرية على حساب العمل ودرجة اتقانه والدقة فيه والالتزام بمتطلباته . أضف إلى ذلك تصور الرجل نفسه مسئولاً عن حياة المرأة وأمنها والمحافظة على أخلاقياتها وشرفها باعتبارها (عورة) ، وعجز المرأة في كثير من الأحيان عن التوفيق بين دوريها كزوجة وأم وربة بيت من ناحية ، وعضو في المجتمع القومي بكل مايتطلبه ذلك من واجبات ومسئوليات من ناحية أخرى .

● الرضاعة والفطام والتدريب على النظافة الشخصية :

تعدُّ الرضاعة بالنسبة للطفل تعويضاً له عن الراحة التي كان ينعم بها أثناء وجوده في بيئة الرحم الهادئة . والرضاعة ولو أنها وسيلة لإشباع حاجات فسيولوجية ، فهي تفاعل اجتماعي بين الرضيع وأمه . وهي تعدُّ لذلك أساس تكوين الروابط العاطفية بين الطفل وأمه من ناحية ، كما أنها وسيلة لاكتساب الطفل القيم والعادات والمعتقدات والمعايير السائدة في المجتمع والتي تمثلها الأم .

وبصفة عامة تحرص الأم القطرية على إرضاع طفلها من ثديها مباشرة ، أي عن طريق الرضاعة الطبيعية . وقد أثبتت الأبحاث والدراسات العديدة أن لبن الأم هو أفضل طعام للطفل الرضيع ، من حيث التعقيم ودرجة الحرارة المناسبة ونسبة الأملاح ، بالإضافة إلى احتوائه على كثير من الأجسام المضادَّة للأمراض المختلفة . ولذلك فهو سهل الهضم على معدة الطفل . ولكن في حالة الرضاعة الطبيعية يتعذر على الأم - في بعض الأحيان - الاستمرار في إرضاع الطفل الوجبات الكاملة ، ويكون السبب إما عدم كفاية اللبن لدى الأم أو لخروج الأم إلى العمل وغيابها لفترات طويلة بعيدة عن الصغير (وهذا تطوُّر حديث نتيجة لخروج المرأة القطرية للعمل في السنوات الأخيرة) مما يصعب معه الاستمرار في الرضاعة الكاملة لمدة طويلة .

وقد كان غذاء الطفل دائماً في الماضي هو الحليب (اللبن) من ثدي أمه . وإذا مانضب ثدي الأم لأي سبب من الأسباب ، لجأت إلى النسوة من قريباتها أو نساء الجيران ممن يستطعن مساعدتها ، وذلك لإرضاع طفلها من ثديهن ، لأنه لم يكن في الماضي يوجد أو يتوفر طرق

الرضاعة الصناعية عن طريق الحليب المجفف أو السائل ، وإنما كان غذاء الطفل الأساسي هو حليب الأم أو إرضاعه من ثدي امرأة أخرى . أما الآن فقد انتشرت الرضاعة الصناعية ولاسيا في مدينة الدوحة حيث تخرج المرأة للعمل ، وقد تضطر الأم إلى فطام الطفل قبل الأوان ، أو اعطائه أطعمة أخرى مساعدة قد تكون صعبة الهضم على معدته الرقيقة ، مما يؤدي إلى متاعب صحية ونفسية للطفل .

ومع استمرار نمو الطفل يضاف إلى غذائه الرئيسي وهو لبن الأم غذاء أكثر صلابة يسمى « النطوع » وهو مكون من السكر والزبدة واللوز ، وذلك بعد طحنه جيداً لكي يصبح ناعماً كالبودرة . كما تعطى للطفل الأدوية السائلة التي تتكون من مجموعة من بذور الأعشاب مثل الجلجلات والقرنفل والقرفة وغيرها من حبوب الأعشاب . وتغلى هذه الحبوب سالفة الذكر في الماء لفترة معينة ، ثم يبرَّد الماء وتصفَّى بواسطة قماش رقيق ونظيف ، وبعد ذلك تعطى للطفل خاصة بعد أن يضاف إليها السكر . وفي الماضي كانت تعطي هذه السوائل للطفل بواسطة وعاء صغير من النحاس ، وذلك لصب السوائل في فم الطفل بواسطته . أما الآن فالسائد استخدام زجاجة الحليب « الرضاعة » .

ويتدرج شيئاً فشيئاً طعام الطفل ، حيث يصبح أكثر صلابة كلما اقترب موعد الفطام ، فيعطى « الأرز المهروس » ، إلى أن يفطم عندما يبلغ عمره من سنة ونصف إلى سنتين . وعملية الفطام أهم مايطرأ على حياة الطفل ، حيث يعاني بسببها من بعض الاضطرابات الانفعالية ، نتيجة منعه من الرضاعة وهي امتصاص سائل غير محتاج إلى جهد من حيث تناوله ، إلى جهد يجب أن يبذله في الطعام مثل المضغ والبلع . وقد لا تقوّى أسنان الطفل بعد على طحن الأطعمة الجافة حيث يأخذ في البكاء . وهذه التغيرات التي تحدث وتتأثر بها عملية الإحساس في المعدة والأمعاء ، بالإضافة إلى التغير في طريقة الغذاء نفسها حيث كانت تتم في السابق قبل الفطام في حضن الأم الدافىء بالحنان ، والمشاعر والحب ، ولكنها تتم الآن بعيداً عن حضن الأم ، مما يؤدي إلى مزيد من الاضطرابات الانفعالية . وهذه الاضطرابات تزداد حدَّة إذا تمت عملية الفطام بصورة مفاجئة لا تدرُّج فيها ، كما تفضل الأمهات العاملات في الوقت الحاضر .

وهناك طريقتان للفطام الأولى وهي الحادَّة ، يمنع الطفل فيها من الرضاعة الطبيعية مرة واحدة ، وهذه الطريقة تسبِّب ألماً نفسياً للأم والطفل . والطريقة الثانية هي التدريجية حيث يتم

استبدال الرضاعة الطبيعية بالأغذية الخارجية المناسبة تدريجياً . وتتم عملية الفطام عن طريق وضع الأم قليلاً من البهار الحار على حلمة ثديها ، أو تضع على حلمة الثدي قليلاً من « الصبر » المر الناعم المعجون . ولذلك فعندما يتناول الطفل الثدي لامتصاص اللبن ، يجد أن طعمه متغير : مُرًّا أو حامياً من شدة البهار مما يؤدِّي إلى بكائه وإصابته بالقلق على مصدر غذائه الطبيعي . وعموماً لا يتم فطام الطفل قبل نهاية السنة الأولى من عمره . ويبدأ تدريب الطفل بعد فطامه على عمليات التحكم في تبوله وتبرزه ، وعندما يصل الطفل عادة إلى السنة الثانية يكون قد تعلَّم التحكم في قضاء حاجاته في أوقات النهار ، أما في أثناء فترة الليل ، فإن مثل هذا التحكُّم لا يتم إلى اعتباراً من العام الثالث من عمر الطفل أو بعد ذلك بقليل . ويتم التدريب على هذا التحكم بواسطة الأم بصورة فيها قدر كبير من اللين وعدم العنف . وقد ثبت أن التدريبات القاسية على النظافة في مرحلة الطفولة تساعد بما لايدع مجالاً للشك على نمو الاتجاهات العدائية وغيرها من أعراض الأمراض العصابية[٣٩].

● الختــــــان :

تجري عملية الختان الآن للذكور فقط . وقد علم الباحث من بعض الإخباريين المحليين أن عادة ختان البنات كانت تجري في السر في الماضي ، حينما يكون الرجال في الصيد . وكانت تقوم بهذه العملية امرأة متخصِّصة . ولا يجوز للرجال في داخل أو خارج دائرة العائلة أن يتكلموا عن ذلك ، لأن هذه مسألة من اختصاص النساء فقط . أما في الوقت الحاضر ، فقد ذكر كل الإخباريين الذين قابلهم الكاتب أنه تمَّ الإقلاع تماماً عن هذه العادة بالنسبة للإناث . ومعنى هذا أن الختان في المجتمع القطري يقتصر على الذكور دون الإناث . ويرجع السبب في ختان الذكور دون الإناث كما يرى بعض الباحثين[٤٠] إلى « روح محافظة متشدِّدة ترى الأنثى عورة في كل حياتها من صغرها إلى كبرها ، فصورتها عورة ، وجسمها عورة ، والنظر إليها يسبب المشكلات والصعوبات فيما بينهم ، فكيف بفتاة تعرض أمام إنسان كائناً من كان للختان ، على الرغم من أن هذه العادة جازت وتأصلت في بعض المجتمعات الخليجية ، وبقيت حتى وقت قريب في بعض المناطق كعُمان وغيرها » .

وكان يقوم بعملية ختان الذكور في الماضي أناس متخصصون يمارسون إلى جانب ذلك حلاقة الشعر . ويجري ختان الطفل حالياً وهو صغير ، بعد أن كان يتم تختينه من قبل وقت البلوغ .

وعند الختان يوضع الطفل في مكان مرتفع ، ثم يقوم المختنّ بمعالجة رأس العضو أي بنزع الجلد عن الحشفة ، ثم يدخل خشبة ملساء ويقطع جلد الغلفة بالموس .

وأثناء الختان يقال للولد الذكر أنظر فوق ، أي إلى الطير أو الحمام حتى ينشغل أثناء عملية قطع الغلفة ، ويصرخ الأطفال عادة من شدة الألم . وحتى يقوى عزم الطفل ولا يبكي يُطلب منه بأن يعزو أباه أو أخاه أثناء القطع فيقول : « أنا خو فلان ، أو ابنك يافلان » وذلك حتى يتشجع على رؤية الدم الذي ينزف أثناء عملية الختان . وإعزاز الولد بأبيه مثل أعلى للرجولة والشجاعة ، ودليل انتسابه لأهل كرام . وتكاد شعائر الختان تقترب من شعائر الزواج بحكم النظرة العصيبة والقبلية ، حيث تقام الزينات وحلقات الرزيف (والرزيف هي رقصة الحرب والتي تصاحبها الأغاني الحماسية . وشعر الرزيف وكان ينشد في المعارك من أجل الافتخار بالقبيلة ويساير حركة الخيل وصخب الجماعة) .

وتوضع بعض الأدوية المرطبة على العضو بعد الختان مباشرة مثل الزيت ومسحوق محلّي وقطنة ، ويبقى كل ذلك لمدة سبعة أيام . ويستعان في الوقت الحاضر بصبغة اليود . وبعد اليوم السابع يؤخذ الولد إلى البحر عادة لانتزاع القطنة من على ذكره بواسطة ريشة من جناح أو ذيل دجاجة أو حمامة ، لأن الريشة أكثر مرونة من يد الإنسان ، علاوة على أن يد الإنسان قد تكون ملوثة . ويتم تختين الطفل عادة في بداية الصيف ، وهي أنسب فترة للختان حيث يعتقد الأهالي أن الجرح يجف أسرع في موسم الصيف .

وبعد الختان بأيام قلائل تذبح الذبائح ، ويدعى الأقارب والجيران لتناول العشاء وتسمّى وليمة الختان ، وهي مكونة من الأرز واللحم . وتقتصر على الرجال دون النساء . أما بالنسبة للمختون ، فيقيّد طعامه وشرابه ، حيث يقتصر طعامه على أكلات معينة ، كما يعطى الماء بمقادير قليلة وفي أوقات منتظمة مع كل وجبة . وبعد أن يلتئم الجرح يتناول كل وجبات الطعام والشراب بصورة طبيعيّة . ويلاحظ أنه في أول يوم في الختان يمنع الطفل من الحركة تماماً ، وينام على ظهره ، ثم يبدأ في التحرك قليلاً في الأيام التالية حفاظاً على سلامته .

ويعتقد الأهالي أن الختان مفيد للذكر بصفة خاصة ، حيث أنه عبارة عن عملية نظافة ويقي العضو من الفضلات . فالأوساخ قد تتسرّب من الفتحة الأمامية بين الغلفة والحشفة ، وينتج عن ذلك بعض الأمراض والروائح الكريهة ، كما أن إزالة الغلفة في اعتقادهم يسهل عملية الإثارة الجنسية

مما يسعد الرجل . أما بالنسبة لختان الأنثى ، فكما سبق القول لا تمارس على الإطلاق الآن حيث يعتقدون أنها ضارة صحياً ونفسياً ، كما أنها تصيب الفتاة بالبرود الجنسي الذي يؤثر عليها مستقبلاً عند الزواج(٤١).

وهناك أغاني للختان ، وهي تصف الطفل الصبي بأنه عريس ، وتذكر اسم الله عليه كثيراً . ومن أمثلة أغاني الختان :

بذكر الله أول ما نبتدي به	
على المختار سيدنا حبيبه	
من ذا اختانه عبطوه من ذا	(عبطوه أي ضموه بين الذراعين)
وأختنان (فلان) عبطوه	
حشيمته لأمه وأبوه	(حشيمته أي كرامته لأهله)
على (فلان) اظلال العرش ينثر	(اظلال العرش أي حماية الله)
لعله في حياته ما يرى الشر	
لعله في منامه يضعونه	(يضعونه أي يبقونه)
أسعيد وتقصر العيفات دونه	(أسعيد أي سعيد ، والعيفات أي الرزايا)

كما تطلب أغاني الختان من الله أن يسلم المختون من كل شر ويبارك لهم فيه .

تبادينا بذكر الله
نبينا يا رسول الله
عبد الله صغير ونرجيه
يارب سلمه وبارك فيه

ويلاحظ في أغاني الختان عموماً ذكر اسم الله واسم نبيه حتى يحفظ الله المختون من كل سوء ويجنبه كل شر ومكروه . وذكر الله في أغاني الختان يجنب المختون الشر ويبارك الله فيه . كما أن الأهالي تيمناً بميلاد الرسول عليه السلام ، حيث ولد يوم الإثنين ، ولذلك فهو يوم مبارك تجري فيه المناسبات السعيدة ، ومنها الختان .

بعض العادات الاجتماعية المصاحبة لنمو الطفل :

يتعلَّم الطفل من واقع مجتمعه المحلِّي ، ومن خلال العادات والتقاليد التي يغرسها في ذهنه الأهل أثناء المراحل المختلفة لعملية التنشئة الاجتماعية في نطاق الأسرة[٤٢]. فهو يتعلَّم مثلاً ما ينبغي توقعه من الآخرين أي من الناس المحيطين به ، كما سبق أن أوضحنا عند عرضنا للإطار النظري الشامل لموضوع التنشئة . وفي مقدمة من يتعلَّم الطفل منهم الوالدين والرفاق والأصدقاء . ويتعلَّم التفاعل الاجتماعي مع جماعة الرفاق وتكوين الصداقات معهم والاتصال والتوافق مع الآخرين . وكذلك يتعلم الطفل التمييز بين الخطأ والصواب والخير والشر . وينمو لديه هذا التمييز بشكل واضح عاماً بعد عام . ويتعلم عن طريق والديه معايير الأخلاق والقيم[٤٣]. كما يتعلم التوحُّد مع أفراد نفس الجنس ، ومعرفة الدور الجنسي في الحياة . كذلك يتعلم تكوين اتجاهات سليمة نحو الجماعات والمؤسسات التي ينتمي إليها في مجتمعه المحلِّي الصغير . ويتعلم ممارسة الاستقلال لشخصي وتكوين مفاهيم عن الواقع الاجتماعي ، وتنمية ذاته واكتساب اتجاه سليم نحو الذات والإحساس بالثقة في الذات وفي الآخرين .

وهناك بعض التعبيرات الحانية التي يطلقها الأهل على الطفل عندما يهدهد ، حيث يقولون (عشت وعشعشت ... في بيت البابا بنشت » . أما إذا تجشأ الطفل فيقال له « عافية » .

ويعطى الأطفال « قرقاشة » وهي عبارة عن الشخشيخة في الثقافة المصرية . ولا يوجد تميز واضح من أي نوع بين الأطفال حتى سن التاسعة تقريباً . كذلك يعطى الطفل « اللهاية » أي البزازة وذلك حتى يسكت ولا يبكي .

ويطلق تعبير « التسنين » عندما تظهر للطفل أسنان وضروس ، وعندما (يسنن) الطفل تنثر على رأسه الحلويات والقريضات (المكسَّرات) والنقود . وعندما يبدأ الطفل خلع أسنانه اللينة يقوم برميها في الصباح ويقول للشمس : « خذي ضرس الحمار واعطيني ضرس الغزال » فجميع الأسنان تسمَّى أضراساً .

ويسمى الطفل الكبير « البكر » والطفل الذي يليه « الثنى » والباقون حسب ترتيبهم الثالث والرابع والخامس ... الخ . وكأي أسرة يوجد بها طفل واحد ، فإنه يكون هناك وضع خاص للطفل الوحيد في الأسرة من حيث زيادة العناية به وتدليله .

ومن الشائع إجراء احتفال بسيط لحلاقة شعر البطن ، ولا يتأثر ذلك بترتيب الطفل . ويوزن شعر الوليد الذكر ، ومقدار وزن هذا الشعر يكون نقوداً توزع على الأطفال . كما يحلق شعر الفتيات بالموس حتى يقوى ويزداد طولاً .

ومن العادات الشعبية المتبعة والواجبة الأداء الدعاء الذي يقال في مناسبة ختم القرآن على يد المطوّع وتلامذته الصغار من أولاد وبنات لم يتجاوزوا العاشرة من عمرهم . فلقد جرت العادة أن يرسل الآباء أبناءهم الصغار ليتعلموا قراءة القرآن وفهمه عند المطوع (شيخ الكتاب) حيث يجلس المطوع ومن حوله الصبية يقرئهم القرآن بالطريقة التي تعلمها هو وبالأسلوب الذي اتخذه لنفسه حاملاً عصاً طويلة بيده يحركها باتجاه هذا الطفل أو ذاك ، تماماً كما هو متبّع لوقت خلا في معظم البلدان العربية . ويتقاضى المطوع أجراً معلوماً من العيش (الأرز) والتمر والسمك وما إلى ذلك من الأشياء العينية أو بعض النقود المعدنية أو الورقية إن وجدت[٤٤].

وعند ختم القرآن يلبس الصبي لباساً جديداً واضعاً خنجره في وسطه ومتقلّداً سيفه ، يذهب هذا الصبي مع زملائه ، وهم يحيطون به من كل ناحية - وكأنها زفة عريس - إلى البيوت يدعون بأدعية معينة ، وأصحاب البيوت يعطونهم نقوداً إلى أن يمتلىء كيسهم ، فيأخذونه إلى المطوع مكافأة له على ماقام به من تحفيظ للصبي . وقد يحدث أن يكون صوت الصبي الخاتم للقرآن ضعيفاً ، فيعهد إلى صبي آخر من زملائه بالدعاء ، وإذا امتنع هذا السبب أو لآخر ، يبادر المطوّع بقول الأدعية والجميع يردّدون من ورائه كله آمين ، حيث يقسّم الدعاء إلى أقسام صغيرة أو فقرات أو شطرات يقف الصبي عند نهايتها ليؤمن الجميع (أي يقولوا آمين) . وهكذا إلى أن ينتهي الدعاء . عندئذ يقفل الجميع راجعين إلى بيوتهم بعد إعطاء النقود للمطوع .

أغاني الأطفال :

تعدُّ أغاني الأطفال مادة غنية وخصبة يمكن أن يستقي منها كثيراً من العادات المصاحبة لعملية التنشئة الاجتماعية الأسرية للطفل . كما أن تلك الأغاني تحتل مكاناً متميزاً داخل تراث الأغاني الشعبية . فهي أقدم أنواع الأغاني الشعبية على الإطلاق وأوسعها انتشاراً . كما نجدها تتشابه فيما بينها إلى حدٍّ بعيد من حيث النغم ومن حيث المضمون بين الثقافات على امتداد العالم . وهي من أغنى المصادر التي تحفظ لنا بقايا معتقدات وممارسات ومناسبات درست ولم يعدلها وجود في عالمنا المعاصر .

ويمكن تقسيم أغاني الأطفال من حيث المضمون إلى أربع مجموعات أو فئات كبيرة هي(٤٥):

(أ) المجموعة الأولى هي تلك الأغاني التي تتردَّد في أثناء التعامل بين الطفل والكبار المحيطين به ، خاصة أولي الأمر . وتنتمي إلى تلك المجموعة أغاني المهد ، وأغاني ملاعبة وهدهدة الطفل والأغاني ذات المضمون التربوي بصفة عامة .

(ب) المجموعة الثانية هي تلك التي تتردَّد من خلال تعامل الطفل مع البيئة ، وخاصة البيئة المحيطة . فالطفل يغني لكثير من الظواهر والتغيرات الطبيعية التي تلفت نظره أو تخيفه أو تعجبه أو تفاجئه ... الخ . فهو يفرح للمطر ، ويمضي تحت وابله منتشياً فيتمنى أن يشتد ليزدهر الزرع ويفيض الإنتاج فيمتلىء بطنه . كما يغني الطفل للقمر وللشمس وهو يرمي إليها بضرسه ، ويغني للرعد والبرق ... الخ . كما يغني للحيوانات والطيور المعروفة في بيئتها .

(ج) المجموعة الثالثة هي تلك الأغاني التي تنشأ نتيجة العلاقة الوثيقة بين الإيقاع واللعب ، فتنشأ أغاني اللعب ، وأغاني الرقص ، والأغاني التنافسية ... الخ .

(د) أما المجموعة الأخيرة فتنشأ نتيجة التفاعل بين الطفل والمجتمع المحيط به في مناسبات العادات الشعبية المختلفة في مراحل دورة الحياة Life Cycle (كأغاني السبوع ، والختان ، والزواج ... الخ) ، والمناسبات التي ترتبط بمرور العام وتتابعة (كأغاني الأعياد الدورية ورمضان ... الخ) .

ولا يتّسع المجال هنا لإيراد نماذج من أغاني الأطفال التي تقال في هذه المناسبات المختلفة ، ويمكن لمن يريد الاستزادة الرجوع لبحث آخر للكاتب(٤٦) ولمراجع أخرى متعدِّدة .

ألعاب الأطفال الشعبية :

تعتبر الألعاب الشعبية ضرورة أساسية من ضرورات الطفولة ، لأنها تصاحب الطفل من بداية تكوُّن القدرات الحركية عنده ، وتتطوَّر عنده تبعاً لتطور قدراته الجسمية والنفسية والاجتماعية ، فهي بذلك خاصة طبيعيَّة لديه ، لا تحتاج إلى تربية معينة لتعويده عليها أو جذبه إليها ، وربما فقط لتنظيم ممارسته لها . ويتم هذا التنظيم بشكل تلقائي عادة من خلال التفاعل مع أمه في البداية ، ثم مع رفاقه بعد ذلك(٤٧).

والألعاب الشعبية متنوعة تنوعاً كبيراً ، ومتدرجة كي تصلح لكل الأعمار والقدرات ويمكن تدبيرها بسهولة بأبسط الإمكانيات وبما هو متاح في البيئة المحلية . وهي تهدف من بين ما تهدف إليه إلى إظهار المهارة وسرعة البديهة وأحياناً القوة ، فتشدُّ الأطفال إلى ممارستها ، وتحقق لهم بذلك قدراً من الإشباع هم في حاجة طبيعيَّة إليه . ولذلك تعمل تلك الألعاب على تكوين الشخصية الناضجة ، وتتيح الفرصة للطفل لتنمية استعداداته وقدراته ، ومتابعة احتياجاته الأساسية بدنية ونفسية واجتماعية . ويذهب بعض الباحثين إلى القول بأن دلالة التراث والمجتمع بالنسبة لعالم الطفل وألعابه دلالة واضحة وقوية ، فقد حفظت لنا ألعاب الأطفال كثيراً من عناصر التراث القديم ، التي كان يمكن أن تختفي دون أثر لولا ارتباطها بألعاب الأطفال . ويؤكد فريق من الباحثين أن دراسة ألعاب الأطفال تعدُّ إسهاماً تربوياً هامًّا بعيد الأثر في تأسيس فهم انثروبولوجي شامل ومتكامل للإنسان .

وهناك ألعاب كثيرة يلعبها الأطفال في المجتمع القطري مثل التيلة ، والحق واركب ، وألعاب الدمى ، وألعاب المخازد ، والبروى ، والبلبول ، وبيوت الرمل ، وجب لو كتب التي تستخدم فيها النقود المعدنية ... الخ .[٤٨] وقد أخذت هذه الألعاب في الانقراض شيئاً فشيئاً بعد نشأة المدارس الحديثة في قطر ، وبسبب ميل الأطفال الذي بدأ يزداد نحو لعب كرة القدم وغيرها من الألعاب الحديثة في الوقت الحاضر ، ومن هنا يجب الالتفات إلى تطوير ألعاب الأطفال والترويج للمفيد منها من خلال وسائل الثقافة الرسمية أيضاً .

خاتمة : الآثار المترتبة على استخدام المربيات الأجنبيات .

لا يسع الكاتب في نهاية هذا البحث إلا أن يشير ، ولو مجرَّد إشارة سريعة ، إلى الآثار المترتبة على الاعتماد المتزايد على المربيات الأجنبيات في عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية . وهي ظاهرة تكاد تكون عامة بالنسبة للمجتمعات الخليجية بصفة عامة خصوصاً في مرحلة مابعد النفط . ولاشك أن قضية الاعتماد على المربيات الأجنبيات في الأسرة العربية الخليجية من أجل تنشئة الأطفال وتربيتهم ، قضية تحتاج إلى دراسات أمبيريقية شاملة لتحديد حجم المشكلة ، وليس من مجرَّد انطباعات أو دراسة حالات فردية . وقد فتحت الدكتورة جهينة سلطان العيسى الباب لدراسة هذه المشكلة الاجتماعية والتربوية الخطيرة ، من خلال دراستها لظاهرة العمالة الأجنبية ، وبالذات

المحاولة التي قدَّمتها لدراسة التأثيرات الاجتماعية للمربية الأجنبية على الأسرة في المجتمعات الخليجية(٤٩). وهي محاولة طيِّبة ، وتعدُّ بحثاً غير مسبوق ، باللغة العربية ، على حدِّ علم الكاتب .

ولسنا هنا في مجال مناقشة الآثار الإيجابية والسلبية للعمالة الأجنبية على المجتمع القطري ، ولاسيما العمالة غير العربية . ولكن مايعنينا هنا هو التنبيه والتحذير من الآثار الضارة ، بل والمدمِّرة ، لاستخدام المربية الأجنبية على عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية . فالمفروض أن الذين يقومون بعملية التنشئة الاجتماعية الأسرية هما الأبوين أساساً ، ويأتيان بطبيعة الحال في المرتبة الأولى . والأبوان ينقلان للطفل ثقافة المجتمع ومعاييره وعاداته وتقاليده وقيمه . ومن الملاحظ أن المربية أثناء فترة جلوسها مع الطفل تحادثه بلغتها وتحكي له الحكايات وتسمعه أغانيها ، وعن هذا الطريق يتعلَّم الطفل لغة المربيَّة على حساب اللغة العربيَّة ، وهي لغة مجتمعه الأصلية . بل إن الخطورة تزداد حينما تبدأ المربيَّة بالتحدث باللغة العربيَّة ، إذ يتعلم الطفل اللغة العربية بأسلوب وبطريقة المربيَّة الأجنبية . ومن جانب آخر فإن محاولة بعض المربِّيات التحدث مع الطفل باللغة الإنجليزية أفقد اللغة الإنجليزية مضمونها ومحتواها ، إذ أن المربية تتكلم الإنجليزية دون التزام بقواعد اللغة من جهة ، وبلكنة خاصة من جهة ثانية ، فيلتقط الطفل الكلمات كما تتكلمها المربية(٥٠).

ناهيك عن تأثير المربية على قيم وعادات الطفل العربية ، فهي من خلال احتكاكها بالطفل تنقل إليه ثقافتها بطريقة مباشرة . فنجدها تمارس عملية التنشئة الاجتماعية كما تمارسها في مجتمعها الأصلي ، وتنقل للطفل حصيلة من القيم والعادات وأنماط السلوك المغايرة للقيم والعادات وأنماط السلوك السائدة في مجتمعه ، مما يتأثر معه بناء شخصية الطفل ، الذي تلعب تجارب الطفولة فيه دوراً لا يمكن انكاره ، إذ تندمج هذه التجارب في شخصية الطفل،وتظهر فيما بعد في اتجاهات فعله وتفكيره وشعوره ، مما يكون له أثره في تغير بناء شخصيته عن الصورة التي تتفق مع النمط الثقافي القائم ، والسمات الثقافية الشائعة بين أفراد المجتمع . ومن المعروف أن هذه السمات ما هي إلا النواة الأساسية لبناء الشخصية الاجتماعية ، أو الشخصية الغالبة بين أعضاء المجتمع التي تتكون وتنمو نتيجة التجارب الأساسية التي يمارسها الفرد حسب طريقة الحياة السائدة في المجتمع(٥١).

ولما كانت الأسرة هي النسق الاجتماعي المسئول عن تربية الأولاد وبلا منازع ، حتى طور المدرسة ، إذ تعكس تجارب الطفولة الأولى داخل الأسرة ، كما ألمعنا ، المضمون الاجتماعي للمجتمع ، وتلعب دورها في ربط الشخصية بالبناء الاجتماعي ، لتبيِّن لنا مدى خطورة الاعتماد على المربية

الأجنبية الذي من المتوقع أن يتزايد مع مرور الوقت نتيجة خروج المرأة القطرية إلى ميدان العمل . بل إن وجود ظاهرة استخدام المربيات الأجنبيات يرتبط أيضاً بالمكانة الاجتماعية Social status ، باعتبار أن المربية تقع ضمن عناصر الوجاهة الاجتماعية[٥٢] Social prestige. ولهذا الوضع خطورته ، فالطفل مثلاً في حالة كون المربية هندية نجده يتكلم بلغة المربية أو بلغة عربية ركيكة تدخلها كلمات هندية ، ويهتم بالأفلام والأغاني الهندية ، بل وتساهم المربية في غرس قيم غريبة عن ثقافة الطفل القطري . أضف إلى ذلك أنه نتيجة لمستوى المربيات التعليمي والاجتماعي المتدنّي ، فإنهن يقمن في الغالب بنقل عناصرها مشية من ثقافتهن إلى الأطفال تعتمد في المقام الأول على الخرافات والغيبيّات[٥٣].

ويؤيد عالم الاجتماع روبرت ميرتون Robert Merton المقولة القائلة بأن كل قيم الشخص كالاعتماد والاستقلال والطمأنينة والحرية والصدق ... الخ تشكّل حسب نوع مشاركة الطفل وتفاعله مع أعضاء الأسرة وبخاصة الوالدين ، على اعتبار أن الأسرة إحدى الوسائل الفعالة في نقل التراث الثقافي للأجيال المتعاقبة ، وأداة لتنظيم سلوك الطفل حول الأهداف الثقافية والإجتماعية ، ولتكوين الوازع الخلقي عنده[٥٤]. ولمّا كانت الشخصية نسقاً نفسيًّا متميزاً لا وجود حقيقي له بدون الثقافة والبناء الاجتماعي[٥٥] ، بتعبير تالكوت بارسونز ، يتبين أيضاً مدى خطورة استخدام المربية الأجنبية لا على عملية التنشئة الاجتماعية الأسرية وحدها ، بل أيضاً على تكوين وبناء الشخصية القومية ككل .

قائمة المراجع والملاحظات

(١) للوقوف على تفصيلات وافية حول هذه النقطة أنظر :
- فاروق محمد العادلي : الأنثروبولوجيا التربوية ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ، ١٩٨١ .
- محمد سعيد فرح : الطفولة والثقافة والمجتمع ، منشأة المعارف ، الإسكندرية ، ١٩٨٠ .
- محمد سعيد فرح : البناء الاجتماعي والشخصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الاسكندرية ، ١٩٨٠ .

Levon Melikian : Jassim, A Study in the Psychological Development of a Young Man in Qatar, Longman, London, 1981.

(٢) جابر عبد الحميد وآخر ، دراسات نفسية في الشخصية العربية ، عالم الكتب ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ١٩ .

(٣) أنظر : Talcott Parsons, Social Structure & Personality, 2nd. ed., The Free Press, Londn, 1965, p. 16.

(٤) أنظر : Ibid., pp. 16–18.

(٥) محمد سعيد فرح : البناء الاجتماعي والشخصية ، مرجع سابق ، ولا سيا التحليل الذي أورده في الفصل الثالث عن علاقة التنشئة الاجتماعية بكل من البناء الاجتماعي والشخصية .

(٦) أنظر : H. P. Fairchild, Dictionary & Sociology, The Philosophical Cibrary, New York, 1944, p. 266.

(٧) الجزاء الاجتماعي Social Sanction هو ردّ فعل المجتمع أو عدد من أفراده إزاء أي شكل من أشكال السلوك ، وهذا الجزاء يكون موجباً إذا ما تمّ الامتثال للسلوك ، ويكون سالباً إذا ما تمّ الإعراض عنه . وتنقسم الجزاءات الاجتماعية إلى جزاءات منتشرة وجزاءات منظمة . أما عن الأولى فهي ردود الأفعال التلقائية التي يقوم بها الأفراد حين يوافقون على نمط السلوك أو يعارضونه ، بينما تمثل الثانية فيا يقوم به المجتمع من إجراءات تقليدية منظمة إزاء أنماط السلوك . وثمة حقيقية هامة وهي أن كل المجتمعات تتميز بأن أحكامها السالبة أي

(العقوبات) Negative sanctions تكون أكثر تحديداً وَ حَسْماً من أحكامها الموجبة Positive Sanctions أي (الإثابات) .

للوقوف على تفصيلات وافية وقيمة حول هذا الموضوع يراجع الفصل (الحادي عشر) من المرجع الآتي :

A. R. Radcliffe – Brown : Structure & Function in Primitive Siciety, Six Impression, Cohen and West Ltd., London, 1965.

(٨) انظر : Alexander Golden weiser, Anthropology, Geory G. Harrap & Co. Ltd., London, 1937, p. 68 ff.

وانظر كذلك ، محمد الزلباني : الخليفة النظرية للقيم ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٧٣ .

(٩) يطبق مفهوم الشخصية المنوالية على أي منهج يحدِّد الشخصية المميزة لأي جماعة ثقافية عن طريق الميل المركزي لأي توزيع تكراري معين . وبما أنه لايمكن استنتاج التوزيعات الإحصائية لسمات الشخصية من المادة الثقافية المتمثلة في التقارير الإثنوجرافية ، اتجه البحث عن مادة أخرى لاستنتاج الشخصية المنوالية . وتتمثل تلك المادة في نتائج الاختبارات النفسية لعينة من الجماعة الثقافية قيد الدراسة .

(١٠) قدَّم العلامة «كاردنير» مفهوم البناء الرئيسي للشخصية . وهو مفهوم غير احصائي يركز على البناء الجوهري للشخصية ، ويفترض وجود هذا البناء عند كل أفراد الجماعة قيد البحث . وهو في تركيزه على إبراز هذا البناء الجوهري أهمل السمات الهامشية والانحرافات . ويختلف الوضع في مفهوم الشخصية المنوالية الذي يمثل التركيب الإحصائي المتناظر . ويقصد بصفة « المنوالية » أن متغيراً ما يتمتع بأعلى تكرار في توزيع ما .

للوقوف على تفضيلات أوفى ، انظر ، عاطف وصفي : الثقافة والشخصية ، دار المعارف ، ١٩٧٥ .

(١١) للوقوف على تفصيلات وافية ودقيقة حول هذا الموضوع ، أنظر الفصل السابع عشر من كتاب رالف بيلز وهاري هويجر : مقدمة في الأنثروبولوجيا العامة ، الترجمة العربية أنجزها الدكتور محمد الجوهري وزملاؤه ، الجزء الثاني ، دار نهضة مصر للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٧٧ .

(١٢) أنظر : Bronislaw Malinowski, «Marriage», in Encyclopaedia Britannica, London, 1962, p. 930.

وكـذلـك أنظر ، عليـاء شكري : الاتجـاهـات المعـاصرة في دراسـة الأسرة ، دار المعـارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ ، ص ٢٤٧ وما بعدها .

(١٣) علياء شكري ، نفس المرجع الذي سبقت الإشارة إليه ، ص ٢٤٨ .

(١٤) فاروق محمد العادلي : الأنثروبولوجيا التربوية ، مرجع سابق ، ص ٤٠ .

(١٥) علياء شكري ، مرجع سابق ، ص ٢٤٩ .

(١٦) حول هذه النقطة الهامة أنظر المراجع الآتية على سبيل المثال :

– Jill korbin : Anthropological Contributions to the Study of child Abuse, International Child Welfare Review, No. 35, December 1977, pp. 23–31.

– Charles Harring Gton & John Whiting, «Socialization Process & Personality» in Francis Hsu (ed.), Psychological Anthropology, Cambridge, 1972.

(١٧) أنظر : R. J. Bell, «A Reinterpretation of the Direction and Effects in Studies of Socialization», in Danzinger (ed.), Reading in Child Socialization, Oxford Pergamon Press, London, 1970.

(١٨) فاروق العادلي : الأنثروبولوجيا التربوية ، مرجع سابق ، ص ٢٣٥ .

(١٩) لمعرفة تفصيلات مفيدة عن كيفية غرس القيم في نفس الفرد ، انظر ، محمد الزلباني : الخلفيـة النظرية للقيم ، مرجع سابق ، وبصفة خاصة الفصول الثلاثة الأولي من الكتاب . وكـذلـك أنظر :

– William F. Ogburn & M. F. Nimkoff : A Handbook of Sociology, The International Library of Sociology and Social Receonstruction, Kegan & Paul Ltd., London, 1946.

(٢٠) أنظر : – E. Bogardus : Sociology, 4th. ed., The Macmillan Co., New York, 1954, p. 27.

(٢١) أنظر : Ibid., p. 27.

(٢٢) أنظر : P. B. Horton & C. L. Hunt : Sociology, 2nd. ed., Mc Graw Hill Book Co., New York, 1968, p. 128.

(٢٣) أنظر : A. R. Radclilffe – Brown, op. cit., Ch. 11.

وانظر كذلك الحاشية رقم (٧) من قائمة المراجع والملاحظات الخاصة بهذا البحث .

(٢٤) محمد الزلباني : مدخل للنظم الاجتماعية ، الجزء الأول ، الأسس البيولوجية والسيكلوجية في الإنسان وعلاقتها بإنتاج الحضارة ، المطبعة العالمية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

(٢٥) أنظر : Ogburn & Nimkoff, op. cit., p. 152.

(٢٦) أنظر : H. Hoijer & R. Beals : An Introduction to Anthropology, The MacMillan Company, New York, 1972, p. 289.

(٢٧) أنظر : John Clausen : Perspective on Childhood Socialization, in John Cluusen Socialization and Society, 1979, p. 137.

وكذلك انظر ، سعيد فرح : الطفولة والثقافة والمجتمع ، مرجع سابق ، ص ٢٢ .

(٢٨) محمد سعيد فرح : المرجع السابق ، ص ٢٨ .

(٢٩) اعتمدنا في عرض هذا الطور على ما أورده سعيد فرح في كتابه البناء الاجتماعي والشخصية ، ص ص ٢٥٧ – ٢٦٥ . وللوقوف على تفصيلات يرجع إلى المؤلفين الآتيين لتالكوت بارسونز :

– Talcott Parsons : Family, Socialization and International Process, The Free Press, London, 1955.

– Talcott Parsons : Social Structure and Personality, 2nd. ed., The Free Press, London, 1965.

(٣٠) أنظر على سبيل المثال :

– J. Honigmann : Culture and Personality, Harper, New York, 1954.

– C. Kluckhohn & H. Murray (eds.) Personality in Nature, Society and Culture, Alfred A. Knopf, New York, 1959.

(٣١) فاروق محمد العادلي : دراسات انثروبولوجية في المجتمع القطري ، دار الكتاب الجامعي ، القاهرة ، ١٩٨١ .

(٣٢) المرجع السابق ، ص ٩٣ .

(٣٣) محمد الجوهري : الطفل في التراث الشعبي ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثالث ، الكويت ، ١٩٨٠ ، ص ٦٤٤ .

(٣٤) أنظر بيانات اثنوجرافية مفصلة أوردتها علياء شكري في دراستها لبعض المجتمعات المحلية في المملكة العربية السعودية . علياء شكري : بعض ملامح التغير الاجتماعي الثقافي في الوطن

العربي ، دراسات ميدانية لبعض المجتمعات المحلية في المملكة العربية السعودية ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٩ .

(٣٥) أورد أحمد أمين في « قاموسه » أن الرجل إذا أراد أن تلد امرأته الذكور فليضع يده اليمنى على سرتها وهي نائمة ، ويمسح على السرة وهي في ابتداء حملها ويقول ثلاث مرات ، وهو يديم المسح بيديه : « اللهم إن كنت خلقت خلقاً في بطن زوجتي هذه فكونه ذكراً وأنا أسميه محمداً . رب لا تذرني فرداً وأنت خير الوارثين . فبشرناه باسحق ومن وراء اسحق يعقوب ، وبشروه بغلام عليم » .

أنظر ، أحمد أمين : قاموس العادات والتقاليد المصرية ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٥٣ ، ص ٤١٥ .

(٣٦) هناك دراسة يقوم بها الكاتب في الوقت الحاضر عن « الخلفية الثقافية للشخصية ، مع محاولة لتحديد السمات الشائعة للشخصية القطرية وستنشر في العدد القادم من مجلة الإنسانيات بإذن الله .

(٣٧) راجع وجهة نظر بارسونز بالتفصيل في الفقرة التي أفردناها للحديث عن الأسرة والتنشئة الاجتماعية : تصور نظري عام .

(٣٨) عبد المنعم المليجي وآخر : النمو النفسي ، الطبعة الرابعة ، دار النهضة العربية ، بيروت ، ١٩٧١ ، ص ١٠٢ .

(٣٩) أنظر ،
G. Gorer : «Themes in Japanese Culture», in D. Haring (ed.), Personal Character and Cultural Milieu, A Collection of Readings, Syracuse University Press, Syracuse, 1949, pp. 273–290.

(٤٠) محمد طالب الدويك : الأغنية الشعبية في قطر ، الجزء الثاني (أغاني الحياة) ، وزارة الإعلام ، قطر ، ١٩٧٥ .

(٤١) هذا الاعتقاد صحيح وله مايبرّره ، وهو ما أثبتته تجارب ختان الأنثى Female circumcision في عدد من المجتمعات الإفريقية مثل السودان وغيرها ، وفي بعض الجماعات المحلية المنعزلة في بعض المجتمعات الإسلامية في السعودية وماليزيا واندونيسيا ، حيث تتم ممارسة مايطلق عليه الختان الفرعوني Pharaonic circumcision حيث يزال البظر Clitoris والشفرين الصغيرين Labia minora والشفرين الكبيرين Labia majora أو أجزاء كبيرة منها . وقد ثبت بصفة قاطعة أن ختان الفتاة على هذا النحو يسبب لها متاعب صحية عنيفة نظراً لقسوة هذه العملية والطريقة البدائية التي تتم بها ، علاوة على

ما تجره عملية الختان من متاعب نفسية واجتماعية خطيرة فيما بعد .

للوقوف على تفصيلات ثرية حول ظاهرة ختان الأنثى وآثارها ، يراجع المقال التالي :

Taha Baasher, «Female Circumcision and Women's Health», in Draper Fund Report, Improving the Status & Women, No. 9, Washington, October, 1980, pp. 19-20.

(٤٢) يراجع ماذكرناه في هذا البحث بخصوص دور التنشئة الاجتماعية الأسرية في نقل الثقافة وبقائها .

(٤٣) للوقوف على تأصيل نظري مفصل وعميق لعملية التطبيع الاجتماعي التي يمارسها الوالدين ، راجع كتاب عالم الأنثروبولوجيا الأمريكي الأشهر توماس ويليامز :

Thomas R. Williams : Introduction to Socialization, St. Louis : Mosby, 1972.

وانظر كذلك على سبيل المقارنة ، فوزية دياب : القيم والعادات الاجتماعية ، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ، ١٩٦٩ .

(٤٤) فاروق محمد العادلي : دراسات انثروبولوجية في المجتمع القطري ، مرجع سابق ، ص ١٠٨ .

(٤٥) للوقوف على تفصيلات عديدة وهامة أنظر ، محمد الجوهري : الطفل في التراث الشعبي ، ص ٦٦٨ وما بعدها .

(٤٦) فاروق محمد العادلي : دراسات انثروبولوجية في المجتمع القطري ، وكذلك محمد طالب الدويك : الأغنية الشعبية في قطر .

(٤٧) محمد الجوهري ، الطفل في التراث الشعبي ، مرجع سابق ، ص ٤٨ ومابعدها .

(٤٨) فاروق محمد العادلي : دراسات انثروبولوجية في المجتمع القطري ، ص ١٢٣ ومابعدها .

(٤٩) جهينة سلطان العيسى : آثار العمالة الأجنبية على الأسرة العربية : التأثيرات الاجتماعية للمربية الأجنبية على الأسرة في المجتمعات الخليجية - محاولة منهجية ، مركز دراسات الوحدة العربية ، المعهد العربي للتخطيط ، الكويت ، ١٩٨٣ .

(٥٠) المرجع السابق ، ص ١٥ .

(٥١) أنظر : Ralph Linton : The Cultural Background of Personality, Appleton Century-Crofts, INC., New York, 1945, pp. 128-130.

(٥٢) جهينة سلطان العيسى ، مرجع سبقت الإشارة إليه ، ص ٨ .

(٥٤) سعيد فرح : البناء الاجتماعي والشخصية ، ص ٢٤٢ .

(٥٥) أنظر : Talcott Parsons : Social Structure and Personality, Op. Cit.

ظاهرة الأنا في شعر المتنبي

بين النظرية والتطبيق

الأستاذ الدكتور
ماهر حسن فهمي
أستاذ بقسم اللغة العربية

كان الشاعر الجاهلي والإسلامي يرسم في ممدوحه المثالية الرفيعة التي تقدرها الجماعة ، وإذا كان مؤثراً في حياة عصره السياسية كأن يكون خليفة أو والياً عرض لأعماله وللأحداث التي شارك فيها ، أما إذا كان بطلاً يقود الجيوش ضد أعداء الأمة العربية فإنه يصور بطولته وما خاضه من معارك ، وقد اضطردت هذه الغايات للمدحة في العصر العباسي ، إذ نرى الشعراء يبدأون ويعيدون في تصوير المثل تصويراً حياً ناطقاً . ويضيق الحصر عما استنبطوه من معان طريفة ، في السماحة والكرم والحلم والحزم والمروءة والعفة وشرف النفس وعلو الهمة والشجاعة والبأس . وقد جسموها في عين الممدوحين تجسيماً قوياً ، حتى لتصبح وكأنها تماثيل قائمة نصب أعين الناس كي يحتذوها ويحوزوا لأنفسهم مجامع الحمد والثناء . وبذلك ظلت المدحة تثبت في الأمة التربية الخلقية القويمة حافزة لها على الفضائل والمكارم الرشيدة . والذي لا ريب فيه أنها تحمل خصالنا وخصائصنا النفيسة . وقد أشعل الشعراء العباسيون جذوتها في النفوس بما رفدوها به من عقولهم الخصبة وأخيلتهم البارعة . وقد أمضى الشعراء في مديح الخلفاء والولاة يضيفون إلى هذه المثالية مثالية الحكم وما ينبغي أن يقوم عليه من الأخذ بدستور الشريعة وتقوى الله والعدالة ، لا تصلح حياة الأمة بدونها ، وبذلك كان صوتاً قوياً لها ، صوتاً ماينى يهتف في آذان الحكام بما ينبغي أن يكونوا عليه في سلوكهم وسياستهم .

وقد يكون الخليفة سيء السلوك مثل الأمين ، ولكن الشعراء يمدحونه بنفس هذه المثالية الكريمة للخلفاء ، لأنهم لا يمدحونه من حيث هو ، وإنما يمدحونه خليفة للمسلمين وموضع آمالهم ، وكأنما يريدون أن يرفعوا أمام عينيه الشعارات التي تطلبها الأمة في خليفتها وراعيها ، لعله يثوب إلى طريق الرشاد . ولم يصور الشعراء مثاليتنا الخلقية العامة في مدائحهم ، وكذلك مثاليتنا السياسية فحسب ، بل صوروا أيضاً الأحداث التي وقعت في عصور الخلفاء ، وخاصة الفتن والثورات الداخلية وحروب أعداء الدولة من الروم والترك ، وبذلك قامت قصيدة المديح في هذا العصر مقام الصحافة الحديثة ، فهي تسجل الأحداث التي عاصرها الشاعر ، والأعمال الكبرى التي ينهض بها الخلفاء وربما كان أهم ما سجلته صحف المديح في هذا العصر صور الأبطال الذين كانوا يقودون جيوش الأمة المظفرة ضد أعدائها من الترك والبيزنطيين فقد أشادت إشادة رائعة بكل معركة خاضوا غمارها وكل حصن اقتسموه ، حتى كادت لا تترك موقعة ولا بطلا دون تصوير يضرم في النفس العربية الاستبسال والمضاء وجلاد الأعداء جلاداً عنيفاً ، وكل كاتب في هذه الصحف أو قل كل شاعر يتفنن في رسم بطولة القائد الذي يمدح رسماً يشعل الحماسة في نفوس جنوده ونفوس الشباب العربي من ورائهم ، فإذا هم يترامون على منازلة أعدائهم ترامي الفراش على النار يريدون أن يسجلوا نصراً حاسماً .

وكانت المدحة قديماً تشتمل على مقدمات تصف الأطلال وعهود الهوى بها ، وما يلبث الشاعر أن يستطرد إلى وصف الصحراء ناعتاً ما يركبه من بعير أو فرس وكثيراً ما يضمنها بجانب ذلك حكماً تبصر السامع بأطراف من سنن الحياة ، وكل ذلك استبقاه شاعر المدحة في العصر العباسي ، ولكن مع إضافات كثيرة حتى يلائم بينه وبين عصره . وقد تتسع الإضافة أحياناً أخرى ولكنها دائماً تعبر عن الذخائر العقلية والخيالية للشاعر العباسي . وقد نعجب لاستبقاء هؤلاء الشعراء المتحضرين لعناصر الأطلال ورحلة الصحراء البدوية ، غير أنهم اتخذوها رمزاً ، أما الأطلال فلحبهم الداثر ، وأما رحلة الصحراء فلرحلة الإنسان في الحياة وقد استعملوا ما كان يصحب الأطلال من حنين لذكريات حبهم ومعاهده لايزال يترقرق في أشعارهم .

وعلى هذا النحو ازدهرت المدحة على لسان الشاعر العباسي لا بما رسم فيها من مثاليتنا الخلقية ، وسجل من الأحداث وصور من البطولات العربية فحسب ، بل أيضاً بما تمثل من العناصر القديمة وأذاع فيها من ملكاته وما أضافه إليها من عناصر جديدة استمدها من بيئته الحضارية ومن نفسيته وملكاته العقلية . ودفعتهم دقتهم الذهنية إلى أن يلائموا بين مدائحهم

وممدوحيهم ، فإذا مدحوا الخلفاء نوهوا ، بتقواهم وعدلهم في الرعية ، وإذا مدحوا القواد أطالوا في وصف شجاعتهم ، وإذا مدحوا الوزراء تحدثوا عن حسن سياستهم ، وكذلك صنعوا بالفقهاء والقضاة والمغنين ، فلكل أوصافه التي تخصه ، وهي أوصاف طلبوا فيها وفي كل مدائحهم عمق الفكر وفنية العبارة[1] .

ولا شك أن النابغة والأعشى كانا من أوائل شعراء المديح في أدبنا العربي ، ترى كيف كانت قصيدة المديح ؟ قال الأعشى يمدح الأسود بن المنذر اللخمي :

فرع نبع يهتز في غصن المجد	عزيز القوى شديد المحال
عنده الحزم والتقى وأسا الصرع	وحمل لمضلع الأثقال
وصلات الأرحام قد علم النا	س وفك الأسرى من الأغلال
وهوان النفس العزيزة للذكر	إذا ما التقت صدور العوالي
وعطاء إذا سألت إذا العِذرة	كانت عطية البُخّال[2]

ثم يستمر متحدثاً عن وفائه وإجارته وعزمه ، إذا طلع على القوم سكتوا قائمين وإن عاقب كان قاسياً ، فكم من قوم أشقاهم وقوم نالوا نعمه الوفيرة . ثم يدعو له في نهاية القصيدة بطول البقاء .

هذا هو الأصل في المديح ، وهو أصل له مبرراته المستمدة من معايير الفن فالرسام الذي يصور عظيماً أو بطلاً لا يضع نفسه إلى جواره في الصورة ، ولكنه يقصر صورته على العظيم أو البطل ، فيجلوها ويمنحها التناسب في المسافات والتناسق في الألوان ويضفي عليها من عنده أرضية أو خلفية تعين على إبراز الصورة ، ويسكب عليها من روحه ما يجعلها تحفة فنية .

وهكذا الشأن مع تطور فن المديح في العصر العباسي ، فنجد بشارا يمدح قائلاً :

وزرت هماما بصبح القوم حوله	عكوفا عليهم ذلة وخضوع
ولما التقينا سابق الحمد جوده	فأجدى وجود الطالبين سريع
وأملاك صدق ألبستني طرازهم	قصائد مالي غيرهن شفيع
وغيث إذا ما لاح أومض برقه	كما أومضت تحت الرداء خريع

(١) العصر العباسي الأول ص ١٦٠ وما بعدها – للدكتور شوقي ضيف .

(٢) ديوان الأعشى – تحقيق د . محمد حسين ص ٥٩ .

على خشبات الملك منه مهابة وفي الدرع عبل الساعدين قروع
تروح بأرزاق وتغدو بغارة فأنت ذعاف مرة وربيع[٣]

وهو في البيت الثالث يفخر بشعره ، ولكن من طرف خفي ، أو هو فخر المتواضع الذي يدرك أن وجوده في مجلس الخلفاء كان السبيل إليه هو تقديرهم لشعره وحسب ، فهو شفيعه إليهم ، وهم أملاك صدق حتى لا يختلطوا بغيرهم وحتى لو لبس ملبسهم أو جلس مجلسهم . أما بقية القصيدة فتتناول الممدوح متحدثة عن مهابته وخضوع الناس له كأنما ينظر إلى معنى الأعشى ، إذا طلع على القوم سكتوا قائمين ، وعن جوده ومقدرته الحربية ، ثم نعمه ونقمه ، كأنما ينظر في هذا أيضاً إلى بيت الأعشى .

ولم يتغير الوضع حتى في بيئة أخرى كالأندلس ففي ديوان ابن خفاجة مدائح عديدة ربما تغيرت المقدمة فيها من الأطلال إلى وصف الطبيعة الأندلسية وهو تغير طبيعي ، ولكن الشاعر متى انتقل إلى المديح انصرف نظره عما سواه ومهما طالت القصيدة وتجاوزت أبياتها الستين أو السبعين يظل الشاعر ينتقل من صفة إلى صفة كأنما يقيم حقيقة مثلاً أعلى يحتذى[٤]

وإذا لم يكن للمكان تأثير كبير في قصيدة المديح ترى هل للزمان تأثير ؟ إن ديوان شوقي يجيب عن هذا السؤال ، ولعل من أشهر قصائده في المديح مطولته « صدى الحرب » التي ينظر فيها إلى قصيدة المتنبي « أغالب فيك الشوق والشوق أغلب » ومطلعها :

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب وينصر دين الله أيان تضرب

والقصيدة تزيد على مائتي بيت وتبدأ مباشرة بمدح الخليفة العثماني وتستمر على هذا النحو ، وإن حاول أن يوشيها بقصة جانبية (قصة زينب بنت عثمان) التي رأى معها قيام الفتنة ، ولكنه يخلص من ذلك إلى الخليفة الذي قضى على هذه الفتنة بحزم . ولكن الذي يهمنا هو ختامها :

أمولاي غنتك السيوف فأطربت فهل ليراعي أن يغني فيطرب ؟؟
مدحتك والدنيا لسان وأهلها جميعاً لسان يمليان وأكتب
أناول من شعر الخلافة ربها وأكسو القوافي ما يدوم فيقشب

(٣) ديوان بشار تحقيق بدر الدين العلوي ص ١٥١ .
(٤) ديوان ابن خفاجة - راجع قصيدته في مدح الأمير أبي يحيى بن إبراهيم - على سبيل المثال ص ١٢٨ .

وإني لطير النيـــــــل لا طير غيره | ومـا النيـل إلا من ريـاضـك يحسب
فلا زلت كهف الـدين والهـادي الـذي | إلى الله بـــالـــزلفى لـــه نتقرب(٥)

ومن المؤكد أن تأثره بشخصية المتنبي في هذه القصيدة هو الذي دفعه إلى تلك النهاية ، بدليل أننا لا نجد هذه الوقفة في ديوانه الأول (المطبوع ١٨٩٨) ، وكله في المديح ، وعلى الرغم من ذلك فأين هذه الوقفة المتواضعة من وقفات المتنبي ، إن الاستفهام نفسه (هل ليراعى أن يغني ؟) فيه معنى الخضوع ، بل هو ينظم مايردد الناس من مديح ، وهو بذلك لا يكسو الخليفة أو الممدوح قلائده ولكنه يكسو القوافي ، بمعنى أنه يأخذ ما يردد الناس فيصوغه شعراً يدوم بترديد الناس له إما لأنه يسجل للخليفة صفحة ناصعة ، أو لجمال الشعر نفسه أو لكلا الأمرين . وحتى عندما افتخر بشعره ، عاد فرد الفخر كله إلى الخليفة ، لقد صور نفسه بعيداً عن شعراء عصره ، ولكنه لم يصور نفسه قريباً من الخليفة . وهكذا عرفنا المديح في الشعر العربي ، وهكذا كانت تقاليد هذا الفن قبل أن ينضب معينه بعد جيل شوقي . وقد تتبدل صفات المديح أو الممدوح أو المثل العليا ، ولكن يبقى الفارق بين المادح والممدوح ملحوظاً ومرعياً .

ولعل أهم قضية تحتاج إلى وقفة طويلة ونحن ندرس المتنبي هي موقفه من سيف الدولة وشعره لديه في ضوء نظرية « جيرار » في الرغبة المثلثة واحتذاء الغير التي عرضها في كتابه « الكذب الرومانتيكي والحقيقة الروائية » فهو يرى أن الإنسان لا يخلق رغباته بمعنى أنها لا تنبع من ذاته ولكن الرغبات دائماً مستعارة من الآخرين ، شيء أشبه « بالأصل والصورة » . فكل واحد منا صورة للآخر الذي يوحي لنا برغباتنا . وهذا الآخر هو مايطلق عليه جيرار « الوسيط » فعنده أنه باستثناء حاجاتنا العضوية الخالصة كالجوع والعطش ، فكل رغباتنا مستعارة من الآخر .

لقد اعترف علم النفس منذ أمد طويل بأهمية المحاكاة في الحياة النفسية ، ولكنه قصر أثرها على القشرة العليا من الشخصية ، ولكن تحت هذه القشرة الخارجية يكمن الجزء الحقيقي من الشخصية أو « الأنا العميقة » ويمكن تمثيل ذلك بمثلث له رؤوس ثلاثة هي الذات (الإنسان الراغب) ، الموضوع (الشيء المرغوب) الوسيط (الآخر الذي يملي على الإنسان الرغبة أو يدفعه إليها) .

وإذا كان الوسيط أسمى من الذات فإن الذات لا تطمع في المنافسة ويقتصر الجهد على

---

(٥) الشوقيات جـ ١ ص ٦٠ .

التقليد . وهذه هي الصورة الخارجية للوساطة ، حيث لا يختلط مجال الآخر بمجال المقلد ، فهناك بعد كاف بينهما . غير أن هذا البعد قد يتضاءل شيئاً فشيئاً حتى يحدث اندماج كامل ، وهذه هي صورة الوساطة الداخلية . الوساطة الخارجية إذن بغير منافسة ، فالطفل يمكن أن يقلد البالغ ولكن بغير إرادة تجريده مما يملك ، ولذلك فالصورة الخارجية للوساطة صورة طيبة . ولكن في الصورة الداخلية للوساطة نجد أن الوسيط والمقلد يريدان نفس الشيء ، فتقليد من يساويك يعني في نفس الوقت أن تعجب به وأن تكرهه . وقد يولد ذلك ، الشعور بالغيرة لأن الآخر أو الوسيط الذي يمتلك الشيء المطلوب يصبح النموذج والعقبة في الوقت نفسه .

ولكن التدرج الاجتماعي الصارم والحواجز الطبقية المتبعة في المجتمع القديم كانت تخلق للمكانة في المجتمع سمواً ورفعة معترفاً بها من الكافة . كان يسمح لمن هو أدنى أن يقلد النموذج بغير أن يتنافس معه . كان أعضاء الطبقة الأرستقراطية مثلاً يقلدون الملك بغير أن يتنافسوا معه من ناحية ، ومن غير أن يحسوا بالمهانة من ناحية أخرى . كان التقليد شعورياً ومقبولاً ، والمجتمع القديم بذلك كانت تسوده الوساطة الخارجية في كثير من الأحيان . ولكن في المجتمع الحديث تحطمت كثير من الحواجز الطبقية ، ولم يعد للتدرج الاجتماعي القائم على عراقة المنبت والأصل سطوته القديمة . ومعنى ذلك أن الوسيط أو النموذج أصبح هو « النظير » بمعنى أن الإنسان يتطلع الآن أساساً إلى نظرائه ، وهكذا تتغير صورة الوساطة فهي تنتقل من الشعور إلى اللاشعور ويجهد الإنسان في إخفائها . وتصبح الرغبة أكثر عمقاً كلما كان الوسيط أقرب إلى الذات الراغبة . وإذا كانت المنافسة يمكن أن تؤدي إلى الحصول على المزايا المادية ، إلا أنها مصدر لآلام روحية لا نهاية لها . لأن الرخاء لا يتحقق بمجرد توافر السلع مثلاً مهما كانت رغبة الإنسان فيها ، ولأن سعى الإنسان للحصول على المكانة في المجتمع أكثر أهمية والمكانة لا يمكن تقاسمها مع ما يترتب عليها من مميزات اقتصادية . والمساواة لا توجد أبداً لأنها تقتل الرغبات الإنسانية ، فحينما تشبع حاجات الإنسان المادية ، سرعان ما يسعى لاختراع امتيازات جديدة ، ويظل يخلق بلا انقطاع طوائف متميزة جديدة ، ودوائر مغلقة جديدة ، مقصورة على بعض أعضاء المجتمع دون غيرهم .

أليس معنى كل هذا أن الإنسان ضعيف ويعلم أنه ضعيف ، وأن الإعجاب الذي يمنحه للآخرين ليس سوى انعكاس لإحساسه الخفي وضآلة شأنه . مهما حاول أن يغطي هذا الإحساس بضروب من العظمة الشكلية أو الوهمية . وجيرار هنا يحاول أن يحلل الصيغة الإنسانية ويربط

ذلك بالنفاذ إلى جوهر العمل الأدبي في تطبيقاته على الرواية[٦] ولكن هل معنى ذلك أن هذه النظرية لا تقدم أي فلسفة للتقدم ؟ أليس في الصراع الإنساني الأزلي من أجل المنافسة أو التفوق أو حتى الوصول إلى النظائر ما يدفع الإنسانية كلها إلى التقدم بغض النظر عن حسد القاعدين ؟ تلك هي على أية حال نظرية جيرار ، وهي جديرة بالوقوف عندها مرة ثانية عند التطبيق وفي ضوء الدراسة لشعر المتنبي .

تشكل مرحلة اتصال المتنبي بسيف الدولة مرحلة وجود الذات ، وسوف نتتبع شعره في رحابه ، ونرى تطوره لندرك سمات هذا الوجود وحقيقته . كانت أول قصيدة مدح بها المتنبي سيف الدولة ، تلك التي مطلعها : « وفاؤكما كالربع أشجاه طاسمه » ، وإذا تركنا هذه المحاولة التي قصد بها المتنبي أن يتعب اللغويين في أبياته الأولى وجدنا رغبة دفينة تفصح عن نفسها على لسانه :

بليت بلى الأطلال إن لم أقف بها ... وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

إنه ما يزال يذكر قصة يوم أن ذهب يشتري البطيخ ، ورفض البائع أن يبيعه إياه بكل ما معه من دراهم ، وباعه في نفس اللحظة بسعر أقل لتاجر ثري يملك مائة ألف دينار . إن المال إذن هو مقياس الناس ، ومائة ألف دينار يمكن أن ترفع الإنسان فوق مصاف الناس . ولكنه أيضاً ما يزال يغطي كل أحاسيسه الدفينة بغطاء من العظمة يستعرضها أمام الممدوح :

كئيباً توقاني العواذل في الهوى ... كما يتوقى ريض الخيل حازمة ...
فلا يتهمني الكاشحون فإنني ... رعيت الردى حتى حلت لي علاقمه

فما صورة الممدوح أو البطل في عيني المتنبي ؟ صاحب الملك الذي يطمع فيه ولا يستطيعه ، صاحب الكرم الذي يجني من ورائه الغنى ، أما ما وراء ذلك فكان لديه : القوة والشجاعة ، وإن اختلف الموقف لأن الأمير قائد جيش ، والمجد الذي يحققه الأمير لنفسه بانتصاراته يحققه المتنبي الآن لنفسه عن طريق الفن . « تقبل أفواه الملوك بساطة » « له عسكرا خيل وطير إذا رمى ، بها عسكرا لم تبق إلا جماجمه » ، « وخاطبت بحرا لا يرى العبر عائمه » « لقد سل سيف الدولة المجد معلما » . وفي غمرة حديثه عن البطل وخلال مديحه له ، يحس أن مجده هو الآخر يحتاج إلى وقفة إلى جواره أمجاد الأمير ، فيرتفع صوته ليسكت الصوت الخفي في أعماقه الذي أحس بشيء من

(٦) راجع الفصل الأول بعنوان « الرغبة المثلثة » من كتاب « الكذب الرومانتيكي والحقيقة الروائية » تأليف رينيه جيرار – طبعة باريس – ١٩٨٢ .

المهانة وهو يضع القلائد واحدة إثر الأخرى على صدر الممدوح ، فهو ليس عاطلاً منها :

غضبت لـه لمـا رأيت صفـاتـه ... بـلا واصف والشعر تهـذي طماطمـه
وكنت إذا يممت أرضـاً بعيـدة ... سريت فكنت السر والليـل كاتمـه(٧)

وهكذا تنتهي القصيدة والذات واضحة ولكن المسافة بينها وبين الأمير (الآخر) موجودة فهو الأمنية وهو الحائل كما يقول جيرار .

ويمدحه في قصيدة أخرى بحلول العيد ، ثم يتوقف قرب نهاية القصيدة قائلاً :

أزل حسـد الحسـاد عني بكبتهم ... فـأنت الـذي صيرتهم لي حسـدا
إذا شـد زنـدي حسن رأيـك في يـدي ... ضربت بنصـل يقطـع الهـام مغمـدا
ومـا أنـا إلا سمهري حملتـه ... فـزين معروضـا وراع مسـددا
ومـا الـدهر إلا من رواة قصـائـدي ... إذا قلت شعراً أصبـح الـدهر منشـدا
فسـار بـه من لا يسير مشمرا ... وغنى بـه من لا يغنى مغـردا
أجـزني إذا أنشـدت مـدحـا فـإنما ... بشعري أتـاك المـادحـون مـرددا
ودع كل صـوت بعـد صـوتي فـإنـني ... أنـا الصـادح المحكى والآخر الصـدى(٨)

تبرز « الأنا » قوية ، فتشكل هذه الظاهرة الغريبـة في فن المـديح ، أو بعبـارة أخرى المـديح المعكوس الذي يتناول فيه الشاعر ذاتـه مبلوراً عبقريتـه « ضربت بنصل يقطع الهـام مغمـداً » ولو مدح الأمير بهذا لكان ذلك السيف الـذي يقطع الرقـاب وهو في الغمد من جيـد المـديح . وهكـذا الشأن في « السمهري الذي يروع مسدداً » .

إنه بطل آخر يحكي عن أمجاده ، ويتغنى الدهر بأناشيده التي يرددها النـاس - ومنهم الأمير - وتخلد على الزمن قصائده شاهـدة على عبقريتـه . وهنـا يلتفت إلى الأمير - وهو مـا يزال في غمرة انفعاله بـأمجـاده - طـالبـاً منـه أن يجيزه ، ويـأتي الفعل عـالي النغم كأنـه الأمر ، ويتكرر الطلب العنيف أو الأمر « ودع كل صوت بعد صوتي » فقد ردد الشعراء أصداء أقوالـه . إنـه لا يضع نفسـه إلى جوار الممدوح وحسب ، ولكنه يسجل أيضاً أمجـاد الأمير وأمجـاده ، وعظمـة الأمير وعظمتـه .

(٧) الديوان ص ٢٤٨ .

(٨) الديوان ص ٣٦١ .

ولكن بماذا وصف الأمير ؟ أبا الذكاء وعلو الهمة والجود ؟ لقد وصف نفسه بالذكاء في قصيدة أخرى « تصفوا الحياة لجاهل أو غافل .... » وبعلو الهمة « وتركك في الدنيا دويا كأنما ، تـداول سمع المرء أنمله العشر » ، لعل الأمر الوحيد الذي لم يستطع أن يجاري فيه الأمير هو العطـاء ، ولكنـه عطـاء فان مقابل مديح خالد .

ولكننا نلاحظ أيضاً في السيفيات صورة البطل واضحة إلى حد كبير وإشاعة الحركة الدراميـة فيها ، فهي ليست مجرد مـدائح أو تعـديـد أوصـاف ولكنهـا أقرب إلى المشـاهـد والصورة المتحركـة المعتمدة على التنقلات المفاجئة والالتفات . فهو في قصيدته « إذا كان مدح النسيب المقدم » يسترجع بطولاته ثم يخلص منها إلى قوله :

ضـلالا لهـذي الريـح مـاذا تريـده ؟ وهـديـا لهـذا السيـل مـاذا يـؤمم ؟[٩]
ألم يسـأل الـوبـل الـذي رام ثنينـا فيخبره عنـــك الحـــديـــد المثـلم

إن هذه الالتفـاتـات وتلـك الاستفهـامـات المتلاحقـة ، تنقل السامع من الاستعراض البطولي المـاضي إلى الحـاضر ، وتشيع في الموقف حيويـة الحوار ، الـذي نـدرك منـه توقف الجيش حتى تهـدأ الطبيعة ، ثم يعود إلى السرد :

ولمـا تلقـاك السحـاب بصـوبـه تلقـاه أعلى منـه كعبـا وأكـرم
فبـاشر وجهـا طـالمـا بـاشر القنـا وبـل ثيـابـا طـالمـا بلهـا الـدم

إن الصورة الداكنة للدم تملأ السيفيات وترمز إلى الحروب المتصلة التي خاضها البطل العربي . ولكن صورة السحاب والماء ليست أقل تردداً في السيفيات ، وهي كفيلة بأن تغسل تلك الدمـاء ، إنهـا السلام والخير والعطـاء الكثير مما تنتزع السيـوف في الحرب من أسـلاب . ثم تبرز في النهـايـة صورة البطل :

على كل طـاو تحت طـاو كأنـه من الـدم يسقى أو من اللحم يطعم
لهـا في الـوغى زي الفـوارس فـوقهـا فكل حصـان دارع متلـثم
أتحسب بيض الهنـد أصلـك أصلهـا وأنـك منهـا ؟ سـاء مـا تتـوهم
إذا نحن سمينـاك خلنـا سيـوفنـا من التيـه من أغمـادهـا تتبسـم

---
(٩) الديوان ٢٩٢ .

إنها صورة الفرسان أنحلهم طول القتال ، فوق خيلهم الضامرة ، وتعود لغة الدم ثانية ، ولكن عنف الصورة يبدو من هؤلاء الملثمة ومن هاتيك الدروع ، ثم يأتي الاستفهام والالتفات فيدفعان إلى شيء من التأمل في هذا البطل الذي تتيه السيوف في أغمادها إذا انتهت إليه أو ذكر اسمه .

وتبرز صور البطل في أبيات أخرى وفي موقف آخر ، حين تشتد المعركة ويفر كل ضعيف ، ويندفع جواده من عنف الطعان محاولاً الهرب وقد غطت الدماء جسده فيثبته الفارس ويوقفه عن التراجع :

وفارس الخيل من خفت فوقرها ... في الدرب والدم في أعطافها دفع[١٠]
وأوحدته وما في قلبه قلق ... وأغضبته وما في لفظه قذع

ثم تتضح معالم البطل بعض الشيء ، فيبدو سيف الدولة قائداً للجيش ، كل هذا وسط المونولوج « أأطرح المجد عن كتفي وأطلبه ، وأترك الغيث في غمدي وأنتجع ؟ » « وما الحياة ونفسي بعد ما علمت ، أن الحياة كما لا تشتهي طبع ؟ » ثم يحكي وقائع البطل كأنه يقوم بدور « الجوقة » هنا :

لا يعتفي بلد مسراه عن بلد ... كالموت ليس له ري ولا شبع

ثم يشيع الحركة السريعة بهذه المصادر المتلاحقة :

للسبي وما نكحوا والقتل ماولدوا ... والنهب ما جمعوا والنار ما زرعوا

وينتقل المشهد إلى الجانب الآخر ، إلى الدمستق[١١] وهو منفعل يسب لأن عينيه خانتاه فظن الجيوش سحاباً متفرقاً . ثم يبدأ مشهد ثالث والمعركة دائرة . وتنتهي الملحمة الحربية بموسيقى الجيش وقرع طبولها يصم الآذان على الرغم من كل شيء :

الدهر معتذر والسيف منتظر ... وأرضهم لك مصطاف ومرتبع

وتتكرر صورة البطل دون تبديل تقريباً فهو دائماً غائم الملامح أو ملثم كما صرح قبل ذلك ، وهو دائماً خفيف على فرسه الضامر مسلح بالدروع والسيوف عنيد في القتال سريع البديهة في

(١٠) الديوان ص ٣٠٢ .

(١١) الدمستق تعريب للكلمة الفرنسية بمعنى خادم المسيح Domestique .

المعركة شجاع مغامر في قتاله صبور على حر القتال :

رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدى ... وما علموا أن السهام خيول[١٢]
همام إذا ما هم أمضى همومه ... بأرعن ، وطء الموت فيه ثقيل
وفي كل نفس ما خلاه ملالة ... وفي كل سيف ما خلاه فلول
فلما رأوه وحده قبل جيشه ... دروا أن كل العالمين فضول

ولا تتم الصورة في كثير من الأحيان إلا ونرى إلى جوار البطل صورة المتنبي الشاعر الخالد ، الذي أتعب حساده كما أتعب البطل أعداءه ، كلاهما تفرد بعبقرية خاصة .

أنا السابق الهادي إلى ما أقوله ... إذ القول قبل القائلين مقول
أعادي على ما يوجب الحب للفتى ... واهدأ والأفكار في تجول
وإنا لنلقي الحادثات بأنفس ... كثير الرزايا عندهن قليل

ويستمر في شعره واضعاً صورته إلى جوار صورة سيف الدولة ، بعد أن يتحدث عن بطولة الممدوح ، ويستغرق في ذلك استغراقاً رائعاً ، ألم يكن ممن شاركوا بسيوفهم في ذلك المجد فكان إلى جوار سيف الدولة في معاركه ؟

إنه حديث عام ينسى الشاعر فيه نفسه ويتحدث عن البطولة في المعارك والمغالبة في القتال ، فإذا انتقل إلى سيف الدولة بعد أن يعود إلى الموقف - موقف المديح - تناول الشجاعة في الميدان .

وقفت وما في الموت شك لواقف ... كأنك في جفن الردى وهو نائم

ولكن هذه الصورة على روعتها ، صورة البطل في خضم الموت وقد ابتلع الموت كل شيء سوى البطل ، كأنه يقدر البطولة أو كأنه في جفن الموت وهو غافل عنه ، ألم يصف بها نفسه أو يقترب عنها حين أفرد نفسه بالشجاعة النادرة التي دفعت الدنيا إلى الإعجاب به والتعجب من جرأته ؟

صحبت في الفلوات الوحش منفرداً ... حتى تعجب مني القور والأكم[١٣]

---

(١٢) الديوان ٣٤٨ .
(١٣) الديوان ص ٣٢٤ .

هكذا نراه في نهاية القصيدة على أية حال ، يقف إلى جوار سيف الدولة :

لـك الحمـد في الـدر الـذي لي لفظـة ... فـإنـك معطيـه وإني نـاظم
وإني لتعـدو بي عطـايـاك في الـوغـى ... فلا أنـا مـذمـوم ولا أنت نـادم

إننا نحس أمراً آخر جديداً في هذا المديح ، فسيف الدولة شاب والمتنبي شاب وسيف الدولة شاعر والمتنبي شاعر ، وسيف الدولة عربي متعصب لعروبته والمتنبي عربي متعصب لغروبته وسيف الدولة فارس والمتنبي فارس ، ولذلك فصورة البطل تجمع أهم هذه الصفات المشتركة وتتوارى فيها ملامح الوجه ، أتراه سيف الدولة أم تراه المتنبي نفسه ، إن المسافة تزول ويحدث شيء يشبه التطابق ، خاصة إذا كان الأمر أمر بطولة وعلو همة .

« وقال يمدحه ويذكر هذه الغزاة وأنه لم يتم قصد خرشنة بسبب الثلج وهجوم الشتاء » :

أهم بشيء والليـالي كأنهـا ... تطـاردني عن كـونـه وأطـارد[١٤]
وحيـد من الخـلان في كل بلـدة ... إذا عظم المطلـوب قـل المسـاعـد
وتسعـدني في غمرة بعـد غمرة ... سبـوح لهـا منهـا عليهـا شـواهـد
تثنى على قـدر الطعـان كأنمـا ... مفـاصلهـا تحت الرمـاح مراود
وأورد نفسي والمهنـد في يـدي ... مـوارد لا يصـدرن من لا يجـالـد
ولكن إذا لم يحمـل القلب كفـه ... على حـالـه لم يحمـل الكف سـاعـد

أتراه يتحدث هنا عن سيف الدولة وقد هم بالمعركة فمنعته الأقدار ، وعن وحدته في جهاد الروم بينما الملوك من حوله ينغمسون في لذاتهم ؟ إنها صورة بطل فوق فرسه يخرج من معمعة ليدخل أخرى والسيف في يده ، يلقي بنفسه إلقاء ويقتحم اقتحاماً موارد الموت ، ولكن ملامح هذا الفارس مازالت غائمة بعض الشيء ، بل هي صورة المتنبي نفسه وقد هم بالملك فأعجزته الليالي . وتركته وحيداً ، انفض عنه الثائرون بعد فشله وخرج مطارداً وحيداً ، يتكسب بفنه ، حتى الشعراء من أمثاله حسدوه على نبوغه ، ولكن الأمل مايزال يداعبه ، والقوة لم تفارقه ، والشجاعة زاده والفروسية صورته في معركة الحياة الضارية .

ويتكرر الموقف في معركة أخرى من المعارك التي لا تهدأ حين ينشد المتنبي الأمير في الميدان :

---

(١٤) الديوان ص ٣١١ .

نـزور ديـاراً مـا نحب لهـا مغنى ... ونسـأل فيهـا غير سـاكنهـا الإذنـا[15]
نقـود إليهـا الآخـذات لنـا الصـدى ... عليهـا الكمـاة المحسنـون بهـا ظنـا
وقـد علم الروم الشـقيـون أننـا ... إذا مـا تركنـا أرضنـا خلفنـا عـدنـا
وأنـا إذا مـا المـوت صرح في الـوغى ... لبسنـا إلى حـاجـاتنـا الضرب والطعنـا
قصـدنـا لـه قصـد الحبيب لقـاؤه ... إلينـا وقلنـا للسـيـوف هلمنـا
وخيـل حشـونـاهـا الأسـنـة بعـد مـا ... تكـدس من هنـا علينـا ومن هنـا
ضربن إلينـا بـالسـيـاط جهـالـة ... فلمـا تعـارفنـا ضربـن بهـا عنـا
تعـدّ القرى والمس بنـا الجيش لمسـة ... نبـار إلى مـا تشتهي يـدك اليمـنى
فقـد بردت فـوق اللقـان دمـاؤهـم ... ونحن أنـاس نتبـع البـارد السـخنـا
وإن كنت سيف الـدولـة العضب فيهـم ... فدعنا نكن قبـل الضـراب القنـا اللـدنـا

إن « نا الفاعلين » تجول في القصيدة جولات لها ماوراءها ، لقد تضخمت الأنا حتى استحالت الرؤية ، أو حتى حدث التطابق بين الـذات والمطلوب والغير - كما يقول جيرار - فمن الـذي يزور ويقود ويقصـد ويحشو الأسنـة ؟ « نحن » ، ومن الـذي يصـادم الروم ويعـود إليهم مرة بعـد مرة وينتصر عليهم ؟ نحن ، أو على وجه الدقة المتنبي وسيف الدولة كلاهما فـارس شجـاع ذاق المعـارك مع الروم وعرف الهزيمة حيناً والنصر أحيانـاً كثيرة . لقـد وجـد نفسـه أخيراً وحقق ذاتـه إلى جوار سيف الدولة ، فلم تعد الثورة المكبوتة تجد مكانها في شعره . ما الذي نتوقع إذن عندمـا تحس هـذه الذات بأنها جرحت أو مست ؟ إنها تتجاوز الآخر وتعلو عليه . وهـذا مـاحـدث ومـا عبر عنـه في قصيدته التي هدد فيها بالرحيل عن سيف الدولة والتي مطلعها :

« واحـر قلبـاه ممن قلبـه شبم » :

أنـا الـذي نظر الأعمى إلى أدبي ... وأسمعت كلمـاتي من بـه صمـم[16]
أنـام مـلء جفـوني عن شـواردهـا ... ويسهر الخلـق جراهـا ويختصم
وجـاهـل مـده في جهلـه ضحكي ... حتى أتتـه يـد فراسـة وفـم
إذا رأيت نيـوب الليث بـارزة ... فـلا تظنن أن الليث يبتسم
ومهجـة مهجتي من هم صـاحبهـا ... أدركتهـا بجـواد ظهره حـرم

(١٥) الديوان ص ٣٠٨ .

(١٦) ديوان المتنبي ص ٣٢٣ .

رجلاه في الركض رجل واليدان يد وفعله ما تريد الكف والقدم
ومرهف سرت بين الموجتين به حتى خرجت وموج الموت يلتطم
فالخيل والليل والبيداء تعرفني والسيف والرمح والقرطاس والقلم
صحبت في الفلوات الوحش منفردا حتى تعجب مني القور والأكم
كم تطلبون لنا عيبا فيعجزكم ويكره الله ما تأتون والكرم
ما أبعد العيب والنقصان من شرفي أنا الثريا وذان الشيب والهرم
أرى النوى تقتضيني كل مرحلة لا تستقل بها الوخادة الرسم
لئن تركن ضميرا عن ميامننا ليحدثن لمن ودعتهم ندم
إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا ألا تفارقهم فالراحلون هم
شر البلاد بلاد لا صديق بها وشر ما يكسب الإنسان ما يصم
وشر ما قنصه راحتي قنص شهب البزاة سواء فيه والرخم

لقد طعن فيما بقى له ، في فنه ، وقد كان يجد في سيف الدولة العوض عن الملك والبطولة ، وتتحقق ذاته عن طريق التطابق مع الآخر – مع سيف الدولة – ولذلك تأخذ الذات الجانب المقابل إلى نهايته لرد الاعتبار والتعويض . « أنا الذي نظر الأعمى إلى إدبي » ثم تتجاوز هذا الموقف في محاولة اجتياز ميزات الآخر وسلبها » . « فالخيل والليل والبيداء تعرفني » تماماً كما تعرف سيف الدولة الذي كان يجتازها بجيوشه ، ولذا يأتي البيت التالي « صحبت في الفلوات الوحش منفردا » إنه لم يصحب بشرا ولكنه صحب الوحش ، ولم يحمه جيش في الفلوات ، ولكنه اعتمد على سيفه وحده ، وتلك قمة الشجاعة والبطولة لأنه بغير حاجة إلى حماية . ثم تشتد نبرته وهو يحاول ستر نقائصه أو بعبارة أخرى ليعلو صوته فوق صوت الذات في موقف ضعفها « ما أبعد العيب والنقصان من شرفي » « أنا الثريا » . ثم تهدأ انفعالاته وهو يتصور الفراق ، ويتخيل سيف الدولة نادماً لأنه الطرف الخاسر والجانب الضعيف . وهكذا نرى نظرية « جيرار » صحيحة في هذه المحاولة لتطبيقها ، خاصة إذا كان الشاعر المتنبي والممدوح سيف الدولة ، فنقاط الالتقاء كبيرة ، بالرغم مما بينهما من فروق . ولعل النظرية بحاجة إلى إشباع قبل أن ننتهي منها ، فلننظر في هذه القصيدة التي قالها بعد فراق سيف الدولة :

كفى بك داء أن ترى الموت شافياً وحسب المنايا أن يكن أمانيا
تمنيتها لما تمنيت أن ترى صديقا فأعيا أو عدوا مداجيا

إذا كنت ترضى أن تعيش بـذلـة فـلا تستعـدن الحسـام اليمانيـا
ولا تستطيلن الرمـاح لغـارة ولا تستجيـدن العتـاق المـذاكيـا
فما ينفع الأسـد الحيـاء من الطـوى ولا تتقى حتى تكـون ضـواريـا
حبيتـك قلبي قبـل حبـك من نـأى وقـد كان غـداراً فكن لي وافيـا
وأعلم أن البين يشكيـك بعـده فلست فـؤادي إن رأيتـك شـاكيـا
فـإن دمـوع العين غـدر بربهـا إذا كن إثر الغـادرين جـواريـا
إذا الجـود لم يرزق خـلاصا من الأذى فـلا الحمـد مكسوبا ولا المـال باقيـا
قـواصـد كافـور تـوارك غـيره ومن قصـد البحر استقـل السـواقيـا
وغير كثير أن يـزورك راجـل فيرجـع ملكا للعراقين واليـا[١٧]

انفصلت ذاته عن التلبس وأبى التوحد بشخصية الأمير العربي سيف الدولة وعاد إلى نفسه ، فأحس بكل نقاط ضعفه عارية فتمنى الموت . ليس له في الآباء ما يفخر به وإنما له ما يؤذيه وليس له من كل آماله إلا الحطام ، وليس له حتى من الأصدقاء إلا من تحول قلبه أو جاهر بالعداء ، ثم يحس أن كبرياءه قد جرحت فيأبى الضيم أو يرفض الذل كما يرفضه الأسد الجريح ، وتدفعه عزة نفسه إلى الثورة ، ولكنه يعود فيتهالك لأنه يثور على شقه الآخر المتمم له أو على ذاته ، ولأول مرة نرى عبرة البطل تسقط ، غير أنه يمسحها بسرعة الغاضب لأنها تكشف عواطفه وتظهره ضعيفاً ، وهو ما لا ينبغي أن يظهر به حتى أمام نفسه ، مهما كانت تحمل من معنى الوفاء . ومن الواضح أن شعاعاً من الأمل يلمع في نهاية الموقف ، ترى أيتحقق حلمه الأول الذي نسيه أيام سيف الدولة ؟ أيمكن أن يكون أميراً أو والياً عن طريق القلم بعد أن توقف عن تحقيقه عنوة عن طريق السيف منذ التقي بالأمير العربي ؟ أتراه يحقق هدفه عند كافور ؟ لقد سعى كافور إليه ولم يسع هو إلى كافور ، كما سعى من قبل سيف الدولة إليه . إنه يداور ويجس الأرض تحت قدمه مع كافور « وفؤادي من الملوك وإن كان لساني يرى من الشعراء »[١٨].

أحس بذاته منفصلة عن ممدوحه وبآماله ترتد إليه وبعزيمته في صورتها السابقة ، ولكن أين مضاء تلك العزيمة وأين قدرتها على الفعل العظيم ، فتخرج من أعماقه تلك الآهة :

ليت الحـوادث بـاعتني الـذي أخـذت مني بحلمي الـذي أعطت وتجريبي

(١٧) الديوان ص ٤٣٩ .
(١٨) الديوان ص ٤٤٦ .

وما قيمة التجارب في حياة الإنسان إذا كانت كلها مرة الطعم نهايتها الإخفاق . لقد ضاعت أحلى أيام العمر في هذه التجارب ، ضاع الشباب والفتوة والثورة ، وإن لم تضع الأحلام ولا وهنت الإرادة . وكل صلته بكافور محورها المداورة كأنه يتحسس نواياه :

كأن كل سؤال في مسامعه ... قميص يوسف في أجفان يعقوب
قالوا هجرت إليه الغيث قلت لهم ... إلى غيوث يديه والشآبيب
إلى الذي تهب الدولات راحته ... ولا يمن على آثار موهوب
وجدت أنفع مال كنت أذخره ... ما في السوابق من جرى وتقريب
لما رأين صروف الدهر تغدر بي ... وفين لي ووفت صم الأنابيب
فتن المهالك حتى قال قائلها ... ماذا لقينا من الجرد السراحيب ؟
تهوى بمنجرد ليست مذاهبه ... للبس ثوب ومأكول ومشروب
يرمي النجوم بعيني من يحاولها ... كأنها سلب في عين مسلوب

لقد رد قميص يوسف إلى يعقوب العافية ترى هل يتفتح قلب الممدوح ويهم بالعطاء الكبير ، كما تفتح قلب يعقوب وعينه لقميص يوسف ؟ « إلى الذي تهب الدولات راحته » إنه الحلم الكبير الذي لا يزال يحلم به . أراد أن يجرب السيف حيناً في المرحلة الأولى من أجله ومن أجل آماله العريضة فعجز ، ثم أحس أنها تحققت هناك في رحاب الأمير العربي يوم كان يقوله له « رضاك رضاي الذي أوثر ، وسرك سرى فما أظهر »[١٩] أو بعبارة أخرى يوم تطابقت الشخصيتان ، أما اليوم فقد ارتكزت آماله حول حلم كبير من أحلامه القديمة ، فليس همه « لبس ثوب ومأكول ومشروب » وإنما همه الملك ، همه المجد ومطاولة النجوم وسبيله إلى ذلك فرسه وقلمه « أعز مكان في الدنى سرج سابح ، وخير جليس في الزمان كتاب »[٢٠].

ويحوم حول آماله مرة ومرات :

إذا كنت في شك من السيف فابله ... فإما تنفيه وإما تعده
وما رغبتي في عسجد أستفيده ... ولكنها في مفخر أستجيده[٢١]

(١٩) الديوان ٣٤٤ .

(٢٠) الديوان ٤٨٠ .

(٢١) الديوان ٤٥٤ .

أين ذلك الفتى الثائر الذي عهدناه من قبل وأين ذلك البطل الذي أراد أن يخترق حاجز المكان والزمان ويفرض نفسه على سمع الدنيا وبصرها ؟ حقيقة هو مايزال ذلك السيف القديم ولكنه اليوم في يد غيره وإن لم يطامن كثيراً من مطامحه . إن الطموح هو عذاب البشرية ولذتها وحلمها في نفس الوقت ، ولكنه يفقد أمله يوماً بعد يوم ، ويحن إلى الماضي الذي يجذبه جذباً عنيفاً ، ويحس نفسه مضيعة فهل تبرر الغاية الواسطة ؟ هل يمدح كافورا وهو لا يحترمه ؟ إنه ساخطٌ على نفسه وعلى ممدوحه « أريك الرضا لو أخفت النفس خافياً ، وما أنا عن نفسي ولا عنك راضياً »[٢٢] بل هو حزين حتى الموت يتلاعب بالألفاظ ويتعزى بوصف فرسه أو صديقه ورفيقه في رحلة الحياة الشاقة :

أغالب فيك الشوق والشوق أغلب ... وأعجب من ذا الهجر والوصل أعجب
أما تغلط الأيام فيّ بأن أرى ... بغيضاً تنائى أو حبيباً تقرب
ويوم كليل العاشقين كمنته ... أراقب فيه الشمس أيان تغرب
وعيني إلى أذنيْ أغر كأنه ... عن الليل باق بين عينيه كوكب
وما الخيل إلا كالصديق قليلة ... وإن كثرت في عين من لا يجرب
لحى الله ذي الدنيا مناخا لراكب ... فكل بعيد الهم فيها معذب[٢٣]

وفي غمرة هذه الحيرة يبلغ به الضعف النفسي منتهاه فيمد يده إلى كافور مستجدياً في بيت مازال يأخذه عليه النقاد والدارسون « أبا المسك هل في الكأس فضل أناله ، فإني أغنى منذ حين وتشرب ؟[٢٤]» لو قاله غيره لسكت الناس عنه . لقد كان جرير يستجدي العطاء فيقول : « أشكو إليك فأشتكي ذرية ، لا يشبعون وأمهم لا تشبع . كثروا عليّ فما يموت كبيرهم حتى الحساب ولا الصغير المرضع » أو يقول : « أغثني يافداك أبي وأمي » ولكننا لا نحب أن نرى الأبطال في مواقف الضعفاء وإن كانوا بشراً مثلنا .

إنه التهالك ومحاولة فلسفة الموقف عن طريق اللامبالاة . ولكن أحزانه تهز كيانه كله هزاً عنيفاً والغربة والوحدة تفعلان بنفسه الأفاعيل وإن حاول أن يبدو متماسكاً :

بم التعلل لا أهل ولا وطن ... ولا نديم ولا كأس ولا سكن

(٢٢) الديوان ٤٤٣ .

(٢٣) الديوان ص ٤٦٥ .

(٢٤) الديوان ص ٤٦٥ .

أريــــــــــد من زمني ذا أن يبلغــني ... مـــا ليس يبلغـــه من نفســـه الــزمن
لا تلـــــــق دهرك إلا غير مكــترث ... مـادام يصحب فيــه روحــك البـــدن
فـــا يــديم ســروراً مــا ســررت بـــه ... ولا يرد عليـــك الفـــائت الحـــزن[٢٥]

وتستمر محاولة فلسفة الموقف لتغطية التراجع بل الهزيمة أمام الزمن ، ألم ينل الزمن منـه بينما هو عاجز عن تحقيق أمجاده وانتصاراته التي كان يحلم بها ، والعمر يجري مسرعاً عجلا لا يتـأنى ولا يتلبث ، يفنيـه الـزمن . فما قيمة الصراع إذن ؟ إنـه مجرد خـاطر يمر بـذهنـه ولكنـه قـد يعني الاستسلام الكامل للزمن ، ولذلك ينفيه على وجه السرعة ، لأن الشجاعة تتناقض مع الاستسلام . والموت أكرم من الرضى بالهوان :

صحب النــاس قبلنــا ذا الــزمــانــا ... وعنــاهم من شــأنــه مــا عنــانــا
وتــولـوا بغصــــة كلهم منــــه ... وإن سر بعضهم أحيـــانــــا
ربمـــا تحسن الصنيــع ليــاليـــه ... ولكن تكـــدر الإحســانـــا
وكأنــا لم نرض فينــا بريب الـــدهـر ... حتى أعـــانـــه من أعـــانـــا
كلمـــا أنبت الــزمـــان قنـــاة ... ركّب المرء في القنــاة سنــانــا
ومراد النفـــــوس أصغر من أن ... تتعـــادى فيــــه وأن تتفـــانى
غير أن الفتى يـــلاقي المنـــايـــا ... كالحـــات ولا يـــلاقي الهـــوانـــا
ولــــو ان الحيــــاة تبقـى لحـي ... لعــددنـــا أضلنــا الشجعـــانـا[٢٦]

ولكن أي هوان هذا الذي يذوقـه في حيـاتـه بمصر ؟ فلا هو راض عن مـديحـه لكافور ولا هو بمحقق آماله لديه مهما طال به الزمن ، ولا هو حتى بقـادر على الرحيل إلا أن يركب جنـاح الليل ويفر فراراً كالسجين « إذا سرنـا عن الفسطـاط يـومـاً ، فلقنى الفـوارس والرجـالا . لتعلم قـدر من فـارقت مني ، وأنـك رمت من ضيمي محـالاً »[٢٧] وتلـوح لـه فرصـة الرحيـل أو الهرب سنـة خمسين وثلثمائة » فيفرغ كل ما في نفسه من انفعالات في أبياته التي تركها قبل رحيله :

عيد بـأيـة حـــال عـدت يــا عيـــد ... بمـــا مضى أم لأمر فيـــه تجـــديـــد[٢٨]

---

(٢٦) الديوان ص ٤٧٠ .

(٢٧) الديوان ص ٤٨٥ .

(٢٨) الديوان ص ٤٨٥ .

أما الأحبة فالبيداء دونهم | فليت دونك بيدا دونها بيد

فالعيد يأتي على منوال الأيام الماضية يأتي نكرة كحاضره ، أليس من نسيج الزمن الذي يعانده ؟ لا جديد فيه سوى العزم على الرحيل وحنينه حنين طويل يصل إلى أن يذيب الشاعر نفسه في أثر أحبابه وإن كنا لم نعرف له أحباباً من قبل ولا شك أنه يشير إلى سيف الدولة ، أليس القائل : « فلو كان ما بي من حبيب مقنع ، عذرت ولكن من حبيب معمم »[٢٩] إن ذكر سيف الدولة يدفعه دفعاً إلى التلفت للماضي ، فتنبعث أحزانه وتتفاوح شجونه ، ويدرك أن الزمن قد هزمه هزيمة مروعة ولم يترك في كأسه سوى الهموم التي ذوبها له ليتجرعها :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدي | شيئاً تتيمه عين ولا جيد
يا ساقيي أخمر في كئووسكما | أم في كئووسكما هم وتسهيد ؟
أصخرة أنا ، مالي لا تحركني | هذي المدام ولا هذي الأغاريد ؟
إذا أردت كميت اللون صافية | وجدتها وحبيب النفس مفقود
ماذا لقيت من الدنيا وأعجبها | أني بما أنا باك منه محسود

إن محك الانهيار هو الهوان ، فإذا قبل الذل كان معناه الانهيار الكامل . لقد ترك سيف الدولة ، لمجرد الإحساس بما يمس الكبرياء ، فكيف يقبل أمام كافور استمرار المديح مع المراوغة في الوعود ؟ أليس القائل : « واحتمال الأذى ورؤية جانيه غذاء تضوي به الأجسام »[٣٠] « إن مجرد ذكر كافور يدفعه إلى الثورة وإلى السباب » ، ويلوذ بعزة نفسه التي كاد يلطخها كافور :

جوعان يأكل من زادي ويمسكني | لكي يقال عظيم القدر مقصود
إن امرأ أمة حبلى تدبره | لمستضام سخين العين مفؤود
ويلمها خطة ويلم قابلها | لمثلها خلق المهرية القود
وعندها لذّ طعم الموت شاربه | إن المنية عند الذل قنديد

في مصر أحس بذاته مرة أخرى إحساساً عميقاً ولكنه أحس بها ضائعة عاجزة مهما صنعت كبرياؤه . كان الأمل الكبير يجتاحه في المرحلة الأولى من عمره ، كان يبحث عن ذاته وكان يرى الطريق مليئاً بالصعاب ، ولكن همته أكبر من كل صعب وإرادته أقوى من كل ممتنع وذاته أقدر

(٢٩) الديوان ص ٤٥٦ .

(٣٠) الديوان ص ١٤٩ .

على تحقيق الأمل ووسيلته هي الثورة أو الكلمة والسيف . الذات والآخر والدافع الموصل كلها تتفاعل . ثم حدث التطابق كما قلنا وحققت الذات نفسها عن طريقه ، الذات والآخر شيء واحد يتحقق في المرحلة الثانية من حياته بحيث توارى الدافع الملح ، ولكن ذاته اليوم عارية من جديد والدافع موجود والآخر موجود ، غير أنها مرحلة ضعف الذات وهزيمتها وإحساسها بهذا الضعف وبتلك الهزيمة ، ومن هنا تولد السخط الحاقد لا السخط الثائر الذي كنا نراه في المرحلة الأولى ويتجلى ذلك في هجائه لمدوحه وسخريته منه وعدم رضائه عن نفسه . وهكذا تتحقق نظرية جيرار ، تلك التي طبقها على مجموعة من الكتّاب الفرنسيين مثل ستندال وفلوبير وغير الفرنسيين مثل ديستوفسكي .

دراسة عن النقوش الصخرية في قطر

دكتور فتحي عفيفي بدوي
أستاذ مساعد بقسم التاريخ

لم يلق تاريخ شبه الجزيرة العربية القديم ما يستحقه من جهود العلماء ودراساتهم المتعمقة على الرغم من الأهمية الواضحة لهذه المنطقة من بلاد العالم بصفة عامة والعالم الإسلامي والعربي بصفة خاصة ، فلا زالت تكمن في ربوع شبه الجزيرة وفي بطون رمالها آثار حضارات عربية قديمة لم يبدأ العلم الحديث في الكشف عنها والتعرف على كنهها بعد .

وأثبتت الدراسات الأثرية التي أجريت بها حتى الآن أن عهد الاستيطان البشرى فيها يعود إلى أقدم عصور ما قبل التاريخ ، كما أوضحت الدراسات الانثروبولوجية الحديثة أن جنوب شبه الجزيرة العربية يعتبر المنبت الأصلي للعناصر السامية الأولى . وهي العناصر التي أخذت موجاتها تنتشر تباعاً ، تارة باتجاه الهلال الخصيب شمالاً حيث الحضارات الشرقية القديمة وفي مقدمتها البابلية والآشورية والكلدانية والكنعانية والعبرانية ، وتارة أخرى باتجاه افريقيا عبر بوغاز باب المندب غرباً حيث الحضارات الافريقية القديمة وفي مقدمتها الحضارة الفرعونية ، هذا بالإضافة إلى ما ظهر في شبه الجزيرة العربية ذاتها من حضارات قامت في معين وسبأ وحمير وامتد شعاعها نحو الحيرة وغسان فأضاءت شعلة الحضارة العربية الإسلامية بكل مقوماتها وأبعادها المعروفة . ولعل من الدلائل التي تشير إلى ذلك تلك النقوش الصخرية التي تم التعرف عليها في دولة قطر والتي سجلها الإنسان العربي القديم على سطوح عدد من تلالها الصخرية معبراً بها عن أفكاره وارادته خلال إحدى مراحل تاريخه القديم .

ويمكن أن نستعرض هذه النقوش ومواقعها على النحو التالي :

أولاً : نقوش الوكرة :

وتوجد على سطح تل صخري يقع شمالاً غرب مدينة الوكرة التي تبعد حوالي ١٦ كم إلى الجنوب من مدينة الدوحة على الشاطىء الشرقي لقطر ، ويرتفع هذا التل إلى حوالي ٢١ متراً فوق سطح البحر حيث يوجد على سطحه عدد من الوحدات المنقورة في الصخر ، وتشكل كل وحدة صفين متوازيين من الحفر الصغيرة المستديرة التي يصل عددها إلى ١٤ حفرة ، ويتراوح متوسط طول قطر كل حفرة ما بين ١٠ - ١٢ سم ، وعمقها ما بين ٦ - ١٤ سم .

هذا وقد تأثر سطح التل كثيراً بفعل عوامل التعرية الطبيعية (١) التي يمكن ملاحظتها بسهولة ، مما يشير إلى ضياع الكثير من الوحدات التي حفرت عليه .

ثانياً : نقوش القصار :

وتوجد على سطح تل صخري يبعد حوالي ٨ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة الدوحة ، حيث عثر على عدد قليل من الوحدات المنقورة في الصخر على شكل دائرة تتكون من مجموعة من الحفر الصغيرة المستديرة ، ويحتمل أن يكون عدد كبير منها قد اندثر بفعل عوامل التعرية الواضحة على سطح الصخر . غير ذلك فقد عثر إلى الغرب منها على نقوش محفورة تعتبر الوحيدة من نوعها التي اكتشفت في قطر ، وهي تتألف من أشكال آدمية وحيوانية تمثل ناقتين وفارسين رافعين رمحيهما وهما في حالة هجوم . ونقشت بأسلوب مختزل فيه الكثير من الواقعية . وقد تم نقل هذه النقوش إلى متحف قطر الوطني عام ١٩٧٩ بسبب استحالة المحافظة عليها في موقعها الأصلي .

ثالثاً : نقوش سميسمة :

تقع قرية سميسمة على مسافة ٤٥ كم إلى الشمال من مدينة الدوحة . ويوجد بالقرب منها مجموعة من التلال الصخرية التي تمتد بمحاذاة الساحل الشرقي لقطر . وقد عثر على سطح إحدى هذه التلال على وحدات منقورة في الصخر متناثرة فوق السطح وتتكون عناصرها من عشرات الحفر الصغيرة التي يتراوح طول قطرها مابين ١٠ - ١٢ سم ، ويبلغ عمقها مابين ٦ -١٥ سم وهي في مجملها تكون أشكالاً مختلفة ، فالبعض من هذه الوحدات يأخذ شكلاً دائرياً ويتكون من مجموعة من الحفر المستديرة التي تلتف حول حفرة مركزية أكبر قطراً وأكثر عمقاً ، والبعض الآخر يأخذ شكل صفين متوازيين وأحياناً أربعة صفوف متوازية من الحفر الصغيرة المستديرة ، والبعض الآخر من

هذه الوحدات عبارة عن خطوط غير منتظمة الشكل ومحفورة حفراً غير عميق . إذ يتراوح طولها مابين ٨٠ – ١٤٠ سم ، بينما تبلغ أعماقها في سطح الصخر مابين ٢ – ٤ سم ، وتلتقي جميعها بحفرة كبيرة يبلغ طول قطرها ٢٠ سم وعمقها ١٨ سم .

رابعاً : نقوش الجساسية :

يقع تل الجساسية على بعد ٨٠ كم إلى الشمال من مدينة الدوحة ، وفي محاذاة الشاطىء الشرقي لقطر ، ويتناثر على سطح صخورة مئات من الوحدات المنقورة التي تتميز بتعدد أشكالها . إذ توجد وحدات من الحفر الصغيرة على شكل صفين متوازيين ومتجاورين ويحتوي كل صف ما بين ٧ – ١١ حفرة . كما توجد إيضاً وحدات على شكل دائرة تتكون من مجموعة من الحفر الصغيرة المستديرة البالغ عددها مابين ٦ – ١٠ حفر ، وتلتف حول حفرة مركزية أكبر حجماً وأكثر عمقاً ، إذ يبلغ طول قطرها حوالي ١٤ سم وعمقها حوالي ٦ سم ، إلى جانب ذلك توجد وحدات أخرى بعضها على شكل حفر بيضاوية أو مستديرة (٢) والبعض الآخر على شكل قوارب (٣) يتراوح أطوالها مابين ٩٠ – ١٢٠ سم ، وقد حفر بالقرب من جانبيها وفي داخلها حفر صغيرة مستديرة الشكل يصل فيا بينها مجرى ضيق غير عميق الحفر . فضلاً عن ذلك توجد وحدات أخرى منقورة على سطح الصخر تمثل خطوطاً ممتدة لكنها غير عميقة الحفر ، وتتصل بما يشبه الأحواض أو الحفر الاسطوانية البالغ طول قطرها حوالي ٢٥ سم ، وعمقها حوالي ١٢ سم .

خامساً : نقوش فويرط :

يقع تل فويرط على مقربة من الساحل الشرقي لقطر ويبعد أكثر من ٨٥ كم إلى الشمال من مدينة الدوحة ، ويوجد على سطح صخوره العديد من الوحدات التي تتكون من حفر صغيرة على شكل صفين متوازيين ومتجاورين ويحتوي كل صف منها على حوالي ٧ حفر ، وفي حالة قليلة توجد وحدات تشبه في شكلها تلك الوحدات الموجودة على سطح تل الجساسية (٤) .

سادساً : نقوش الغارية :

يقع تل الغارية على مسافة ٥ كم إلى الشمال من تل فويرط على الساحل الشرقي لقطر . وقد نقش على سطحه مجموعة من الوحدات المختلفة ، بعضها على هيئة دائرة تتألف من حفرة مركزية كبيرة يلتف حولها مجموعة حفر أقل اتساعاً وعمقاً ، والبعض الآخر يمثل مجموعة من أحرف اللغة الإنجليزية ، فضلاً عن ذلك يوجد نص باللغة العربية يتكون من الكلمات الآتية :

« عيسى بن ناصر البوكوارة المولود سنة ١٣٠١ »

سابعاً : نقـوش الجبيـلات :

تقع قريـة الجبيلات على بعـد عـدة كيلو مترات إلى الجنوب من قريـة العريش على السـاحـل الغربي لقطر . ويوجـد على بعـد ٤ كم إلى الجنوب منهـا تـل صخري حفر على سطحـه مجموعـة من الـوحـــدات المختلفـــة الأشكال . فنرى وحــــدات من حفر صغيرة على شكل صفين متـوازيين ومتجاورين ، وأحيانـاً أربعـة صفوف متجـاورة ويضم كل صف منهـا مـابين ٦ - ١١ حفرة . وفي حـالـة واحـدة يلاحـظ وجود مجرى محفور في الصخر يؤدي إلى حفرة كبيرة مستـديرة يبلغ طـول قطرها ١٨ سم ، وعمقها ١٤ سم . فضلاً عن ذلك توجد وحـدات على هيئـة دائرة تتـألف من حفرة مركزية كبيرة مستديرة وعميقة ، ويلتف حولها حفر أقل اتساعاً وعمقاً . ويتراوح عـددهـا مـابين ٦ - ٨ حفر . بينما يبلغ طول قطر كل منهـا مـا بين ١٤ - ١٨ سم ، في حين يتراوح عمقهـا مـابين ١٠ - ١٤ سم .

ثامناً : نقـوش الفريحـة :

توجـد هـذه النقوش على سطح تل صخري قليل الارتفـاع يقع بـالقرب من الشـاطىء الغربي لقطر على بعد ٣ كم إلى الشمال من قلعة الزبارة المشهورة . ويحيط بـه مسـاحـة واسعـة من الأراضي الرملية الصالحة لإقامة خيام البدو . وتكسوها نباتات صحراوية قصيرة . وتتنـاثر فوق سطح التل الصخري عشرات من الوحدات المختلفة الأشكال .

فنرى البعض على هيئة صفين متوازيين ومتجاورين من الحفر الصغيرة ويتراوح قطرهـا مـابين ٥ - ٢٠ سم ، بينما يتراوح سمكها مابين ٢ - ١٠ سم ، والبعض الآخر عبارة عن تجاويف بيضـويـة الشكل تتراوح أطوالها مابين ٣٠ - ٥٠ سم ، وعمقهـا حوالي ١٦ سم وفي حـالـة واحـدة يوجـد حفرة كبيرة مستـديرة يبلـغ طـول قطرهـا ٥٠ سم وعمقهـا ٢٦ سم . وفي حـالـة أخرى يـوجـد ثماني حفر مستديرة يربط فيا بينها مايشبه قناة رفيعة يبلغ عرضها حوالي ٣ سم . بالإضافـة إلى ذلـك يوجـد أربعة وحدات متناثرة فوق سطح التل على هيئة خـط يبلغ طولـه حوالي ١٧ سم ، وعرضـه حوالي ٢ سم ، ويتوج طرفه خط منحني على هيئة القوس () (٥) . إلى جـانب ذلـك توجـد وحـدة أخرى تتكون من أربعـة خطوط محفورة حفراً بسيطـاً على سطح الصخر ، ويتراوح طولها مـابين ١٩ - ٣٤ سم . وتنتهي جميعهـا بحفرة مستـديرة يبلغ عمقهـا ١٥ سم فضلاً عن ذلـك عثر على

طبعات محفورة تمثل أقدام بشرية منقورة في الصخر يتروح طولها ما بين ١٠ - ٢٧ سم (٦) .

تلك هي النقوش الصخرية التي أمكن التعرف عليها فوق سطوح بعض تلال قطر . ويمكن تصنيف أشكالها إلى عدة مجموعات على النحو التالي :

المجموعة الأولى :

وحدات تتكون من حفر مستديرة تكون صفين متوازيين ومتجاورين ، وأحياناً من أربعة صفوف ، ويمتاز بعضها بوجود استدارة بسيطة تشبه إلى حد كبير شكل الهلال البسيط . (صورة ١ ، ٣) .

المجموعة الثانية :

وحدات دائرية تتكون من حفرة مركزية مستديرة وعميقة يحيط بها مجموعة من الحفر أقل اتساعاً وعمقاً . تشبه في شكلها العام الوردة أو الشمس المشعة (صورة ٢ ، ٥) .

المجموعة الثالثة :

وحدات تتكون من خطوط محفورة حفراً بسيطاً تتكرر أحياناً في شكل خط صغير يتوج نهايته خط منحني آخر على هيئة القوس ، وأحياناً أخرى تبدو في شكل مجموعة من الخطوط غير منتظمة في أشكالها وأطوالها ، وتتجمع عند حفرة كبيرة عميقة تشبه شكل النجم المذنب . (صورة ٨) .

المجموعة الرابعة :

وحدات من حفر كبيرة الحجم والعمق ، بعضها على شكل بيضوي ، والبعض الآخر على شكل قوارب ذات مجاديف على كلا الجانبين ، ويوجد حولها وفي داخلها حفر مستديرة الشكل مختلفة الحجم . (صورة ٤ ، ٦ ، ٧) .

المجموعة الخامسة :

وحدات تمثل أشكالاً آدمية أو حيوانية .

التعليـــق :

يتضح من استعراض الوحدات الخاصة بهذه المجموعات المحفورة أنها تتميز بوجود عنصر رئيسي هام ومشترك بينهما جميعاً ، وهو ماسبق وصفه بالحفر المستديرة أو الأشكال الدائرية ، والتي يمكن اعتبارها بمثابة عنصر حضاري مفضل في كل الوحدات المحفورة ، الأمر الذي يلزم بحثه ودراسته ومحاولة تفسيره . فمن استعراض نتائج أعمال البحث الأثري لمناطق خليجية عربية يتبين بوضوح أن الشكل الدائري وجد كعنصر رئيسي مفضل في العديد من المواقع الأثرية التالية :

أولاً : المملكة العربية السعودية :

فقد عثر في منطقتها الشمالية الغربية على الكثير من الوحدات التي تشبه وحدات المجموعتين الثالثة والرابعة في قطر ، وهي تتكون من حفر مستديرة منقورة على سطح صخور جبل غنيم الواقع على مسافة ٩ كم إلى الجنوب الشرقي من تيماء أحد مراكز الحضارة العربية القديمة . وقد كان هذا الجبل أحد أماكن العبادة القديمة خاصة في عهد الثموديين (٧) .

ثانياً : البحـــرين :

لعب الشكل الدائري دوراً هاماً كعنصر معماري في الكثير من المعابد والمقابر القديمة التي كشف عنها في البحرين ، فقد عثر في تل باربار الواقع شمال جزيرة البحرين على بقايا معبد يعتبر من أقدم المعابد المعروفة في منطقة الخليج العربي ، ووجد في وسط فنائه الداخلي بناءان صغيران شكل كل منهما على هيئة دائرة ، وإلى الجنوب منهما توجد/قاعدتان حجريتان مستديرتان عرفتا بصخرتي المذبح ويبلغ ارتفاع كل منهما حوالي ٨٠ سم (٨) ، كما عثر أمامهما على كتلة حجرية حفر على سطحها حفرة مستديرة الشكل ، وكشف في الزاوية الشمالية الشرقية للفناء على حفرة كبيرة أحيطت بسياج من الحجر وقد اتصل بها مايشبه القناة الصغيرة مما يدعو إلى الاعتقاد بأنها تمثل مكان تقديم القرابين . وبالحفر أسفل البنائين المستديرين الموجودين في وسط فناء المعبد عثر على بقايا معبد أقدم عهداً من مباني المعبد العلوية . ويرى بعض الباحثين أن معابد باربار تمثل فترة حضارية تمتد من منتصف الألف الثالث قبل الميلاد إلى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد (٩) .

ومن ناحية أخرى وجد الشكل الدائري سبيله في تخطيط مواقع مقابر الدفن الأثرية التي تم التعرف عليها بالجزيرة . فقد أقيمت مباني المقابر حول بعض التلال الصخرية على هيئة دائرة صغيرة أحيطت بدائرة أخرى أكبر (١٠) ، مما يؤكد أهمية تمثيل الشكل الدائري في هذه المباني

وصلته الوثيقة بالعقائد الدينية القديمة .

وفي مجال الآثار المنقولة نجد أن الأختام التي عثر على الكثير منها في البحرين والمعروفة باسم « أختام الخليج العربي (١١) » قد تميزت بشكلها الدائري وبنقوشها التي تضمنت رموزاً وشارات دائرية ونصف دائرية ، مما جعل بعض المهتمين يرى فيها رموزاً تعبر عن الطبيعة وعلى الأخص إله القمر ، ويؤرخها بفترة ترجع إلى الألف الثالث قبل الميلاد وبداية الألف الثانية قبل الميلاد (١٢) .

ثالثاً : دولة الإمارات العربية :

كذلك كان للشكل الدائري صلة كبيرة بمواقع الدفن التي تم الكشف عنها في دولة الإمارات العربية . فقد أسفرت أعمال البعثة الدانماركية في منطقة واحة البريمي (١٣) عن العثور على بقايا بناء دائري يبلغ قطره حوالي ٢٠ متراً فوق سطح أحد التلال الصخرية ، كما عثر بجواره على كتل حجرية كبيرة حفر فوق سطوحها وحدات من حفر دائرية الشكل تشبه إلى حد كبير وحدات المجموعة الثالثة والرابعة القطرية ، وقد تبين أن هذا المبنى عبارة عن مدفن دائري شبيه بمدافن أم النار الدائرية المشهورة (١٤) والتي يربو عددها على الخمسين (١٥) . مما يدعو إلى ضرورة اعتبار المدافن الدائرية بمثابة نمط عام لكل مدافن المنطقة والذي ساد خلال فترة الألف الثالث قبل الميلاد (١٦) .

رابعاً : دولة الكويت :

كذلك يمكن متابعة الشكل الدائري في بقايا المباني التي كشف عنها مؤخراً في جزيرة فيلكا بالكويت ، وهي الجزيرة التي يعتبرها الكثير من المهتمين بمثابة حلقة الوصل بين حضارات الخليج والبحرين وجنوب بلاد الرافدين ، كما يرجعون تاريخ بقايا مبانيها إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . (١٧) . فقد عثر في هذه الجزيرة على بقايا المعبد الخاص بكبير آلهة دلمون والمعروف باسم « انزاك » (١٨) ويتكون هذا المعبد من فناء مربع مكشوف يوجد بداخله ثلاث كتل حجرية ذات شكل دائري يعتقد أنها استخدمت كمذابح لقرابين هذا الإله . وفي مجال الآثار المنقولة عثر في هذه الجزيرة على ما يزيد عن ٤٠٠ ختماً من أختام الخليج العربي التي تتميز بشكلها الدائري والتي تعود إلى منتصف الألف الثالث قبل الميلاد . وقد حملت معظم هذه الأختام نقوشاً تمثل أشكال الخطوط والدوائر (١٩) والنجوم والأفلاك والكواكب (٢٠) . وتبين من دراستها أنها ذات طابع ديني يوضح محاولات الإنسان العربي القديم للتعبير عن أفكاره ومعتقداته الدينية خلال هذه الفترة الزمنية .

من ذلك تبين أن الشكل الدائري أو الوحدات الدائرية المحفورة لعبت دوراً كبيراً في الأفكار والمعتقدات الدينية العربية القديمة ، الأمر الذي وضح بجلاء في الكثير من المخلفات الدينية الثابتة منها والمنقولة على السواء والتي عثر عليها في العديد من بلدان الخليج العربي المحيطة بقطر .

وفي الحقيقة لم تقتصر صلة الأشكال الدائرية أو الوحدات المحفورة على سطح الصخر بالمعتقدات والمباني الدينية على هذا الجزء من آسيا بل يمكن متابعة هذه الصلة في أجزاء أخرى من هذه القارة كالهند مثلاً وفي قارات أخرى من العالم كأفريقيا وأمريكا وأوروبا (٢١) ، ولا غرابة في ذلك إذ أنها بمثابة تعبيرات بدائية لأفكار دينية ساذجة ظهرت في بعض مناطق العالم القديم خلال إحدى مراحل تطورها التاريخي ، واتسمت بالبساطة في التعبير والسذاجة في الفكر . ولن يتسع هنا المجال لسرد تلك الأماكن بالتفصيل وإنما يمكن الاكتفاء بالإشارة إلى بعض المناطق الموجودة في قارة أوروبا . فقد عثر في بريطانيا على وحدات تمثل أشكالاً دائرية محفورة على سطح الصخر بالقرب من مناطق اخنابريك Achnabreck وأرجيل Argyll واسكوتلاند Scotland ويوركشير Yorkshire ، وكذلك عثر على العديد من الوحدات الدائرية في مناطق عديدة من أسبانيا وشمال البرتغال وجدت بالقرب من مواقع الدفن المعروفة باسم « المقابر ذات الممرات » (٢٢) .

كذلك عثر في إيطاليا على وحدات دائرية مماثلة في مناطق عديدة أشهرها تلك التي تقع بالقرب من فالكامونيكا Valcamonica (٦٤ كم شمال ميلانو) والتي احتوت على مايزيد عن ١٣٠٫٠٠٠ وحدة من هذه الدوائر . ومما هو جدير بالملاحظة أن معظم الوحدات الدائرية الأوروبية حفرت على سطح كتل حجرية تمثل شواهد قبور ولوحات جنزية عمودية ورأسية ، ووجدت بالقرب من مراكز التجمع الدينية القديمة ، وقد أرجع المهتمون بدراستها تاريخها إلى ماقبل الألف الثانية قبل الميلاد .

وما دام الأمر يتصل بالعقائد الدينية بصفة عامة فلابد من استعراض ذلك في ضوء ما هو معروف من العقائد الدينية العربية القديمة .

فمن المعلوم أن الكثير من طوائف العرب الجنوبيين عبدوا الظواهر الطبيعية لاعتقادهم أن فيها قوى روحية كامنة تؤثر في حياة البشر وسائر الكائنات الأخرى (٢٣) . فكانت الشمس والقمر أول الأجرام السماوية التي جذبت أنظار هذه الطوائف ، واتضح لهم أن للشمس أثراً كبيراً في حياتهم اليومية بما تبعثه من حرارة شديدة في النهار تسبب الكثير من المتاعب . كما ظهر لهم أن للقمر

سحراً عظيماً في نفوسهم بما يبعثه من ضوء هادىء ينير طريق القوافل في الليل ، ولذلك كان هذان الكوكبان في مقدمة الأجرام السماوية التي ألهها العربي الجنوبي القديم ، ففي بادىء الأمر عبدهما مجردين ودون أن يتصور فيهما مايبدو له من صفات وأمور غير ملموسة تنتمي ألى ماوراء الطبيعة . وعندما تطورت أفكاره واتسعت مداركه في أمور ماوراء الطبيعة تصور أن لهما قوى خفية وروحاً حية وقدرات فائقة وصفات إلهية . وبذلك أخرجها من صفاتها المادية البحتة وأضفى عليهما مظهراً لقوى روحية يمكن إدراكها من خلال ما تحدثه من آثار ملموسة على الأرض وسكانها . ثم حدث توسع في هذا التصور وصل إلى حد تقديس بعض النجوم والأحجار والآبار والأشجار وغيرها .

وإذا ما أردنا أن نستعرض الكتابات الأثرية التي يمكن جمعها في بلاد العرب وكذلك المؤلفات الكلاسيكية والعربية التي أشارت إلى الديانة العربية القديمة لوجدنا أن المحور الأساسي الذي ارتكزت عليه هذه الديانة يتمثل في وجود الثالوث الفلكي الذي يجمع بين القمر والشمس والزهرة باعتبارهم أكبر أجرام السماء . ويمكن تتبع أثر هذا الثالوث الديني وانتشاره الفكري حتى القرون الأولى الميلادية . فلقد انفرد إله القمر بالكثرة المطلقة من الأسماء والألقاب التي تضمنتها نصوص اللوحات المكتوبة (٢٤) واحتل عند العرب الجنوبيين مكانة أسمى من مكانة الشمس (٢٥) . واعتبروه الأب السماوي والجد الأكبر للقبيلة . ولذلك أطلقوا عليه لقب (أب) أحياناً ولقب (عم) أحياناً أخرى مثلما حدث عند القنيانيين تعبيراً عن عطفه على المتعبدين له ورحمة بهم ، فضلاً عن ألقاب أخرى كلقب (ود) عند المعينيين و (المقه) عند السبئيين والتي تعني (حب) ويقصد بها الحب الإلهي ، ولقب (المقه) عند السبئيين ثم الأحباش والذي يحمل معنى (اللمعان والقوة) . ولذلك اختير الثور عندهم كحيوان مقدس نظراً لقوته ولقرنيه اللذين يذكران بالهلال (٢٦) ، كما يوجد لقب (ورخ) بالعربية اليمنية والحبشية والذي يعني (القمر والهلال) ، ومنه جاء الفعل (أرخ) في العربية الفصحى والذي يعني دورة القمر حسب الأيام والشهور ، وكان العرب الجنوبيون يستخدمون بكثرة ألقاب الآلهة دون أسمائها تعبيراً عن التكريم والتقديس والتأدب والاحترام ، إذ كان من غير المقبول أن يخاطب العربي القديم رب الأرباب بذكر اسمه مثلما يخاطب غيره من بقية البشر (٢٧) .

كذلك أشار القرآن الكريم ألى هذه العبادة بقوله سبحانه وتعالى في سورة فصلت (آية ٣٧) :

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله

الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون ﴾ .

أما الشمس فقد نظر إليها على أنها انثى وزوجة لإله القمر ولذلك احتلت المرتبة الثانية بعد إله القمر . وقد عبدت في أماكن متعددة من شبه الجزيرة العربية منها قتبان وحضر موت وسبأ . كما عرفت عند السبئيين باسم (ذات حميم) ، (ذات حمى) بمعنى المتقدة أو الساخنة أو ذات الحرارة القوية ، وهو اسم لا يحمل أي معنى عقلي لهذا المعبود ، بل يصفه كما هو في الطبيعة كجرم سماوي (٢٨) ، مما يشير إلى أن الاسم قديم ويعود إلى عصور سحيقة . أما في النقوش القتبانية فعرفت باسم (ذات صهرون) و (ذات رحبن) وفيه مايشير إلى الحرارة الشديدة وإلى أنه زوج الإله (ود) .

ويكمل الزهرة باعتباره أكثر نجوم السماء تألقاً ولمعاناً هذا الثالوث الفلكي ليكون ابناً للعائلة المقدسة والمشكلة من القمر الوالد والشمس الأم . وقد عرف هذا الإله باسم (عثتر) لدى سكان المناطق الجنوبية لشبه الجزيرة العربية (٢٩) وهو يقابل الإله عشتار عند البابليين والآشوريين و (عشتارت) لدى الكنعانيين والفينيقيين والأحباش (٣٠) مما يدل على أنه كان من الآلهة الشائعة حتى القرون الأولى الميلادية .

ومن ناحية أخرى يتفق الفن العربي القديم مع الأسماء والألقاب التي تضمنتها الكتابات العربية القديمة في تأليه وعبادة هذه الكواكب الثلاثة . ويتبين ذلك في كثير من الرسوم والنقوش التي سجلها العربي القديم في كل مناسباته . ولم يكن أسلوب تسجيله وتعبيره ممثلاً في هيئة تماثيل مجسمة مثلما كان الحال في بعض بلدان العالم القديم الأخرى . إذ أنها لم تكن معروفة في مناطق العرب الجنوبية - وإذا كانت التماثيل قد وجدت في المناطق الشمالية فمن الثابت أنها كانت دخيلة ، جاءت من شعوب شمالية ذات حضارة متقدمة (٣١) . ولذلك عبر الإنسان العربي القديم عن هذه الآلهة الثلاثة برموز وشارات بدائية تشبه في شكلها العام تلك الصورة التي كان يراها عليها في السماء الصافية وقد تضمنت رسوم بعض اللوحات والنصب التذكارية جانباً من هذه الرموز . فنراها ترسم إله القمر بشكله الكامل وأحياناً ترمز إليه بشكل هلال أفقي ، بينما ترمز إلى آلهة الشمس بشكل دائرة وترمز إلى إله الزهرة بشكل نجم مذنب . (٣٢) .

ولا شك أن ارتباط الإنسان العربي بهذه الأمور أو الشارات الدينية كان قوياً باعتبارها أحد المستلزمات الضرورية لأداء الطقوس الدينية كي يتقرب بها إلى الآلهة ويعمل على استرضائها . لكنه كثيراً ما كانت الرموز الدينية تحتل مكانة عالية في بعض مراحل التطور الحضاري للشعوب البدائية بدرجة تجعلها تطغى على الأهداف والمعاني الدينية التي تمثلها ، ومن ثم تصبح في حد ذاتها

هدفاً مقصوداً يقيم الإنسان لها الصلوات والرقصات والأهازيج والأفراح .

وعلى هذا الأساس يود المرء أن يستنتج مما سبق استعراضه النتائج الآتية :

أولاً : أن العثور على نقوش صخرية في منطقة قطر ليس بالأمر المستغرب . فقد أثبتت الدراسات الأثرية لمناطق ساحل الخليج العربي وشبه الجزيرة العربية وجود مراكز حضارية قديمة لعبت دوراً هاماً بالمنطقة منذ بداية مرحلة الاستقرار ، وقد ساعد على ازدهارها ماتميزت به من موقع استراتيجي هام كان يربط بين حضارات بلاد مابين النهرين من جهة وحضارات وادي السند من جهة أخرى ، فضلاً عما تمتعت به من مميزات طبيعية وإمكانيات محلية دفعت السكان نحو الأنشطة التجارية وإقامة العديد من الموانى والمراسي المحمية . وبالتدريج أصبح الخليج العربي ممراً رئيسياً للسفن المحملة بالبضائع المختلفة وشرياناً حيوياً لإنعاش اقتصاديات المنطقة .

ويمكن تتبع بقايا هذه المراكز (٣٣) في مواقع أثرية عديدة تمثلت في جزيرة فيلكا والبحرين وتاروت وأم النار والبريمي وغيرها . ولقد تميزت هذه المواقع بوفرة عطائها الأثري الذي يمثل فترة زمنية طويلة تبدأ من الألف الثالث ق . م وتستمر حتى أواخر الألف الثانية ق . م . بينما لم يعثر حتى الآن على مادة أثرية منتمية إلى الألف الأول ق . م وربما يرجع السبب في ذلك إلى وقوع المنطقة تحت سيطرة الامبراطورية الآشورية ، ومن بعدها الامبراطورية الفارسية الاكمينية حتى أواخر الألف الأولى ق . م .

ثانياً : يميل المرء إلى الاعتقاد بأن النقوش الصخرية الموجودة في قطر تمثل رموزاً أو شارات بدائية ذات صلة وثيقة بنظرية الثالوث الفلكي الدينية السابق الإشارة إليها والضاربة بجذورها في أعماق التاريخ العربي القديم ، وقد حفرها سكان قطر القدماء على سطح التلال السابق ذكرها على أساس أنها أماكن صخرية مكشوفة للسماء ومرتفعة عن مستوى سطح الأرض الرملية وصالحة لتجمعاتهم ولمناسباتهم ولاحتفالاتهم ، ثم مالبث بمرور الوقت ان اكتسبت من وجهة نظرهم قدسية خاصة دفعتهم إلى حفر رموزهم وشاراتهم الدينية على سطحها وإجراء مايلزم من طقوس وصلوات ونحر للذبائح وتقديم القرابين لآلهتهم الفلكية حولها . وهي الآلهة المتمثلة في الثالوث المقدس المكون من القمر والشمس والزهرة والذي عبر عنه الفن العربي القديم برموز الهلال والدائرة والنجم المذنب .

وبالتالي يعتقد المرء ان وحدات المجموعة الأولى في محفورات قطر المؤلفة من صفين متوازيين تمثل في حقيقتها الشكل الهلالي البسيط للقمر ، وتلك المؤلفة من أربعة صفوف تمثل شكلين متجاورين لهذا الهلال القمري البسيط .

أما وحدات المجموعة الثانية التي تتكون من حفرة مركزية عميقة يحيط بها مجموعة من الحفر الأقل عمقاً فهي تمثل الرمز أو الشارة الخاصة بآلهة الشمس ، ووحدات المجموعة الثالثة التي تتكون من خطوط تنتهي إلى حفرة عميقة فهي تمثل الرمز الخاص بإله الزهرة .

وبناء عليه يمكن القول بأن هذه الوحدات الدائرية المتباينة الشكل والمحفور بعناية كبيرة فوق سطح التلال الصخرية لا تخرج عن كونها رموزاً بسيطة لأفكار وعقائد دينية ويحتمل أنها تمثل مرحلة ساذجة من مراحل نظرية الثالوث الفلكي الدينية التي سادت جنوب شبه الجزيرة العربية إن لم تكن كل أرجاء هذه الجزيرة . فقد حفرت بأسلوب قطري بسيط يتفق إلى حد كبير مع أسلوب التعبير الفني البدائي عند العربي القديم ، فضلاً عن أنها تتشابه في أشكالها العامة المتمثلة في أشكال الهلال والدائرة والنجم المذنب مع ما تظهر عليه صور وأشكال هذه الكواكب في سماء الجزيرة العربية الصافية أمام العين المجردة للإنسان صاحب الفكر البسيط .

ثالثاً : إذا ما حاول المرء تحديد الفترة الزمنية لهذه المرحلة البدائية التي حفرت اثناءها هذه الوحدات فإنه من الصعب تعيين ذلك بدقة ، لكنه على الرغم من ذلك فإنه توجد عدة اعتبارات جديرة بالملاحظة والاهتمام نسردها على الوجه التالي :

١ - تبين من الفحص الدقيق لجوانب وأعماق الحفر المستديرة التي تتشكل منها هذه الوحدات أن الأدوات المستخدمة في تنفيذ عمليات الحفر فوق السطح الصخري لا يمكن أن تكون أدوات حجرية نظراً لما تتمتع به من صلابة محدودة لا تساعد على تشكيل هذه الوحدات ، ومن ثم فإن استخدام أدوات معدنية أمر لا يتطرق إليه شك . وغالباً ماتكون هذه الأدوات المعدنية مصنوعة من مادة البرونز الأكثر صلابة وذات أطراف مدببة لكي تتناسب مع تنفيذ عمليات الحفر فوق سطح الصخر .

ومن ناحية أخرى يرى معظم المؤرخين أن بداية عصر استخدام المعادن في مناطق العراق والشام وغيرها من المناطق المحيطة بشبه الجزيرة العربية تعود إلى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد ، حيث تم اكتشاف معدن النحاس وتلاه معدن البرونز الذي استخدم فترة زمنية طويلة قبل أن يتم اكتشاف معدن الحديد حوالي عام ١٢٠٠ ق . م وحيث أن المرء يميل إلى الاعتقاد باستخدام آلات برونزية في عمليات الحفر فإن ذلك يتفق مع مرحلة انتشار هذا المعدن وشيوع استخدامه بالمنطقة وهي المرحلة التي ظهرت خلال النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد (٣٤) .

٢ - عثر في معابد باربار بالبحرين على محفورات تشبه بعض الوحدات المحفورة في قطر ، وذلك في الفناء الداخلي للمعبد الذي كان يضم مباني المذبح المقدسة . كذلك عثر على محفورات مشابهة على سطح بعض كتل حجرية وجدت في أحد المستويات القديمة للمعبد . وقد أرجع المكتشفون تاريخ بناء هذه المعابد إلى، تلك الفترة الحضارية التي تمتد من منتصف الألف الثالث حتى أوائل الألف الثاني قبل الميلاد .

٣ - امتازت الأختام ذات الشكل الدائري والمعروفة باسم « أختام الخليج العربي » التي عثر عليها بالمئات في كل من البحرين والكويت بنقوشها التي تمثل أشكال الدوائر ونصف الدوائر والخطوط المختلفة ، وهي تشبه في شكلها العام بعض الوحدات المحفورة في قطر . وقد تبين من دراسة هذه الأشكال أنها رموز أو شارات دينية مقدسة أغلب الظن أنها لكوكبي القمر والشمس وبعض النجوم التي اعتاد العربي القديم رؤياها . وقد أرجع المهتمون تاريخ هذه الأختام إلى منتصف الألف الثالث وبداية الألف الثاني قبل الميلاد .

بناء على ذلك يميل المرء إلى الاعتقاد بأن نقوش قطر تعاصر تلك الفترة الزمنية التي شهدت استخدام الأدوات البرونزية والتي سبقت بقليل مرحلة ازدهار المراكز الحضارية الخليجية ذات الموقع الاستراتيجي بين حضارة بلاد ما بين النهرين ووادي السند . وهي فترة يمكن تحديد زمنها على وجه التقريب من بداية الألف الثالث إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد .

رابعـاً : يود المرء أن يرى في تمثيل الحفر المستديرة لدى كافة وحدات المجموعـات المحفورة مـايمثل اطباقاً أو كؤوساً تقدمها القرابين البسيطة التي كانت تملأ بدماء الذبـائح المقـدمـة قربـانـاً لالهة السماء المقدسـة . ولا شـك في أنـه كان يتم إجراء الكثير من الطقوس والصلوات على سطح التلال أمام وحول هذه الرموز . إلا أنه ليس من السهل خصوصاً في ضوء الأبحاث الأثرية المتوافرة الآن التحدث عن نوع هذه الطقوس أو طبيعتها أو أسلوب أدائها .

على أية حال فـإن كل مـا ذكر عن النقوش الصخريـة في دولـة قطر لا يعـدو سوى كونه محاولـة قصـد بهـا التعرف على طبيعـة هـذه النقوش ودوافعهـا وكشف النقـاب عن الأغراض التي من أجلها حفرت على سطح التلال السابق ذكرها ، وذلك في ضوء مـا هو متوافر من أدلة أثرية قليلة . وقد يتطلب الأمر إعادة المحـاولـة من جـديـد عنـدمـا يتم مسح ودراسة كافة المراكز الحضارية لساحل الخليج العربي دراسة علميـة أثريـة شـاملـة . وهذا ما نرجو أن تضطلع به الأجهزة العلمية المهتمة بـأبحـاث التراث القـديم في كل أرجـاء المنطقة الخليجية .

الهوامــــش

١ – H. Kapel, Atlas of the Stone–Age Cultures of Qatar Vol. 1 Page 31.

٢ – A. Ghosh, Qatar, Unesco, P.6.

٣ – B. De Cardi, Qatar Archaeological Report, P. 190.

٤ – B. De Cardi, Ibd, P. 190.

٥ – J. Kuml, Prehistoric Discoveries in Qatar, P. 175.

٦ – J. Kuml, Ibd, P. 176.

٧ – وزارة المعارف السعودية : مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية ، ص ١١٢ .
(الثموديون نسبة إلى ثمود من عرب البائدة ، وهم قوم النبي صالح الذي دعاهم إلى عبـادة الله فخالفوه . وقد ورد اسم ثمود مع اسم عاد في عدة سور من القرآن الكريم) .

٨ – سليمان البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين ٤ ، ٣ ق . م ص ١٢٤ .

٩ – سليمان البدر : المرجع السابق ، ص ١٢٦ .

١٠ – سليمان البدر : المرجع السابق ، ص ١٣١ .

١١ – سليمان البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين ٢ ، ١ ق . م ، ص ١٢٧ .

١٢ – سليمان البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين ٤ ، ٣ ق . م ١٠٦ ، ١٣٤ .

١٣ – G. Bibby, Looking for Dilmun, London, P. 150.

١٤ – سليمان البدر : المرجع السابق ص ١٦٠ .

١٥ – سليمان البدر : المرجع السابق ص ١٦٥ .

١٦ – سليمان البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين ٢ ، ١ ق . م ص ٣٥ .

١٧ – وزارة الإرشاد والأنباء الكويتيـة : تقرير شـامل عن الحفريـات الأثريـة في جزيرة فيلكا ، ص ٢٠ .

١٨ – وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية : التقرير السابق ص ٩٧ ، ٩٨ .

١٩ – وزارة الإرشاد والأنباء الكويتية : التقرير السابق ، شكلي ٧٦ ، ٧٧ ص ١٤٣ .

٢٠ – سليمان البدر : منطقة الخليج العربي خلال الألفين ٤ ، ٣ ق . م .

٢١ – J. Mc Mann, Riddles of the Stone Age, P. 98.

٢٢ – J. Mc Mann, Ibd, P. 88–91.

٢٣ – جواد علي : المفصل في تـاريخ العرب قبل الإسـلام ، جـزء ٦ ، ص ٢٢ ، ٥٠ ، السيـد عبـد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، ص ٤٧٨ .

٢٤ – محمد بيومي مهران : دراسة حول الديانة العربية القديمة . ص ١٩ .

٢٥ – السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية ، ص ٤٦٢ .

٢٦ – فؤاد حسنين علي : ترجمة التاريخ العربي القديم ، ص ٢٠٧
، السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ، ص ٤٦٣ .

٢٧ – جواد علي : الجزء ٦ ، ص ٥٣٦ .
، محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٢٢ .

٢٨ – فؤاد حسنين علي : ترجمة : التاريخ العربي القديم ، ص ٢١٨ .

٢٩ – السيد عبد العزيز سالم : المرجع السابق ص ٤٦٢/٤٦١ .

٣٠ – محمد بيومي مهران : المرجع السابق ص ٢٤ .

٣١ – فؤاد حسنين علي : ترجمة : التاريخ العربي القديم ١٩٦ .

٣٢ – فؤاد حسنين علي : المرجع السابق ص ١٩٧ .

٣٣ – سليمان البدر : المرجع السابق . ص ١٩٢ .

٣٤ – رشيد الناضوري : جنوب غربي آسيا وشمال أفريقيا . ص ٢٩١/٢٩٠ .

مصــادر البحــث

باللغة العربيـة :

١ - السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب في عصر الجاهلية . بيروت ١٩٧١ .

٢ - جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام (٩ أجزاء) بيروت - بغداد ١٩٧٦ .

٣ - د يتلف نيسلن - ترجمة : فؤاد حسنين علي : التاريخ العربي القديم . القاهرة ١٩٥٨ .

٤ - سليمـان سعـدون البـدر : منطقـة الخليج العربي خلال الألفين الرابع والثـالث قبل الميـلاد . الكويت ١٩٧٤ .

٥ - سليمـان سعـدون البـدر : منطقـة الخليج العربي خـلال الألفين الثـاني والأول قبـل الميـلاد . الكويت ١٩٧٨ .

٦ - عمر فروخ : تاريخ الجاهلية . بيروت ١٩٦٤ .

٧ - ج.ج لوريمز - ترجم وطبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد آل ثـاني أمير دولـة قطر : دليل الخليج - الجزء السادس .

٨ - محمد بيومي مهران : دراسات حول الديانة العربية القديمة ١٩٧٨ .

٩ - وزارة المعارف السعودية : مقدمة عن آثار المملكة العربية السعودية إدارة الآثار والمتـاحف . الرياض ١٩٧٥ .

١٠ - وزارة الإرشاد والأنباء الكويتيـة : تقرير شـامل عن الحفريـات الأثريـة في جزيرة فيلكا . الكويت ١٩٦٣ .

مراجــع أجنبية

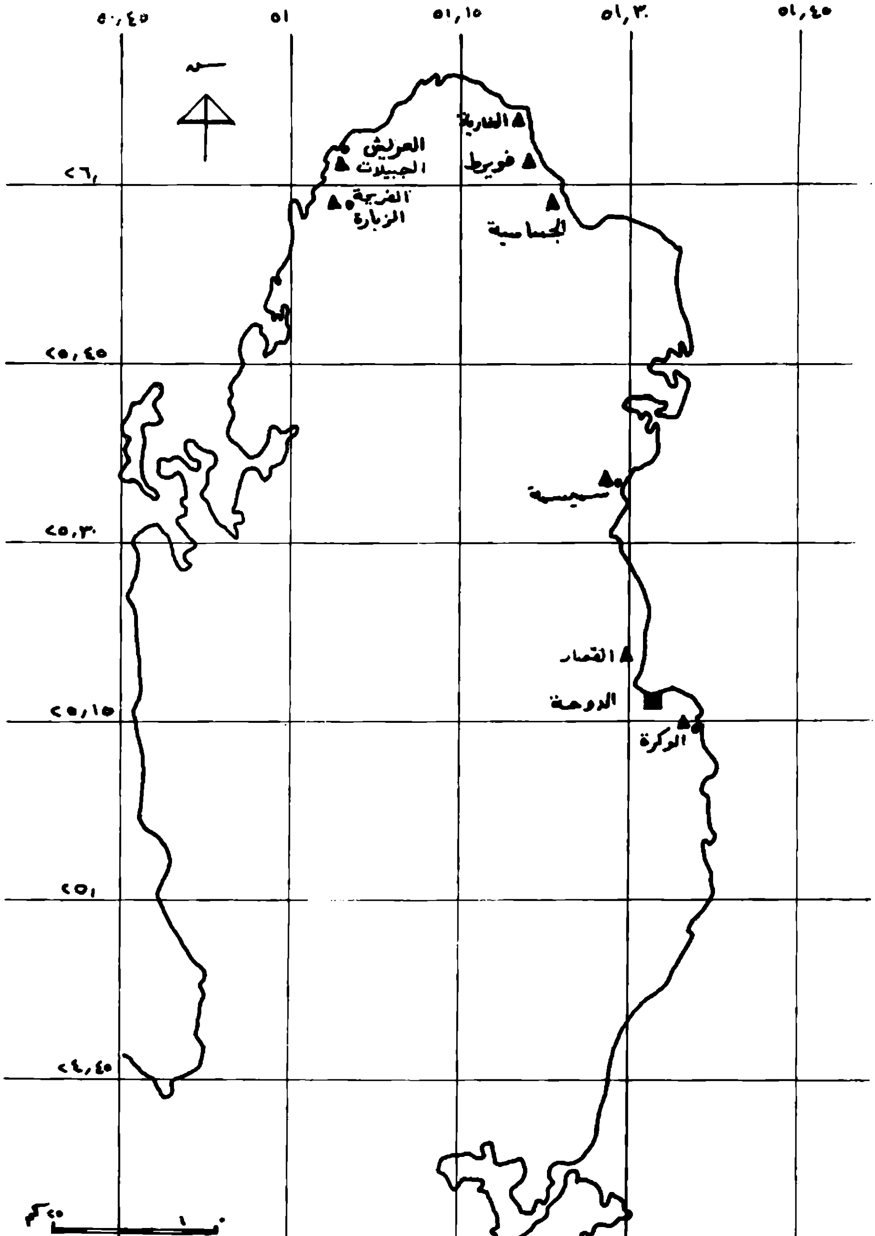
1. **B. De Cardi** : Qatar Archaeological Report, State of Qatar. 1978.

2. **A. Ghosh** : Qatar, Report on the protection of cultural heritage and development of a Museum, Unesco, Paris 1968.

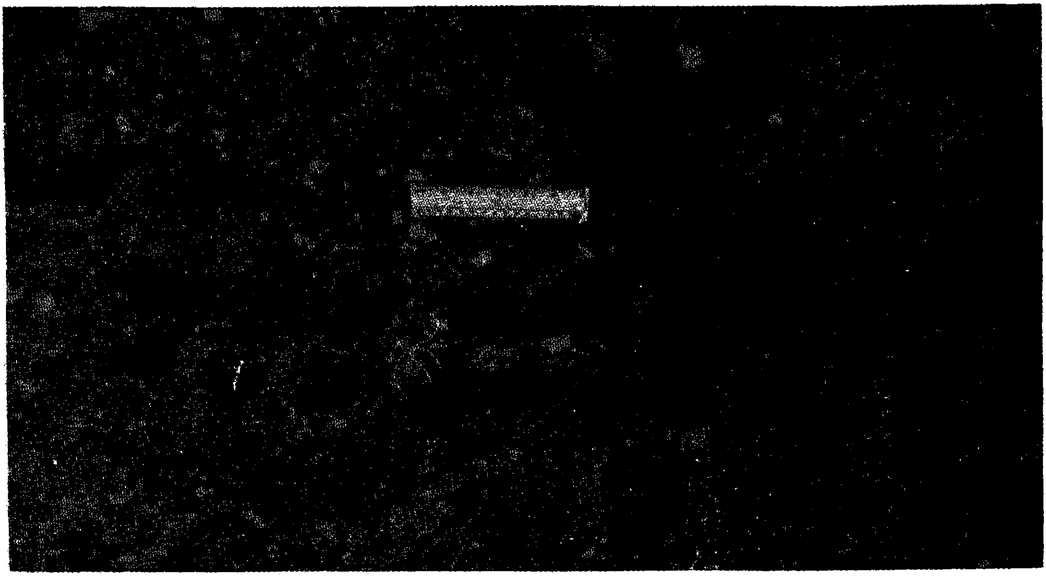
3. **J. Kuml** : Prehistoric Discoveries in Qatar, 1957.

4. **Jean Mc Mann** : Riddles of the Stone Age. London 1980.

5. **G. Bibby** : Looking for Dilmun. London 1970.



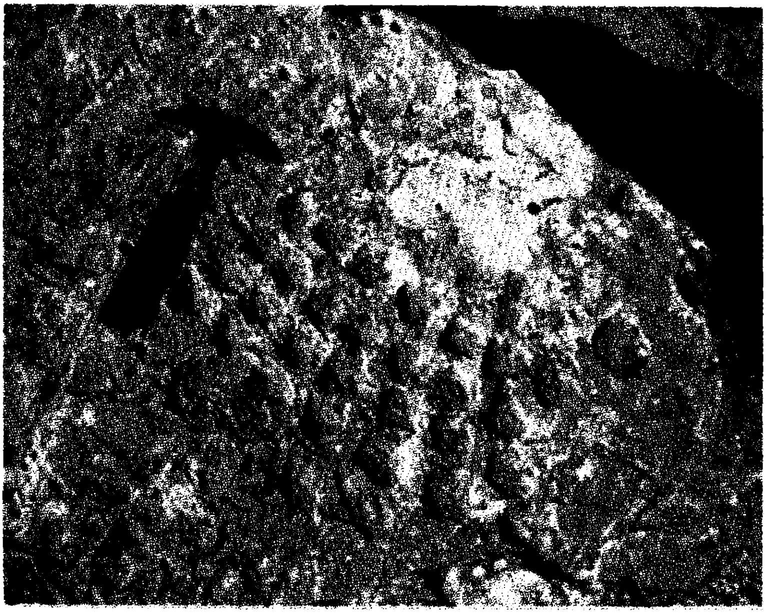
خريطة قطر لتوضيح مواقع النقوش الصخرية القديمة



(١) إحدى وحدات المجموعة الأولى المكونة من صفين منقوشة على سطح تل الجساسية .



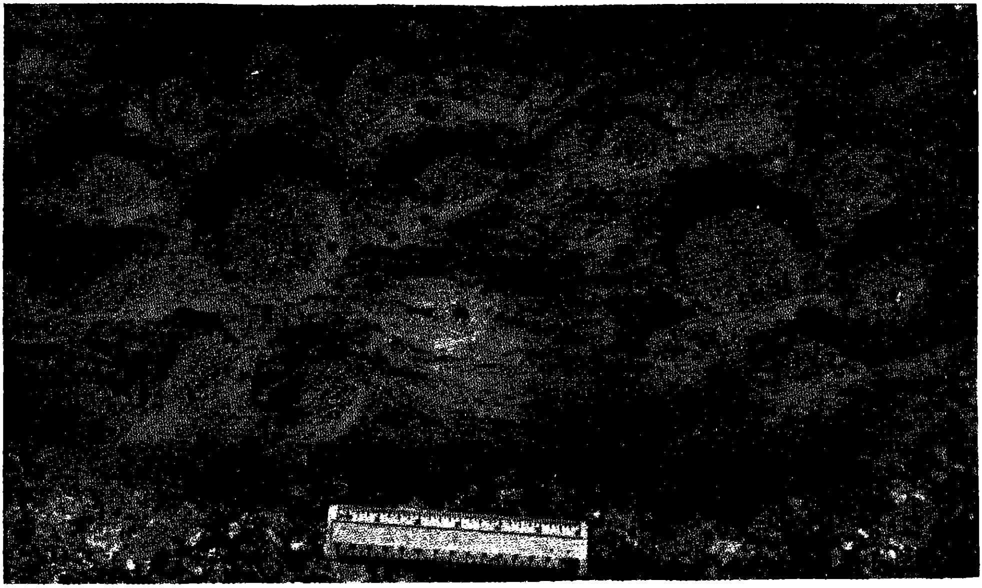
(٢) إحدى وحدات المجموعة الأولى المكونة من صفين تتوسط وحدتين من وحدات المجموعة الثانية وقد نقشت على سطح تل فويرط .



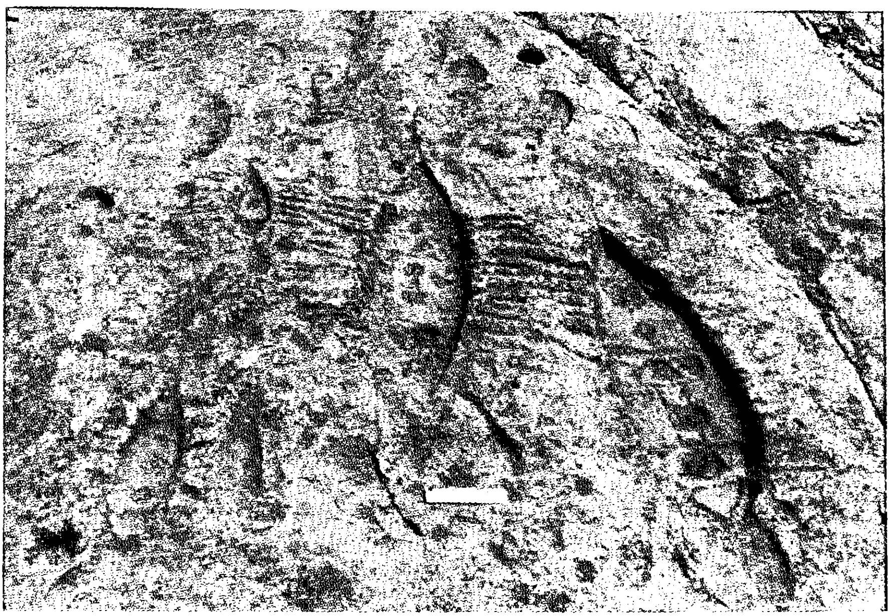
(٣) إحدى وحدات المجموعة الأولى المكونة من أربعة صفوف منقوشة على سطح تل الجبيلات .



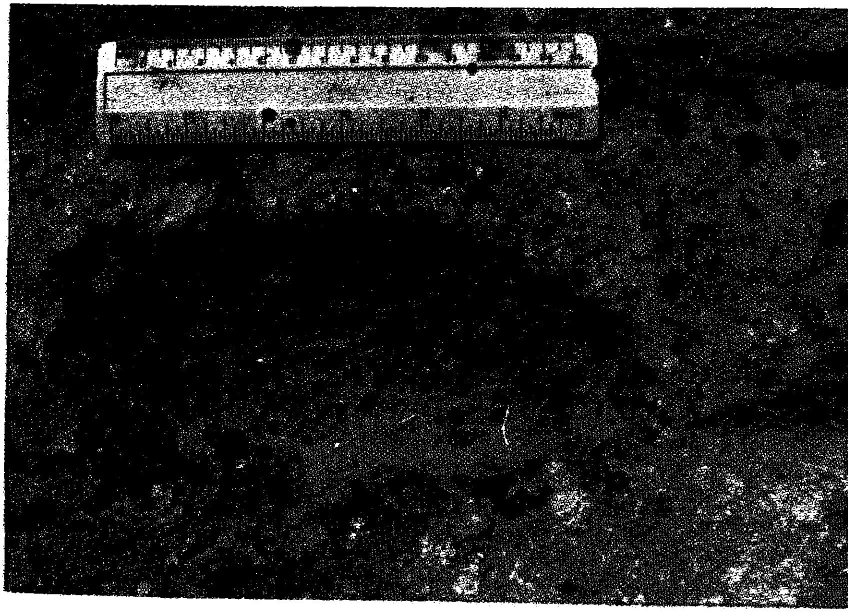
(٤) إحدى وحدات المجموعة الرابعة على هيئة قارب بمجاديف وإلى جواره وحدة من المجموعة الأولى المكونة من صفين منقوشة على سطح تل الجساسية .



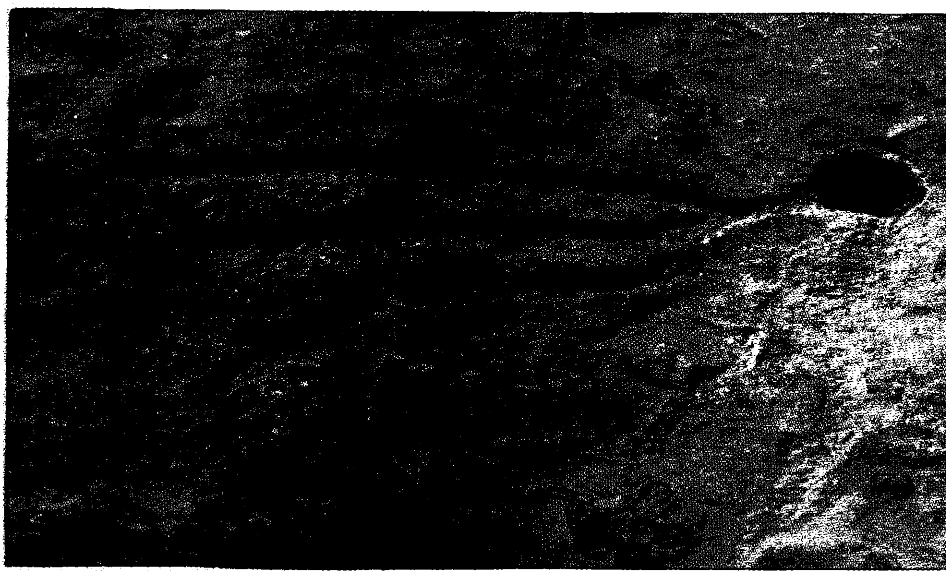
(٥) بقايا وحدتين من وحدات المجموعة الثانية منقوشة على سطح تل الغارية .



(٦) عدد من وحدات المجموعة الرابعة التي تمثل عدد من القوارب المختلفة الأحجام منقوشة على سطح تل الجساسية .



(٧) إحدى وحدات المجموعة الرابعة على هيئة حفرة بيضوية منقوشة على سطح تل الفريحة .



(٨) إحدى وحدات المجموعة الثالثة على هيئة نجم مذنب منقوشة على سطح تل الجساسية .

ديوان أبزون العماني

تحقيق الأستاذ

هلال ناجي

كان أول عهدي بهذا الشاعر ، محاضرة ألقيتها عنه في الندوة العلمية العالمية الثانية المنعقدة في البصرة عام ١٩٧٧ باشراف مركز دراسات الخليج العربي بجامعة البصرة ، وقد كَرَّسَتْ تلك الندوة لدراسة الأدب في الخليج العربي .

ولم أكن آنذاك قد ظفرت بمخطوطة ديوانه - أو بالمختار منها على وجه الدقة - فعمدت إلى جمع ما تناثر من شعره من المخطوطات والمطبوعات ، فتجمع لدي مائة بيت ، ذيَّلْتُ بها المحاضرة بعنوان - الصُبابة من شعر أبزون - .

وقد أثارت المحاضرة جدلاً ومناقشة ، بقدر ما أثارت من تقدير واستحسان ، مردُّهما أنها كشفت وللمرة الأولى عن شاعر لم يدرس من قبل ، ولا نَهَدَ أحدٌ لجمع شعره ، بل وكان مجهولاً من قبل الكثيرين .

إلاّ أنّ أملي لم ينقطع في الظفر بمزيد من شعره في المخطوطات الدفينة ، حتى وفقني الله - تعالى - عام ١٩٨٢ إلى الحصول على مصورة مخطوط أصله في مكتبة الجامع الكبير بصنعاء (كتب الوقف) ٣٤ أدب ، وهو مجموع شعري يضم مختارات لعدة شعراء ، والكتاب الثاني في هذا المجموع يضم المختار من شعر الكافي أبي علي افزون بن مبهزد الكَرّاني العُماني .

ويحتجن المختـار ثلاثمـائـة وتسعـة وخمسون بيتـاً ، وهو بخـط نسخي نفيس جـداً ، من خطوط القرن السابع تقديراً .

ويقع كتاب المختار هـذا في عشرة ورقـات معـدل سطور الورقـة الواحـدة ٢١ سطراً وقيـاسهـا ١٥ × ٢٤ سم .

لقد كان الظفر بهذا المخطوط الفريد ، منطلقـاً لاحيـاء هـذا النص ، ونشره ، وتطوير دراستي عن الشاعر في ظل النصوص الجديدة ، ثم تذييل النص بمختارات من شعر الشاعر تناثرت في بعض المخطوطات والمطبوعات ممّا ليس لـه وجود في « المختـار من شعره » ، وقـد ضمّ هـذا الـذيلُ سبعين بيتاً .

• • •

كُنيته : أبو علي ، واسمه ابزون ، ولقبه الكافي العماني . هذا مـاأجمعت عليـه المصـادر[١] . وشـذّ صاحب كشف الظنون إذ سمّاه « ابزمون »[٢] وهو من تحريف النساخ فيما أحسب .

ووقع الخلاف في اسم أبيه ، صاحب الدمية لم يُسَمِّه ، والصفـدي سمّـاه مهبرد وحـاجي خليفـة سماه مهمرد ، ويـاقوت سماه « مهنبرذ »[٣] وفي المختـار من ديوانه انه « مهبزد » . ولعـل الصـواب : مِهْمِرْد .

لم تحفظ لنا المصادر تـاريخ ميلاده ولا مكانهـا ، وانفرد صـاحب كشف الظنون بـذكر تـاريخ وفاته عام ثلاثين واربعمائة[٤] .

وتنفرد مخطوطـة ديوانـه بنسبتـه إلى كرَّان ، فهو الكرَّاني أولاً ثمّ العُماني . وكرَّان بفتح أولـه وتشديد ثانيه ، محلة مشهورة باصبهـان ، وقـد نُسب اليهـا من لا يُحصى من أهل العلم والروايـة ، وكرَّان أيضاً بلد من بلاد الترك من ناحية التبت[٥] فيما وراء نهر جيحون.

---

(١) دميـة القصر : البـاخرزي . تحقيق د . سـامي مكي العانى ١٧٩/١ ، والوافي بـالوفيـات : الصفـدي : تحقيق س . ديـدرنـغ ١٨٤/٦ ، ومعجم البلدان ٧١٩/٣ .

(٢) كشف الظنون ١/ العمود ٧٧٢ .

(٣) معجم البلدان ٧١٩/٣

(٤) كشف الظنون ١/العمود ٧٧٢ .

(٥) معجم البلدان ٢٤٩/٤ وبلدان الخلافة الشرقية ٤٨٠ .

وممـا رواه أبـو الحـاجب محمـد بن أحمـد نعلم انـه كان مُقيمـاً بجبـل من جبـال عُمان ، كما ذكر الباخرزي[٦] . وفي « نزوى »[٧] بالذات على ما ذكر حاجي خليفة[٨] .

ومن استقراء شعره نعلم أنه كان يتردد على العراق أحياناً ويقيم فيها ويتخذها ملاذاً حين كانت الأحداث تتجهم في وجهه في عُمان . يعزز هذا قوله :

وإذا أحبتني العراق فَهَيِّنٌ ‏ ‏ ‏ عنـــدي إذا نشـــزت عليَّ عُمانُ

وفي شعره إشارة إلى أيام لهو أمضاهـا بجرجرايـا ، وهي بلـدة من أعمـال النهروان الأسفل بين واسـط وبغـداد من الجـانب الشرقي كانت مـدينـة وخربت[٩] . لكنّ عُمان كانت أثيرة عنـده ، فهـو يتطلع اليها بحسرة :

فـــارقتُ أربعـــةً لهـــا ‏ ‏ ‏ يهـــوى المنيـــة من يفـــارقْ
شرخَ الشبيبـــة والغـنى ‏ ‏ ‏ وعُمـــان ، والإلفَ المـــوافـــقْ

وحين كانت أمانيه تخيب في العراق ، كان يُنشد وهو يتطلع إلى عُمان :

وإذا الأمـــاني لم تنلهـــا مُعْرقـــا ‏ ‏ ‏ فـــاثنِ العنـــان ، وسِرْ تنلهـــا مُعْمِنـــا

وهكذا ظلّ يتوجه بقلبه إلى عُمان ، أنّى كان مهجره :

فمـؤيـــد السلطـــان زر ، ودع الـــورى ‏ ‏ ‏ وعُمان يَمِّمْ ، واهجر الآفـــاقـــا

عاش « أبزون » زمن البويهيين ، وفي مدحه « فخر الملك » وزير آل بويه ما يعزز ذلك :

أرضى ملـوك بني بـــويـــه بنُصحـــه ‏ ‏ ‏ والنجـــح جسمٌ روحُـــه الإيمـــانُ
ولـــو أن أمر الملـــك نيـــط بغيره ‏ ‏ ‏ أبت الأسرّة ذاك والتيجـــان
أيـــام فخر الملـــك أكثر بهجـــة ‏ ‏ ‏ من أن يقـــوم بـــوصفهنّ لســـانُ

---

(٦) دمية القصر ١٧٩/١ .

(٧) نزوى ، وفي معجم البلدان « نَزْوَةُ » جبل بعُمان عنده عدة قرى كبـار يسمّى مجموعها بهذا الاسم ، فيها قوم من العرب كالمتكفين عليها وهم خوارج أباضية يعمل فيها صنف من الثياب منقة بـالحرير جيـدة فـائقـة لا يعمل في شيئ من بلاد العرب مثلها ، ومئازر من ذلك الصنف يبالغ في اثمانها ، رأيت منها واستحسنتها . قاله ياقوت في معجم البلدان ٧٧٦/٤ .

(٨) كشف الظنون ١ / عمود ٧٧٢ .

(٩) معجم البلدان ٥٤/٢ .

وفي شعره مدائح لآل مكرم ، وقد وزر منهم أبو محمد الأوحد ابن المكرم لسلطان الدولة البويهي ما بين عامي ٤٠٤ - ٤٠٧ هـ ، كما وزر مرة ثانية لعماد الدين البويهي سنة ٤١٥ هـ(١٠) .

قال أبزون :

وغرائب الكرم التي إن فُتِّشت ... في آل مكرم فهي غيرُ غرائب

والملـك يشهـد انهم بـولائهم ... يكفـون شرّ الخـالع المتشـاغب

وقال :

يـا آل مكرم يـا أولي الكرم اسعـدوا ... أَمِنَ الشقـاوة من بكم قـد آمنـا

فـولاؤنـا مـالم يكن لكم سُـدى ... ومـديحنـا مـالم يكن فيكم خنـا

وقال :

لله درُّ المكـرميين الأُلى ... خَـرَّ الكرامُ لهم على الاذقـان

النـاصحين الملـك علمـاً منهمُ ... انّ النصيحـة حليـةُ الايمـان

فمـديحهم سببٌ الى نيـل العـلا ... وولاؤهم أمنٌ من الحـدثـان

وفي عدد من قصائده اشارة إلى ممدوحه مؤيد السلطان حاكم عُمان فهو تارة يعيش بقربه وفي كنفه :

هـا انّ أرض عمـان أنس بقعـة ... ومـؤيّـدُ السلطـان أكرم صـاحب

وإلى أيـاديـه صرفت مطـامعي ... وعلى معـاليـه وقفتُ مطـالبي

وهو تارة أخرى يستنجد به لوجوده في مكان يزري بهمته ويورثه الأذى :

أمـؤيـد السـلطـان دعـوة صـارخ ... قـد نـال منـه عـدّوه فتسلطنـا

يشكـو اليـك مقـامـه في بقعـةٍ ... تـزري بهمتـه وتـورثُـه الضَّنـا

ويصرح أبو الحاجب : انّ جلّ قصائد أبزون كانت مدائح في الأمير ناصر الدين ، ونشر محاسن أيامه(١١) .

---

(١٠) معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ الاسلامي ٣٢٥ - ٣٢٦ .

(١١) كشف الظنون ١ / العمود ٧٧٢ .

وحين سعى أبو الحاجب للقائه بجبل عمان ليروي شعره عنه ، وجده كثير الاشتغال بالأمور السلطانية والأعمال الديوانية[١٢] .

شاعرنا اذن كان ذا جاه كبير في زمنه ، وكان على جانب كبير من المعرفة والذكاء[١٣] ، ومع ذلك كان غير مُعْجَبٍ بشعر نفسه على ما روى الباخرزي[١٤] .

وتلك خصلة نادرة من خصل التواضع ، فالمعروف عن شعراء عصره ومن تلاهم انهم مفتونون بأشعارهم :

الابيوردي يصف شعر نفسه قائلاً :

كلماتي قلائد الاعناق ... سوف تفنى الدهور وهي بواقي

وقال في قصيدة أخرى :

فكلّ من قال بعدي بالقريض أتى ... بما تقيَّل في تحبيره أثري

والطغرائي يعلنها مدوّية :

اليك عماد الدين غراء طلقة ... تنافَسُ فيها أعينٌ وعقولُ

إذا أُنشدت حلّ الحبا طرباً لها ... وأصغى اليها عالمٌ وجهول

والغزّي يفخر بشعره قائلاً :

لو امتلأت بها أذنُ ابنِ حُجْرٍ ... لعلّقها مع السبع الطوالِ

والأرّجاني يؤكد :

ومنّي اقتباس المحدثين معانيا ... ولم اقتبس معنى من القدماء

وحين تكون المغالاة هي الصفة الغالبة على شعراء عصره في تقدير أشعارهم ، فاننا نعجب حقاً حين نظفر بواحد منهم لا يزدهيه شعره ، بل يصرّح انه غير معجب بشعر نفسه .

وربَّ قائل يقول : ولِمَ لا يكون شعره غيرُ معجبٍ حقاً ؟!

---

(١٢) دمية القصر ١٧٩/١ .

(١٣) كشف الظنون ١ / عمود ٧٧٢ .

(١٤) دمية القصر ١٧٩/١ .

والجواب : انّ من وقفوا على ديوانه من أعلام عصره سجّلوا غير هذا .

قال الباخرزي[١٥] : « كنت أسمع له بالفقرة فالفقرة ، فافتقر الى اخواتها ، ويلتهب حرصي على إثباتها ، ثم ظفرت بديوان شعره في خُزانة الكتب النظامية بنَيسابور ، وكنت على جناح الانصراف إلى الناحية ، فلم اتمكن من احتلاب دررها ، ولم أتوصل إلى اجتلاب دُررها » .

وقال في موضع آخر معلقاً على بيتين للشاعر : « هذا معنى ماله نهاية ، وغاية في الافتراع ليس وراءها غاية[١٦] .

وشهادة أخرى اثبتها محمد بن أحمد المعروف بأبي الحاجب : « كنت قبل حصولي بعمان ، أسمع بأشعار الكافي ابي علي ، وتمرّ بي القصيدة بعد القصيدة ، وكنت لفرط اعجابي بها اودّ لو ظفرت بمن يرويها عن مؤلفها .. » حتى قال بعد لقائه بالشاعر : « وإذا ديباجة شعره مع بهائها ورونقها ، متناسبة الألفاظ ، متناضرة المعاني »[١٧] .

ويكشف لنا أبو الحاجب هذا صفة خلقية رفيعة من صفات ابزون حين يقول :

« وإذا هو يتجنّب إيراد ما يمجّه السمع ، وتأباه النفس »[١٨] .

ويضيف أبو الحاجب في موضع آخر في وصف شعر شاعرنا : انه خالٍ عن ايراد الغريب الذي يبعد عن الافهام ، فما تخلو قصيدة من مصاريع تجرى مجرى أمثال مخترعة[١٩] .

ثم قال أبو الحاجب بعد هذا : « فجمعت ديوانه ، وبدأت بمدائحه في الأمير الأجل ناصر الدين إذ كانت جلّ قصائده في نشر محاسن أيامه ، ولم أجد نسخته عنده »[٢٠] .

ابزون اذن كان له ديوان مخطوط رآه الباخرزي في خزانة الكتب النظامية بنيسابور ، ولسنا

---

(١٥) دمية القصر ١٧٩/١ .

(١٦) دمية القصر ١٨٢/١ .

(١٧) دمية القصر ١٧٩/١ .

(١٨) دمية القصر ١٧٩/١ .

(١٩) كشف الظنون ١ / عمود ٧٧٢ .

(٢٠) كشف الظنون ١ / عمود ٧٧٢ .

ندري هل أن الذي رآه الباخرزي في نيسابور هو الديوان الذي جمعه أبو الحاجب محمد بن أحمد[٢١] أم سواه ، ولسنا نعرف عدد ورقاته . ثم انّ ديوانه المخطوط هذا قد ضاع مع ما ضاع من تراث سلفنا الصالح ، فلا توجد له أية إشارة في فهارس المخطوطات المطبوعة على كثرة بحثي وتنقيري .

ومن هنا تنبع اهمية المختار من ديوانه ، الذي ننشره اليوم أول مرة ، مميطين اللثام به عن شاعر كبير من شعراء عُمان ، كانت له الصدارة بين شعراء بلده في عصره .

ولقد كان عصرُ « أبزون » عصرَ كَلَفٍ بفنون من البديع كالجناس والطباق والمقابلة ، طغت عند بعضهم حتى اصبحت غرضاً في ذاتها ، وكان لابُدّ أن يطبع ذوقُ العصر وذوقُ نقّاده شعرَ صاحبنا .

وإذا كان من الشطط أن نحكّم مقاييس القدماء في شعرنا المعاصر ، فانه من الغلط كذلك أن نحكّم مقاييسنا النقدية المعاصرة في شعر الأقدمين .

إن القول ان هذا الشعر الذي وشّاه الصبغ البديعي ليس شعراً أصيلاً ، بل هو شعر صنعة ، كلام مردود .

ذلك أن الصبغ البديعي يكسبُ الشعر جمالاً إذا ما توفرت الأصالة والصدق الفني والخيال المجنّح .

ورغم ان الشاعر عاش في فترة شاع فيها « الدوبيت » إلاّ أننا لم نظفر له فيا وقفنا عليه من شعره بنماذج منه . ولعلّ مردّ ذلك فقدان ديوانه .

وأبزون كان يعرف الفارسية ، ذكر الباخرزي انّ له وهو منقول من الفارسية :

وصحراء ردَّتْها الظِّباءُ حفائراً ... بأظلافها أَحْسِنْ بها من حفائر
فهبّت رياح للصبا فطممنها ... بمسكٍ ، فعادت نزهة للنواظر[٢٢]

(٢١) حول ابي الحاجب ، يحيلنا محقق الدمية على الوافي بالوفيات فيقول في الهامش ٤٢ ج ١ ص ١٧٩ ما نصه : « ترجمة في الوافي ٤٨/٢ » . وبالرجوع للوافي نجد الترجمة تخص محمد بن احمد بن نصر ابو شجاع الحاجب . فهذا أولا : الحاجب ، وليس أبو الحاجب . وكنية المترجم في الوافي (ابو شجاع) وكنية جامع ديوان ابزون (ابو الحاجب) . وثمة دليل علمي آخر خلاصته : انّ المترجم لَهُ في الوافي قد سمع من الحسين بن عبد الرحمن الغزي في رجب سنة سبع عشرة وخمسمائة ، مما يبعد به عن عصر شاعرنا قرابة قرن من الزمن . والخلاصة التي نخرج بها ان جامع ديوان ابزون هو غير المترجم له في الوافي ، وبالتالي فان إحالة محقق الدمية مغلوطة علمياً .

(٢٢) الدمية ١٨٢/١ .

وعبارة الباخرزي فيها غموض ، فلسنا نعرف على وجه الدّقة هل انّ الأصل المترجم عنه هو لأبزون أم لسواه . فإن كان الأصل له فهذا يعني انه نظم الشعر للغتين العربية والفارسية ، وإن لم يكن فهو يعني انه كان متمكناً من الفارسية مطلعاً على آدابها ، ضليعاً بها ، مما سهل له نقل المعنى إلى العربية شعرا .

وفي القليل الذي وصلنا من شعر ابزون نفثات وجدانية أصيلة ، لعلّ في مقدمتها قصيدته العذبة المناثة التي أولها :

عصر الصِّبا عَـدْ فـالهـوى ... بـاقٍ ، ورَكْبُ الشـوق طـارقْ
مـا كنت إلاّ رَجْـعَ طرفٍ ... لا بثـأ ، أو لَمْـحَ بـارقْ
سـوّدتَ من عجـل أمـا ... نينـا ، وبيَّضْتَ المفـارق

وأبياته الوجدانية الرقيقة :

أفـدي الـذي زارني والليـل معتكرٌ ... والأفـق ممّـا اكتسى من عَرْفِـه عَطِرُ
فلم نَـزَلْ نتجـارى في العتـاب معـاً ... اشكـو اليـه جفـاهُ وهـو يعتـذرُ
حتى إذا مـا اعتنقنـا واستتبَّ لنـا ... على ارادتنـا عيشٌ لـه خَطَرُ
نـاديتُ : يـاليـل دُمْ ليـلاً بـلا سَحَرٍ ... فقـال : ليلـك هـذا كُلُّـه سَحَرُ

وكفاه شاعرية أن يكون صاحب البيتين الرائعين :

يقـولـون لي : ألفـاظُ هجـوك عنـدنـا ... إلى القلب من ألفـاظ مـدحـك أسبـقُ
فقلتُ لهم : كـذبٌ مـديحي فيكمُ ... وهجـوي لكم صـدقٌ ، وللصـدق رونـقُ

• • •

وبعد : فانّي لأرجو أن يكون نشر هذا المختار من ديوان الشاعر ، اضافة لديوان الشعر العربي عامة ، والشعر العُماني خاصة .

والحمد لله على ما أنعم ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم .



١

هل في مودة ناكث من راغب أم هل على تفقدها من نادب
أم هل يفيدك أن تعاتب مولعًا بتتبع العثرات غير مراقب
جعل اعتذاري للسفاهة ذنبًا والذنب دينه اعتراض الواجب
نفر تعاتبهم بقول عتبهم أم بالغ بالعتو فعل معاقب
ولربما صادفت أعصى مذنب متبختر أو بت أطوع تائب
يوليك نصحًا من لسان مسالم ويسر كيدًا في ضمير محارب
ولحزم تصديق العدو المدعي ودًا وإرضاء الصديق لغائب
إن الفتوة علمتني شيمة تهدي الضياء إلى الشهاب الثاقب
أعطي زمام موافقي ومخالفي وأصون عيب معاشري ومجانبي
وتعللي بحديث أيام الصبا عظمت لذاتي وجلت أطايبي
ما زال يسلب كل من عمل الظبي قلبي وأحداق الظباء سوالبي
فهوى التغرب والتقرب في الهوى دفنا شبابي في قذال الشائب
فقطعن من ناظر أو ناظر ونالني من حاجب أو حاجب
تالله لم يخطر ببالك لن ترى ذا الجد يخطر في شمائل لاعب
وعزيمة البطل المغامر فيه نضلو يجلوها عيان الكاعب
مارست هذا الدهر حتى إنه لظلم أحزانه ويجازني
ووجدته كالسيف ليس يفارق بين الملالي ضربه والضارب
ونبلت عذر بني الزمان لأنهم سلكوا بني بنو بني الزمان بأنه

جعلوا

صورة من الأصل المخطوط

المختـــــارات

من أشعار الكافي أبي علي أبزون بن مهبزد الكرّاني العُماني

(١)

١ – هــل في مَـودَّةِ نــاكثٍ من راغبِ   أمْ هــل على فقــدانهــا من نــادبِ
٢ – أمْ هَـلْ يُفيـدُكَ أن تُعـاتِبَ مُـولعـاً   بتَتَبُّـــعِ العثراتِ غير مُراقبِ
٣ – جعـل اعتراضـك للسَّفـاهَـةِ ديـدنـاً   والـذئبُ ديـدنـةُ اعتراضُ الراكبِ
٤ – نفرٌ تُعـاقبُهم بعفـوكَ عنهمُ   كمْ بـالغٍ بـالعَفْـوِ فِعْـلَ مُعـاقبِ
٥ – ولـربَّما صـادفتَ أعْصَى مُـذْنبٍ   مُتَبَخْتِراً في ثـوب أطـوعِ تـائبِ
٦ – يُـوليـك نُصحـاً من لسـان مُسـالمٍ   وَيُسِرُّ كيـداً في ضمير مُحـاربِ
٧ – والحـزمُ تصـديقُ العـدوّ المـدّعي   وُدّاً ، وإرضـاءُ الصـديـق العـائبِ
٨ – إنَّ الفتـوَّةَ علَّمتني شيمـةً   تُهـدي الضيـاءَ الى الشهـاب الثـاقبِ
٩ – أرعـى ذمـامَ مـوافقـي ومخـالفي   وأصـونُ غيبَ مُعـاشِري ومُجـانبي
١٠ – وتعـلّلي بحـديث أيّـامِ الصِّبـا   من عُظم لـذّاتي وجُـلّ أطـايبي
١١ – مـا زال يسلبُ كلَّ من حمـل الظُّبـا   قلمي ، وأحـداقُ الظِّبـاء سـوالبي
١٢ – فهـوى التصرُّفِ والتصرفُ في الهـوى   دفنـا شبـابي في قـذالي الشـائبِ
١٣ – فتظلّمي من نـاظرٍ أو نـاظرٍ   وتـألُّمي من حـاجبٍ أو حـاجبِ
١٤ – تـالله لم يخطر ببـالـك أن ترى   ذا الجـدّ يخطر في شمائـل لاعبِ
١٥ – وعـزيمـةُ البطـل المُعـانقِ قرنَـهُ   تَصْـدى فيجلُـوهـا عنـاقُ الكاعبِ
١٦ – مـارَسْتُ هـذا الـدهرِ حتّى انَّـه   لضـرائرٌ أحـداثـةُ وتجـاربي
١٧ – ووجـدتُـه كالسيفِ ليس بفـارقٍ   بين الأُلى ضربـوا بـهِ والضـاربِ
١٨ – وقبلتُ عُـذْرَ بني الـزمـان لانَّهمْ   سلكوا طريـقَ بني الـزمـان الـذاهبِ

١٩ – جُبلُوا على رفض الوفاء لغيرهم ... وتَمسَّكوا بالغَدْرِ ضربةَ لازبِ (١)

٢٠ – ومركّبٌ في طبع كلّ مُكلَّفٍ ... حمل الرجاء طلابُ فوقِ الواجب

٢١ – والرزقُ يطلع من رفاهة قاعدٍ ... لطلوعه من سعي آخر طالبِ

٢٢ – وسجيَّةُ الأيّام ستر فضائلي ... عن عَيْنِ رامقِها وبثّ مثالبي

٢٣ – أيّامُ عمري في تلوّن جَرْيِها ... تحكي الرياح فهل لها من عاتب

٢٤ – الحال تهزل بين جذب شمائلٍ ... منها ، وتَسْمَنُ بينَ خصب جنائب

٢٥ – قُسِمَتْ وتلك غنيمةٌ فَنَسيمُها ... لأَباعدٍ وسمومُها لأقاربِ

٢٦ – أخذَ الحضورُ من المُنى بحظوظهم ... ورموا وراءَهُمُ بحظِّ الغائبِ

٢٧ – لو نلتُ عزَّ متوّجٍ في توّج ... لم أخل من دلّ وظنٍ كاذب

٢٨ – ما إنْ أسأتُ الاختيار وإنَّما ... قاد الضّلالُ الى اللئام ركائبي

٢٩ – نَهبوا ولجّوا في اقتضاء مديحهم ... وقضيَّةٌ شنعاء مَدْحُ الناهب

٣٠ – من دأبهم منع الحقوق فهل لهم ... منع اللسان عن الملام الذاهب

٣١ – الآن ما بيني وبين بصيرتي ... رُفع الحجابُ فالنجاح مآربي

٣٢ – أكفى المؤنةَ في مذمَّةِ مانعٍ ... نفسي ، وفي حملي لمنَّةِ واهب

٣٣ – ها انّ أرضَ عمانَ أنفَسُ بقعَةٍ ... ومؤيَّدُ السلطان أكرم صاحب

٣٤ – مازال إمّا في صدور مجالسٍ ... يبني العُلا [أ](١) وفي قلوب مواكب

٣٥ – والى أياديه صرفتُ مطامعي ... وعلى مَعاليه وقفتُ مطالبي

٣٦ – أأُعاتبُ الأخوان في استبدادهم ... دوني بها فأكون شرّ معاتب

٣٧ – كلاّ فما خدموهُ الاّ للعُلى ... والخمرُ لذَّةُ سُكرها للشارب

٣٨ – لبسوا بخدمتهمْ لديه مواهباً ... لا كالمواهبِ طُرِّزَتْ بمراتب

٣٩ – فاذا التقتْ آمالهم بصِلاتِه ... فصِفِ التقاء أجنَّةٍ بجنائب

---

(١) مابين عضادتين زيادة يستقيم بها الوزن .

(٢) ٤٠ - قمرٌ سرادقُــه لِلَحْظِــك بُرجــةٌ ... يرمي العــدا بعــزائمٍ ككــواكبِ

٤١ - فَـلَـهُ المنــابرُ والمحــاربُ حَبَّـذا ... من كان رَبَّ مــآثرٍ ومَحــاربِ

٤٢ - وأهـلّـة الرايــاتِ تطـلـع تحتهـا ... أَبَـداً نجـومُ أسِنَّــةٍ وقــواضبِ

٤٣ - والخيـل مــازالت تشبّــهُ والعــدا ... بــالليــل ان طـلبتهمْ والهــارب

٤٤ - فــالأرض تشكـو ركضَهـا من جـانبٍ ... والجـوّ يشكـو نقعهـا من جـانبِ

٤٥ - وسرى السـرايــا تحت كلّ دجُنَّــةٍ ... كُسِيَ الخيـالُ هنـاك ثـوبَ الهـائب

٤٦ - من كلّ أروع للحيــاة مُطَلِّــقٍ ... تحت العجــاج وللحميَّـةِ خـاطبِ

٤٧ - مـا زال يجمـعُ بين بـأسٍ صـادقٍ ... يجـلى بـه الجُلّى ورأيٍ صـائبِ

٤٨ - والمشـرفيّـاتُ التي بشـفـارهـا ... هلكتْ ملـوكُ أعـاجمٍ وأعـاربِ

٤٩ - طُبِعَتْ شُمـوسـاً فَهْيَ في أغمـادهـا ... والهـام بين مشـارقٍ ومغـاربِ

٥٠ - تنقــادُ أبكــار البــلاد لحــدّهــا ... بعـد النشـوز وبعـد منـع الجـانب

٥١ - ومنـاقبٌ ودَّتْ مَصـابيـحُ الـدُّجى ... حَسَــداً لهـا لـو لُقِّبَتْ بمنـاقبِ

٥٢ - وغرائب الكَـرَم التي إن فتشـت ... في آل مُكـرم فَهْيِ غيرُ غـرائب

٥٣ - والملــك يشهــد انّهم بـولائهم ... يكفـون شرَّ الخـالـع المتشـاغب

٥٤ - أنصـارُهُ في كُـلّ خطبٍ فـادحٍ ... وحُمـاتُـه في كُـلّ أمـرٍ حـازبِ

٥٥ - هــذا العُلى حقـاً فهـل من شـاعرٍ ... يصفُ العُلى وصفي لهـا أم كاتب ؟

التخـريج :

الابيــات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٨ ، ٩ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٨ ، ١٩ . لــه في دميــة القصر ١٨٠/١ .

رواية التاسع :

أرعى ذمــام مرافقي ومعــارفي ... وأصـون عرض مُقــاربي ومجــانبي

ورواية الثاني عشر : في عذارى الشائب .

والأبيات ١٢ ، ١٣ ، ٣٥ في مخطوطة لمح الملح للحظيري الورقة ١٦ .

ورواية الثاني عشر :

فهو التصرف . . . . في عذارى الشائب

(٢)

١ - الـزَمْ جفـاءك لي ولـو فيـه الضَّنـا ... وارفـع حـديثَ البين عَمّـا بيننـا
٢ - فسمـومُ هجرِكَ في هـواجره الأذى ... ونسيمُ وَصْلِـكَ في أصـائِلِـه المُنى
٣ - ليسَ التلـوُن من امـارات الرضـا ... لـكن إذا مَـلَّ الحبيبُ تَلَـوَّنـا
٤ - تُبـدي الاسـاءة في التيقُّظِ عـامـداً ... وأراكَ تُحسِنُ في الكرى أن تُحْسِنـا (٣)
٥ - مـا لي إذا استعطفتُ رأيـك رمتَ لي ... عيبـاً جـديـداً من هنـاك ومن هنـا
٦ - مُثْنٍ عليـك ومـا استفـاد رغيبـةً ... عجبٌ ، ومعتـذرٌ اليـك ومـاجنـا
٧ - مـا جرَّ هـذا الخطب غير تَغَرُّبي ... ومن التغرُّب مـا أذلّ وأهـونـا
٨ - أزكى بقـاع الأرض وهي فسيحـةٌ ... مـا كان سِرْبُ العيش فيهـا آمنـا
٩ - والرزقُ أنـواعٌ فما صـادفتَـهُ ... أَحْلى من التبعـات أحْلَى مُجْتَنى
١٠ - والـدهرُ لا يفشي غـوامضَ سِرِّهِ ... إلاّ الى ذي الفقر من بعـد الغنى
١١ - أدْمِنْ مُصـاحبـةَ الرجـالِ فلم يخب ... سعي امرئٍ صحب الرجـال فـأَدْمَنـا
١٢ - لا تغـرّر بـالمـانعين قلـوبَهم ... إنْ سـالمـوا ، والمـانحين الألسنـا
١٣ - الحـرُّ أدنى مـا يكـون اذا نـأى ... والـوغـد أنـأى مـا يكـون أذا دنـا
١٤ - وإذا الأمـاني لم تنلهـا مُعْرِقـاً ... فـاثن العنـان وسرْ تَنَلْها مُعْمِنـا
١٥ - أوصـالَ سلطـانُ الحـوادث فـارْمِـهِ ... بمـؤيـد السلطـان حتى يـذعنـا
١٦ - مَلِـكٌ مُنى فلـك السماء لـو انّـه ... بجـلالـه بـدل الكـواكب زُيّنـا
١٧ - أَلِفَ العُلـوَّ فكاد يـأبى حُلّـةً ... إلاّ السنـاء ، وحِلّـة الاّ السَّنـا
١٨ - سـائلتُ بعـد[1] اللائـذين بظـلّـه ... عَنْـهُ ، فقـال لي المقـال البيِّنـا

---

(١) كذا في الاصل ولعلها (بعض) .

١٩ - هــذا الــذي أمضى الغرار فما ثنـا … وجرى الى أمَـد الفخـار فما ونـا

٢٠ - كالشمس مخلـوعاً عليك شعاعُها … أبَـداً ، وليسَ لقاؤها لـك ممكنـا

٢١ - فإذا تراءى في مـواكبـه لنـا … حسـدَتْ جـوارحُنا هناك الأعينا

٢٢ - وإذا حُجِبْنَـا عنـه في خلـواتِـه … فالشُّغلُ في خَلَواتِه عنّا بنـا

٢٣ - يخلـو ليخترعَ النّـدى فيَسُرُّه … ويجيـلُ فينـا الفكر كيف يسرُّنـا

٢٤ - وتراهُ أوْسَعَ قاصديه ببابـهِ … جاهاً ، وفي ناديـه أوسَعُهم مُنى

(٤) ٢٥ - تسري إلى [ ][٢] الأعادي خيلُـه … مَسْرى الخيـالِ الى الأحبَّة موهنـا

٢٦ - لا وَطْئُها ممّا يحسّ ، ولا يُرى … لعجـاجها أثراً إذا الراني رنـا

٢٧ - حتى إذا انبلـج الصبـاح تنتهِمُ … والسيفُ يمطر في فنائهم الفنـا

٢٨ - فأرتـك ذلّـة من غـدا متعززاً … منهم وبذلة من غـدا مُتَحصّنا

٢٩ - خَلِعَتْ قلوبُ الخـالعين بـذكره … فإذا هُمْ سمعوا به عدموا الهنـا

٣٠ - وعلى الرعيّـة رأفـةٌ لـو انّها … ثنت القضاءَ السوءَ عنها لانثنى

٣١ - فمحيِّرٌ فطن العقـولِ بكُنْهِـهِ … حتى يـودّ المرء أن لا يَفْطنـا

٣٢ - سِيَرٌ أعـدنَ إلى الصدور شفاءها … وإلى الوجوه رواءها المستحسنـا

٣٣ - أوردتُ أيسرها ليحسن نَظْمُها … وكتمتُ مُعْظَمها لئـلا يَفْتنـا

٣٤ - فاعتـادني طربٌ لـذاك وهـاجني … شـوقٌ إلى العليـاء فيَّ تمكّنـا

٣٥ - حتى عـدلتُ عن الظبـاء الى الظُّبا … كبراً ، وغـادرتُ القنـاني للقنـا

٣٦ - وجعلتُ مـدحي لابن أوحـدِ دهرهِ … نـذراً عليَّ ، فصار نـذري ديدنـا

٣٧ - ثم أقتنيتُ تمسُّكي بـولائـه … ذخـراً فكان أجـلَّ ذُخرٍ يُقتنى

٣٨ - ولئن نسيتُ فَخَيْرُ أشجـار الرُّبـا … مـا كان بين الظـلِّ يجمع والجنى

---

(٢) سقط في الاصل المخطوط بمقدار كلمة .

٣٩ - ولقـــد أرى الغــزل الرقيــق يروقُ مَنْ … لم يَهْــوَ غــزلان الحجـــاز ولا منى
٤٠ - ومُجَـــدِّداً حـــادي المطـيِّ خببنَ مَنْ … لا بـــالعقيـــق نشـــا ولا بـــالمنحنى
٤١ - أمـؤيَّــد السلطــان دعـوة صـــارخٍ … قــد نـــال منـــه عـــدوُّه فتسلطنـــا
٤٢ - عـــاتٍ يُعـــاني في الـزمـــان مكارهـــاً … شتّى ، ويطـوي عنـك إلاّ مـا عنـــا
٤٣ - يشكـو إليـــك مقـــامَـــهُ في بقعـــةٍ … تُـزري بهمَّتـــهِ وتـورثُـــه الضَّـنـــا
٤٤ - والخطبُ مـا هـزمَ الـدُّجى بظـلامِـه … إمّـــا ألَّمَ ، فليس خَطْبـــاً هَيِّنـــا
٤٥ - والمجـــدُ كُـلُّ المجـــد في استنقـــاذه … فَمُبَيِّنٌ مغــــــــــزاهُ صَرَّحَ أو كنى
٤٦ - أمسى يَـــدُلُّ على عُـلاك بخـــاطرٍ … لا يستطيـع الـدهر يهـدمُ مـا بنـــا (٥)
٤٧ - إن مرَّ في طلب القـــــــوافي لم يقف … أو ســـار في طلب المعـــاني أمْعَنـــا
٤٨ - مـــا تضمن الأيـــامُ لي نَيْـلَ العُـــلا … وإذا أمرتَ فبـــالحَرِي أن تضمنـــا
٤٩ - وكـــذا كتـــابُ البشر ليس يسرّني … مـــا لم يكن بنـدي يـديـك معنـونـا
٥٠ - يـــا آل مكرم يـــا أولي الكَرَمِ اسعـدوا … أمِنَ الشقـــاوةَ من بكم قـــد آمنـــا
٥١ - فــولاؤنـــا مـــالم يكن لكمُ سُـــدى … ومـــديحُنـــا مـــا لم يكن فيكم خَنـــا

التخــريج :

الأبيات ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٩ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٥ في مخطوطة لمح الملح الورقة ١٤٣ .

رواية الأول : فيما بيننا . ورواية الثالث : في امارات .

ورواية السابع عشر : الفَ العلاء وكان يأبى حله .. وحلية إلا السنا .

ورواية الخامس والثلاثين : في القنا .

والأبيات ١ - ٥ في دمية القصر ١٨١/١ وروايتها مماثلة لمخطوطتنا .

(٣)

١ - كم ترسلــون أعنَّـــة الهجرانِ ... فقــدُ الحيـاة وَفْقــدكُمْ سـيّانِ
٢ - فصلـوا جنـاحي بـالـوصـال فَمُنْكَرٌ ... إخــلالُ أهـلِ الفضـلِ بـالخـلاّن
٣ - انّي أغـــارُ عليكم أن تسلكــوا ... في الــودّ غيرَ طـرائـق الفتيـــانِ
٤ - وأخـــافُ مُرَّ عِتـابكم مــا لم أخَفْ ... تحت العجــــاج عـــواليَ المُرّانِ
٥ - لم أجْـــن فاســتعطفتكم لكنَّ [بي] [(١)] ... شـوقــاً الى استعطــافكم الجـــاني
٦ - وهبـــوني الجـــاني ألَسْتُ شقيقكم ... هـــلاّ غفرتم للشقيــق الجـــاني ؟
٧ - غَطُّــوا بأذيــال التجــاوز منـكم ... صـفحات جـانٍ للنـدامة جــاني
٨ - ولربمّـا كـرهَ العقـوبـةَ حــازمٌ ... كيـــا يفـــوز بلـــذَّةِ الغُفــران
٩ - مــا كان أيمن طـــائري بلقـــاكُمُ ... أيــــام عـــودي أنضر العيـــدان
١٠ - لـولا الفراق لمــا فرقت ولــو هــوى ... نجم الهــوى ، أمن الجنـــون جنـــاني
١١ - ببعـــــادكم أبغضت دار كـرامتي ... وبقـربكم أحببتُ دارَ هـــــواني
١٢ - فــاستـأنفـوا بتعهــدي احســانكم ... انّ التعهُّـــدَ صـيقـلُ الاحســـانِ
١٣ - وتبيّنـــــــوا انّي بليتُ بمعشـرٍ ... طلبُ التملّس منهم ايـلاني [كـــذا]
١٤ - حتى أعــود من المسرَّة نــاسيــاً ... أن كنت يــومـــاً من بني الأحـــزان (٦)
١٥ - ويعــود بعـد اليـأس فكري طـامعــاً ... في كُـــلِّ بكرٍ للمنى وعَـــوانِ
١٦ - ويشــوقني بعــد السلـوّ عن الصّبـا ... حَـــدَقُ المهـــا وسـوالفُ الغـزلان
١٧ - للهِ درُّ المـكرميّين الأُلى ... خَـــرَّ الكرامُ لهم على الأذقـــانِ

---

(١) مابين عضادتين ساقط في الاصل المخطوط واستضفناه من الدمية .

١٨ - النـاصحين الملـك علمـاً منهمُ ان النصيحـة حليـةُ الإيمـان
١٩ - والسـالكين بحُبِّ آل محمّـدٍ سُبُلَ الهـدى في السرِّ والاعلان
٢٠ - فمـديحهم سَبَبٌ إلى نيـل العُـلا وولائهم أَمْنٌ من الحـدثـانِ

التخـريج :

البيت الأول في هامش الصحيفة ١٨١ من الجزء الأول من دمية القصر ، أشار المحقق الى انه في احدى مخطوطاتها وفي طبعة محمد راغب الطباخ .
وروايته في الهامش المذكور : وهجركم سيّان .
والأبيات ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧ ، ٨ ، ١١ في دمية القصر ١/١٨١ .

(٤)

١ - كم ذا يُنـاصِحُ في الهـوى ويُخـادعُ سَكَنٌ يُـواتي مَرَّةً ويمـانـعُ
٢ - جزت الخيام وقد أحاط بها الـدجى فَجـلا الـدجى قمرُ الخيـام الطـالـعُ
٣ - فـدنـوتُ منـه فـاعترتـه نفـرةٌ فمضى يقـول وليس غيري سـامـعُ
٤ - وذمـام قـومي لا رجعتُ ولا الكرى يـومـاً إلى أجفـان عينـك راجـعُ
٥ - فـأجبتُـهُ والـدمـع يخـدمُ لـوعتي ولكُـلِّ عضـو لي هنـاك مـدامـعُ
٦ - يـا ربّةَ الخـدر الـذي بفنـائـه أبـداً لافئـدة الرجـال مصـارعُ
٧ - فـاخرتُ قومـك فـاعتقـدت ضغينـةً بِرِمـاتهـا من لحـظ عينـك سـاطـعُ
٨ - لا تُضمري حِقْـداً عليَّ فـانّني لكـلاب حبّـك دون قـومـك تـابـعُ
٩ - أخليتَ صـدرك من هـواي كأنني في صـدر بِرِّك عنـد ذكرك دافـعُ
١٠ - ومللتني حتى كأن لم تعلمي انّي لمفترق المحـاسن جـامـعُ
١١ - لّمـا مَنَعْتِني الـوداد فبعـدمـا حكم التطـوُّل أن يـذمّ المـانـعُ
١٢ - أو ضـاع دمعي في هـواك فطـالمـا أنـا بين أربـاب المالـك ضـائـع

(٧) ١٣ - فدنَتْ تقبِّلني وتَمْسَحُ عَبْرتي — وتقول لي مذعورةً وتُطالع

١٤ - أنأى القلوب الجازعاتِ إصابةً — قلبٌ على ما لم يَفُتْهُ جازعُ

١٥ - مهلاً فقد تكبو الزناد وحشوُها — نارٌ ، وقد يَنْبو الحُسامُ القاطع

١٦ - والمرءُ يُولَعُ بالمُنى وبلوغها — والدهرُ يأبى ذاك ثُمَّ يُطاوع

١٧ - لك في معاتَبةِ الملوك طرائقٌ — هي للخدود إلى السعود سوافع

١٨ - ومؤيَّد السلطانُ يلبسك الغنى — فلباسُ موعِدِه الوفاء الناصع

١٩ - قد كان منكَ اليه[1] ما هو سائرٌ — في الأرض تنقلُهُ الرواةُ وشائع

٢٠ - وبعَقْبِ هذا الرشّ سيلٌ دافعٌ — ووراء هذا النثّ[2] روضٌ يانعُ

٢١ - وكذا الكتائب تلتقي لقراعها — ولها أمام الالتقاء طلائع

٢٢ - فشكرتُ عطفَتَها وما كشفَتْهُ لي — بِحَديثها فكلامُها لي نافعُ

٢٣ - ورجعتُ موفوراً وجأشي ساكنٌ — وهجعتُ مَسْروراً وقلبي وادعُ

٢٤ - وعلمتُ أن سَيُفيقُ لي غبَّ الكرى — بمؤيَّد السلطانِ جدٌّ هاجع

٢٥ - ملك غذاء العَدْل منه والنَّدى — شكر الرعية والمديح الرابع

٢٦ - جُعِلَتْ مُروَّتُهُ ضجيعَةَ فكرهِ — هِمَمٌ لها هامُ النجوم مضاجعُ

٢٧ - صولاتُه للنائبات مآفلٌ — وصِلاتُهُ للمأثرات مَطالعُ

٢٨ - ولذكرِ ما صنعَتْ قديماً خيلُهُ — قبلَ الوقائعِ في النفوس وقائع

٢٩ - والنصر حيثُ ترى هلالَ لوائهِ — لك طالعاً وسط العجاجة طالعُ

٣٠ - وله إذا صرع العَزائمَ حادثٌ — لألأ عَزمٍ للحوادث صارعُ

٣١ - ومكيدةٌ في الروع سُلطانيَّةٌ — هي قبل نَقْعِ الخيل سَمٌّ ناقعُ

٣٢ - وطريقةٌ في المكرمات غريبةٌ — حُمِدَ الحريصُ بها وذُمَّ القانعُ

٣٣ - يولي صنائعَهُ الرجال وعندَهُ — علَلُ السؤال إذا فصلن صنائعُ

---

(١) في الاصل المخطوط : قد كان اليه منك

(٢) في الاصل : النبت

٣٤ - وأجلّهم حَظّاً وقد وسعتهمُ ... من لا يُزايِلُهُ الرجاءُ الواسعُ (٨)
٣٥ - فكأنّما كانتْ لدى آبائه ... قدماً لآباء العُفاة ودائعُ
٣٦ - شِيَمٌ لو اتَّبع الأكابرُ هَدْيَها ... لغَدَتْ هوادي الكبر وهي توابعُ
٣٧ - والفعلُ مالم ينتفع في سيرةٍ ... برياضَةِ الانصافِ فعلٌ طالعُ
٣٨ - لم يعتمد هذا الزمان مساءتي ... حنقاً عليَّ بل اتفاقٌ واقعُ
٣٩ - ما كان ينأى أن يُصانعني الرضا ... لو كان يَدْري كُنْهَ ما هو صانعُ
٤٠ - أفنى الاعزَّةَ غير كلّ مُسَرْبَلٍ ... بالعجز يركبُ أخدعيه الخادع
٤١ - يبكي إذا سجع الحمامُ صَبابةً ... نجوى فيُسْعِدُه الحمامُ الساجعُ
٤٢ - وتذكرّ الأوطان أمْرٌ فادحٌ ... وتشوُّق الاخوان خَطْبٌ فاجع
٤٣ - وكذاك عُمرانُ الديارِ إذا خلَتْ ... ممَّن تُحِبُّ فانَّهُنَّ مَسامع
٤٤ - أمؤيّد السلطانَ عاوِدْ نظرةً ... بمكانها يدنو المكان الشاسعُ
٤٥ - واسمع مُحَبَّرَةً[(١)] إذا هي أنْشِدَتْ ... وَدَّ الجوارحُ انهنَّ مسامع
٤٦ - ارسلتُها كيما تكونُ ذريعةً ... وقصائدي حيث اتجهن ذرائعُ
٤٧ - ولئن بقيتُ لتأتِيَنْكَ غرائبٌ ... تَسْبي عقول رُواتِها وبدائع
٤٨ - بل لا يُطيقُ صفاتَ مجدك واصفٌ ... ما لم يُطق ذرع البسيطة ذارع
٤٩ - فذراك للأموال فيه مناهبٌ ... أبداً ، وللآمال فيه مراتع

التخريج :

البيت الثالث والعشرين لوحده في مخطوطة لمح الملح الورقة ٩٠ .

(١) في الأصل : مخبّرة .

(٥)

وأعزّةً عَزَّيتُ بعد فراقهم ... باليأس قلبي أن يكون لقاءُ
أشتاقُهم والى الترنُّمِ مَفْزعي ... والى الترنُّم يفزعُ الادباءُ
ولربّما شَبَّعْتُه بتنفسٍ ... فيكاد يَصْدَع قلبيَ الصعداءُ
(٩) فاذا أضفتُ الى التنفس عَبْرةً ... فالجوُّ نارٌ والبسيطة ماءُ
كم أندبُ القُرناء شَجْواً والصِّبا ... فاتَ الصِّبا وتفرَّقَ القُرناءُ
والجمع مَع فقد الشَّبيبة بيننا ... قبل الممات مُرُوَّةٌ عذراءُ

(٦)

لا تحسبُوني ناسياً عَهْدكُمْ ... نسيانكُمْ ضربٌ من السُّخْفِ
سيّان أن أفْتَر عن ذكركم ... أو أعبُد الله على حَرْفِ
وكيف أنْساكم وفي وَصْلكُمْ ... عَيْشي وفي هجرانكُمْ حَتْفي
لهفي على عُمْرٍ مضى لم يكُنْ ... ذلك في خدمتكم لهفي
هذا ويدنو في غدٍ دارنا ... وكُلُّ حزنٍ فالى كَشْفِ
ورُبّما يجلو صدا أُنسنا ... تشاغلٌ باللهو والقصفِ

(٧)

١ – وُعـودُ[1] وصـالهـا عـادَتْ نَسـايـا ... وعـاد نـوالُهـا الميسـورُ وايـا
٢ – إذا أنشـدتُ في التعريض شِـعراً ... تَلَتْ من سُـورة الإعراض آيـا
٣ – ولستُ أخـافُ حَيْفَ الـدهر مـا لمْ ... تُبَـدِّلُ دارُهـا بـالقُرْبِ نـايـا
٤ – ورُبَّ قَطيعـةٍ كَـانَتْ دلالاً ... وكم في الحُبِّ من نُكَتٍ خَفـايـا
٥ – شكَتْ فعْلي إليَّ فـآنَسَتْني ... وبعضُ الأُنس في بعض الشكايـا
٦ – فـلا مَلَّتْ مُعـاتبتي فـانّي ... أعُـدُّ عتـابَهـا إحـدى الهـدايـا
٧ – ألا يـا حبَّـذا يـومـاً جَـرَرْنـا ... ذيـولَ اللهـو فيـه . بجرجرايـا
٨ – ويـومَ مَشَتْ تميـلُ من التصـابي ... وتضحـك بين أتْرابِ صبـايـا
٩ – ثَنَيْنـا السـوءَ عن ذاك التثنِّي ... وأثْنَيْنـا على تلـك الثنـايـا (١٠)
١٠ – ألَمَّ خيـالُهـا وَهْنـاً فَحَيّـا ... بـاحسنَ مـا يكونُ من التَّحـايـا
١١ – وقـال صُنِ الـدمـوعَ لـوَشْـكِ بَيْنٍ ... يُـؤَلِّفُ بين عَيْشـك والرزايـا
١٢ – لئن حَـلَّى وَصِيَّتَـة بنُصْـحٍ ... فـانَّ النُّصْـح حَلْيٌ للـوصـايـا
١٣ – وما استمتعتُ رؤيـا الطيفِ حتى ... تَرَنَّم بـالسُّرى حـادي المطـايـا
١٤ – وفـاضَ الـدمـعُ في أثنـاء جَفْنٍ ... تـردَّد للـكرى فيـه بقـايـا
١٥ – ومـا خُلِقتْ عيـونُ العـين إمّـا ... نَظَـرْتَ سـوى بـلايـا للبرايـا
١٦ – فنهـا مـا يبيـحُ لـكَ الأمـاني ... ومنهـا مـا يُتيـحُ لـكَ المنـايـا
١٧ – ألا يـاصـاحبيَّ دعـا كـلامي ... فليس اللَّـوْمُ من كَرَمِ السَّجـايـا
١٨ – إذا طرقَتْنيَ الأشـواقُ ليـلاً ... فَرَشْتُ لهـنَّ أفكـاري خبـايـا

(١) في الاصل المخطوط (تعود) ولا معنى له .

١٩ - وفي بعض القُلوبِ عيون فكْرٍ بكُنْهِ عواقب الدنيا جَلايا
٢٠ - وأوضحَ لي طريقَ العيش شُغلي بمدح أغرَّ وضّاح العشايا
٢١ - ومن شاع اسمه بالعدل حتى أُمِرَّ به الأعادي والولايا
٢٢ - ومن رضي التُّقى خُلُقاً فأرْضَى « قوامَ الدين » بالخُلق الرضايا
٢٣ - عميدَ جيوشِه عزماً وبأساً وحارس ملكِه حَزْماً ورايا
٢٤ - تُرجِّيه على بُعْدٍ فيكفي بما يرجوه أسْبابَ البلايا
٢٥ - ونقصِدُه فلا جَهْمَ المحيّا نُصادِفُه ولا نَزْرَ العطايا
٢٦ - نصاحبُ كلّ مجدٍ صاحبيٍّ مزيَّتُه تتيهُ على المزايا
٢٧ - لنا منهُ إذا سرنا إليه سناء الذكر والخلعُ السَّنايا
٢٨ - على أيدي الملوك عَلَتْ يداهُ علوّ الباسقات على الودايا
٢٩ - لقد نُظمت لاعناق المعالي قلائدُ من خلائقه الرَّضايا

(١١) ٣٠ - وأيُّ فَضيلةٍ جُعِلَتْ لقومٍ له المرباعُ منها والصَّفايا
٣١ - أقول لمن خراسانَ ومصرَّ بأيديهم ، وأنفُسُهم دَنايا
٣٢ - دنا نَبْشُ الخبايا فاستنيموا[١] إلى قولي ، دنا نبش الخبايا
٣٣ - أزيلوا الشكَّ وانتظروا وشيكاً سُرى يقظان ميمون السَّرايا
٣٤ - سيرمي أرضكم بجنود صدْقٍ فوارسُكم لرجلهم رمايا
٣٥ - وتأخذكم[٢] سيوفهم فتقضي على هاماتكم نَثْر القضايا
٣٦ - رجالٌ كُلَّما غنموا فآبوا رؤوس الخالعين لهم سَبايا
٣٧ - رأوا انَّ الاصابةَ في رداهم كأنَّ حياتهم احدى الخطايا

(١) استنام : سكن .
(٢) في الاصل : وياخذكم .

٣٨ - ألا يـــا صـــاحب الأصحـــابِ انّي | أرى الايمـــان بـــاسمــك لي ألايـــا
٣٩ - وإنَّ من الجنـــايـــات التقـــاطي | ســـوى ثمـرات أنعُمـك الجنـــايـــا
٤٠ - فعنـــد أبيـــك عـــاينتُ الأمـــاني | فخـــانتني بَكـــايـــاهـــا مـــرايـــا
٤١ - ورُبَّ فـتىً ينـــالُ النجـح لـكن | إذا عـــادَتْ ركـــائبـــه ردايـــا
٤٢ - وأنتم معشرٌ خُلِقُـــــوا لتبقـى | على الـــدنيـــا أكُفّهم السَّخـــايـــا
٤٣ - تُقَبّــل بسطكم قِـــدْمــاً فَقِـدْمــاً | يعيشُ ببســـط عـــدلكم الرعـــايـــا
٤٤ - فقـــايسكم إلى نفـرٍ ســـواكُم | يقيس الـزاخـرات إلى الركـــايـــا
٤٥ - وحظّـكم الصـــدور من النـــوادي | وحـــظّ ســـواكم منهـــا الـــزوايـــا
٤٦ - وفيـكم ســـــــار لا في الغير شعري | وكيف تسير في البرِّ الخـــلايـــا[1]

التخـريج :

الأبيات ٢ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٥ ، ١٦ ، ١٨ له في مخطوطة لمح الملح الورقة ١٥٤

رواية الثامن : الى التصابي .

ورواية الخامس عشر : نظرن

ورواية عجز الثامن عشر : جعلتُ لهنّ احشائي حشايا

والبيت السابع في معجم البلدان مادة (جرجرايا) .

والبيت السادس في دمية القصر ١٨٤/١

(١) الخلايا جمع خَلِيَّة ، وهي العظيمة من السفن .

(٨)

١ - أتَذيلُ دَمْعك كُلَّهُ انْ بانوا ... صُنْ بعضَهُ فوراءك الاوطانُ

٢ - حَقّ الديار كحقِّ من عاشرتَهُمْ ... فيها ، كذا حكَمَتْ به الفتيانُ

(١٢) ٣ - سَلْني أقفك على الهوى وشروطِهِ ... لا عارَ أنْ يستسقي الظمآنُ

٤ - أُبدي السُلوَّ عن الأحبَّةِ إنْ نأوا ... عمداً ، وأنْأى منهمُ السلوانُ

٥ - غالطتُ عاذلتي بذاك ولم يزَلْ ... لي في مُغالطةِ العواذل شانُ

٦ - ومن البليَّةِ انّ كتمانَ الهوى ... دأبي ، وإن اودي بيَ الكتمانُ

٧ - ومَلولةٍ أَلِفَتْ فنافعُ بذلها ... شرٌ ، وضائرُ مَنْعِها إعلانُ

٨ - وقف الجنون على جنانٍ مُحبّها ... انّ المجانةَ عندها مُجّانُ

٩ - غازلتُها سَحَراً وقلتُ لها اسحري ... قد طالما سَحَرَتْني الغزلانُ

١٠ - عِينُ الصَّريم عُيونُهنَّ صوارمٌ ... مسلولةٌ أجفانُها الأجفانُ

١١ - فَخُذي الى ديوان عطفِك وقّعي ... يُكْتَبْ لنا من مُقْلتيك أمانُ

١٢ - أمن الحبيب تعلُّلٌ وتعزّزٌ ... ومن الرقيب تهدُّدٌ وهوانُ

١٣ - فتبسَّمَتْ واستعجلَتْها عَبْرةٌ ... واضاء دُرٌّ واستهلَّ جُمانُ

١٤ - وقفَتْ تعضُّ على الوشاة بَنانَها ... فاخُطٌّ خدّي والدموعُ بَنانُ

١٥ - تشكو الصَّبابةَ بامتداد تَنَفُّسٍ ... تشكو غوائلَ حرّه النيرانُ

١٦ - حَرٌّ لو انَّ المشركين بلوا به ... فيما مضى لم تعبدِ الأوثانُ

١٧ - فكم التصبّرُ والوداع حقيقةٌ ... وكم التجلّدُ والفراق عيانُ

١٨ - وكم امتعاضُ الكاشحينَ من النَّوى ... كانوا هُمُ سَبَبُ النوى لا كانوا

١٩ – وأعِزَّةٍ قد كنتُ دِنْتُ بحبّهم ... ولذاك سائرهم بحبّي دانوا

٢٠ – كنتُ المُفَدَّى بينهم ولديهم ... بحياةِ رأسي كانت الايمان

٢١ – فَسَعى الأعادي بالنمائم بيننا ... حتى تنافرنا فبنتُ وبانوا

٢٢ – نَأت المسافةُ والتذكّر حظّهُم ... منّي ، وحظي منهُمُ النسيانُ

٢٣ – دعوى الاخاء على الرجاء كثيرةٌ ... بل في الشدائد تعرف الأخوانُ

٢٤ – الدمعُ وافٍ إنْ وفوا أو أخْلَفوا ... والشوقُ راعٍ إن رَعَوا أو خانُوا (١٣)

٢٥ – مالي على الأيّام إن بخلوا يدٌ ... وعلى الزمان اذا نبوا سُلطان

٢٦ – كالموج اثر الموج ليس بفاترٍ ... فقدانُ إلْفٍ اثرَهُ فقدانُ

٢٧ – ولقد فرى حالي بمخلب ضيمه ... ليثٌ خلى عن مثله خفّانُ

٢٨ – يُبدي الشجاعةَ في اقتناص ذوي النُّهى ... وعن اقتناص المقترين جَبانُ

٢٩ – نَزع الغني عنّي ليصدأ شيمتي ... عَجَباً له هل يصدأ العِقْيانُ

٣٠ – وأهانني ، والمسكُ طيبُ نسيمه ... يزداد تحت السحق حين يُهان

٣١ – لّما حُرِمْتُ به الثَّراءَ حَرَمْتُهُ ... منّي الثناءَ فَعَمَّنا الحرمانُ

٣٢ – أرْبِحْ بصفقة تاجرٍ يبتاعني ... ولمن سعى في بَيْعي الخسرانُ

٣٣ – مثلي يُضَنُّ به ويحمل جاهُه ... طوعاً على حَدَقِ العُلى ويُصان

٣٤ – وأنا الذي أضْنَتْهُ هِمّةُ نَفْسِه ... لا الهَمُّ أضناهُ ولا الاحزانُ

٣٥ – عطل المروّةِ خَانَهُ إمكانُه ... إنَّ المروّة حَلْيُها الامكانُ

٣٦ – واذا أُحَبَّتْني العراقُ فَهَيِّنٌ ... عندي إذا نشزَتْ عليَّ عُمانُ

٣٧ – سَيُعيدُ أيامي كأيّام الصّبا ... حُرٌّ أعَزُّ من الملوك هجانُ

٣٨ – قمراً يُسامرُ فكره تحت الأجى ... في المكرمات وبرجُه الايوانُ

٣٩ – وينام حين ينام غِبَّ سُهادِهِ ... والمجدُ بين ظلوعه يقظان

٤٠ - أرضى ملـوك بني بُـوَيْـه بِنُصْحِـه　　والنجـحُ جسمٌ روحُـه الايمـان
٤١ - ولـو انّ أمـر الملـك نيـطَ بغيره　　أبت الاسـرَّةُ ذاك والتّيجـانُ
٤٢ - بَشَّرْتَ آمـالي ببشـرك انّـه　　لكتـاب ادراك الغنى عنـوانُ
(١٤) ٤٣ - أيّـامُ « فخر الملـك » أكثر بهجـةً　　من أن يقـومَ بـوصفهنَّ لسـانُ

التخـريج :

البيت الحادي عشر في دمية القصر ١ / ١٨٤

(٩)

وقـومٍ أخَلُّـوا بـالـذمـام لمنْ رَعى　　لَهُمْ ونسـوا حفـظَ المـودَّةِ في القُربى
مَحَضْنـا لهم نُصْحـاً فجـاءوا بغَـدْرَةٍ　　وكُنّـا لهم سِلْماً وكانـوا لنـا حَرْبـا
ولم نجـزهمْ بـالسُّـوءِ سُـوءاً ولم نَلُمْ　　ولم نُظهرِ الشكـوى ولم نُظهر العُتْبـا
وقُلنـا : عَسى أن يَنْتهـوا عن فعـالِهم　　فيستَـوْجِبـوا منّـا لأن نغفرَ الـذَّنْبـا
فلمّـا أبـوا إلاّ اعتمـاداً لشرِّهم　　وبَغْيـاً ، جَـذَبْنـاهم الى شَرِّنـا جَـذْبـا
وقلنـا لهم : ذُوقـوا وبـال أمـوركم　　فمن يَشْـق مُـرَّ المـاء لا يشرب العَـذْبـا

(١٠)

أفي الركب قَلْبي أمْ ترى سَبَـقَ الرَّكْبـا ... فلست أرى [ما] [١] بين احشائي القلبا
هـوى إثر من يهـوى فـأودى وإنّمـا ... لسـائر أعْضـائي على اثره العُقبى
وقـالـوا : ادعيتَ الحـقَّ غير مُسَهَّـدٍ ... ولا يستلـذُّ النـوم من عـالـج الحُبّـا
فقلتُ لهم : لـو كنتُ اعلم انني ... على يقظتي أو في الكرى لم أكن صَبّـا
يـذكّرني عهـدَ الصِّبـا ونسيمُـهُ ... نسيمُ الصَّبـا من نحـو نجـدٍ إذا هَبّـا
ومـاضي شبـاب ينثُر الـدمـع كُلمّـا ... تصـوَّرْتُـه في النفس أو ينظم الكربـا

(١١)

عَسى و عَسى من بعـد طـولِ التفرُّقِ ... على كُـلّ مـا نرجـوا من العَيْش نَلْتَقي
ولـو ظَفِرتْ عيني بشخصِكَ سـاعة ... لكنتُ على عيني من العين أتّقي
فيـا ليتَ شعري كيف انت ، أشَيِّـقٌ ... فـؤادك كالمعهـود أم غير شَيِّـقَ
فمـا روضُ عهـدي في ضميري بمجـدوبٍ ... ولا رَبْـعُ وُدّي في فـؤادي بمخلـقِ
فيـا حبّـذا عصر الصِّبـا [ ] [٢] ... عـذارى أمـانينـا ونـاهيـهِ لـو بَقي
زمـانٌ نَظَمْنـا عقْـد كُـلّ تَيَسُّـرِ ... بـه ، وحَلَلْنـا عَقْـدَ كل تَعَـوُّقِ

---

(١) ما بين عضادتين زيادة يقتضيها السياق .
(٢) سقط في الأصل المخطوط بمقدار كلمة .

(١٢)

عَصْرُ الصِّبا عَدٌ فالهوى	باقٍ ، وركبُ الشوقُ طارقْ
ما كنتَ الاّ رَجْعَ طَرْفٍ	لا بثاً ، أو لَمْحَ بارِقْ
سَوَّدْتَ من عَجَلٍ أما	نينا وَبيَّضْتَ المفارقْ
ومضَيْتَ باللذّات مُرْ	تجلاً وخَلَّفْتَ العوائق
ما هكذا [كُنّا](١) نظنّ	وايٌّ ظنٍ فيك صادقْ
فارقتُ أرْبَعةً لها	يهوى المنيَّة من يُفارق
شرخَ الشبيبة والغنى	وعُمانَ والإلفَ الموافق
هذا على اني قديماً	كنتُ مفتاح المغالقْ
وبلغتُ غاياتِ العُلى	سبقاً ، وصلتُ على البوائق
زَمَنٌ خلا وعيون حُسّادي الى نِعَمي رَوامقْ
أيّامِ رَيْبُ الدهر عنّي ساكتٌ والعيشُ ناطقْ
يا سادةً نكثوا العهودَ	على النّوى ونسوا المواثق
الحزنُ معتقلٌ لديّ	ببُعْدكم ، والصَّبْرُ آبقْ
أنا من بَلَوْتُمْ فِعْلَهُ	وخلائقي تلك الخلائق
فكما علمتم في معا	تبة الأَحِبَّة لا أُضايقْ
حاشاكُمُ أن تذنبوا	الذنبُ للزمن المنافق
ما الغَدْرُ من أخلاقكم	لكن قضاء الله سابق

(١٦)

---

(١) ما بين عضادتين ساقط في الاصل المخطوط فاجتهدنا .

(١٣)

وقال أيضاً يمدحه :

١ - فرقِ الفراقُ لطولِ ما نَتَلاقى ... من أنْ أصُبَّ على الفراق فراقا
٢ - فعلامَ تحسبُني الوشاة مُنَزَّهاً ... في الشوق . عما يتلفُ المشتاقا
٣ - أوَ ما يرونَ الجَفْنَ خاطب لوعةٍ ... بكْرٍ ، وقد بذل الدموع صداقا
٤ - يا عين إن لم يكفهم أن تسكبي ... دمعاً ، فذوبي واسكبي الآماقا
٥ - تَرَكَ اصفراري والنحولُ كلاهما ... في العشق جسمي يُنْذِرُ العَشّاقا
٦ - فكأنَّهُ ألِفٌ بخَطٍ مُذْهَبٍ ... جَعَلَ الدُّجى أرقي له ورّاقا
٧ - لامِ الحسودُ وقالَ دَعْ عنكَ الهوى ... ليزيدني بملامِه أشواقا
٨ - وعزيزةٍ قالت مقال مُجَرّبٍ ... ساوى الحكيمَ بفَهْمِه أو فاقا
٩ - كم مُضْمرٍ كيداً إذا جاَلسْتَهُ ... أبدى الحُنُوَّ وأظهر الإشْفاقا
١٠ - والنار نورٌ ملء عينك ساطعٌ ... لو لم تجدْ في طبعها الاحراقا
١١ - ومن الضَّلالةِ أن تُعاشِرَ مَعْشراً ... ساقوا الى سُوقِ النِّفاقِ نفاقا
١٢ - تَسْعَى ولو اعطيتَ سَعْيَكَ حقَّهُ ... لبلَغْتَ ما أمَّلْتَهُ استحقاقا
١٣ - فمُؤيِّدُ السلطان زُرْ ، ودع الورى ... وعمانَ يَمِّمْ ، واهجُرِ الآفاقا
١٤ - فيه يروقك وجهُ جاهك منظراً ... وبها تطيبُ لك الحياةُ مَذاقا
١٥ - عاود بلادك ، واقصد الملك الذي ... يكسو دُجى[1] آمالك الاشراقا
١٦ - مَلِكٌ اذا لسعَتْك يوماً نكبةٌ ... صادفتَ من إنعامِه دِرْياقا
١٧ - يستعذبُ الاطلاق حتى أنَّه ... ليرى غذاءَ سماحِهِ الاطلاقا
١٨ - لو سرتَ فُزْتَ من اليسار بطائلٍ ... تسرو[2] به عن قومك الاملاقا

---

(١) في الاصل المخطوط : الدجى ، وهو وهم من الناسخ . (٢) كذا في الاصل .

١٩ - هذا وقلتُ لعاذلٍ لك عندما   تهبُ الهباتِ فتكثر الانفاقا

(١٧) ٢٠ - يا مَنْ يلوم على السَّماح رفيقه   رفقاً فلم أرَ كالغنى إرْفاقا

٢١ - فلئن رآك رآك اطوعَ خادمٍ   إن حَلَّ راق ، وإن ترحَّلَ شاقا

٢٢ - لو حُمِّلَ الأمْرَ الجسيمَ وفَا بهِ   أو حُمِّلَ العبءَ الثقيلَ أطاقا

٢٣ - في السِّلم يخدم باللسان وفي الوغى   بالسيف ليس بهائبٍ ما لاقى

٢٤ - فعلمتُ أنّي إن اخذتُ برأيها   لم أعْدُ في ترك الخلاف وفاقا

٢٥ - ووجدتُ من قبل الرَّحيل جوارحي   يُرهِقْنَ عزمي في السُّرى ارهاقا

٢٦ - حُبّاً لطلعة ذلك القمر الذي   لا يكتسي غبَّ التمام مُحاقا

٢٧ - ومصالح الاقليم في قلمٍ لهُ   يتكفَّلُ الآجال والارزاقا

٢٨ - يقظان يرعى المكرماتِ كأنَّه   وجد الرقادَ أمَرَّ شيءٍ ذاقا

٢٩ - ويُطالع العلياءَ حتى انَّه   عند الرَويَّة يكرهُ الاطراقا

٣٠ - وتخالُ تحت الليل ضوءَ جبينهِ   صُبْحاً يَمُدُّ على الظلام رواقا

٣١ - ويكادُ من فرط التناهي في العُلى   يَرْقَى مع الهِمَمِ التي تتراقى

٣٢ - وسيوفُه في كُلِّ يوم كريهةٍ   تَسْقى العدى كاسَ الحمام دهاقا

٣٣ - ما في خلائقها هنالك رِقَّةٌ   لكن مضاربها خُلِقْنَ رقاقا

٣٤ - ولو استطاع الناسُ يومَ ركوبهِ   فرشوا لِوَاطْءِ جيادِه الاحداقا

٣٥ - ولقد نذرتُ لئن رأيت وقد حدا   بركائبي حادٍ اليه فَساقا

٣٦ - لا زوِّجَنْ بنت السرور بخاطري   ولاعطيَنْ بنت الهموم طلاقا

٣٧ - ولا غفِرَنْ للدهر سالف ذنبهِ   ولا وسِعَنْ من عُذره ما ضاقا

٣٨ - ولا منحَنْ ما عشتُ هجري غُصَّةً   جعلوا بغَدْرهم الزلال زُعاقا

٣٩ - وكأنّما أخَذَ الإلَهُ عليهم   ميثاقَه أنْ ينقضُوا الميثاقا

٤٠ - مـــا أن دَهـــاني قَـــطُّ مكرٌ سَيِّئٌ إلاّ رأيتَ بــاهِلــه قــد حــاقــا

٤١ - يــا أيُّهــا الملــك الــذي عــزمــاتُــه تركَتْ زئـير الخـــالعين نُهــاقـــا (١٨)

٤٢ - طَرَّزْتَ خُلقــك بــالعفــاف وحبَّــذا من بــالعفـــاف يُطرِّزُ الاخــلاقــا

٤٣ - وجعلتَ عفــوكَ حَلْيَ سطـوتــك التي من دأبهــا أن تضربَ الاعنـــاقــا

٤٤ - فلذاك لم يسمع بـذكرك خــالعٌ إلاّ صحـا من ذكـره فــأفــاقــا

٤٥ - لا زلتَ مثـل أبيــك أوحــد دهـرهِ سبْقــاً الى أمـــد العُلى سَبّــاقــا

التخــريج :

الأبيات ٥ ، ٦ ، ١١ في مخطوطة لمح الملح الورقة ١٠٤

ورواية البيت السادس : ارقي له اوراقا

(١٤)

يقـولـون لي : ألفــاظُ هجوك عنــدنــا الى القَلْبِ من ألفــاظِ مــدحِـك أسْبَــقُ

فقلت لهم : كـــذبٌ مـــديحيَ فيكُمُ وهجـوي لكم صِـدْقٌ ، وللصـدق رَوْنَــقُ

تمت المختــارات من أشعــار الكافي أبي علي ابـزون بن مهبزد الكرّاني اولاً ثم العُماني وهي ثلثمـايــةٍ وتسعةٌ وخمسون بيتاً ..

والحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على خير خلقه محمّدٍ وآل عترته وصحبه .

(١٩)

ذيل المختارات

صنعة : هلال ناجي

(١)

رقّ خلق الزمان واعتدل الجوّ ... اعتدالاً وخفّ وزنُ الماء
وترى الأرض بعدما هرمت عادت ... الى سنّ كاعبٍ حسناء
فتحارُ العيونُ في كلّ روضٍ ... نَسَجَتْ وَشْيَهُ يدُ الانواء

التخريج :

(١) الابيات في مخطوطة حدائق الانوار الورقة ١٠ .

(٢)

فهجرنا القنا وَزُرنا القناني ... واشتغلنا عن الظُّبا بالظِّباء

التخريج :

(٢) البيت في دمية القصر ١/١٨٤

(٣)

على منبر العلياء جَدُّكَ يخطبُ ... وللبلدة العذراء سَيْفُك يخطبُ

التخريج :

(٣) نهاية الارب ٧/١٣٤ .

(٤)

اذا الجـدّ لم يُسعـد فجـدّ الفتى لعبٌ   وابطـل سَعْيٍ سَعْيُ من جـدّ في طَلَبْ
فكم ضيعـةٍ ضـاعت وكم خلّـةٍ خَلَتْ   وكم فضّـة فضّتْ وكم ذهبٍ ذَهَبْ

التخريج :

(٤) مخطوطة لمح الملح للحظيري الورقة ١٩ .

(٥)

انتِ يـا نرجسـة الروض   لمـا في الروض سِتٌّ
ودليـل القـول فيـه   انّ اوراقـك سِتٌّ

التخريج :

(٥) مخطوطة لمح الملح الورقة ٣٣ ومخطوطة حدائق الانوار الورقة ٥٢ .

(٦)

ليهنِـكَ أنَّ ملكـكَ في ازديـادِ   وانّ عُـلاكَ واريـةُ الـزنـادِ
وأنّـك مَنْ اذا وصف المُـوالي   منـاقِبَـهُ أقـرَّ بـه المعـادي
حـديثُ قِـراك متّـع كلَّ سَمْـعٍ   وذكرُ نـداك عَطّـر كلَّ نـادِ
وينقـاد الملـوكُ لـك اعتقـاداً   ومـا انقـادوا لغيرك بـاعتقـاد
ملكتَ رقـابهم بـأسـاً وجـوداً   فهم مِلْـكُ السيـوف أو الأيـادي
إذا استعرضتَ جيش الرأي ليـلاً   جعلتَ عطـاءَهُ طـول السُّهـادِ

إذا ادَّرعــوا الـدُّجى والهـولُ بـادٍ   ســروا ونجـومُهم غُررُ الجيــادِ
فبـالسُّمْرِ الّلـدان إذا تمـاروا   ألنتهُمُ وبـالبيض الحـداد

التخريج :

(٦) دمية القصر ١٨٣/١ - ١٨٤

(٧)

على سيبـك المـأمـول يعتكفُ الحمـدُ   وعن سيفـك المسلـول ينكشف الجـدّ

التخريج :

(٧) مخطوطة لمح الملح الورقة ٥٨ .

(٨)

سَكَنٌ ســاكنٌ ســوادَ الفــؤادِ   مـلَّ قُربي ومـال نحـو بعــادي
قـال : لِمْ لا تنـام ؟ قلت : لاعرا   ضـك ، وهـو الخـلافُ للمعتـادِ
إنّمــا اشتهي الكـرى لأرى   طيفَـكَ فيـه وأنت سَهْـلُ القيـادِ
فـاذا لم يَـزُر خيـالـك إلاّ   مُغضباً فـالكرى فـداء السُّهـادِ

التخريج :

(٨) دمية القصر ١٨٢/١ - ١٨٣

(٩)

متى أردت أيـــادي راحتيـــك كَسَتْ حَيـا الغـوادي حيـاءَ الغـادةِ الرودِ
فكان عيشٌ على السرّاء مُطَّرِدٌ يُـزري بِهَمٍ عن الاحشـاء مطرودِ

التخريج :

(٩) مخطوطة لمح الملح الورقة ٥٨ .

(١٠)

أفـدي الـذي زارني والليـلُ معتكرٌ والأفـقُ مّمـا اكتسى من عُرْفِـه عَطِرُ
فلم نَـزَلْ نتجـارى في العتـاب معـاً أشكـو اليـه جفـاهُ وهـو يعتـذرُ
حتى إذا مـا اعتنقنـا واستتبَّ لنـا على ارادتنـا عيشٌ لـه خَطَـرُ
نـاديتُ يـاليـل دُمْ ليـلاً بـلا سَحَرٍ فقـال : ليلـك هـذا كلُّـه سَحَرُ

التخريج :

(١٠) رسالة الطيف للاربلي ص ١٥٥ - ١٥٦ .

(١١)

قـد كنتُ أرجـوك للبلـوى إذا عرضتْ فصـرتُ أخشـاك والأيـامَ للغيَرِ
أخشى وحكميَ أن ارجـو ولا عجب وربّمـا يتـأذّى الروضُ بـالمَطَـرِ

التخريج :

(١١) دمية القصر ١٨٢/١ .

(١٢)

وله ، وهو منقول من الفارسية :

وصحراءَ رَدَّتْهـا الظِّبـاءُ حفـائراً ... بـأظـلافهـا أَحْسِنْ بهـا من حفـائرِ

فَهَبَّتْ ريـاحٌ للصبّـا فطممنهـا ... بمسـكٍ ، فعـادتْ نُـزهـةً للنـواظر

التخريج :

(١٢) دمية القصر ١/١٨٢ .

(١٣)

١ - جـاء الربيـعُ وبحرك الفيّـاضُ ... فَغَـدَتْ قفـارُ الأرضِ وهي ريـاضُ

٢ - والروضُ أصبـحَ بعـد صفرةِ لـونـهِ ... وبـوجنتيـه حمـرةٌ وبيـاضُ

٣ - وكأنَّ نـوارَ الحـدائـقِ في الضُّحى ... حَـدَقٌ لـدى عُشّـاقهنَّ مـراض

٤ - فـانظر ترى الـدنيـا عروسَ منصَّـةٍ ... يصيبـك بُردُ شبـابهـا الفضفـاضُ

٥ - والمـزعجـاتُ جفـونهنّ غضيضـةٌ ... والمبهجـاتُ غصـونهنّ غضـاض

٦ - بنـداك يصبـغ ثـوب شرّتـه الغنى ... أبـداً ويصبـغ صـبغـه الايقـاض

التخريج :

(١٣) الابيات ١ - ٤ في مخطوطة حدائق الانوار الورقة ١١ .

والابيات ٣ و ٥ و ٦ في مخطوطة لمح الملح الورقة ٨٧ .

(١٤)

وبقعـــــةٍ من أحسـنِ البقـــاعِ
يُبَشِّـرُ الرائـــدُ فيهـــا الراعي
بـالخصـب والمـرتبـع الـوســاع
كـــأنّمـا يستُرُ وجـــه القـــاع
من ســـائر الالـــوان والانــواع
من صـنعة الخــالق لا الصـنـاع
والمـــاء منحـــطٌ من التـــلاع
كمـــا تسـلُّ البيض للقـراع
وغَـرَّدَ الحمـــامُ بـــالسماع
ورقص المـــاء على الإيقـــاع
ونُثـرَ البهـــارُ بـاليفـــاع

التخريج :

(١٤) مخطوطة حدائق الانوار الورقة ٢٢ .

(١٥)

تـــأبى قبـــولي أيُّ أرضٍ زرتهـــا قـــدمي رجـــائي وافتقـــاري ســـائقي
فكـــأنّها الـــدنيـــا يـــدا متحـــرِّزٍ وكأنني فيهـــا وديعـــةُ ســـارق

التخريج :

(١٥) دمية القصر ١ / ١٨٤ .

(١٦)

بـــأبي حبيبٌ كلّمـــا عـــانقتـــه　　عـــادتْ اليّ شبيبتي بعنـــاقـــهِ
كالراح يجمـــع بين طيب نسيـــمـــه　　وبهـــاء منظـــره وطيب مـــذاقـــه
أخـلاقـــه نُـزهٌ القـلـوب وبـــالحَري　　أن يستعير الروض من اخـــلاقـــه
أيقنتُ أنْ لاعيش غيرُ لقـــائـــه　　أبـــداً وأن لا مـــوتَ غيرُ فراقـــه

التخريج :

(١٦) دمية القصر ١ / ١٨٣ .

(١٧)

ويلـك يـا ثـابت مـا اخمـلـكْ　　ولّلـــذي يعـلـوك مـــا أحمـلـكْ
مـــا كان من فـــألٍ جميـــلٍ فلي　　أو فَلَـــكٍ دار بنحسٍ فَلَـــكْ

التخريج :

(١٧) مخطوطة لمح الملح الورقة ١٠٦ .

(١٨)

لثبـات حكمـك كاد يـذبـل يـــذبـلُ　　ويشمّ رائحـــة الـــزوال شمامُ
واذا كتـــائبـــهُ انبـرت أو كتبـــه　　فُلِقَتْ هنـــاك الهـــامُ والاوهـــامُ

التخريج :

(١٨) مخطوطة لمح الملح الورقة ١٢٣ .

(١٩)

أراك على العِــــلاّت غيرَ مــــوفّـــقٍ … ومـــــا أحسنَ التـوفيـق حيث تكـونُ
تريـدُ تـلافي الأمر من بعــد فـوتــهِ … ولــو شئتَ كان الصعب منـــه يهـون
كبلهـــاء قـــومٍ حين بلّت طحينهـــا … بـــدت تنخــل المبلــول وهـــو عجين

التخريج :

(١٩) دمية القصر ١ / ١٨٢ .

(٢٠)

وقال يُعَمِّي في الدواة والقلم :

يـــا حسن عــاطلـةٍ بــالحسن حــاليــةٍ … ســوداء يشفي بينهـا الـدهرُ من فيهـا
لكن بنــوهـــا إذا قيست طبـــائعهم … الى طبـــاع بني الـدنيـا نبـوا فيهـا
يلقـون إن أُرضِعـوا كـداً ، وإن فُطمـوا … كان الفطـــامُ لهم في الحـــال يرقيهـا
خرسٌ إذا رَعَفَتْ آنــــافُهم نطقـــوا … فـأحسنـوا صفـة الـدنيـا ومـا فيهـا

التخـريج :

(٢٠) مخطوطة الإلغاز في الاحاجي والألغاز الورقة ٢٠٩

المجاعة والطاعون وأثرهما على سلطنة المماليك

في الفترة ما بين عامي ٦٩٤-٦٩٥هـ ١٢٩٤-١٢٩٥م

دكتورة حياة ناصر الحجي
أستاذ مساعد - قسم التاريخ - جامعة الكويت

بعد النصر الكبير الذي حققته سلطنة المماليك في طرد الصليبيين من « عكا » آخر معقل صليبي في بلاد الشام منيت هذه الدولة الإسلامية بمجاعة مميتة ، ووباء ساحق ، الأمر الذي ألحق بها الضرر الكبير في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والفكرية[١]. ولعله من المؤسف حقاً أن ذلك حدث في أعقاب الجهاد المملوكي ضد الصليبيين الذي كلفهم من البشر ، والجهد ، والمال الشيء الكثير ، وجعل السلطنة أرضاً خصبة لما يمكن أن ينمو فيها من أسعار باهظة وندرة في الغذاء[٢].

ويشير ابن الفرات إلى أن ذلك الوباء الكبير شمل معظم بلاد مصر والشام والحجاز[٣]. هذه العبارة توضح - بما لا يدع مجالاً للشك - أن الوباء كان عظيماً بحيث أنه اجتاح الولايات الكبرى الثلاث التي تشكل سلطنة المماليك . ولا ريب أنه كان بعيد التأثير على الجيش المملوكي[٤]. صاحب الفضل الكبير في تتويج الانتصار الإسلامي في بلاد الشام .

(١) نزهة ، ورقة ٢٥ ب ، ٢٧ أ ، مالك ، ورقة ٤٢ أ ، مصر ، ورقة ٣٨ أ ، مرآة ، جـ ٤ ، ص ٢٢٧-٢٢٨ ، درة ، ورقة ٧١ أ ، ٧٣ أ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٣ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٧ ، ٨١٠ ، الخطط ، جـ ٣ ، القسم ٢ ، ص ١٧٧ ، الدرر جـ ٣ ، ص ٢٦٣ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ ، ٦٨ .

(٢) تركية ، ورقة ٢٠ أ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ ، إغاثة ، ص ٣٢ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ .

(٣) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٣ ، ١٩٩ .

(٤) Ayalon «The plague and its effects upon the Mamluk army» B.S.O. A. S., xv (1953) p. 68.

ويعدد المقريزي بعض المناطق التي تعرضت للجفاف والجوع لعدم توفر القوت ، فيذكر برقة ، وبلاد الشام ، والقدس ، والساحل إلى جانب مصر[٥]. كما يضيف ابن الفرات برقة وأعمالها ، وبلاد المغرب ونواحيها ، والحجاز ، وجميع الحدود الشرقية والغربية[٦].

وقد كانت بداية هذه الحوادث المفجعة مع تولي السلطان كتبغا المنصوري[٧] ولاية الحكم في دولة المماليك . ومن ثم بدأ يتردد على ألسنة الناس أن حكم كتبغا شؤم ، وأيامه نحسات[٨]، الأمر الذي يدل على ظهور رد الفعل السريع عند مشاعر الناس نتيجة انتشار الوباء مع الأيام الأولى لعهد السلطان العادل كتبغا المنصوري ، خاصة مع ظهور الزيادة المطردة في أسعار الغذاء « فبلغ كل إردب من القمح إلى مائة درهم ، والشعير إلى ستين ، والفول إلى خمسين ، واللحم إلى ثلاثة دراهم الرطل »[٩]. ثم تزايدت الأسعار حتى وصل سعر القمح إلى مائة وخمسين درهم للأردب الواحد[١٠].

ويفسر اليافعي أسباب حدوث الوباء المميت والمجاعة المهلكة أن ذلك يرجع إلى القحط الشديد ، والجفاف غير المحدود ، مما أدى إلى ظهور الغلاء ، وصعوبة الحصول على الغذاء ، خاصة القمح والخبز ، حتى بلغ الأمر بالناس إلى أكل الجيف من شدة الجوع ، واستحالة الحصول على الغذاء . كما تزايد عدد الموتى نتيجة الجوع ، ثم الإصابة بالوباء حتى بلغ أن دفن في يوم واحد ألف وخمسمائة جنازة . كما حدث الشيء نفسه في دمشق ، وبقية المدن الواقعة تحت حكم السلاطين المماليك[١١]. وهكذا بليت سلطنة المماليك بحدوث تلك المجاعة المهلكة التي عانى منها المجتمع المصري[١٢].

(٥) اغاثة ، ص ٣٢ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ .

(٦) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(٧) أنظر ترجمته ، تالي ، ورقة ٦١ ب – ٦٢ أ ، الدرر ، جـ ٣ ، ص ٣٤٨–٣٥٠ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٧ ، ٨ ، ٤٢–٤٣ ، ٤٤–٤٥ ، ٤٩–٥٠ ، ٥٥–٥٧ ، ٥٨ ، ٦٣–٦٧ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٢–١٩٣ ، ٢٠٣–٢٠٥ .

(٨) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٧ .

(٩) اغاثة ، ص ٣٣ ، قارن تركية ، ورقة ٢٠ أ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(١٠) جواهر ، ورقة ٥٩ أ ، قارن ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(١١) مرآة ، جـ ٤ ، ص ٢٢٧–٢٢٨ ، أنظر كذلك ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(١٢) نزهة ، ورقة ٢٥ أ – ب ، مصر ورقة ٣٦ ب – ٣٧ أ ، ٣٨ أ ، مرآة ، جـ ٤ ، ص ٢٢٧–٢٢٨ ، مالك ، ورقة ٤٢ أ ، درة ، ورقة ٧١ ب ، خبر ، جـ ٥ ، ص ٣٨٠ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٣ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٦–٨٠٧ ، ٨١٠ ، الدرر ، جـ ٣ ، ص ٣٤٩ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧–٥٨ .

ويشير المقريزي إلى سوء الأحوال الاقتصادية فيذكر أن ما حفظ من التقاوي للموسم الزراعي المقبل قد استولى عليه . إلى جانب أن خلو « الأهراء السلطانية »[١٣] من الغلال التي سبق أن وزعها السلطان الأشرف خليل بن قلاون على الأمراء قد زاد الأمر سوءاً . بل أن الوزير لجأ إلى الأسواق العامة والدكاكين لشراء العليق للدواب السلطانية[١٤]. وهذا يبين إلى حد ما أن المجاعة والطاعون لم يشمل جميع الطبقات في المجتمع المصري ، وإنما أصاب بشكل واضح الجماعات الفقيرة والأطفال والغرباء ، بينما كانت الطبقة الغنية والأمراء المماليك وأهل الجاه في مأمن من أضرار هذا الغلاء وما أعقبه من وباء مميت[١٥].

كما يؤكد المقريزي انتشار الجوع والطاعون بين الناس إلى حد أن بعضهم أكل الميتة والقطط والحمير بل أكل بعضهم لحم بعض[١٦]، كما تزايد عدد الوفيات إلى درجة العجز عن إثبات اسم كل متوفي في « ديوان المواريث الحشرية »[١٧]، فما كان من السلطان كتبغا المنصوري أمام هذا الوضع الصعب إلاّ أنه فرق الفقراء على أصحاب الأموال رفقة بأحوالهم وسوء أوضاعهم[١٨]. وهذا الوضع يثبت أن السلطان المملوكي كان شديد الاهتمام بما يواجه السلطنة آنذاك من ندرة في الغذاء ومعاناة الوباء[١٩].

ويفسر المقريزي هذه الواقعة في كتابه « إغاثة الأمة بكشف الغمة » فيقول : « فلما تجاوز الأمر الحد أمر السلطان بجمع الفقراء وذوي الحاجات ، وفرقهم على الأمراء ، فأرسل إلى أمير المائة

(١٣) الأهراء : جمع « هرى » بضم الهاء وكسر الراء وتشديد الياء ، وهي بيت كبير تجمع فيه الغلال التي للسلطان . وكانت الفسطاط هي مقر الأهراء السلطانية ، كما كان اقليم المنفلوطية يزرع قمحاً وفولاً وشعيراً تحمل جميعها مع غيرها من الغلال إلى الأهراء السلطانية بالفسطاط . أنظر صبح ، جـ ٣ ، ص ٣٩٥ ، ٤٥٢ .

(١٤) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٨-٨٠٩ .

(١٥) Ayalon, op.cit., p. 69.

(١٦) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٠ .

(١٧) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٠ . أما عن « ديوان المواريث الحشرية » فكان يختص بجمع مال من يموت وليس له وارث . وكان لهذا الديوان ناظر يولي من قبل السلطان بتوقيع شريف ومعه مباشرون من شاد وكاتب وشهود . وكان كاتب « ديوان المواريث الحشرية » يكتب يوماً تعريفاً بمن يموت بمصر منذ الصباح حتى وقت العصر ، فمن توفى بعد العصر أضيف إلى سجل اليوم التالي . ولمزيد من التفاصيل أنظر صبح ، جـ ٣ ، ص ٤٦٠ ، الخطط ، جـ ١ ، قسم ٢ ، ص ١٩٧ .

AL-HAJJI, Internal Affairs of Egypt, pp. 166, 167.

(١٨) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٠ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٠ .

(١٩) Ayalon, op.cit. p. 71.

مـائـة فقير ، وإلى أمير الخمسين خمسين ، حتى كان لأمير العشرة عشرة . فكان من الأمراء من يطعم سهمه من الفقراء لحم البقر مثروداً في مرقة الخبز ، يمده لهم سماطاً يأكلون جميعاً ، وفيهم من يعطي فقراءه رغيفاً رغيفاً ، وبعضهم كان يفرق الكعك ، وبعضهم يعطي رقاقـاً ، فخف مـا بـالنـاس من الفقر »[٢٠].

يمكن أن نستنتج من هذه البادرة عـدة أمور ، أولاً : محـاولـة ممثلـة في شخص السلطـان حصر أعداد الفقراء والمحتـاجين في المجتمع المصري في سبيل توزيعهم توزيعـاً عـادلاً بين الأمراء كلاً حسب رتبته وقدرته المالية . ثانياً : وضع الأمراء ضمن دائرة المسئولية تجـاه مـا كان يكابـده المعسرون من الجوع وعدم توفر القوت اليومي . ثالثاً : مراعاة الحالة المـاديـة لكل أمير بحيث يكون مسئولاً عن عدد من الفقراء يتناسب مع مايستطيع أن يوفره لهم من الطعـام اليومي مع الأخـذ بعين الاعتبـار أنه ربما تطول الأزمة أكثر مما كان يتوقع . رابعـاً : أن كل أمير كان حراً في كيفيـة العنـايـة بهؤلاء الفقراء الذين تولى مسئولية رعايتهم بحيث يوفر لهم الغذاء اليومي حسبما يراه مناسبـاً سواء في نوع الطعام المقدم ، أو في كيفية حصول كل منهم على نصيبه . وذلك إما مشاركة في مائدة واحدة ، أو مقداراً يحمله معه إلى منزلهحيث أصبح الأمر مقروناً بشخص الأمير ، وقدرتـه المـاليـة ، ورغبتـه في كسب الأجر والثواب في مساعدة أولئك المحتاجين . فالأمير على ذلـك ملزم برعـايـة عـدد مفروض عليه من المعسرين ، ولكنه مخير في كيفية توفير تلك العنـايـة . ولاشـك أن في ذلـك الحل المؤقت تفريجاً للبعض عما حل بهم من الكرب والضيق .

بالإضافة إلى ذلك وجد من أصحاب الأراضي الزراعية من عمل على بذل محصولـه الزراعي كلـه صدقة يأكل منه الجائع متى أراد ، وحيثما شـاء . فـالأمير فخر الـدين الطنبغـا المسـاحي كان يملـك مائة فدان زرعت جميعهـا فولاً جعلـه مشـاعـاً يـأكل منـه الفقراء متى أرادوا حتى نفـذ المحصول عن آخره . بل أن الأمير الطنبغـا عنـدمـا زار أجران الفول لم يجـد سوى تل كبير من القشر حيث أكل الفقراء فوله أخضر فأمر « أن يدرس لينتفع بتبنه ، فحصل منه سبعمائة وستون إردبـاً . فعـد ذلـك من بركة الصدقة وفائدة أعمال البر »[٢١]

وبالإضافـة إلى ذلـك يـذكر المقريزي في كتـابـه « إغـاثـة الأمـة بكشف الغمـة » – استطراداً لحوادث عـام ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م ومـا جرى فيـه من غـلاء في الأسعـار ونـدرة في الغـذاء – فيقـول :

(٢٠) اغاثة ، ص ٣٥ .

(٢١) اغاثة ، ص ٣٦ .

« فأخرجت الغلال من الأهراء ، وفرقت في المخابز والجرايات لكل صاحب جراية ست جرايات في شهرين . وكان راتب البيوت والجرايات لأرباب الرواتب في كل يوم خمسين وستمائة إردب ، ما بين قمح وشعير ، وراتب الحوائج خاناه عشرين ألف رطل لحم في اليوم . وكان قد ظهر الخلل في الدولة لقلة المال ، وكثرة النفقات ، فتعددت المصادرات للولاة والمباشرين ، وطرحت البضائع بأغلى الأثمان على التجار »[٢٢].

وعلى ذلك يمكننا أن نستخلص بعض الاستنتاجات من هذا النص ، فنجد أن « الأهراء السلطانية » أو مخازن الغلال لم تكن خاوية تماماً ، وإنما كان بها كميات قليلة تم إخراجها وتفريقها على المحتاجين والمعسرين ، وفق خطة منظمة بالتعاون مع المخابز العامة ، والأفران المتفرقة في مختلف المناطق . كما أخذت الحكومة بنظام التقشف في توزيع الجرايات والرواتب بين الأمراء وأصحاب الرتب السلطانية والأميرية والديوانية بحيث قلت كمية الجراية المعتادة ، وتباعدت الفترة بين الواحدة والأخرى ، ضماناً لحسن الصرف بما يتناسب مع الأحوال المعسرة التي كانت تمر بها سلطنة المماليك بشكل عام والمجتمع المصري بشكل خاص .

ولكن يظهر واضحاً أن هذه المحاولات للتخفيف من الأزمة لم تأت بنتيجة ملموسة ، الأمر الذي تطلب من الحكومة القيام بإجراء غير عادي نحو بعض الإداريين وخاصة ممن يتولون جمع الضرائب من الأقاليم والمدن والقرى فعملت على مصادرة أموالهم ، واستخدامها في سبيل التخفيف عمن ضاقت بهم الأحوال . ولا يغيب عن ذهن الدارس أن هؤلاء الإداريين والمباشرين كانوا يأخذون من جباية المال ، وجمع الضرائب عنوة الشيء الكثير ، ويدخلونه إلى خزائنهم الخاصة .

بالإضافة إلى ذلك بدأت الحكومة تعمل وفق نظام الإشراف المباشر في توزيع البضائع على التجار بأثمان غالية ، وذلك لكي تسنح لها فرصة جمع مبالغ مالية مناسبة تستغل في الصرف الملائم للتغلب على الأزمة . وقد يخيل للدارس أن بيع هذه البضائع بأثمان مرتفعة سيزيد الوضع سوءاً ، وسيعرضها التجار بأضعاف أثمانها الكبيرة فتصبح فرصة الحصول عليها ، أو شراؤها مستحيلة ، إلاّ أنه لا يمكن بأي حال من الأحوال تخيل حدوث ذلك بسبب حالة العسر التي كانت عليها الطبقات الفقيرة حيث بات التفكير في شراء مثل هذه البضائع غير وارد ، واقتصر الشراء على الأثرياء الذين كانت لديهم القدرة على شراء هذه البضائع الغالية ، فإن تم ذلك توفر في الخزائن السلطانية مال

---

(٢٢) اغاثة ، ص ٣٣ ، أنظر كذلك ص ٣٨ .

كثير يمكن الإفادة منه في شراء المواد الغذائية من البلاد المجاورة ، أو حتى ممن يخزنها في بيوته وأجرانه من الأمراء المماليك .

وقد استفاد من هذا الغلاء في أسعار جميع أنواع الأغذية فئة من التجار الذين كانوا يخزنون البضائع المختلفة من حبوب وبقول ، فلما حلت الأزمة كان في ذلك لهم مناسبة طيبة لبيعها بأسعار باهظة ، فجنوا من وراء ذلك الأرباح الطائلة ، وبلغوا مقداراً كبيراً من الثراء السريع خلال فترة وجيزة[٢٣]. وهذا يدل على عدم وجود الإحساس بالمسئولية عند البعض ، حيث وجدوا في معاناة الخلق فائدة لهم ، وكان يجدر بهم الإسهام في التخفيف من آثار الأزمة ببيع ما يملكون من مواد غذائية بأسعار مناسبة أملاً في مساعدة المحتاج ، ورغبة في الأجر والثواب ، ولكن يبدو أن الأطماع المادية فاقت في استحواذها على نفوس البعض تلك القناعات الروحية التي يسمو بها الأخيار .

ثم بلغ الوضع من السوء أن قام بعض المسئولين بأعمال تضمنت كثيراً من أوجه الظلم في سبيل التخفيف عن أنفسهم من آثار الأزمة ، من ذلك مثلاً أن الوزير الصاحب فخر الدين بن الخليلي استولى على قدر كبير من الأموال الموروثة التي كانت تتحصل « لديوان المواريث الحشرية » لصرفها على مايريده من الأطعمة اللذيذة في غذائه وعشائه ، فكان يحرم الورثة من حقهم في ميراث أهلهم حيث يتحول كل ما يحق للوارث إلى « ديوان المواريث الحشرية » ، ومن هناك إلى بيت الوزير . في حين يضيع الورثة الكثير من الجهد والوقت في سبيل إثبات حقهم في إرثهم فلا ينالهم بعد العناء الطويل والمشقة سوى الفشل في إثبات حقهم وتحصيل ميراثهم[٢٤].

وعلى ذلك يمكن أن نستخلص من هذه الأقوال على لسان مؤرخي العصر المملوكي أن الأقاليم المملوكية في أواخر القرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي قد بليت بجفاف وقحط نتج عنه تلف كبير في المزروعات والمحاصيل الغذائية[٢٥]. وقد زاد الوضع سوءاً انتشار المرض والوباء بين الناس ، وبصفة خاصة بين الفقراء والعامة[٢٦]، فتفشى الموت بين الخلق إما بسبب الجوع أو المرض ،

---

(٢٣) اغاثة ، ص ٣٦ – ٣٧ .

(٢٤) اغاثة ، ص ٣٧ – ٣٨ .

(٢٥) Dols, Plague in Early Islamic History, Journal of the American Oriental Society, Vol. 94.3 (1974) p.374

(٢٦) Ayalon, op.cit. p. 69.

وبلغ درجة كبيرة حتى كان يموت في القاهرة والفسطاط « كل يوم ألوف ، ويبقى الميت مطروحاً في الأزقة والشوارع ، ملقى في الممرات والقوارع اليوم واليومين لا يوجد من يدفنه لاشتغال الأصحاء بأمواتهم والسقاء بأمراضهم »[٢٧]. الأمر الذي جعل كتبغا يحرص على توزيع الفقراء بين الأغنياء ليكونوا في رعايتهم ويمكن تأمين الغذاء لهم .

وزاد من تفاقم الأزمة انتشار الأمراض في القاهرة والفسطاط إلى جانب معظم المناطق الريفية والقرى النائية ، فكثر الطلب على الأدوية الأمر الذي أدى إلى ارتفاع أسعارها « فباع عطار برأس حارة الديلم[٢٨] من القاهرة في شهر واحد بمبلغ اثنين وثلاثين ألف درهم ، وبيع من دكان يعرف بالشريف عطوف من سوق السيوفيين[٢٩] بمثل ذلك ، وكذلك حانوت بالوزيرية[٣٠]، وآخر خارج باب زويلة[٣١] – بيع في كل واحد منها بنحو من مثل ذلك »[٣٢] . إذن كان هناك إقبال هائل على طلب الدواء بسبب تفشي الأمراض بين الناس ، فاستفاد من ذلك العطارون حيث تمادوا في رفع سعر الأدوية ، وكسبوا من وراء ذلك الأرباح الطائلة . وهنا يظهر واضحاً عدم وجود الرقابة الحكومية في الإشراف الدقيق على عملية بيع الأدوية وفق أسعار معقولة يقدر الناس على دفعها خاصة أن الوضع المادي كان متدهوراً . لقد كانت تلك الأزمة الصحية فرصة طيبة لأصحاب دكاكين العطارة للثراء السريع على حساب المريض والمحتاج .

ولم يقتصر ذلك على العطارين بل شمل الطلب الأطباء « وبذلت لهم الأموال ، وكثر تحصيلهم ، فكان كسب الواحد منهم في اليوم مائة درهم »[٣٣]. مما يدل على معاناة الناس من الأمراض المختلفة وبذل الغالي والنفيس في سبيل الاستشفاء والراحة .

---

(٢٧) السلوك ، جـ ١ ص ٨٠٩ .

(٢٨) أنظر الخطط ، جـ ٢ ، ص ٨ – ١٠ .

(٢٩) أنظر الخطط ، جـ ٢ ، ص ٩٧ .

(٣٠) أنظر الخطط ، جـ ٢ ، ص ٥ – ٨ .

(٣١) أنظر الخطط ، جـ ٢ ، ص ٣٨٠ – ٣٨١ .

(٣٢) اغاثة ، ص ٣٥ .

(٣٣) اغاثة ، ص ٣٥ .

وتطورت الأمور من سيء إلى أسوأ حيث ارتفع سعر القمح حتى بيع كل إردب بمائة وعشرين درهماً بعد أن كان بخمسة وعشرين درهماً[٣٤]، ثم تزايد السعر إلى مائة وستين درهماً للإردب الواحد[٣٥].

كما فشى الموت في القاهرة بسبب الوباء فأحصى من مات بها ، وثبت اسمه في « ديوان المواريث الحشرية » في ذي الحجة سنة ٦٩٤هـ / تشرين الأول – أكتوبر سنة ١٢٩٤م ، فبلغوا سبعة عشر ألفاً وخمسمائة[٣٦].

كذلك عم الغلاء والقحط ممالك المشرق والمغرب والحجاز وبرقة حتى بلغ سعر إردب القمح بمصر مائة وخمسين درهماً فضة .

ولا نملك هنا إلاّ أن نلخص الوضع الإقتصادي في سلطنة المماليك وبالذات في عهد السلطان العادل كتبغا المنصوري على النحو التالي : أولاً : ارتفاع كبير في اسعار المواد الغذائية الأساسية مثل القمح والخبز واللحوم بأنواعها ، ثانياً : ندرة المواد الغذائية المعروضة في الأسواق والدكاكين العامة وصعوبة الحصول عليها ، ثالثاً : خلو المخازن السلطانية من الغلال أو المخزون الاحتياطي من الغذاء للاستعاضة به وقت الأزمات الاقتصادية ، رابعاً : إنتشار الوباء في جميع الأقاليم المملوكية مصر ، والشام ، والحجاز ، وتلا ذلك انتشار الطاعون بشكل واسع ، وعلى نطاق كبير ، بين جميع الطبقات وخاصة الفقيرة . وإذا ماتجاوزنا عن لوم السلاطين المماليك نتيجة لما حدث من جفاف في الأراضي الزراعية ، وندرة في هطول الأمطار ، وقصر مد النيل ، وعدم حدوث الفيضان المنتظر ، فلا نستطيع أن نتجاوز عن اتهامهم بالتقصير في عدم توفير الغذاء المخزون ، أو الاحتياطي من المحاصيل الزراعية للاستفادة منه في وقت الحاجة بحيث يتم توزيع الغذاء المخزون وفق نظام يقوم على التوزيع العادل للغذاء بين المحتاجين تدريجياً حتى تنتهي الأزمة ، لا كما حدث حين قام سلطان بعينه بتوزيع ما في الأهراء السلطانية من مخزون بين الأمراء[٣٧]، فلما وقعت الأزمة كانت تلك المخازن خاوية ، وهذا مالا يغفره التاريخ لأولئك السلاطين .

---

(٣٤) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ .
(٣٥) النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ ، قارن ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .
(٣٦) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ .
(٣٧) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٠٨ .

كذلك لا يمكننا أن نغفل التقصير الواضح في بناء السدود وبحيرات الماء العذب من ماء النيل للاستفادة منه في حالة عدم حدوث الفيضان . ويظهر واضحاً في الحقبة التالية إدراك السلاطين المماليك لأهمية هذه الانجازات حيث شهد عصر الناصر محمد بن قلاون بناء العديد من السدود وبحيرات الماء العذب مثل الخليج الكبير أو الخليج الناصري بين بولاق والقاهرة[٣٨].

وعلى أية حال فلم تنته الأزمة مع نهاية عام ٦٩٤هـ / ١٢٩٤م بل اشتد الغلاء[٣٩] والمجاعة والطاعون حتى بات من المستحيل الحصول على القمح ، والفول ، والترمس وغير ذلك من الغذاء ، كما اختفى اللحم بأنواعه ، وندرت الفواكه[٤٠] ، وهلك الحيوان إلى جانب الإنسان نتيجة عدم توفر الغذاء وارتفاع الأسعار ، « ثم تفاقم الأمر ، فأكل الناس الميتة من الكلاب ، والمواشي وبني آدم ، وأكل النساء أولادهن الموتى »[٤١]. وبذلك يكون الطاعون قد قضى على أعداد كبيرة من الكثافة السكانية في السلطنة المملوكية[٤٢].

ويبدو أن من المحاولات التي اجتهد المشرفون الحكوميون في إنجازها جلب الغلال من الأقاليم المملوكية التي كانت في مأمن من المجاعة والوباء حيث بات الناس يمنون أنفسهم بمجيء المحاصيل الجديدة ، إلا أن هذه المحاولة فشلت والأماني تبخرت بوصول الأنباء بفساد الزرع في مناطق برقة ، وإقليم البحيرة الغربية ، وإقليم الشرقية ، والصعيد الأعلى[٤٣]. الأمر الذي يقطع بوقوع الأزمة في مختلف الأقاليم المصرية[٤٤] بسبب تلف المزروعات نتيجة هبوب رياح سوداء حملت معها تراباً أصفر[٤٥]، ففسدت جميع المحاصيل . إذن كانت العوامل المناخية أسباباً رئيسية لما وقع في مصر من أزمة اقتصادية . كما كانت هذه التغيرات المناخية سبباً في انتشار الأمراض والحميات بأنواعها بين الناس[٤٦].

---

(٣٨) السلوك ، جـ ٢ ، ص ٤٥٠ – ٤٥١ ، النجوم ، جـ ٩ ، ص ١٢٤ – ١٢٨ .

(٣٩) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ ، اغاثة ، ص ٣٣ .

(٤٠) جواهر ، ورقة ٥٩ أ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٨ .

(٤١) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٤ ، قارن ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(٤٢) Ayalon, op.cit. p. 68.

(٤٣) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ ، اغاثة ، ص ٣٣ – ٣٤ .

(٤٤) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(٤٥) اغاثة ، ص ٣٣ .

(٤٦) اغاثة ، ص ٣٤ .

وقد ترتب على تلف المحاصيل الزراعية قلة المعروض في الأسواق من الأرز ، والسمسم ، والقلقاس ، وقصب السكر ، فارتفعت الأسعار ، وصعب الشراء ، واتسعت المجاعة(٤٧). كما ارتفعت أسعار جميع أنواع الحبوب والخضروات والفواكه والطيور والحيوانات(٤٨).

إلى جانب ذلك أصبح هناك قلة في أنواع المطروح من المحاصيل في الأسواق ، فندر السكر والعسل ، واختفت الفواكه من الدكاكين ، وارتفع سعر البيض والدجاج واللحوم بأنواعها ، وحدث الشيء ذاته مع الفول والعدس والشعير والقمح(٤٩). مما يظهر أن الندرة في المعروض من المواد الغذائية شمل العناصر الأساسية والثانوية ، حيث عم الضرر الفقير والغنى المقتدر على دفع المبالغ الكبيرة في سبيل الحصول على مختلف الأنواع الغذائية فكان في ذلك نهاية لمظهر الرفاهية في غذاء الأمراء المماليك ، والأغنياء ، والأعيان .

كما جاءت الأنباء إلى مصر بأن الحوادث ذاتها قد وقعت في القدس ، وحلب ، والكرك ، والشوبك ، وبلاد الساحل الشامي ، وكذلك في مكة ، وقرى الحجاز ، وبلاد اليمن(٥٠). فقد أكدت الأخبار الارتفاع الهائل في الأسعار حيث عم القحط الأراضي الزراعية ، وفسدت الغلال ، وتلفت المحاصيل(٥١) لدرجة أن كمية ما كان يرصد من الغلة للحملات الحربية المفاجئة قد استهلك بتوزيعه بين سكان هذه المناطق بسبب معاناتها من الجوع والمرض(٥٢). ويذكر المقريزي أن كمية تلك الغلة المحفوظة كانت تزيد « عن عشرين ألف غرارة »(٥٣). الأمر الذي يوضح أن الوضع حينذاك كان قاسياً وصعباً لدرجة التضحية بما كان يحفظ من الغلة لحالات الحرب الطارئة حيث كانت السلطنة المملوكية في حالة طوارىء تشابه ، بل تفوق ، في ضراوتها حالة الحرب أو الغزو المباغت . ومن النتائج التي ترتبت على ذلك ظاهرة الهجرة التي عمت سائر الناس في مختلف الأقاليم المملوكية شرقاً وغرباً(٥٤) طلباً للغذاء والأمان والسلامة .

---

(٤٧) اغاثة ، ص ٣٤ .

(٤٨) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٨ .

(٤٩) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٨ ، اغاثة ، ص ٣٤ .

(٥٠) اغاثة ، ص ٣٤ – ٣٥ ، ٣٨ .

(٥١) ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٩ .

(٥٢) اغاثة ، ص ٣٤ .

(٥٣) اغاثة ، ص ٣٤ .

(٥٤) اغاثة ، ص ٣٤ .

وأصبحت مصر مقصد عدد كبير من المهاجرين من مختلف البقاع المملوكية والأقاليم الشرقية ، إذ كان الناس يعتقدون بأن مصر بما اتصفت به من خيرات . وما عرف عنها من النشاط التجاري المزدهر بمنجاة من تلك الكوارث ، فبدأ الزحف السكاني نحوها غير أنّ حقيقة الحال تؤكد أن مصر أيضاً كانت تقاسي أزمة اقتصادية عصيبة(٥٥).

وقد كان من الطبيعي نتيجة عجز الناس عن الحصول على قوتهم اليومي ، إلى جانب اكتظاظ القاهرة بالناس المهاجرين من مختلف المناطق ، مع شدة الجوع ، وارتفاع الأسعار ، وندرة الغذاء أن عمت البلاد ظاهرة الفوضى والنهب فبات الناس يتجمهرون عند المخابز والأفران ، فينهب العجين وهو محمول إلى الفرن قبل أن يتم خبزه مما استدعى إعلان حالة الحراسة المشددة ترافق العجين إلى الفرن ، ثم تحمي الخبز حتى يتم توزيعه على المخابز ، بحيث ينال من يحاول الاقتراب من هذا أو ذاك الضرب بالعصى دون رحمة(٥٦). كل ذلك في سبيل تأمين نظام يتناسب مع حالة الطوارىء هذه ، فينال كل واحد نصيبه ولو كان قليلاً . ومع ذلك فإن شدة الجوع جعلت البعض لا يبالي بالحرس أو الضرب فيلقي بنفسه على الخبز ليخطف شيئاً فلا ينوبه سوى العقاب الشديد والضرب دون هوادة .

ورغم أن المبالغة تظهر واضحة في سطور هذه الكتابات المملوكية(٥٧)، إلاّ أنها تدل دلالة واضحة على سوء الأحوال الاقتصادية والاجتماعية ، وأن الوضع بلغ على مختلف الأصعدة ، حداً لا يحتمل فكان مقلقاً للسلطان ، مؤلماً للأمراء والمقتدرين ، مميتاً للفقراء والمعسرين .

وهكذا شهدت سنة ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م معاناة اقتصادية مريرة(٥٨) تفاقم فيها الوضع إلى درجة عجز عن احتمالها كثير من الناس(٥٩)، وبات الأمير والغني يخشى نفاذ القوت من بيته فيجد نفسه وأهله في مواجهة أزمة الغلاء ثم الجوع والهلاك(٦٠).

---

(٥٥) اغاثة ، ص ٣٥ .

(٥٦) اغاثة ، ص ٣٥ .

(٥٧) Ayalon, op.cit. p. 69.

(٥٨) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٨ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٣ ، اغاثة ، ص ٣٣ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ .

(٥٩) جواهر ، ورقة ٥٩ أ .

(٦٠) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٣ – ٨١٤ .

وتشهد الحوادث مشاركة السلطان العادل كتبغا المنصوري ، والأمراء المماليك ، ومحتسب القاهرة ، والأعيان في العمل للخلاص من هذه الأزمة المهلكة ، إلاّ أن الوضع بدأ يائساً مع انتشار وباء الطاعون وكثرة الوفيات في المدن والأعمال والقرى[٦١]. وتفشى الموت بشكل واضح في القاهرة وظواهرها حيث كان فناء عظيم ، إذ زاد عدد الخارجين من الأموات ، في اليوم الواحد ، من باب واحد من أبواب المدينة ، على سبعمائة نفس ناهيك عن الأبواب الأخرى والظواهر المتعددة[٦٢].

« ثم أعيا الناس كثرة الموت ، فبلغت عدة من يرد إسمه الديوان السلطاني في اليوم ماينيف عن ثلاثة آلاف نفس ، وأما الطرحاء فلم يحصر عددهم بحيث ضاقت الأرض بهم ، وحفرت لهم الآبار والحفائر وألقوا فيها ، وجافت الطرق والنواحي والأسواق من الموتى »[٦٣].

وربما يكون في هذه التعبيرات شيء من المبالغة في وصف ما حدث ، إلاّ أن هذه المبالغة تصور مدى ما كان الناس يشعرون به من القسوة والأسى نحو تلك الأزمة بحيث بات الوضع يفوق قدرتهم على احتمال الألم والحزن . ويضيف المقريزي أنه نتيجة انتشار الوباء خلت الضياع من أهلها ، وتناقصت أعداد سكان القرى المختلفة[٦٤].

وهكذا مر عام كامل والأزمة قائمة بل في تزايد مما أدى إلى تدهور واضح في اقتصاد الدولة ، نتج عنه تضخم مالي شديد حيث « كثرت الفلوس ، فعملت كل أوقية بسدس درهم »[٦٥]. الأمر الذي يظهر قلة القيمة الشرائية للدرهم حيث كانت تلك السيولة النقدية لا تغطي أية قيمة شرائية تذكر . ولكن الوضع تحسن قليلاً حينما استقر « الرطل منها بدرهمين ، وزنة الفلس درهم ، هذا أول ماعرف من وزن الفلوس »[٦٦]. ولا شك أن هذا يدل على قلة الاحتياطي أو المحفوظ في الخزائن السلطانية أو بيت المال من الذهب والفضة ، فبلي المجتمع المصري بندرة الغذاء ، وغلاء الأسعار ، إلى جانب المرض والطاعون ، إضافة إلى خزائن خاوية من الاحتياط المعدني الثمين الذي

---

(٦١) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٠ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٤ – ٨١٥ .

(٦٢) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٠٩ .

(٦٣) اغاثة ، ص ٣٥ – ٣٦ ، أنظر كذلك النجوم ، جـ ٨ ، ص ٥٧ .

(٦٤) اغاثة ، ص ٣٦ .

(٦٥) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٠ .

(٦٦) اغاثة ، ص ٣٧ .

ربما يعين على انفراج الأزمة . إلاّ أن الحكومة نجحت في أن يستقر سعر الرطل من الفلوس درهمين رغبة في تحقيق شيء من الاستقرار الاقتصادي في المجتمع(٦٧).

كذلك وصلت الأخبار من بلاد الشام بتزايد الأسعار ، وجفاف المياه ، وندرة الأمطار(٦٨)، وحدث الشيء ذاته في الحجاز(٦٩). وأصبح الوضع عصيباً ومحيراً فكان المتنفس الروحي لعامة الناس هو الدعاء ، وإقامة الصلاة متوجة بالدعوات لنزول الغيث حيث ظهر العجز واضحاً في إمكانية قيام الحكومة بأية خطوة أو إجراء تجاه حل الأزمة(٧٠).

وعلى ذلك كان الطابع العام للأحوال الاقتصادية والاجتماعية في هذه الفترة ارتفاع هائل في الأسعار مع انتشار المجاعة ، ثم الوباء والطاعون الذي بليت به سلطنة المماليك في عهد العادل كتبغا حيث جاع الفقراء حتى الموت ، وعانى المريض حتى الفناء الأمر الذي جعل من هذا الوضع محوراً رئيسياً يميز أوضاع هذه الحقبة من تاريخ سلطنة المماليك(٧١).

وانتهى عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م دون أن يحدث أي تغيير على الوضع الاقتصادي أو الاجتماعي ، أما من الناحية السياسية فقد تم عزل السلطان العادل كتبغا المنصوري على يد نائبه حسام الدين لاجين المنصوري(٧٢) الذي أصبح السلطان الجديد لدولة المماليك .

ولعله من المصادفات الغريبة أن انخفضت الأسعار مع تولي السلطان الجديد حسام الدين لاجين المنصوري زمام الحكم إلى نصف السعر الذي كانت عليه ، فسر الناس بذلك(٧٣)، فقد كان

(٦٧) Ayalon, The system of payment in Mamluk Military Society, J.E.S.H.O. (1958) p. 49.

(٦٨) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢١١ ، جواهر ، ورقة ٥٩ أ ، اغاثة ، ص ٣٨ .

(٦٩) ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢١١ - ٢١٢ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٥ .

(٧٠) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٥ .

(٧١) نزهة ، ورقة ٢٥ ب ، ٢٧ أ ، مالك ، ورقة ٤٢ أ ، مصر ، ورقة ٣٨ أ ، مرآة ، جـ ٤ ، ص ٢٢٧-٢٢٨ ، درة ، ورقة ٧١ أ ، ٧٣ أ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ١٩٣ ، السلوك ، جـ ١ ، ص ٨١٠ ، الدرر ، جـ ٣ ، ص ٣٤٨ ، النجوم ، جـ ٨ ، ص ٦٨ .

(٧٢) أنظر ترجمته : ذيل ، ورقة ٤٣ ب - ٤٤ أ ، خبر ، جـ ٥ ، ص ٣٨٦-٣٨٧ ، ٣٨٩-٣٩٠ ، ملوك ، جـ ٨ ، ص ٢٢٢-٢٢٣ ، العبر ، جـ ٥ ، القسم ٥ ، ص ٨٧٩-٨٨٢ ، ٨٨٣-٨٨٤ ، ٨٨٥ ، تشريف ، ص ٦٠ ، ٧١-٧٢ ، السلوك ، جـ ١ ، ٨٢٠-٨٢٨ ، ٨٢٩-٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣-٨٣٧ ، ٨٤٨-٨٤٩ ، ٨٥٢ ، ٨٥٦-٨٥٧ ، ٨٥٩-٨٦٥ ، النجوم ، ٨ ، ص ١٢ ، ١٧ ، ٨٥ ، ٩٢-٩٩ ، ١٠١-١٠٩-٢٢٤ .

(٧٣) جواهر ، ورقة ٥٩ أ ، تركية ، ورقة ٢٠ أ ، اغاثة ، ص ٣٩ .

إردب القمح بأربعين درهماً فانحط سعره إلى عشرين درهماً ، وبلغ سعر إردب الشعير عشرة دراهم بدلاً من ثلاثين[٧٤].

من هذه الدراسة يمكننا أن نوضح النتائج التالية :

(١) بليت سلطنة المماليك طوال سنتين ٦٩٤ - ٦٩٥هـ / ١٢٩٤ - ١٢٩٥م بغلاء فاحش في أسعار المواد الغذائية ، فانتشرت المجاعة بشكل واسع ، ثم استفحل الوباء بين الناس حتى ابتلوا أخيراً بالطاعون . وقد كان عدم فيضان النيل عاملاً أساسياً في وقوع هذه المحنة الشاملة في مصر .

(٢) تعتبر العوامل الاقتصادية هي الأسباب الرئيسية لحدوث هذه الأزمة التي عانى منها جميع سكان سلطنة المماليك وبخاصة الشعب المصري .

(٣) عمت المجاعة ثم الوباء معظم أقاليم سلطنة المماليك مثل بلاد الشام ، الحجاز ، اليمن وبرقة .

(٤) شمل الغلاء جميع المواد الغذائية الأساسية والثانوية إلى جانب السلع الأخرى نتيجة قلة العرض في الأسواق العامة والدكاكين .

(٥) كان حدوث هذه الأزمة مع تولي السلطان العادل كتبغا المنصوري كرسي الحكم فاعتبره الناس نذير شؤم وقدوم شر .

(٦) كشفت الحوادث عن مظاهر الترف التي حظى بها الأمراء المماليك دون الشعب المصري حيث نجد السلطان المملوكي لا يتردد في توزيع المحفوظ من المحاصيل في الأجران بين الأمراء المماليك دون خشية حدوث أزمات مفاجئة تجعل الحاجة لهذه المحاصيل ملحة وضرورية .

(٧) ظهر تأثير هذه الأزمات الاقتصادية الاجتماعية بشكل واضح وخاص على الطبقات الفقيرة وعامة الناس والأطفال والغرباء وعابري السبيل .

(٨) حصول كبار الإداريين من الموظفين الرسميين في الدولة على مبالغ مالية طائلة ظلماً وبهتاناً ، من ذلك مثلاً استيلاء الوزير على أموال الورثة الذين يعجزون نتيجة العقبات الإدارية عن إثبات حقهم في إرثهم من خلال المعاملات التي لابد أن تتم في « ديوان المواريث الحشرية » .

(٩) كان هناك تسجيل احصائي للوفيات في سلطنة المماليك في « ديوان المواريث الحشرية » ، ويظهر قيام هذا الجهاز الإداري بعمله واضحاً عند بدء الأزمة ، إلاّ أن عملية التسجيل باتت مستحيلة مع تكاثر الوفيات نتيجة انتشار الطاعون .

---

(٧٤) السلوك ، جـ ١ ، ص ٨٢٣ .

(١٠) روايات المؤرخين المماليك لحوادث الغلاء والوباء والطاعون تحمل بين سطورها الكثير من المبالغة سواء في وصف الأزمة وتأثيرها ، أو في أعداد الوفيات ، إلاّ أنه لا يفوت الدارس أن هذه الأرقام ليست دقيقة تماماً ، وإنما تعبر عن تأثر المعاصرين لما حدث من نكبات متتالية بليت بها الطبقات السفلي بشكل خاص .

(١١) إزاء هذه الأزمة كان لابد من حل عاجل يخفف من آثارها عند الناس فقام السلطان المملوكي بتوزيع الفقراء بين الأمراء المماليك الأغنياء كي يقوموا بمسئولية العناية بهم حتى ينفرج الحال .

(١٢) كان للأمراء المماليك دور كبير في رعاية المحتاجين والمعسرين ضمن مشاركة جماعية موحدة لمواجهة نتائج هذه الكارثة الاقتصادية الوخيمة .

(١٣) لعب رجال الدين دوراً كبيراً في تحقيق الاطمئنان النفسي عند المتضررين حيث كانت الصلوات الجماعية سبيلاً لرفع الروح المعنوية عند المؤمن الذي لابد أن يرى في تلك المحنة امتحاناً للصبر والإيمان .

(١٤) كان هناك من الأمراء والأغنياء من تبرع بكل ما يملك من محاصيل زراعية للتخفيف عن الناس من آثار المجاعة .

(١٥) وضع السلطان خطة منظمة ومحكمة في توزيع ما تم جمعه من بقايا المحاصيل الزراعية في المخازن السلطانية حيث اتخذت الاحتياطات اللازمة لتوزيعه بين الأفران والمخابز والدكاكين بشكل منظم وتدريجي لتمكين كل محتاج من الحصول على جزء مما يلزمه من قوت ضروري .

(١٦) لم تتردد السلطة العليا مطلقاً في مصادرة أموال أولئك المباشرين وجامعي الضرائب الذين اغتنوا على حساب الشعب الذي يدفع الضرائب مضاعفة للمباشر عنوة وقهراً ولا يملك حق التظلم ، فكان في أموال أولئك مصدراً جديداً للسلطان يحاول به مساعدة الناس في مواجهة هذه الأزمة ونتائجها الفادحة .

(١٧) كذلك يظهر واضحاً تدخل الحكومة المباشر في السيطرة المطلقة على كل مايرد إلى السلطنة من بضائع ، أي بعبارة أخرى التضييق على عملية الحرية التجارية في الحصول على البضائع ، ثم تقوم الحكومة بعد ذلك بتفريقها بين التجار بأسعار مضاعفة عن التي اعتادوها من أجل الحصول على السيولة النقدية لشراء المحاصيل الغذائية من البلاد المجاورة ، ثم توزيعها على الفقراء والمعسرين حتى تنتهي المجاعة .

(١٨) هناك فئات من الناس استفادت من هذه النكبة مثل الأطباء والعطارين حيث كان المصاب يضاعف الأجر للطبيب في سبيل العلاج ، ويدفع السعر المضاعف للحصول على الدواء ، فظهر في المجتمع طبقة غنية جديدة لم تكن موجودة من قبل . وهذا الوضع يعكس موقفاً سلبياً من الحكومة في عدم مواجهة هذه الظواهر الانتهازية ومحاولة القضاء عليها .

(١٩) في الفترة الأخيرة من المحنة انتشر الطاعون بشكل كبير بين مختلف الطبقات الاجتماعية ، الأمر الذي أنهك عملية التكافل الطبقي والمساعدات المتنوعة من مختلف الناس في مواجهة الحالة العصيبة التي نكب بها المجتمع المملوكي على جميع المستويات ، إذ بليت البيوت الغنية والفقيرة على حد سواء بهذا الوباء الأسود .

(٢٠) بدا تقصير الحكومة المملوكية واضحاً في بناء السدود وبحيرات الماء العذب لمواجهة الجفاف حيث ظهر تقصير الحكومة للجميع إذ كان القحط أحد الأسباب التي أدت إلى هذه المحنة .

(٢١) كان عام ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م أشد قسوة في جميع مظاهر الضرر النفسي والمعنوي والمادي حيث خلت الدكاكين من مختلف البضائع ، وزاد الغلاء ، وندرت المواد الغذائية ، إلى جانب انتشار الوباء الأسود الذي حصد الخلق في جميع الأوساط الاجتماعية دون تفريق .

(٢٢) كانت سلطنة المماليك حريصة على تخزين فائض كبير من المحاصيل الزراعية الغذائية المتنوعة في « الأهراء السلطانية » بحيث تكون بعيدة عن الاستهلاك مهما كانت الأسباب ، بل تحفظ لحالات الحروب المفاجئة فإذا كان هناك غزو مباغت ضد الدولة ، أو حملة عسكرية تقصد الفتح الإسلامي خارج حدود السلطنة تم إخراج هذه الكميات المحفوظة لمثل هذه الحالات العسكرية الاضطرارية . ولكن عندما وقعت هذه المصيبة الاقتصادية التي نتناولها بالدراسة تم إخراج هذه المحاصيل لهدف مساعدة من أصابهم الضرر . وهذا الأمر يبين دون ريب مدى شدة الوضع الاقتصادي وما ترتب على ذلك من نتائج اجتماعية أليمة .

(٢٣) كان الانتقال بين الأقاليم المملوكية المتعددة أمراً عادياً وسهلاً سواء بقصد الحج أو الانتقال الشامل لهدف الاستقرار في مكان آخر ، ولكن حينما وقعت هذه الكارثة بدأت ظاهرة الهجرة الجماعية بين المناطق المختلفة طلباً للرزق ، وكانت مصر منطقة جذب رئيسية لمقوماتها الاقتصادية المعروفة ، ولكنها حينذاك كانت تعاني أيضاً من نتائج المجاعة والطاعون .

(٢٤) تطلبت ضراوة الحالة الاقتصادية وقساوتها توفير وضع سياسي يمكن أن نطلق عليه صفة « الأحكام العرفية » حيث كان لابد من توفير الحراسة العسكرية المشددة عند الأفران

والمخابز والدكاكين والمخازن بأنواعها لحمايتها من أيدي العامة الذين كانوا يعانون الجوع والمرض . فأخذت الحكومة على عاتقها مسئولية الحيلولة دون وقوع الفوضى الاجتماعية التي ربما تقضي على البقية الباقية من استقرار المجتمع آنذاك . إذن فإنه من المؤكد أن هذه المراكز الغذائية كانت هدفاً للنهب والسرقة من عامة الناس بسبب الجوع .

(٢٥) كان لهذا الطاعون تأثير كبير على تناقص الكثافة السكانية في المدن والقرى على حد سواء ، وكان المهاجر الميت البعيد عن أهله يبقى مطروحاً في الطريق حتى يأتي من الأخيار من يعمل على دفنه .

(٢٦) وضحت ظاهرة تناقص احتياطي الدولة من الذهب عندما قلت القيمة الشرائية للدرهم ، حيث ظهر التضخم المالي ، ووقع التلاعب بالفلوس ، فما كان من الحكومة إلاّ التدخل العاجل لتحديد القيمة النقدية للدرهم في محاولة للحيلولة دون تدهور الاقتصاد العام لسلطنة المماليك . لقد كان من الممكن أن يؤدي العجز الواضح في خزانة الدولة إلى ظهور اضطراب جذري في كلا الوضعين السياسي والاقتصادي للسلطنة .

(٢٧) تحملت جميع طوائف المجتمع وقتذاك جانباً من المسئولية في سبيل تخفيف الضرر ، فالسلطان تحمل مسئولية الخطوات التنفيذية التي اعتقد أنها تؤدي لهذا الهدف سواء في توزيع البضائع العينية ، أو في مصادرة الكبار لإعانة الصغار ، أو في توفير الأمن الاجتماعي ، كما كان للأمير أسلوبه في مساعدة المحتاجين إما بالتبرع أو توفير القوت اليومي ، وتحمل الأثرياء الأخيار مهمة إطعام الفقراء ودفن الطرحاء . أما رجال الدين فاجتهدوا في تحقيق طمئنة النفوس وحمايتها من الفزع والهلع نتيجة ما حدث فالتف الناس حولهم في المساجد يقيمون الصلاة طلباً للغيث ، وترتفع أصواتهم بالتهليل والتكبير أملاً في إنفراج الأزمة .

(٢٨) سياسة العزل التي كان يجسر عليها كبار الأمراء المماليك ضد السلطان الضعيف تبدو واضحة ضمن حوادث هذه النكبة بل يبدو أن هذا الوضع كان عاملاً مساعداً في إقدام أمير قوي على عزل سلطان كانت الوقائع المفجعة المتتالية سبباً رئيسياً في تشتيت جهوده في مختلف الجهات .

قائمة الاختصارات العربية
الأرقام هنا تدل على رقم المصدر في قائمة المصادر والمراجع

إغاثة	المقريزي	(٣٠)
تالي	الصقاعي	(٨) ، (٢٥)
تركية	مجهول	(١٠)
تشريف	ابن عبد الظاهر	(٢٦)
جواهر	مجهول	(٩)
خبر	الذهبي	(٢٤)
الخطط	المقريزي	(٣٢)
الدرر	ابن حجر	(٢٠)
درة	ابن حبيب	(٤)
ذيل	اليونيني	(١٤)
السلوك	المقريزي	(٣٣)
صبح	القلقشندي	(٢٨)
العبر	ابن خلدون	(٢٣)
مالك	الصفدي	(٧)
مرآة	اليافعي	(١٣) ، (٣٤)
مصر	مغلطاي	(١٢)
ملوك	ابن الفرات	(٢٧)
النجوم	ابن تغري بردي	(١٩)
نزهة	مجهول	(١١)

المصـــادر والمراجـــع

أولاً : مصـادر مخطوطة :

ابن اياس — محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)

(١) جواهر السلوك في أخبار الخلفاء والملوك
مخطوط كيمبرج Qq. 74
مخطوط دار الكتب ٦٢٠٣ ف ٦٤٨

ابن تغرى بردى — أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤ هـ / ١٤٧٠ م)

(٢) حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور
مخطوط ببرلين 9462

(٣) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي ، ج ٥
مخطوط المكتبة الوطنية بباريس 2072

ابن حبيب — الحسن بن عمر (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)

(٤) درة الأسلاك في دولة الأتراك
مخطوط اكسفورد March 223

(٥) تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه
مخطوط المتحف البريطاني Add. Rich 7335

السيوطي — جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)

(٦) كتاب ماروواه الواعون في أخبار الطاعون
مخطوط كيمبرج Or 172 (8)

الصفـدى — الحسن بن عبد الله (٨هـ / ١٤م)

(٧) نزهة المالك والمملوك
مخطوط المتحف البريطاني Or. 6267

الصقـاعي — فضل الله بن أبي بكر (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م)
(٨) تالي كتاب وفيات الأعيان
مخطوط المكتبة الوطنية بباريس 2061

مجهـول ؟ — (٩) تاريخ جواهر السلوك في سياسة الخلفاء والملوك
مخطوط المتحف البريطاني Or. 6854

مجهـول ؟ — (١٠) تاريخ الدولة التركية (٦٥٠ – ٨٠٥هـ / ١٢٥٢ – ١٤٠٢م)
مخطوط كيمبرج Qq. 147

مجهـول ؟ — (١١) نزهة الإنسان في ذكر الملوك والأعيان
مخطوط المكتبة الوطنية بباريس 1769

مغلطـاى — ابراهيم (عاش في النصف الأول من القرن ٨هـ / ١٤م)
(١٢) تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب
مخطوط برلين 9835

اليـافعي — أبو محمد عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٧م)
(١٣) مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان وتقلب أحوال الإنسان .
مخطوط أكسفورد March 176

اليونيني — موسى بن محمد (ت ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م)
(١٤) ذيل مرآة الزمان
مخطوط مصور الجامعة الجامعة العربية ٢/٢٥٧ تاريخ ، ج ٤

ثانياً : مصـادر مطبوعـة :

ابن اياس — محمد بن أحمد (ت ٩٣٠هـ / ١٥٢٤م)
(١٥) بدائع الزهور في وقائع الدهور
٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٨٩٣ – ١٨٩٦م

ابن تغرى بردى
أبو المحاسن يوسف (ت ٨٧٤هـ / ١٤٧٠م)
(١٦) حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور
جزئين تحقيق ويليام بوبر
لوس انجلوس ، ١٩٣٠ - ١٩٤٢م
(١٧) المنهل الصافي والمستوفي بعد الوافي
الجزء الأول ، القاهرة ، ١٩٥٦م
(١٨) مورد اللطافة في من ولى السلطنة والخلافة .
باشراف ج . د . كارليل
طبعة أوروبا ، ١٧٩٢م
(١٩) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة
١٢ جزء ، القاهرة ، ١٩٢٩ - ١٩٥٦م

ابن حجـر
أحمد علي (ت ٨٥٢هـ / ١٤٤٩م)
(٢٠) الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة
٥ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٦٦م
(٢١) أنباء الغمر في أبناء العمر
جزءان ، حيدر آباد ، ١٩٦٧م
(٢٢) فتح الباري بشرح صحيح البخاري
١٣ جزء ، القاهرة ، ١٣١٩هـ / ١٩٠٩م

ابن خلدون
عبد الرحمن بن محمد (ت ٨١٨هـ / ١٤٠٦م)
(٢٣) كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر
٧ أجزاء ، بيروت ، ١٩٦٥م

الذهـــبي
شمس الدين محمد بن أحمد الشافعي (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٨م)
(٢٤) العبر في خبر من غبر
٥ أجزاء ، الكويت ، ١٩٦٠ - ١٩٦٦م

الصقاعي — فضل الله بن أبي الفخر
(٢٥) تالى كتاب وفيات الأعيان
تحقيق جاكلين سوبله
دمشق ١٩٧٤م

ابن عبد الظاهر — محي الدين أبو الفضل عبد الله (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م)
(٢٦) تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور
تحقيق م . كامل
القاهرة ، ١٩٦١م

ابن الفرات — محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧هـ / ١٤٠٥م)
(٢٧) تاريخ الدول والملوك
ج ٨ ، تحقيق قسطنطين زريق وآخرين .
بيروت ١٩٣٩م .

القلقشندي — أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ / ١٤١٨م)
(٢٨) صبح الأغشى في صناعة الانشا
١٤ جزء القاهرة ١٩١٣ - ١٩٢٢م

المقريزي — أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)
(٢٩) البيان والاعراب عما بأرض مصر من الأعراب
تحقيق م . عابدين
القاهرة ، ١٩٦١م .
(٣٠) إغاثة الأمة بكشف الغمة
حمص ، ١٩٥٦م .
(٣١) الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام
القاهرة ، ١٨٩٥م .

ثالثاً : مراجع أجنبيـــة :

(i) Books

Arberry, A.J.
The Chester Beatty library, A Handlist of the Arabic Manuscripts, 7 vols, Dublin 1955–64.

Ashtor, Eliyaho.
Histoire des prix et des salaires dans L'Orient Medieval, Paris, 1969.

Balog, Paul.
The Coinage of the Mamluk Sultans of Egypt and Syria, New Yourk, 1964.

Cook, M.A.
Studies in the Economic History of the Middle East from the rise of Islam to the present day, London1970.

Al–Hajji, Hayat Nasser
The Internal Affairs in Egypt
Durig the third reign of Sultan Al–Nasir Muhammad B. Qalawun
Kuwait, 1978.

Lapidus, Ira Marvin.
Muslim Cities in the later middle Ages,
Harvard Univ. Press, Cambridge, Massachusetts, 1967.

Poliak, A. N.
Feudalism in Egypt, Syria. Palestine and Lebanon,
London, 1939.

Rabie, Hassanein.
The Financial system of Egypt, A.H. 564–741 A.D 1169–1341, London, 1972.

(ii) Encyclopaedias and articles in periodicals.

The Encyclopaedia of Islam, iv vols. first edition,
Leiden 1913. Second edition, Leiden 1960–in progress.

Ashtor, E.
(1) «Debat sur l'evolution economico-sociale de l'Egypt a la fin du moyen age, a propos d'un livre recent», J.E.S.H.O., xii (1969), pp, 102–109.
(2) «Some unpublished sources for the Bahri Period» Studies in Islamic history and civilization, (Scripta Hierosolymitana, ix), Jerusalem, 1961, pp. 11–30.

Ayalon David.
(1) «The Muslim city and the Mamluk military aristocarcy» Proceeding of the Israel Academy of Sciences and Humanities. ii (1968), pp. 217–259.
(2) «Notes on the Furusiyya exercises and games in the Mamluk Sultanate».
Studies in Islamic history and civilization (Scripta Hierosolymitana, ix) Jerusalem, 1961. pp. 31–62.
(3) «The plague and its effects upon the Mamluk Army» J.R.A.S. 1964. pp. 67–73.
(4) «The system of payment in Mamluk military society», J.E.S.H.O.i (1958), pp. 37–65.
(5) «Studies on the structure of the Mamluk army».
B.S.O.A.S.xv (1953), pp 203–228, 448–476, xvi (1954).
pp. 57–90.
(6) «Studies on the transfer of the Abbasid caliphate from Baghdad to Cairo», Arabica. 7 (1960), pp. 41–59.
(7) «The wafidia in the Mamluk kingdom», Islamic Culture, XXV (1951), pp. 89–104.

Dols, Michael W.
«Plague in early Islamic history». J.A.O.S. xciv (1974) pp. 371–383.

Holt, P.M.
«The Sultanate of al-Mansur Lachin (696–8/1296–9)»,
B.S.O.A.S. xxxvi (1973), pp. 521–532.

Labidus, I.M.
«The grain economy of Mamluk Egypt», J.E.S.H.O. xii (1969). pp. 1–15.

Poliak, A.N.
«Some notes on the feudal system of the Mamluks»,
J.R.A.S. (1937), pp. 97–107.

الخيل في الأدب القديم

الأستاذ الدكتور
إبراهيم السامرائي
أستاذ في قسم اللغة العربية بالجامعة الاردنية

ما أظن أن أمة احتفلت بالخيل على نحو ما احتفل العرب ، لقد كرَّموا الخيل ووصفوا محاسنها وخَلْقها وخُلُقها وبحثوا في أنسابها وأصولها فكان من جملة ذلك أدب أصيل ومعجم حافل بالفوائد والأوابد .

ولم يُصنَّف في الخيل على نحو ما صنف فيها العرب ، لقد أدرك الاوائل عناية العرب بالخيل فكان لهم من ذلك مصنفات كثيرة نعرف غير قليل من المطبوع منها ، وما زال قدر آخر منها مخطوطاً . وقد ورثنا في عصرنا هذا تلك العناية القديمة فانبرى نفر من أهل الفضل في عصرنا في الكتابة في هذا الأدب الأصيل[1] .

لقد صنف في الخيل خَلْقِها وصفاتها وفضائلها وأنسابها جمهرة من علماء الغرب المتقدمين ، وكان منهم ابن الكلبي المتوفي سنة ٢٠٤ هـ ، وأبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢٠٩ هـ ، والأصمعى المتوفى سنة ٢١٥ هـ وابن الأعرابى المتوفى سنة ٢٣١ هـ ، ومحمد بن حبيب المتوفى سنة ٢٤٥ هـ وابو محمد الأعرابى المعروف بالاسود الغندجاني المتوفى سنة ٤٣٠ هـ .

(١) اسماء خيل العرب وأنسابها للأسود الغندجانى ص ١٥ – ٢٠ .

على أن آخرين قد خصوا « الخيل » بشئ من مصنفاتهم ومن هؤلاء : ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ هـ في كتابه « عيون الأخبار » ، وابو على القالى المتوفى سنة ٣٥٦ هـ في كتابه « النوادر » وابن سيده المتوفى سنة ٤٥٨ هـ .

وآخر من عرفت ممن ألّف في الخيل في عصرنا المغفور له الملك عبد الله بن الحسين والسيد قدري الارضر وعلي البغدادي من محبي الخيل في عصرنا أيضاً .

والعناية بالخيل قديمة في أدب العرب فقد احبّوا الخيل وأجلّوها وحبوا أكرم الاسماء والصفات فالخيل « كرائم » والفرس الكريم جواد ، وحسبك ان تعلم ان « الجواد » واحد من الأجواد أي المساميح الكرام . وكما تعلق العرب بأنسابهم معرفتها وضبطها كان لهم دأب في ذلك بأنساب الخيل ، فقد اجتهدوا في معرفتها وحصرها وألفوا في ذلك مصنفاتهم المعروفة المشهورة « أنساب الخيل » كما فعل ابن الكلبي الذي أشرنا اليه .

وآية أنهم عنوا بأنساب الخيل وفضائلها ما نعلم من أسماء خيلهم وجمهرتها اعظام للخيل ومدح « لخَلْقها » وثناء على « صفاتها » ومنها : الأغرّ ، والاسطَع ، والاشقر ، والأدهم ، والأحوَى ، والأبلق ، والأحزم ،.. ومنها ما يشير الى عظم منزلته فراحوا ينسبون اليه كأعوَج الاصغر ، وهو « سيّد الخيل » (كذا) كان لأحد ملوك كندة ، انظر أخباره في « أنساب الخيل » لابن الكلبي ، وكتب الخيل لأبي عبيدة والأصمعي ، وابن الأعرابي وغير هؤلاء واشتهرت هذه الخيل بـ « الأعوَجيّات » .

وأظن ان السادة ملوك الجزيرة وبلاد العرب وأمراءها مازالوا معنيين بالخيل اكراماً لها ، وقد كان الرسول الكريم عليه أفضل الصلاة والسلام قد أكرم الخيل فقال : « الخيل معقود بنواصيها الخير » ، وقال : « اركبوا الخيل فانها ميراث أبيكم اسماعيل (ذكره صاحب « جامع الأصول » ٤٥/٥) .

وقد أشار محقق كتاب « أسماء الخيل وأنسابها » للأسود الغندجاني ، وهو الزميل الدكتور محمد على سلطاني في « مقدمته » الى « مكانة الخيل في العصر الجاهلي » وكيف كان الجاهليون ينظرون اليها .

جاء في « العمدة »[٢] لابن رشيق : ان العرب « لا يهنّئون الا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ فيهم ، أو فرس تنتج » .

وقد سوّى زيد الخيل فرسه « المطّال » بمِكْنَف ابنه ، وفي ذلك يقول :

أقرِّبُ مَربِطَ المطّال إنّي ... أرى حَرْباً تلقح عن حِيال
أُسوِّيه بمِكْنَفَ إذ شَتَونا ... وأوثره على جُلِّ العِيال[٣]

مثل ذلك قول خالد بن جعفر بن كلاب في فرسه حَذفة التي سوَّاها بجاره أو بابنه جزء ، وفي ذلك يقول :

أريغوني إراغتكم فإنّى ... وحَذْفَةَ كالشَّجا تحتَ الوريدِ
أسوّيها بجاريَ أو بجَزءٍ ... وأُلحفُها ردائي في الجليدِ[٤]

وكيف نقول في مالك بن نويرة الذي رضي أن يبيت صغاره خِماصا جياعا لتنعم فرسه بما يكون لها من « الغذاء » كما في قوله :

جزانى دوائي « ذو الخِمار » وصنعتي ... اذا نامَ أطواءً بنيَّ الأصاغِرُ[٥]

و « ذو الخمار » فرس مالك بن نويره .

وأعجب من هذا أن يؤثر العربي القديم فرسه على نفسه ، وفي هذا يقول فضالة بن هند بن شريك الأسدى في فرسه « ناصح » :

---

(٢) العمدة ١/٦٥ .

(٣) حلية الفرسان ص ١٥٩ عن كتاب « أسماء خيل العرب وأنسابها » للغندجاني .

(٤) أنساب الخيل ص ٦٦ .

(٥) أسماء خيل العرب وأنسابها رقم ٢٤٩ .

أنـاصِـحُ شمّـرْ للرهـان فـإنّهـا غَـداةَ حفـاظٍ جمَّعتْهـا الحَـلائبُ
أتـذكر إلبـاسيـكَ في كل شَتْـوةٍ رِدائي وإطعاميكَ والبطنُ ساغِبُ(٦)

وقد ينقطع العجب حين ترى ثعلبة بن أم حَزْنة العبدي يرضى ان يجعل نفسه جُنَّةً فيموت ليبقى عريب وهو فرسه ، حيّاً كما في قوله :

إن عَـريبـاً وإن سـاءني أحَبٌ حبيبٍ وأدنى قـريبِ
سـأجعـل نفسي لـه جُنّـةً بشـاكي السـلاح نَهيبٍ أريبِ(٧)

وقد يكون من المفيد أن نعرض لأحدهم الذي رضي لنفسه الحاجة والفقر فلم يدفعه ذلك الى ان يبيع فرسه ، ولو أدّى الحال الى ان يتخلص من ثقل العيال بتطليق أزواجه ، وهكذا يحكي لنا عيينة بن أوس المالكي حوار « النسوة » فيقول :

تقـول : أنـا الحرى لقيتُ مشقّـةً من الحشّ والإخلافِ فالوجهُ ساهِمُ
فقـالت لهـا الأخرى لأسمعَ قـولهـا هو اليوم إن بـاع « النّعـامَـة » نـاعِمُ
ومـا النـاعمُ المغبـوطُ الا الـذي لـه غِنىً وهـو مكفيٌّ المـؤونـةِ طـاعمُ
وقـالت : سيُعطَى بـالفَلُوَّةِ أربعـاً وبـالمُهْرة الأخرى ثَمـانٍ جـوازم

وكأن عُيَيْنة يستمع الى حِوارهنّ فيخرج اليهنّ وكأنه يَرُدُّ عليهنّ فيقول :

ولستُ بشـاريهنّ مـالم تُطَلّقي ولـو لُمتِنى أو لامَني لـكِ لائمُ(٨)

ونأتي الى عصرنا هذا بخيره وشرّه فنجد أهل هذا العصر في الغرب قد ابتدعوا ضربا من اللعب الحرام وهو السباق بالخيل والمراهنة على السابق واللاحق والذي يليه فكان « ميسر » جديد ،

(٦) أنساب الخيل ص ٣٩ - ٤٠ .
(٧) أسماء خيل العرب وأنسابها رقم ١١ .
(٨) أسماء خيل العرب وأنسابها رقم ٧٤٠ .

وتجارة حرام . وقد قلد المشارقة الغربيين في هذا العبث المحرم ، ولم تنج ديار الاسلام من هذه الممارسة الملعونة المقيتة واذا كان أهل هذا العصر قد عنوا بالخيل ، فانما يكون ذلك لعنايتهم بهذه الممارسة المحرمة سعيا وراء الربح الحرام لا اكراما للخيل وتكريما على نحو ما عرفنا في « الأثر » .

وقد يقال إن الجاهليين قد مارسوا هذا الضرب من « السباق » والجواب عن هذا ان « الاسلام » قد أبطل ان يتخذ من خلق الله من الحيوان وسائل تقودهم الى الشر فقد قرأنا في الحديث الشريف أنه - ﷺ - قال :

الخيل ثلاثة : فرس للرحمن ، وفرس للانسان ، وفرس للشيطان ، فأما فرس الرحمن فما اتّخذ في سبيل الله تعالى ، وقوتل عليه أعداؤه ، وفرس الانسان ما استطرق عليه ، وفرس الشيطان ما روهِنَ عليه(٩) .

وقال - عليه الصلاة والسلام - في هذه الخيل المباركة : الخيل معقود بنواصيها الخير الى يوم القيامة ، الأجر والغيمة(١٠) .

وليس أدل على فضل هذه الخيل التي وصفت بـ « خيل الرحمن » من قوله - ﷺ - :

من احتبس فرساً في سبيل الله تعالى ، ايمانا واحتسابا وتصديقا بوعده ، فان شِبعَه ورِيَّه ورَوثه وبوله في ميزانه يوم القيامة(١١) .

قلت : قد أبطل الاسلام ان يتخذ العرب خيولهم في السبق ، وأنه استنكر هذه الرياضة غير المباركة ، وما كانت لتبلغ من النكر والفساد ما بلغته « رياضة » السباق في عصرنا ، فكيف نقول اليوم وقد صارت هذه « الممارسة » مصدر إفقار لأسر كثيرة استهوى الشيطان رجالها فخسروا الدنيا والآخرة .

ومن أدب هذه الممارسة الجاهلية أننا نقف في الأدب القديم على :

السابق وهو الذي يجيئ أوّلَ في السبق ، والمُصلّي هو الثاني ، وقيل له : مُصَلٍّ لأنه يكون عند

(٩) الترغيب والترهيب ٢/٢٦١ .

(١٠) مجمع الزوائد للهيثمي ٥/٢٥٨ .

(١١) رياض الصالحين ص ٥١٠ .

صَلا الأول ، وصَلاه جانبا ذَنَبه عن يمينه وشماله ، قال أبو عبيد : ولم أسمع في سوابق الخيل ممن يوثق بعلمه اسما لشئ منها الا الثاني ، والسُّكَيْت ، وما سوى ذلك انما يقال : الثالث والرابع وكذلك الى التاسع .

وقال غيره :

المصّلي في كلام العرب السابق المتقدم ، قال وهو مشّبه بالمصلّي من الخيل ، وهو السابق الثاني ، قال : ويقال للسابق الاول من الخيل المُجَلّي ، وللثانى المصلّي ،وللثالث المُسلّي ، وللرابع التالى ، وللخامس المرتاح ، وللسادس العاطف ، وللسابع الحظي ، وللثامن المؤمَّل ، وللتاسع اللطيم ، وللعاشر السُّكَيْت ، وهو آخر السُبَّق[١٢] .

ومن المفيد أن أنوه بما كان لهم من « انسانية » الخيل ، وذلك أنهم احتفظوا للفرس بكنى عدة هى من كَنَى العاقل فقالوا فيه : أبو شجاع ، وأبو مدرك ، وأبو مضي ، وأبو المضار ، وأبو المنجي .

وقد تقف على شيء من عنايتهم بالخيل يتبين في درسه ومعرفته وضبط أحواله وما يعرض له فقالوا :

ومن الخيل مالا يبول ولا يروث مادام راكبه عليه[١٣] . ومنها ما يعرف صاحبه ولا يُمكِّن غيره من الركوب عليه .

وفرقوا بين البرذَون (وهو الهجين من الخيل) والخيل فقالوا :

الخيل نوعان : هجين وعتيق ، والفرق بينهما ان عَظْم البرذون أعظم من عظم الفرس ، وعظام الفرس أصلب وأثقل من عظم البرذون ، والبرذون أحمل من الفرس ، والفرس أسرع من البرذون ، والعتيق بمنزلة الغزال ، والبرذون بمنزلة الشاة[١٤] .

وحسبك ان تعرف ان « العتيق » في العربية هو الكريم من كل شئ والخيار من كل شئ .

---

(١٢) لسان العرب (صلو) .

(١٣) حياة الحيوان للدميرى ٢٠٩/٢ .

(١٤) حياة الحيوان ٢١٠/٢ .

وقال الزمخشري في « الكشاف » في تفسير قوله تعالى :

﴿ **وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل** ﴾ ٦٠ سورة الأنفال . . .

وفي الحديث « ان الشيطان لا يضرب صاحب فرس عتيق ولا دارا فيها فرس عتيق »(١٥) .

ولابد لنا أن نمر على مافي كتاب الاسود الغندجانى الدى أسلفنا الكلام عليه فنقول :

والأسود الغندجاني هو أبو محمد الأعرابي :

قال ياقوت : كان علامة نسّابة عارفاً بأيام العرب وأشعارها وأحوالها مستندة فيما يرويه عن محمد بن احمد أبي الندى ، وهذا رجل مجهول لا يعرف .

وكان أبو يعلى ابن الهبّارية الشاعر يعيرّه بذلك ، ويقول : ليت شعرى ، من هذا الأسود الذى قد تصدّى للردّ على العلماء والأخذ على القدماء . بما نصحح قوله ونبطل قول الأوائل ، ولا تعويل له في الرواية الا على أبي الندى ، ومن أبو الندى في العالم ! لا شيخ مشهور ، ولا ذو علم منشور .

قال ياقوت : ولعمرى ان الأمر كما قال (ابو يعلى) فان هذا يقول : اخطأ ابن الاعرابي في أن هذا الشعر لفلان انما هو لفلان ، بغير حجة واضحة ، ولا أدلة لائحة ، وكان لا يقنعه ان يردّ على أهل العلم ردأ جميلا ، انما يجعله من باب السخرية والتهكم وضرب الامثال . وكان يتعاطى تسويد لونه بالقطران ، ويقعد في الشمس ليتحقق تلقيبه بـ « الأعرابى » . ورزق في أيامه سعادة من الوزير ابى منصور بَهرام .

وله من التصانيف : الردّ على ابن السيرافي في شرح أبيات « الكتاب » ، الردّعليه في شرح أبيات « الاصلاح » ، الردّ على أبي علي في « التذكرة » ، الردّ على ابن الاعرابي في « النوادر » ، أسماء الاماكن ، « الخيل » على حروف المعجم وهو كتابنا هذا ، و « فرحة الأديب » الذي أشرنا اليه . قال ياقوت : رأيت في بعض تصانيفه أنه صنفه في شهور سنة اثنتي عشرة واربعمائة وقرئ عليه سنة ثمانٍ وعشرين وأربعمائة(١٦) .

(١٥) الكشاف للزمخشرى .

(١٦) بغية الوعاة للسيوطى ٤٩٨/١ – ٤٩٩ .

وقدم الاستاذ المحقق لكتابه فأتى بفوائد كثيرة بسطها بين يدى الكتاب فكانت معينة على فهم أشياء كثيرة مما ورد فيه .

غير أنى كنت أوثر ألا يشوب هذه « المقدمة » ، وهي تتصل بأدب أصيل قديم ، شئ من لغة هذه الايام فينال ذلك من بهاء هذا الدرس المفيد .

جاء في الصفحة ٢٠ من المقدمة :

. . . . فقال عبد الملك بن مروان : عجبى من اختلاف أيمانه أشد من عجبي من معرفته بأنساب الخيل . . . . .

ثم عقب الاستاذ المحقق على ذلك بقوله : . . . علما بأن « عيَّاشا » هذا رجل عادى (كذا) ولم يكن من العلماء المختصين المنقطعين (كذا) كالاصمعي مثلا .

اقول : كنت أود ان تخلو هذه المقدمة من قول المحقق : « علما » وهي كلمة ترد في السائر الدارج من لغة الدواوين وأشباهها .

ثم ما معنى قوله : « رجل عادى » ، وهذا شئ من عامية أخذت بخناق الفصيحة المعاصرة .

ومن غير شك انه أراد العلماء المختصين « المنقطعين » أى المنقطعين الى العلم .

ولنقف قليلا على « أبى الندى » الذى روى عنه مؤلف الكتاب كثيرا في كتابه هذا وفي كتاب آخر هو « فرحة الاديب » الذي أحسن الاستاذ الدكتور سلطانى بتحقيقه .

أقول : روى المؤلف الغندجانى عن أبى الندى هذا كثيرا .

وأحسب ان « أبا الندى » هذا هو « هيّ بن بيّ » كما يقول الأقدمون ، لقد اختلقه المؤلف وأراد ان يقول على لسانه في « فرحة الأديب » أشياء كثيرة رد فيها على « ابن السيرافي » وجهَّله وتهكم عليه مبينا فساد ما ذهب اليه ابن السيرافي في فهم الشعر القديم والادب القديم عامة .

وحلا للمؤلف وهو الغندجاني ان يروى عنه أيضا في هذا الكتاب فيأتى بأدب يتصل بالخيل تفرَّد به أبو الندى على ما زعم المؤلف ، وكأنه أومأ في ذلك الى تفرده هو بكثير من الأخبار مما

يتصل بالجاهلين وغيرهم .

والذى يقوّي هذا عندى أنى لم أقف على أبي الندى ، ولم يشر اليه غيري من المنقطعين الى درس الأدب القديم ، فهل يصح ألا يشير الى هذا العلم أحد من المتقدمين وقد انقطعوا الى الدرس وحصلوا على حظ وافر من المعرفة القديمة كأبي عبيدة والأصمعي وابن الأعرابي وغيرهم ، وهل يصح ألا يشير الى أبي الندى أحد من معاصرى الغندجاني من علماء القرن الخامس الهجري ، ويتفرد هو وحده بالأخذ عنه .

وجاء في الصفحة ٣١ من أسماء الخيل :

الأعرابيّ : لعبّاد بن زياد بن أبيه ، وكان مُقتَضبا لا يعرف له أب ..

أقول : ودلالة « المقتضب » على الذي لا يعرف أبوه شئ لا نجده في « المعجم » القديم ، والمقتضب هو المقطوع ، ولعل هذه الدلالة هى التى سوغت هذا المعنى الجديد .

وجاء في الصفحة ٣٩ الرجز :

يعدو به الأدهم منتاط الصَّغَنْ

أقول : والأدهم من اسماء الخيل ، وهو فرس هاشم بن حرملة المرّيّ . وقوله : « منتاط الصغَن » صوابه « منتاط الصَّفَن » بالفاء لا الغين ، والصَّفَن وعاء الخصية .

وجاء في الصفحة ٤٠ في الكلام على « إجراء » الخيل ، والقيام عليها سياسة ورياضة :

ثم صنعه حتى اجذَعَ فأرسله فلم يصنع شيئاً .

اقول : وقوله : « صنعه » اى رَوَّضَه ودرَّبه من أجل أن يفوز في السبق ، وهذا من مصطلحهم القديم في ترويض الخيل .

وجاء في الصفحة ٧٠ ثلاثة أبيات :

وقائلةٍ يوم الحفاظ لبعلها - لا يُعدَل الصُّراع في الحدثان

وقد علمت جَلْوَى بأنْ ليس رَبُّها بمُعتَلثٍ دونٍ ولا بَعبان

وجَلْوَى اسم فرس .

وقوله : « بَعبان » وكان يجب ان يكون « بَعبامٍ » والعَبام الثقيل العَيي .

وقلب الميم نونا للقافية ، وليس على البدل . وهذا يعنى ان سلطان الشعر متحكّم جبّار ، ومن ذلك أشياء كثيرة في الشعر القديم ولاسيا في أراجيز الرجّاز .

وجاء في الصفحة ٧١ في حاشية للمحقق مأخوذة من « أنساب الخيل » لابن الكلبي في فرس هي الحرون بن الاثاثي :

لمسلم بن عمرو الباهلي ... وكان مسلم تزايَدَ هو والمهّلب بن أبي صفرة على الحرون حتى بلغا به ألف دينار ..

أقول : قوله : « تزايد » أى زاد كل منهما على ما ذهب اليه الآخر في ثمنه ، والمزايدة هذه هي المعروفة اليوم في البيع العلنى وهى في العامية أشهر منها فى الفصيحة .

وجاء في الصفحة ٩٠ في الكلام على فرس اسمه خصاف :

... فطلبه المنذر بن امريءَ القيس ليفتحله فخَصاه بين يَدَيه لجرأته .

أقول : قوله : « ليفتحله » ليتبين « فحولته » ، وهذا مالم نجده في « المعجم » .

وجاء في حاشية أخرى في الصفحة ١٥٣ في كلام مأخوذ من « انساب الخيل » .

... قال كسرى : أفٍّ لك ، لقد ذكّرتنى أخبث يومٍ مرَّبي قطّ ....

أقول : ليس في الكلام ما يستدعى الوقوف الا وجود « قطّ » . ان هذا الظرف الماضى لا يأتى الا فى حشو الجملة المنفية فيقال : لم أره قطّ ..

وجاء في الصفحة ١٦٦ :

العَرادة فرس أبي داؤد الإياديّ .

أقـول : واسم « دواد » مشتـق من الـــدود فهـو دواد وليس دؤاد ذكره ابن دريـــد فى « الاشتقاق » .

وجاء في الصفحة ١٩٩ :

القطوف فرس جبّار بن مالك الشمخيّ

أقول : وليس في الجاهلية ولا في الاسلام علم من أصل « جَبَر » على « فعّال » وهو « جبّـار » كما أثبت المحقق . والـذي نعرفـه من الأعلام من هـذا الأصل هو : جَبْر ، وجُبَيْر ، وجُبَيْرة وجُبـار مثل « زُؤام » بتخفيف الباء وجابر . وزيد على هذه في الاسلام عبد الجبّار أى « عبد الله » كغيره من الاعلام المصدّرة بـ « عبد » والمضافة الى اسم من أسماء الله الحسنى نحو عبد الرحمن وعبـد الرحيم وعبد الغفّار وعبد الرزّاق وغيرها .

وقد رأيت في « القاموس المحيط » مادة (قطف » : أن « قَطوف » على « فَعول » فرس الجابر ابن مالك الشمخيّ ، وهذا يحقق ما ذهبت اليه .

وأكتفى بهذا القدر من ذكر هذه الفوائد التي اشتمل عليها كتاب « اسماء خيل العرب وأنسابها » للأسود الغندجانى الذي أحسن في تحقيقه وتجليته الاستاذ المحقق الجليل .

كما قـدمت لهـذا الكتـاب بفوائـد أخرى بـدا لى أن ابسطهـا بين يـدى الكتـاب ليتم الكلام على « أدب الخيل » .

منظومات العِلم الرياضي

الأستاذ الدكتور
جلال شوقي
أستاذ بكلية الهندسة

فُطِرَ الإنسانُ العربي على حُبِّ الشعر وقرضه ، وعلى تذوُّقه والتغنِّي به ، ولا غرابة في ذلك ، فالإنسان العربي مرهف الحِسِّ ، ثاقب النظر ، صادق التعبير . إنَّ ما صنَّفه العرب والمسلمون في قوالب نَظْمية قد اكتسب كثيراً من سِمات الخلود في الأدب العربي ، ولقد تعدَّى النَّظْم حدود الأحاسيس والمشاعر والانفعالات الإنسانية إلى آفاق أرحب ، ورحاب أوسع ، تكاد تغطي مُجمل المعارف الإنسانية برمتها ، ومِنْ ثَمَّ فقد خرج القصيد عن الموضوعات التقليدية للشعر كالمديح والغزل ، والعتاب والهجاء ، والفخر والرثاء ، واتجه إلى صياغة شعرية لكافة ألوان المعرفة ، ولعلَّ كثيراً من هذا النظم قد قُصِدَ به تيسير الحفظ للأغراض التعليمية ، ومن هنا جاء وصفه بالنظم التعليمي أو بالمنظومات التعليمية ، حيث إنها تخلو من عنصري العاطفة والخيال ، وهما ركيزتان من الركائز الأساسية التي يقوم عليها الشعر ، ومن ثمَّ فإنَّنا نجد كثيراً من المنظومات قد صِيغ في مجال العلوم العقلية كالكيمياء والطب والأغذية والفلك والرياضيات والموسيقى وغيرها ، كما أنَّنا نجد أيضاً من هذه المنظومات ما تعرَّض للعلوم الإنسانية كالتاريخ والجغرافيا والملاحة البحريَّة والأمور العسكرية وما إليها . كذلك فإنَّ علوم اللغة العربية قد فازت بنصيب وافر من هذه المنظومات ، فمنها ما أنشئ في ألفاظ اللغة كالمثلثات اللغوية ، وفي قواعد النحو والصرف ، وفي علوم البلاغة من

بيان ومعان وبديع ، وفي العروض والقوافي ، وفي البديعيَّات ، ولعلَّ المنظومات التي صُنِّفت في العلوم الدينية من علوم قرآن وحديث وسيرة وفقه وعقائد وأخلاق دينيّة وما إليها ، لعلَّ هذه المنظومات تُمثِّل الجانب الأوفى من المنظومات العربية .

لاَ شَكَّ أنَّ نَظْم العلوم يؤدي بطبيعة الحال إلى سهولة حفظها ، إذ أنه كلَّما دعت الحاجة إلى تطبيق قاعدة ما ، سَهُل على المرء أن يسترجع الأبيات التي تشير إليها ، فعمل على تطبيق ما جاء بها ، وتقف « ألفيَّة ابن مالك » في النحو مثالاً واضحاً للنَّظْم التعليمي ، فهي تساعد بالتأكيد على تمثُّل القاعدة النحوية عندما يُحتاج إليها . ولقد كان هذا الأسلوب التعليمي - الذي يعتمد إلى حدٍ كبير على القدرة على الحفظ والاستظهار - هو الأسلوب الشائع لقرون طويلة متعاقبة في دُور العلم التقليدية في الحضارة الإسلامية العربية .

هذا ويبدو أن التعبير عن المعارف والعلوم بمنظومات وأراجيز قد واكب الحضارة الإسلامية منذ القرن الأول للهجرة ولم يتأخر ظهوره حتى عصور الانحطاط كما يتوهَّم البعض ، حيث إننا نجد - على سبيل المثال - أنَّ أول من نَظَم في الكيمياء كان الأمير خالد بن يزيد بن معاوية (ت : ٨٥ هـ = ٧٠٤ م) الذي ألَّف كتاب « فردوس الحكمة » ، وهو ديوان يشتمل على ٢٣١٥ بيتاً في قَوَافٍ مختلفة ، وتوجد له مخطوطات منتشرة في مكتبات العالم ، كما أنها تحمل عناوين متباينة ، ويزخر الديوان بألغاز ومُوَاضعات واصطلاحات ورموز كثيرة في صنعة الكيمياء ، يكتنفها الغموض ، شأنها في ذلك شأن الكتابات الأخرى في علم الصنعة الإلّهية ، التي أُريد بها أن تُبقي على أسرار هذه الصنعة في طيّ الكِتمان ، وأن تضنَّ بدقائقها على غير أهلها .

لم تتزامن المنظومات العربية في شتى ألوان المعرفة ، وإنَّما قُيِّض لبعض العلوم أن يبدأ نَظْمُها قبل البعض الآخر ، فبينما نجد منظومات فلكية منذ العصر الجاهلي ، نجد أنَّ المنظومات الرياضية مثلاً لم يبدأ ظهورها إلاَّ في حوالى القرن السادس الهجري (القرن الثاني عشر الميلادي) بعد أن استوعب علماء العرب والمسلمين التراث المنقول إلى اللّسان العربي استيعاباً جيداً ، وقدَّموا في مجال العلم الرياضي إضافات أصيلة مبتكرة وجليلة .

إنَّ صوغ العلوم والمعارف في منظومات يُعَدُّ ظاهرة تميَّزت بها الحضارة الإسلامية العربية ، كما تميَّزت حضارات أخرى سبقتها كالحضارة الهندية والحضارة الإغريقية على سبيل المثال ، بيْد أن التقدُّم الهائل الذي أحرزته الحضارة الإسلامية العربية قد فتح آفاقاً جديدة ومتسعة في شتّى العلوم والمعارف لا سيما في العلوم الدينيَّةِ ، ومن ثمَّ جاءت المنظومات العربية النابعة من هذه الحضارة متعدِّدة الجوانب ، تتّسم بالتنوُّع والشمول ، حيث يندر أن تجد لوناً من ألوان المعرفة الإنسانية لم تُكتب فيه منظومة عربيّة ، ولعلَّ هذا المنحى قد وجد طريقه - ضمن سِمَات أخرى من الحضارة الإسلامية العربية - إلى الغرب ، إذ أننا نجد أن الترجمات اللاتينية للعلم العربي قد حملت معها - فيما حملت - كثيراً من المنظومات العلمية العربية التي تأثر بها ونسج على منوالها بعض علماء الغرب .

إنَّ التعبير عن ألوان المعرفة في قوالب شعريّة رصينة يستلزم توفُّر شرطين لازمين ، أولهما الاستيعاب التام للمحتوى العلمي أو المضمون ، وثانيهما القدرة على أداء المعنى بأسلوب منظوم ، جَيِّد البناء ، محكم القوافي والأوزان ، الأمر الذي يقتضي جمعاً بين تمكُّنٍ في العلم ، وتميُّز في الأدب ، ويستدعي تآلفاً بين دقة المعنى ، وجمال التعبير ، وتقيُّدٍ بضوابط النَّظمْ ، ولا غرْو أن نجد كثيراً من العلماء في كافة جوانب الحضارة الإسلامية العربية يَجْمَعُون بين العلم والأدب ، حيث كان يغلب عليهم المنحى الموسوعي ، ولا أدلَّ على ذلك من تنوُّع مجالات تصانيفهم ، وشمولية معالجاتهم ، مع عمق في الفكر ، ورحابة في النِّقاش ، ودقة في العرض والتحليل والتعليق ، وطول باع في التمحيص والاستقصاء ، وحذرٍ وحيطة في الاستنتاج والاستقراء .

وإن أردنا أن نسوق أمثلةً لعلماء موسوعيين ممن صنَّفوا في علوم كثيرة لاحتجنا إلى قوائم عديدة ، ولكنَّا نكتفي هنا بأمثلةٍ جِدَّ محدودة بقصد الاستدلال فحسب ، فمِنْ علمائنا الموسوعيين تجدُر الإشارة إلى الشيخ الرئيس ابن سينا ، وأبي الريحان البيروني ، وابن الخشاب ، وفخر الدين الرازي ، وابن الهائم المصري المقدسي ، وابن الشِّحنة الحنفي ، وابن جماعة الكناني ، وحمزة الفناري ، واسماعيل بن أبي بكر المقرىء ، وجلال الدين السيوطي ، وبهاء الدين العاملي ، وشرف الدين العِمْريطي على سبيل المثال لا الحصر .

إنَّ السِّمة الجامعة بين العِلْم والأدب لتظهر أكثر ما تظهر في المنظومات ، ومن هنا كان اهتمامي بدراستها دراسة مُوسَّعة ، وقد أمكن لي بالرجوع إلى العديـد من خزائن الكتب في الشرق والغرب ، والاطلاع على فهارس المخطوطات المحفوظة بها أن يَتَّضح لي كثيرٌ من معالم تراثنا العربي من المنظومات في جميع فروع المعارف الإنسانية . لاشك أن الخطوة الأولى نحو دراسة تراثنا المنظوم هي حصرُ التراث نفسه ، إن جاز هذا التعبير ، أى الوقوف على معالم وحدود الثراء الضخم الذي خلَّفه لنا الأجداد ، ولقد أمضيتُ في هذه المرحلة عدد سنين قضيتُها في البحث والتنقيب عما كُتب نظماً ، وكان من حصيلة هذا الجهد أن تجمَّعتْ ولا تزال تتجمَّع لدىَّ البياناتُ الأساسية لما يزيد على الألفي منظومة في كافة المعارف والعلوم ، وعَسَى أن يمنحني المولى عزَّ وجلَّ الفرصة والقدرة والعزيمة على نشر هذه الدراسات في كتبٍ أو مجلدات متتابعة ، ولقد عنَّ لي أنَّه لمَّا كان لمثل هذا المشروع الطموح أن يستغرق سنوات أخرى - لا سيَّما وأنه يجري بجهد فَرْدٍ واحدٍ - فربما كان من المناسب أن أنشر بين الحين والحين بعض الدراسات التي تُعين المهتمين والمشتغلين بالتراث الإسلامي العربي دون طول انتظار حتى يتم نشر العمل المتكامل في مجال المنظومات العربية ، ومن ثمَّ فقد أَقْدَمْتُ على نشر الدراسة الحالية عن « منظومات العلم الرياضي » ، وهي دراسة تُشكِّل جانباً من دراسة أوسع وأشمل أرجو أن يتم نشرها في المستقبل القريب في كتاب بعنوان : « العلوم الرياضيّة في المنظومات العربية » .

إنَّ الرياضيات والمنظومات كلاهما يخضع لضوابطَ محدَّدة ، فلا تقوم منظومات دون تقيُّدٍ بموازين دقيقة ، كما لا تستقيم رياضيات دون تسلسل تراكيب منطقية ، فلا غرْو إذن أن نجد النَّظْم والانتظام ، والوزن والاتزان ، والمعادلة والوئام ، تجمع بين فكر رياضي وتعبير شعري ، وحبُّ الشعر من حبِّ اللغة ، واللغة تعبير عن خواطر وأفكار ومعارف ، وعلم اللغة يقوم على المنطق ، كذلك ينسج الرياضي صِيَغَهُ ومعادلاته على أسس منطقية ، فلا عجب أن يشتغل كثير من الرياضيين بأبحاث لغوية ، وأن يتمتع كثير من اللُّغويين بمنطق الرياضيين ، ولَعَلَّ تشكيل المجامع اللغوية يؤيد ما ذهبنا إليه من تواجد ذلك الرباط القوي بين اللغة والرياضيات ، ولقد شهدت الحضارة الإسلامية العربية ، أو إن شئت الحضارة التي بعثها وفجَّرها وأقامها الإسلام ، وعبَّر عنها ولها اللِّسان العربي ، لقد شهدت هذه الحضارة نماذج فريدة ورائعة لعلماء جمعوا بين العلم والأدب ، وبرَّزوا فيهما جميعاً .

من تراثنا المنظوم نقدّم فيما يلي ما وقفنا عليه من مخطوطات وشروح وتعليقات وحواش لمجموعة من علماء العرب والمسلمين في العلم الرياضي ، منهم :

١ - ابن الياسمين أو ابن الياسميني (ت : ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م)
٢ - ابن الحسين الموصلي الحنبلي (ت : ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م)
٣ - القضاعي القللوسي (ت : ٧٠٧ هـ = ١٣٠٧ م)
٤ - ابن ليون التجيبي (ت : ٧٥٠ هـ = ١٣٤٦ م)
٥ - أحمد الضميرى (ألّفها قبل : ٧٩٠ هـ = ١٣٨٨ م)
٦ - ابن الهائم المصري المقدسي (ت : ٨١٥ هـ = ١٤١٢ م)
٧ - ابن الرباط البقاعي (ت : ٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م)
٨ - ابن ناصر النواوي (كان حيًّا ٨٥٤ هـ = ١٤٥٠ م)
٩ - الزمزمي المكيّ (كان حيًّا : ٨٧٨ هـ = ١٤٧٣ م)
١٠ - أبو الحسن ابن المغربي (حوالى القرن ٩ هـ = القرن ١٥ م)
١١ - ابن غازي العثمانى المكناسي (ت : ٩١٩ هـ = ١٥١٣ م)
١٢ - بحرق الحضرمي (ت : ٩٣٠ هـ = ١٥٢٣ م)
١٣ - عبد الرحمن الأخضري (كان حياً : ٩٤١ هـ = ١٥٣٤ م)
١٤ - الشرف العِمْريطي (توفى بعد : ٩٨٨ هـ = ١٥٨٠ م)
١٥ - عبد اللطيف الدمشقى
١٦ - مشرف بن قظرف
١٧ - أبو سالم السملالي
} (حوالى القرن ١٠ هـ = القرن ١٦ م)
١٨ - ابن أبي بكر صاحب النحال (ت : ١٠٦٥ هـ = ١٦٥٥ م)
١٩ - الشَّبْرامَلّسي المالكي (ت : ١٠٨٧ هـ = ١٦٧٦ م)
٢٠ - الخليفتي العباسي المدني (ت : ١١٣٣ هـ = ١٧٢١/٢٠م)
٢١ - عبد الفتاح بن ابراهيم المالكي (ألّفها ١١٤٣ هـ = ١٧٣٠ م)
٢٢ - ابن قاسم الحجّار الحلبي (ت : ١٢٧٨ هـ = ١٨٦١ م)

(١) – « الأرجوزة الياسمينية في علم الجبر والمقابلة »

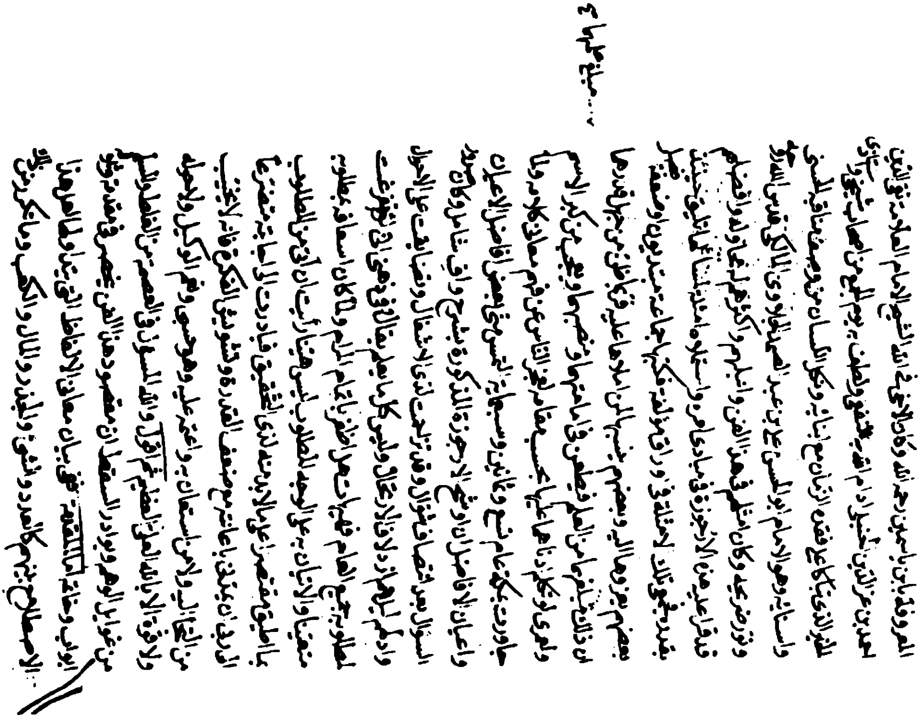
لأبي محمد عبد الله بن الحجاج الأدريني المُلقَّب بابن الياسمين أو بابن الياسميني (المتوفي سنة ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م) ، ويبلغ عدد أبياتها ٥٤ بيتاً من بحر الرجز ، وتعرض الأرجوزة بصفة أساسية لشرح أصول علم الجبر واستخراج جذور معادلات الدرجة الثانية بأنواعها الستّ ، وتوجد نسخ خطية كثيرة لهذه الأرجوزة ، كما توجد لها عدَّةُ شروح ، وتبدأ الأرجوزة بالأبيات الآتية[١] :

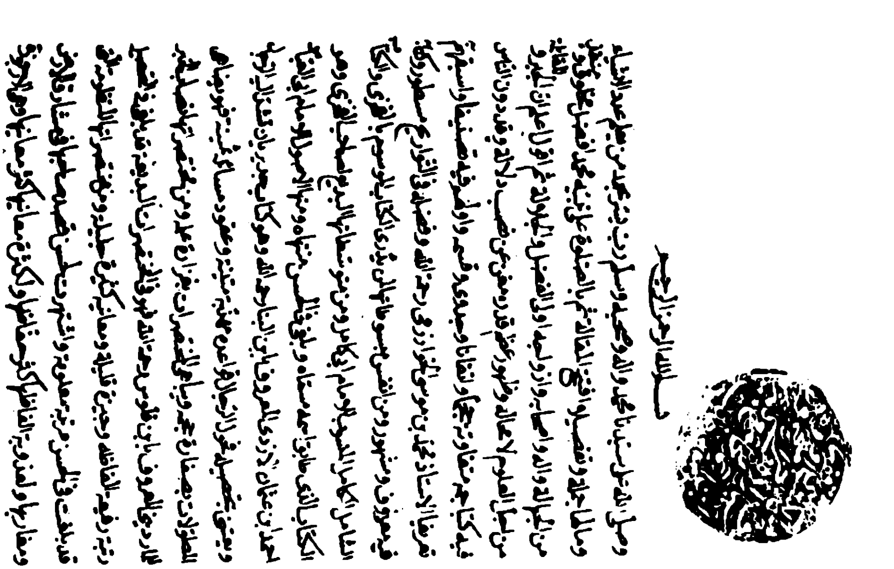
« الحَمْــد لِلهِ عَلَى مَــا أَنْعَمَــا وَمَنَّ مِنْ تَعْلِيمِــه وَفَهَّمَــا
ثُمَّ صَلَوَةُ اللهِ طُولَ الأَبَــدِ[٢] عَلَى النَّبِيِّ المُصْطَفَى مُحمَّــدِ
والشُكرُ للحَبَرِ الــذكيِّ العَــالِمِ أُسْتَاذِنَا مُحَمَّدِ بنِ قَاسِمِ (٣)
فَهُوَ الَّذي بَيَّنَ[٤] مَا قَدْ أشكَلاَ وقَرَّبَ القَاصِي حَتَّى سَهَّلاَ
جَزَاهُ رَبُّ النَّاسِ عَنَّا خَيْراً وأَجْزَلَ الأَجْرَ لَهُ في الأُخْرَى »

أما في مخطوطة الخزانة العامة بالرباط – رقم ٢٤٢٤ ، فإن مطلع الأرجوزة هو :

« الحَمْــدُ لِلهِ عَلَى مَــا أَلْهَمَا وَمَنَّ مِنْ تَعْلِيمِــهِ وَفَهَّمَــا »

(١) عن مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب – رقم ١٧٨٥ .
(٢) في بعض النسخ : « وصلوات الله طول الأبد ... »
(٣) يشير إلى شيخه أبي عبد الله محمد بن قاسم بن شاوش (من علماء القرن ٦ هـ = القرن ١٢ م) .
(٤) في نسخ أخرى : أوضح .





الصفحتان الأولى والثانية من شرح ابن الهائم على الأرجوزة الياسمينية

(مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب - رقم ١٧٨٥) .

كما جاء – في هذه النسخة أيضاً – عقب الأرجوزة الأبيات الآتية ، وهي من نظم الأستاذ أبي عبد الله الدهان :

« أَكْمَلْتُهَا بِالنَّسْخِ والْمُقَابَلَه ... أرجوزةً في الْجَبْرِ والْمُقَابَلَه
حَوَتْ مع الإيجَازِ حُسْنَ التَّحْرِير ... نَظَمَهَا ابنُ اليَاسَمِين النِّحرِير
جَزَاهُ رَبِّي خَيْرَ مَا جَزَاه ... مَا اخْتَلَفَ الظَّلامُ بِالضِّيَاء »

وتدل الأرجوزة الياسمينية على تمكُّن ناظمها في الرياضيات وعلى طول باعه في الأدب والنَّظْم .

من مخطوطات « الأرجوزة الياسمينية »

١ – مخطوط طنجة وقد قرئ على المؤلف ، وسُمع منه بإشبيلية سنة ٥٨٧ هـ = ١١٩١ م .

٢ – مخطوطات مكتبة شستربيتي بدبلن :

(أ) رقم ٣٢٣٤ (٣) – ضمن مجموع ، من الورقة ٣٥/أ .

(ب) رقم ٣٤٨٦ (٢٢) – ضمن مجموع ، الأوراق : ٢٣٣ – ٢٣٥ ، ويرجع تاريخه إلى القرن ٩ هـ = القرن ١٥ م تقريباً .

(جـ) رقم ٤٨٠٩ (٧) – ضمن مجموع ، الأوراق : ٩٠ – ٩٢ .

٣ – مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة – رقم ١١٢ رياضة – ف ١٠٤٣ .

مُصوَّر بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة – رقم رياضيات ١٢٢ .

٤ – مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب – رقم ١٧٨٥ .

٥ – مخطوط جاء ذكره عند Alger تحت رقم ٣٧٨ (٨) ضمن مجموع .

٦ – توجد مخطوطة بعنوان : « أرجوزة في الجبر » لعبد الله بن محمد ابن الياسمين في دار الكتب الوطنية بتونس – تحت رقم ٤٧٤١ ، ضمن مجموع من ثلاث رسائل ، يضم ١٠٧ ورقات ، وهو مكتوب بخط مغربي .

١٥٥

على أقل عباده في أشرف بلاده فلله الحمد على وفق مراده والشكر على توالي الفتح و
ازدياده والصلاة والسلام على محمد الذي ساد الخلق بانفراده وعلى آله وصحبه الذين
سعدوا بإسعاده قال مؤلفه رحمه الله تعالى وكان الفراغ من تسويده على يد مؤلفه
أحمد ابن الهائم في ليلة يسفر صباحها عن يوم الثلاثا سادس ذي الحجة الحرام سنة تسع
وثمانين وسبعماية بمكة المشرفة أحسن الله عقباها والحمد لله وحده وصلى الله على
سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم وكان الفراغ من كتابة هذه النسخة في ليلة يسفر صباحها
عن يوم الأحد تاسع محرم الحرام سنة واربعين ومائة والف على يد الفقير
الى عز شانه صدقي مصطفى بن صالح بن قاسم
غفر الله لهم ولجميع المؤمنين و
صلى الله على سيدنا
محمد وآله و
صحبه
اجمعين
وحسبنا الله ونعم الوكيل و الحمد لله رب العالمين

الصفحة الأخيرة من شرح ابن الهائم على الأرجوزة الياسمينية

(مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب - رقم ١٧٨٥)

٧ - توجد مخطوطة بعنوان « المقدمة المُسَمَّاة بالياسمينية » في الجبر والمقابلة ، لم يُذكر مؤلفها ، وأغلب الظن أنها لابن الياسمين ، والمخطوطة محفوظة بمكتبة بودليانا بجامعة أكسفورد - تحت رقم ١٠٣٤ (٣) ، ضمن مجموع ، وتقع في ثلاث ورقات .

٨ - مخطوطا خزانة الأوقاف العامة ببغداد - رقما ٥٤٤٤ (٩) ، ٥٥٠١ (٦) ، كل منهما ضمن مجموع .

٩ - مخطوط المكتبة الوطنية بباريس - رقم ٤١٥١ (٦) ، ضمن مجموع .

١٠ - مخطوط الخزانة العامة بالرباط - رقم ٢٤٢٤ .

١١ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم ٥٩٦٤ .

١٢ - مخطوط القدس الشريف - رقم ١٤١٢ (١) ، ضمن مجموع .

١٣ - مخطوط المتحف البريطاني - الملحق ٢ - رقم ١٢٠٥ .

١٤ - مخطوطات خزانة الإسكوريال باسبانيا - الأرقام : ٩٣٦ (٢) ، ٩٤٣ (٦) ، ٩٥٤ (٢) .

١٥ - مخطوطا دار الكتب الوطنية بتونس - رقما ١١٩٠ ، ٣١١٧ .

من شروح الأرجــوزة الياسمينية

لقيت الأرجوزة الياسمينية اهتماماً كبيراً من العلماء الذين أتوا من بعد ابن الياسمين ، فتناولوها بكثير من الشرح والتوضيح ، ونسج على منوالها كثير من المشتغلين بالرياضيات في الشرق والغرب ، ونشير فيما يلي إلى أشهر من تعرض لهذه الأرجوزة بالشرح والتعليق :

١ - شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد ابن الهائم المصري ثم المقدسي (المتوفى سنة ٨١٥ هـ = ١٤١٢ م) .

٢ - وليّ الدين أحمد بن زين الدين عبد الرحيم أبي زرعة العراقي (المتوفى سنة ٨٢٦ هـ = ١٤٢٣ م) .

٣ - أبو الحسن على بن محمد القرشي البسطي القلصادي (المتوفى سنة ٨٩١ هـ = ١٤٨٦ م) .

٤ - بدر الدين أبو عبد الله محمد بن محمد الشهير بِسبْط المارديني الفاكهاني الشافعي (٨٢٨ - ٩١٢[1] هـ) = (١٤٢٤ - ١٥٠٦ م) .

(١) وفي قول آخر سنة ٩٠٧ هـ = ١٥٠١ م .

٥ - مصطفى الطائي .
٦ - ابن المجدى الشافعي .
٧ - نور الدين على بن أبي بكر بن على ابن الجمال الأنصاري المكي الشافعي (المتوفى سنة ١٠٧٢ هـ = ١٦٦١ م) .
٨ - أحمد بن عبد الفتاح بن يوسف المجيري الملّوي (المتوفى سنة ١١٨١ هـ = ١٧٦٧ م) .
٩ - شمس الدين محمد بن سالم بن أحمد الحفني (١١٠١ - ١١٨١ هـ) = (١٦٩٠ - ١٧٦٧ م) .
١٠ - أحمد بن يونس الخليفي (المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ = ١٧٩٤ م) .
١١ - أحمد بن محمد الشافعي الجنابي .
١٢ - مصطفى الحنفي الظافر .
١٣ - شهاب الدين السراجِي الشافعي .

وجدير بالذكر أنَّه إلى جانب هذه القائمة لأصحاب الشروح والتعليقات والحواشى على « الأرجوزة الياسمينية » ، فإن هناك عدداً لا بأس به من الشروح لم تُذكر عليها أسماء مُصنِّفيها ، الأمر الذي يدعو إلى إجراء مقابلة لها مع المخطوطات ذات الهويَّة المحددة ، لعلَّنا نتعرَّف على بعض منها .

(أ) شرح ابن الهائم على « الأرجوزة الياسمينية »

١ - مخطوط مكتبة شستر بيتي بدبلن - رقم ٤٤٣٠ ، ويقع في ١٩٤ ورقة ، وهذه النسخة هى نسخة المؤلف ، وهي مؤرخة في مكة المكرّمة سنة ٧٨٩ هـ = ١٣٨٨/٧ م .
٢ - مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة - رقم ١ رياضة - ف ١٠٤٢ ، ويشتمل على ١١٤ ورقة ، ويرجع تاريخ نسخة إلى عام ٨٥٧ هـ = ١٤٥٣ م .
مصوّر بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة - رقم ٩٥ - رياضيات .

٣ - مخطوط مكتبة شستر بيتي بدبلن - رقم ٤٧٦٠، ويقع في ٩٢ ورقة ، ويرجع تاريخه إلى سنة ٨٩٣ هـ = ١٤٨٨ م .

٤ - شرح بعنوان :

« كتاب الدرّ الثمين في شرح أرجوزة ابن الياسمين »

في علم الجبر والمقابلة

مخطوط مكتبة بودليانا بجامعة أكسفورد ، رقم ١٢٣٨ (١) ، ويشتمل على ٩١ ورقة ، ويعود تاريخه إلى عام ١٠٠٨ هـ = ١٥٩٩ م .

٥ - مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب - رقم ١٧٨٥ ، ويقع في ١٥٦ صفحة (مقاس الصفحة : ١٥ × ٢٠,٥ سم) ، وقد فُرغ من نسخه سنة ١١٤٦ هـ = ١٧٣٣ م .

٦ - مخطوطا دار الكتب الظاهرية بدمشق :

(أ) رقم ٨٣ رياضيات - ٣٠٨٤ - عام .

(ب) رقم ٨٤ رياضيات - ٩٢٥١ - عام .

٧ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) رقم : 5963 Mq. 103 .

٨ - مخطوط مكتبة بودليانا بجامعة أكسفورد - رقم ٩٦٦ (٦) - ضمن مجموع ، ويشتمل على ٦٦ ورقة (مجموعة هنت ١٩٤ : Hunt. 194) .

٩ - مخطوط مكتبة كوپريلي بتركيا - رقم ٩٤٧ ، ويقع في ١٠٩ ورقات ، وقد فُرغ من نسخه سنة ٩٢٣ هـ = ١٥١٧ م .

١٠ - مخطوط مكتبة لاله لى باستانبول - رقم ٢٧٣٨ (٢) ، ضمن مجموع ، الصفحات من ٣٩ أ إلى ١٦٩ ب ، والمخطوط يرجع تاريخه إلى القرن ١١ هـ = القرن ١٧ م .

١١ - مخطوط مكتبة حفيد أفندى بتركيا - رقم ٢١٥ (٢) - ضمن مجموع ، الصفحات من ٣٧ أ إلى ١٤٠ ب ، والمخطوط من مخطوطات القرن ٩ هـ = القرن ١٥ م .

١٢ - مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس - رقم ٥٩٦ ، وقد كُتب بخط مشرقي .

(ب) شرح أبي زرعة العـراقي[1]

وهو بعنوان : « المُعِين على فَهْم أرجوزة ابن الياسمين »

١ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم : 5963 Mq. 103 .

٢ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم : 5964.W.E.91 .

٣ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم رياضيات ٨٥ - ٩٥٥٧ - عام .

٤ - مخطوط خزانة الأوقاف العامة ببغداد - رقم ٥٤٢٠ (٥) ، ضمن مجموع ، ويرجع تـاريخ هذه النسخة إلى سنة ١٠٦٤ هـ = ١٦٥٣ م) .

(جـ) شـرح القلصــادى[1]

شرح لأبي الحسن على بن محمـد القرشي الشهير بـالقلصـادي الأنـدلسى البسطي (المتوفى سنة ٨٩١ هـ = ١٤٨٦ م) ، والشرح بعنوان :

« تحفة الناسيني على أرجوزة ابن الياسميني »

١ - مخطوط المكتب الهندي بلندن - رقم : 2 - [B47] Math. 770 .
ضمن مجموع ، الأوراق من ١١ إلى ١٨ ، وقد كُتب المخطـوط بيـد محمـد بن عبـد الله الطراني الأزهري الشافعي ، وقد أتمّ كتابته في ١٣ رمضان سنـة ٨٦٦ هـ = ١٤٦١ م ، أي في حياة الشارح الفاضل .

٢ - مخطوط الخزانة العامة بالرباط - رقم ٤٥٦ .

٣ - مخطوط جاء ذكره عند Alger تحت رقم ٣٧٦ (٨) ، ضمن مجموع .

٤ - مخطوط دار الكتب المصريـة بـالقـاهرة - فهرس مكتبـة مكرم - رقم ٢١٣ (٦) ، ضمن مجموع .

---

(١) هو أبو زرعة وليّ الدين أحمد بن أبي الفضل زين الدين عبد الرحيم ابن الحسين بن عبد الرحمن بن أبي بكر العراقي (٧٦٢ - ٨٢٦ هـ) = (١٣٦١ - ١٤٢٣ م) .

(د) شرح سِبْط المـارديني[1]

بعنـوان : « شرح الأرجوزة الياسمينية »

١ - مخطوط مكتبـة شستر بيتي بـدبلن - رقم ٣٢٢٤ (٩) - ضمن مجموع ، الأوراق : ١٧٢ - ١٨٤ ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ٨٨٠/٧٨ هـ = ١٤٧٥/٣ م .

٢ - مخطوط دار الكتب المصرية بالقـاهرة - رقم ١٨٢ ريـاضـة - ف ١٠٣٥ ، ويقع في ٢٩ ورقة ، وقد فُرغ من نسخه سنة ١٠٢٠ هـ = ١٦١١ م ، وهو مُصوَّر بمعهد المخطوطـات العربية بالقاهرة - رقم ٩٤ - رياضيات .

وبعنـــوان : « شرح الياسمينية في علم الجبر »

وفي المقدمة : « شرح على الأرجوزة الياسمينية »

٣ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم : 5967 We. 1734 ، ويرجع تـاريـخ نسخه إلى حوالي سنة ١١٠٠ هـ = ١٦٨٨ م .

٤ - مخطـوط برلين (فهرس ألـواردت) - رقم : 5967 Pm. 79 ، ويقـع في ١٨ صحيفة ، وقد تمّ نسخـه في شهر ذي القعـدة سنـة ١١٢٢ هـ = ١٧١١ م بخط محمد بن عثمان ابن ابي بكر النحاس .

٥ - مخطـوط برلين (فهرس ألـواردت) - رقم : 5967 Lbg. 1047 ، ويشتمـل على ٢٧٦ صحيفة ، وقد فُرغ من نسخه في شهر ربيع الأول سنة ١٢٠٠ هـ = ١٧٨٦ م بيـد محمد بن محمد الفريزي الشافعي .

٦ - مخطـوط برلين (فهرس ألـواردت) - رقم : 5966. Spr. 1832 ، ويقـع في ٨٩ صحيفة .

---

(١) هو أبو عبد الله بدر الدين محمد بن محمد بن أحمد بن محمد الغزال الدمشقي الشهير بسبْط الماريني الفاكهـاني الشـافعي (٨٢٦ - ٩١٢ هـ) = (١٤٢٢ - ١٥٠٦ م) .

وبعنوان : كتاب « **اللُّمعة الماردينية في شرح الياَسَمينيّة** »

(أو في شرح المقدمة الياسمينية أو في شرح الأرجوزة الياسمينية)

٧ - مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة - رقم ٥١ رياضة - ف ١٠٤٢ ، ويشتمل على ١٢ ورقة ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ١١٠٤ هـ = ١٦٩٢ م ، وهو مصوَّر بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة - رقم ١٢١ - رياضيات .

٨ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم : 5968. We. 1711 ، وقد فُرغ من نسخه حوالى سنة ١١١٢ هـ = ١٧٠٠ م .

٩ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم رياضيات ٩٢ - ٤٤٣٦ - عام .

١٠ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم رياضيات ٩٣ - ٦٠٨٩ - عام .

١١ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم رياضيات ٩٤ - ٩٢٢٩ - عام .

١٢ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم : 5968.WE. 179 ، وقد تمّ نسخه عام ١١٣٠ هـ = ١٧١٨ م .

١٣ - فهرس مخطوطات مكتبة الأوقاف العامة في الموصل : المجموع رقم ٢٢/١٤٣ ، الكتاب الثامن .

١٤ - مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس - رقم ٣١١٧ ، ويقع في ست ورقات ، وهو مكتوب بقلم مغربي .

وبعنوان : « **شرح الأرجوزة الياسمينية في الجبر** »

١٥ - مخطوط خزانة الزيوانى في مكتبة أوقاف الموصل ، رقم : ١٢/١٤ .

١٦ - مخطوط المكتبة الوطنية بباريس - رقم ٤١٦٢ (٤) ، ضمن مجموع .

١٧ - مخطوط المتحف البريطاني بلندن - ملحق ١ ، رقم ٧٥٣ .

١٨ - مخطوط مكتبة البلدية بالإسكندرية بمصر - رقم ٢٤ حساب .

١٩ - مخطوطا مكتبة جامعة برنستون بالولايات المتحدة الأمريكية ، رقم ١٥٧ ، رقم ٢٦٦٠ .

(هـ) حاشية على شرح الماردينى

١ - حاشية بعنوان : « فرائد الفوائد الجبرية على شرح السِّبْط للياسمينية »

تأليف الشيخ محمد الحفني ، وهي حاشية على شرح سبط الماردينى على الأرجوزة الياسمينية .

- مخطوط دار الكتب بشبين الكوم بمصر - رقم ٨٨ ، وقد فرغ من نسخه سنة ١١٦٧ هـ = ١٧٥٣ م .

٢ - حاشية بعنوان : « فرائد عوايد جبرية على شرح السِّبْط للماردينية »[١]

لشمس الدين محمد بن سالم بن أحمد الحفني (١١٠١ - ١١٨١ هـ) = (١٦٩٠ - ١٧٦٧ م) .

- مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم : رياضيات ٩٠ - ٩٢٢٩ - عام .

(و) شروح أخرى على الأرجوزة الياسمينية

كُتبت على الأرجوزة الياسمينية شروح أخرى كثيرة غير تلك التي ألّفها شهاب الدين ابن الهائم ، وأبو زرعة العراقى ، وبدر الدين سِبْط الماردينى ، نذكر منها على سبيل المثال الشروح الآتية :

١ - « شرح الأرجوزة الياسمينية »

- مخطوط مكتبة شستربيتي بدبلن - رقم ٣٢٣٤ (٩) - ضمن مجموع ، الأوراق : ١٧٢ - ١٨٤ ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ٨٨٠/٧٨ هـ = ١٤٧٥/٣ م . والمخطوط يحتاج إلى مقابلة مع الشروح المعروفة المتقدمة .

٢ - « شرح على الأرجوزة الياسمينية »

لمؤلف غير معروف

---

(١) من الواضح أن عنوان الحاشية في مخطوط شبين الكوم أقرب إلى الصحّة من عنوان الحاشية كما هو وارد بمخطوط الظاهرية .

– مخطوط المكتب الهندي بلندن – رقم : Math. 765 [1490] ، ويضم ٣٤ ورقة ، وقد فُرغ من نسخه سنة ١٠٨١ هـ = ١٦٧٠ م .

٣ – « شرح الياسمينية في علم الجبر والمقابلة »

لشارح غير مذكور

– مخطوط برلين (فهرس ألواردت) – رقم : 5964. WE. 91 ، ويعود تاريخ نسخه إلى القرن ١٠ هـ = ١٦ م على وجه التقريب .

٤ – « شرح ياسمينية في علم الحساب »

لم يُذكر مؤلفه .

– مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب – رقم ١٧٨٥ ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ١١٤٦ هـ = ١٧٣٣ م .

٥ – « المنفعة الكاملة في علم الجبر والمقابلة »

لمصطفى الطائي

– مخطوط بريل بهولندا رقم : 5232, 288 H .

٦ – « إرشاد السائل إلى أصول المسائل »

لابن المجدي الشافعي .

– مخطوطا مكتبة الأوقاف العامة في الموصل – رقما : ٢٤٦ (٤) ضمن مجموع ، ٣٥٩ .

٧ – شرح لنور الدين علي بن أبي بكر بن علي ابن الجمال الأنصاري المكيّ الشافعي[١] (المتوفى سنة ١٠٧٢ هـ = ١٦٦١ م) .

٨ – شرح لأحمد بن عبد الفتاح بن يوسف المجيري الملّوي (المتوفى سنة ١١٨١ هـ = ١٧٦٧ م) .

---

(١) هو صاحب الرسالة المسماة « بالتُّحفة الحجازيّة في نخبة الأعمال الحسابيّة » ، وتوجد لها مخطوطة في برلين (فهرس ألواردت) – ضمن المجموع رقم ٦٠١٣ : الكتاب ٣١ . وهو أيضاً صاحب كتاب « قُرّة عيني الرائض في فنّ الحساب والفرائض » ، وتوجد مخطوطة له في نفس المجموع : الكتاب ٣٢ ، كما أنّ له كتاب « المواهب السَّنيّة في علم الجبر والمقابلة » ، وتوجد له مخطوطة ضمن نفس المجموع : الكتاب ٦٣ .

٩ - « تحفة الناشين على أرجوزة ابن الياسمين »
لم يُذكر اسم الشارح .
- مخطوط دار الكتب الوطنيـة بتونس - رقم ٤٣٣٤ ، ضمن مجموع من ٩ رسائل ، في ١٥٥ ورقة ، مكتوب بخط مشرقي بيد سليمان ابن قعود اليساري سنة ١٠٠٠ هـ (١٥٩١ م) وسنة ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠ م) .
١٠ - « الهبات السنيّة على الأرجوزة الياسمينية »
لمصطفى الحنفي الظافر
- مخطوط دار الكتب الوطنيـة بتونس - رقم ١١٩٠ ، ويقع في ٢٢١ ورقـة ، وقد كُتبت هذه النسخة بخط مشرقي ردىء ، وهي في حالة سيئة .
١١ - شرح لشهاب الدين السراجي الشافعي
- مخطوط المتحف البريطاني بلندن - الملحق ١ ، رقم ٧٥٤ .
١٢ - « شرح الأرجوزة الياسمينية في علم الجبر »
لحسين بن أحمد المحلّيّ الشافعي
- مخطوط مكتبة مؤسسة هارتفورد (Library of the Hartford Seminary Foundation) بالولايات المتحدة الأمريكية .

(ز) حواشى على الأرجوزة الياسمينية وشروحها

١ - حاشية لمحمد بن سالم الحِفْني (المتوفى سنة ١١٨١ هـ = ١٧٦٧ م) على شرح السمرقندي ، وقد تقدَّم ذكر حاشيته على شرح سِبْط الماردينى .
٢ - حاشية لأحمد بن يونس الخليفي (المتوفى سنة ١٢٠٩ هـ = ١٧٩٤ م) ، وهى حاشية على الأرجوزة نفسها .
٣ - « حاشية على شرح الياسمينية »
لأحمد بن محمد الشافعي الجنابي .

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم 5969. Lbg. 1047 ، ويرجع تاريخ نسخه إلى حوالى سنة ١٢٢٠ هـ = ١٨٠٥ م .

ويشير صاحب الحاشية - في مقدمة المخطوط - إلى شيخه حيث يقول :

« لمّا منَّ اللهُ تعالى بتلقّي شرح العلاَّمة سِبْط المارديني على الياسمينية عن شيخنا ... شمس الدين محمد الدسوقي .. » ، وشيخه هذا هو محمد بن احمد بن عرفه الدسوقي (المتوفى سنة ١٢٣٠ هـ = ١٨١٥ م) ، وبالتالي فإنَّ هذه الحاشية تُعدُّ حديثة العهد .

٤ - « تعليق وجيز على أرجوزة الياسمين في الجبر والمقابلة »

لمؤلف غير معروف الاسم على وجه الدقة .

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم : 5967.We. 1717 ، ويعود تاريخ نسخه إلى حوالي سنة ١٢٤٠ هـ = ١٨٢٤ م .

(٢) أرجوزة مشتملة على أعمال الجذور[١]

لأبي محمد عبد الله بن الحجاج الأدريني الملقب بابن الياسمين أو بابن الياسميني (المتوفى سنة ٦٠١ هـ = ١٢٠٤ م) صاحب « الأرجوزة الياسمينية »[٢] التى تقدَّم ذكرها ، وتشتمل هذه المنظومة على ٥٤ بيتاً من بحر الرجز ، ومطلعها :

« الحَمْدُ لِلهِ الَّذي هَدَانَا وَنَقَّحَ العُقُولَ والأَذْهَانَا

والشُّكْرُ للشَّيخِ الفقيهِ العَالِمِ أستاذِنا مُحَمّد بن قاسِم[٣]

(١) ترد في الأعلام للزركلي (جزء ٤ ، ص : ٢٦٩) بعنوان : « أرجوزة في أعمال الجذور » .

(٢) ترد في بعض الكتابات « الأرجوزة المشتملة على أعمال الجذور » وكأنها تسمية مرادفة « للأرجوزة الياسمينية » ، والصحيح أنها أرجوزتان مستقلتان .

(٣) يشير إلى شيخه أبي عبد الله محمد بن قاسم بن شاوش (من علماء القرن ٦ هـ = القرن ١٢ م) .

وَهُــوَ الَّــذِي ابن شــاوش قــد عــرف   فـــوردنـــا مِنْ مَجْـــدِهِ فيغتــرف
هُــوَ الَّــذيِ ذَلَّــلَ مـــا قَــدْ امتَنَــع   وَأَوْضَــحَ الْمُشْكِــلَ حتَّى قَــدْ نَصَــع »

ويستطرد ابن الياسمين في خطبة أرجوزته حتى يصل إلى القصد من نظمها حيث يقول :

« لَمَّـــا بَـــدَتْ لِي الجُــذُورُ الْمُغْلَقَـــه   نَظَمْتُ في أجْنَـــاسِهـــا المحقَّقـــه
أرْجُــوزَةً تُبَيِّنُ مـــا قَـــد انْبَهمْ   وتُــوَضِّــح الْمُشْكِــلَ مِنْ تِلْـــكَ البُهَمْ »

– مخطوط مكتبة الإسكوريال بأسبانيا – رقم ٩٥٤ (٨) ، الورقتان ٥٩ ، ٦٠ .

(٣) قصيدة في حساب الأصابع[١]

لأبي عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن الحسين الموصلي الحنبلي[٢] (المتوفى سنة ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م) .

(٤) « الإكسير في المُبتَغَى من صنعة التكسير »

أرجوزة في مساحات الأشكال ، وتقع في ٢٠٣ أبيات، وهي من نظم أبي عثمان سعد بن أبي جعفر أحمد بن ابراهيم بن ليون التجيبي (المتوفى سنة ٧٥٠ هـ = ١٣٤٦ م) ، ومطلعُها :

« الحمــــــدُ لله عَلَى أنْ يسَّراَ   مِنْ مُهَج التَّكْسيرِ مَـــا قَــدْ عَسَّراَ »

(١) راجع بروكلمان – الأصل الألماني : GAL – S – II:1062.

(٢) هو صاحب منظومة « يتيمة الدُّرر في النزول وآيات السور » ، وتوجد نسخة خطية منها بمكتبة شستر بيتى بدبلن – رقم ٣٩٦١ (٢) .
وللموصلي أيضاً « قصيدة في عدد آي السور » ، وتحتفظ مكتبة جامعة لَيْدن بمخطوطة لها تحت رقم ٢٥٨٠ (٣) ، ولم تجر مقابلة بين هاتين المخطوطتين .

وقال الناظمُ في آخر الأرجوزة :

« تِسْعُون بَعْدَ مائةٍ وَسِتَّه تَظْفَر معَ إيجَازِهَا بالبُغْيَه »

وهذه إشارة إلى أن الأرجوزة تشتمل على ١٩٦ بيتاً .

- مخطوط الخزانة العامة بالرباط - رقم ٢٤٢٧ ، كما توجد نسخة أخرى من الأرجوزة في المخطوط رقم ٢٤٢٨ بنفس الخزانة إلاَّ أنَّه يبدأ من البيت السابع عشر وهو :

« وانْقِل حُدُودَ ما تَراهُ يعسُرُ وانْظُر لِرَسْمِهِ عَسَاهُ يُيَسَّرُ »

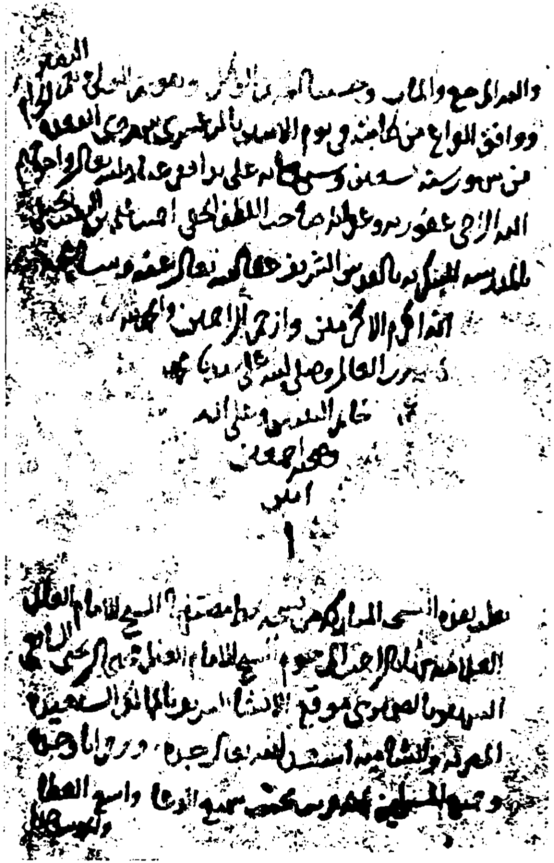
(٥) « أرجوزة في الحساب والمساحة »

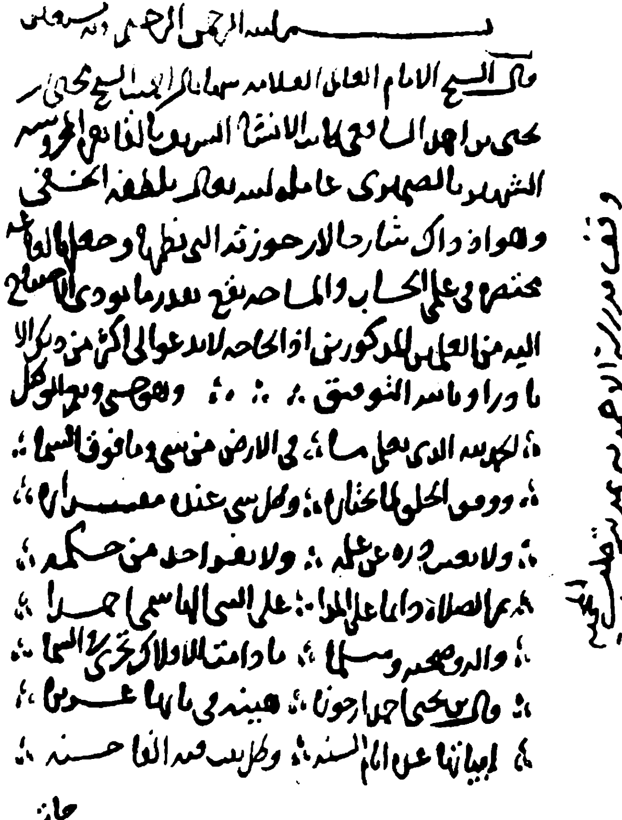
لشهاب الدين احمد بن محي الدين يحي بن احمد الشافعي الشهير بالضميري ، كاتب الإنشاء الشريف بالقاهرة المحروسة وبالشام (ألفَّها قبل سنة ٧٩٠ هـ = ١٣٨٨ م) .

ويجري مطلع الأرجوزة على النحو التالى[١] :

« الحَمْدُ للهِ الذي يعلَمُ مَا في الأرضِ مِنْ شَيْءٍ ومَافَوْقَ السَّمَا
ووفَّقَ الخَلْقَ لِما يختارُه وكل شيءٍ عندهُ مِقْدارُه
ولاَ تَغيبُ ذَرَّةٌ عن عِلْمِهِ ولا يَفِرُّ أحدٌ مِنْ حُكْمِهِ
ثمَّ الصَّلاةُ دائماً علىَ المَدَا عَلَى النبيِّ الهَاشِمِي أحْمَدَا
وآلِهِ وصَحْبِهِ وَسَلَّمَا مَا دامت الأفلاكُ تجري فِي السَّمَا »

(١) مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب - رقم ١٢٥٢ .





الصفحتان الأولى والأخيرة من أرجوزة أحمد الضيري في الحساب والمساحة

(مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب – رقم ١٢٥٢) .

(٦) منظومة « المقنع في علم الجبر والمقابلة » وشروحها

نَظْم شهاب الدين أبي العباس أحمد بن شمس الدين محمد ابن عماد الدين بن على المعروف بابن الهائم المصري المقدسي (٧٥٣ - ٨١٥ هـ) = (١٣٥٢ - ١٤١٢ م) ، وتتكون المنظومة من ٥٩ بيتاً من بحر الطويل ، وتُعرف « بلاميّة ابن الهائم » ، كذا « بالمنظومة اللاَّمية في الجبر والمقابلة » ، ومطلعها[١] :

« بحَمْدِ إلٰهى أَبْتَدي مَا أُحَاوِل وَأُهْدِي صَلاَةً مَعَ سَلاَمٍ يُشَاكِلُ
عَلَى المصْطَفَى خَيْرِ الأنَامِ وآلِهِ وأصْحَابِهِ ثُمَّ الدُّعَا يتَوَاصَلُ
لفَخْرِ الزَّمانِ المُنْتَمي بِجِلاوة عليّ[٢] عَلَيْه سُحْبُ جُودٍ هَوَاطِلُ »

ويستطرد ابن الهائم فيشير إلى الغرض من قصيدته ، فيقول :

« وَبَعْدُ فعِلْمُ الجبْرِ عِلْمٌ مُعظَّمٌ يَميلُ إليْه المُتْقِنُونَ الأَفَاضِلُ
وإنِّي لَحَاوٍ لُبَّهُ في قصِيدةٍ بِهَا يكْتَفي ذوُ فِطْنَةٍ ويُطَاوِلُ
وهَا أنَا سَاعٍ فِي الذي قَدْ قصدتُهُ وَعوْناً من المَوْلَى الحِجَى أنَا سَائِلُ »

ويختتم ابن الهائم منظومته بالأبيات الآتية :

« وهَذَا الّذي أوْردتُه فيه مَقْنَعٌ ولله حمدٌ دايمٌ يَتَواصَلُ
وتَتْلُوا صلاةٌ تُستدامُ عَلَى الرضَى مُحمَّدِ الهادي الكريم الشَّمائلُ
نِعْمَ الأولى هم[١] آلُه ثمّ صحبُه وأزواجُه الغُرُّ الكرَامُ الأفاضِلُ

(١) مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب - رقم : ١٢٤٢ ، كذا مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب - رقم : ١٧٨٩ .

(٢) يشير ابن الهائم هنا إلى شيخه العلاَّمة أبي الحسن على بن أبي الحسن الجلاوى المغربي المالكي (المتوفى سنة ٧٨٢ هـ = ١٣٨٠ م) .

وأبيـاتهـا تسـعٌ وخمسـون أُنْشِـأَت بـالأقْصَى وشَهْرَ اليُمْنِ فهى تُطَـاوِلُ
ربيـعُ منَ العـامِ الـذي ضُبِـطَ عَـدُّهُ بـدالٍ وضـادٍ فَـالبنَـا يَتَكامَـلُ »

في هذين البيتين الأخيرين يقرر ابن الهائم أن منْظومته تتكون من ٥٩ بيتاً ، وأنه قد أتمها في العام المقابل لدال وضاد ، وهذان الحرفان يقابلان بحساب الجُمَّل : د = ٤ ، ض = ٨٠٠ ، أي أن ابن الهائم قد فَرَغ من تأليف منظومته هذه سنة ٨٠٤ هـ = ١٤٠١ م بالمسجد الأقصى .

من مخطوطات منظومة « المقنع » لابن الهائم

١ - مخطوط مكتبة شستر بيتي بدبلن - رقم ٣٨٤٩ (٧) - ضمن مجموع ، الأوراق : ٨١ - ٨٣ ، ويرجع تاريخ نسخه إلى ١٦ صفر عام ٨٧٠ هـ = ٧ أكتوبر عام ١٤٦٥ م ، والمخطوط بخط على بن محمد بن على القدسي .

٢ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رياضيات ٩٦ ، رقم ٤٨٢٣ - عام .

٣ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - ضمن المجموع رقم ٦٠١٣ : الكتاب ٦١ .

٤ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم ٥٩٩١ .

٥ - مخطوط مكتبة جوتا - رقم ١٤٨٤ (٥) .

٦ - مخطوط مكتبة البلدية بالإسكندرية بمصر - رقم ٨٢ (٩) ضمن مجموع .

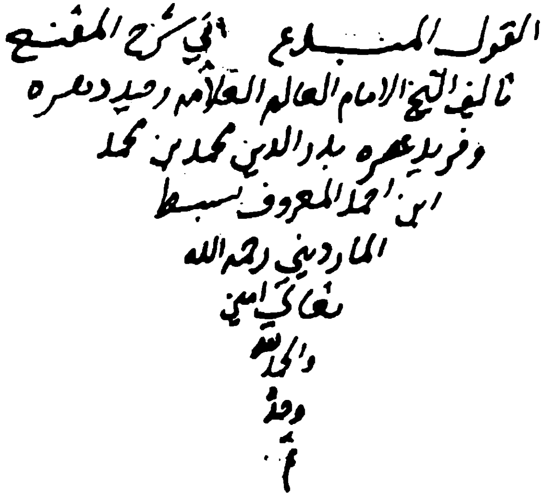
من شروح منظومة « المقنع » لابن الهائم

تعرَّض كثيرون لهذه المنظومة الرياضية بالشرح والتعليق ، أوَّلُهم ناظم القصيدة نفسه :

أولا : شروح ابن الهائم

كتب ابن الهائم على منظومته ثلاثة شروح هى :

(أ) « المُمْتع في شرح المقنع » ، وهو أكبر شروحه .



غلاف مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب – رقم ١٢٤٢ :
« القول المُبْدع في شرح المُقنِع » لِسبْط المارديني .

بسم الله الرحمن الرحيم . وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

الحمد لله الذي جبر قلوب أوليائه بحسن المقابلة يوم الحساب . وحط
عنهم الأوزار ورفع ذكرهم وأجزل لهم الثواب . أحاط بكل شيء علما
وأحصى كل الأشياء عددا . سبحانه وتعالى عالم الغيب فلا يظهر
على غيبه أحدا . إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه
ومن خلفه رصدا . أحمده على ما من به علينا من نعمه التي لا تحصى
وأشكره على مننه التي لا تستقصى . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده
لا شريك له فالق الأرض والسموات . وأشهد أن سيدنا محمدا
عبده ورسوله صاحب المعجزات . صلى الله وسلم عليه
وعلى آله وأصحابه ينابيع جذور السعادات . وبعد

فيقول فقير رحمة ربه محمد بن محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن الغزال
الدمشقي أصلا والمصري مولدا الشهير بسبط المارديني
غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين . هذا تعليق مختصر على القصيدة
اللامية التي من البحر الطويل من نظم الشيخ الإمام العالم العلامة
شهاب الدين أحمد بن الهائم رحمه الله تعالى المسماة بالمقنع في علم
الجبر والمقابلة والناظم رحمه الله كتب عليها شرحين سمى أحدهما
المرشد والآخر الممتع . فتأملت المرشد فرأيته في غاية الاختصار
ورأيت الممتع يميل إلى الصعوبة والإكثار فخطر لي أن أعمل شرحا
متوسطا بينهما يحصل به للمبتدي ملكة مع التيسير ويسهل عليه
مطالعة الشرح الكبير واعتمدت على الله سبحانه وتعالى
فيما قصدت فجاء بحمد الله كما أردت وهو حسبي ونعم الوكيل

قال الناظم رحمه الله تعالى .

بحمد إلهي ابتدي ... أول ... الهادي صلاة مع سلام تسلسلا

على

الصفحة الأولى من « القول المبدع في شرح المقنع » لسبط المارديني
(مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب - رقم ١٣٤٢) .

على أنه اسم فاعل من أقنع ومنه أخذ اسم القصيدة قاله الناظم وختم
القصيدة بالحمد والصلاة كما ابتدأ بهما رجاء قبولهما فيهما لوقوعها
بين القبولين. وقوله الكريم الشمائل رفع الشمائل على أنه فاعل
بالكريم وأل في الشمائل عوض عن الضمير على أنه مرفوع أي الكريم شمائله
والأولى بمعنى الذين أي الصلاة تعم الذين هم آله وصحبه إلى آخره
وتقدم في أول الكتاب ما يغني عن إعادته هنا قال

وأبياتها تسع وتسعون أنشئت . بالأقصى وشهر اليمن في شهر
ربيع في العام الذي ضبط عده . بدال وضاد فافهما [illegible]
أقول عدة أبيات هذه القصيدة تسعة وتسعون بيتا مثل عدة أبيات
الأرجوزة الياسمينية. والباء الموحدة في قوله بالأقصى للظرفية
بمعنى في أي أنشئت هذه القصيدة في المسجد الأقصى وفي شهر البركة
لأن اليمن هو البركة وهو شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانمائة وقوله
في تناول أي هذه القصيدة تناول عن هام مقدمات علماء العلم
لكون هذه القصيدة مع ما اشتملت عليه من نفائس الكلمات والمقاصد
أنشئت في بقعة شريفة في شهر شريف مبارك لأنه شهر ولادة سيد المرسلين
صلى الله عليه وسلم والدال المهملة في حساب الجمل الكبير بأربعة والضاد
المعجمة بثمانمائة وقوله فالبنا بيتها تم تكملة والله أعلم وحسبنا الله ونعم
الوكيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم قال المؤلف رحمه الله كمل
في تاسع عشري ذي القعدة الحرام سنة ٨٢٦ . علقها بيده الفانية لنفسه
ولمن شاء الله بعده، مفتقر رحمة ربه عبد الرحمن بن الشيخ .
سراج الدين الشوي الشافعي في يوم الأربع .
ثالث عشر شهر رمضان المعظم قدره .
سنة ٨٧٢ وحسبنا الله ونعم الوكيل .
والحمد لله وحده .
تم .

الصفحة الأخيرة من « القول المُبدع في شرح المُقنع » لسبط المارديني
(مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب - رقم ١٢٤٢) .

من مخطوطات شروح ابن الهائم على منظومته « المقنع »

(أ) من مخطوطات « الممتع في شرح المقنع »

١ - مخطوطة مكتبة شستر بيتي بدبلن[1] - رقم ٣٨٨١ (١) - ضمن مجموع ، الأوراق : ١ - ٦٨ ، وهذه هي نسخة المؤلف ، وتحمل تاريخ ١٣ جمادى الأولى سنة ٨١٠ هـ = ١٦ أكتوبر سنة ١٤٠٧ م ، أي أن الشرح تمّ بعد حوالي ست سنوات من تأليف المنظومة .

٢ - مخطوطة دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم : رياضيات ٩٧ - رقم ٢٤ - عام .

٣ - مخطوطة خزانة شهيد على بتركيا - رقم ٢٧٠٦ (٢) ، ضمن مجموع ، الصفحات من ٥٣ ب إلى ٨٠ ب ، وقد فُرغ من نسخها سنة ٨٧٨ هـ = ١٤٧٣ م .

٤ - مخطوطة مكتبة مكرم بمصر - رقم ٥٨ .

(ب) من مخطوطات « المُسْرِع مختصر المُمْتِع » لابن الهائم

وقد فَرَغَ ابن الهائم من تسويد كتابه « المُسْرِع » يوم الجمعة ثامن عشر جمادى الأولى سنة ٨١٠ هـ = ٢١ أكتوبر سنة ١٤٠٧ م بالمسجد الأقصى الشريف .

١ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم : 5991. We. 1791 ، ويقع في ١٠٠ صحيفة ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ٨٥٠ هـ = ١٤٤٦ م .

٢ - مخطوط مكتبة فيض الله - رقم ١٣٦٦ - ف ٨٨٣ ، ويقع في ١٣ ورقة ، وهو مكتوب بخط من القرن ٩ هـ = ١٥ م ، وهو مصوَّر بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة - رقم ١٢٨ رياضيات .

٣ - مخطوط مكتبة الأوقاف العامة في الموصل ، المجموع رقم ٢٢/١٣٨ : الكتاب العاشر ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ٩٨٠ هـ = ١٥٧٢ م .

٤ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رياضيات ٩٥ ، رقم : ٢٤ - عام .

---

(١) يُشار إليها في الفهرس المطبوع إلى احتمال كونها نسخة وحيدة ، ولكن وجود نسخ خطية أخرى لهذا الشرح ينفي الصفة الواردة في فهرس المكتبة .

٥ - مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - ضمن المجموع رقم ٦٠١٣ : الكتاب ٦١ .
٦ - مخطوط مكتبة البلدية بالإسكندرية بمصر - رقم ٢٤ حساب .

(جـ) من مخطوطات « المُسْمِع » لابن الهائم

كتاب « المُسْمِع شرح المقنع » في الجبر والمقابلة ، وكلاهما لابن الهائم :

١ - مخطوط مكتبة شستر بيتي بدبلن - رقم ٣٨٤٩ (٨) - ضمن مجموع ، الأوراق : ٨٤ - ٩١ ، وقد فُرغ من نسخه في ٢٠ صفر عام ٨٧٠ هـ = ١١ أكتوبر عام ١٤٦٥ م بخط علي بن محمد بن علي القدسي .

٢ - مخطوط مكتبة الأوقاف العامة في الموصل - ضمن المجموع رقم ٢٢/٨٨ : الكتاب الثالث ، ويعود تاريخ نسخه إلى سنة ٩٩٧ هـ = ١٥٨٨ م .

٣ - مخطوط خزانة الحجيات في مكتبة أوقاف الموصل بالعراق - رقم ٢٠٢ ضمن مجموع .

ثانياً : الشروح الأخرى على منظومة « المقنع »

د) من مخطوطات كتاب « القول المبدع في شرح المقنع »

لبدر الدين محمد بن محمد بن أحمد بن محمد الغزال الدمشقي المصري المعروف بسبط المارديني (المتوفى سنة ٩١٢ هـ = ١٥٠٦ م) ، وهو شرح له على كتاب « المقنع » لابن الهائم ، وهو شرح وسط بين شرحي ابن الهائم : « الممتع » و « المسرع » ، وقد أتمّ سِبْط المارديني شرحه هذا في التاسع والعشرين من ذي القعدة سنة ٨٧٦ هـ = ١٤٧١ م .

١ - مخطوط مكتبة شستر بيتي بدبلن - رقم ٣٣٦٢ (٥) - ضمن مجموع ، الأوراق : ١٣١ - ١٥٨ ، والمخطوط غير مؤرخ ، ولعلّ تاريخه يعود إلى القرن ١٠ هـ = ١٦ م على وجه التقريب .

٢ - مخطوط المكتبة الأحمدية بحلب - رقم ١٢٤٢ ، ويقع في ٢٣ صحيفة ، ومقاس صفحة المخطوط : ١٥,٥ × ٢١ سم ، فُرغ من نسخ المخطوط سنة ١٠٢١ هـ = ١٦١٢ م بخط عبد الرحمن بن سراج الدين الشنواني الشافعي الأزهري .

٣ - مخطوط المكتبة الوطنية بباريس - رقم ٦٥٤١ .

٤ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رياضيات ٨٦ ، رقم : ٧٥٧٥ - عام .

٥ - مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب - رقم ١٧٨٩ ، ويشتمل على ٢٦ صحيفة ، مقاس صفحة المخطوط : ١٢ × ١٨,٥ سم .

٦ - مخطوط مكتبة جوتا - رقم ١٤٩١ (٣) ، ضمن مجموع .

٧ - مخطوط مجموعة جاريسون - رقم ١٠٤٨ .

٨ - مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس - رقم ٤٣٣٨ ، ويقع في ٦٥ ورقة ، وهو مكتوب بخط مغربي ، وقد فُرغ من نسخه سنة ١٢٩٥ هـ = ١٨٧٨ م .

(هـ) من مخطوطات كتاب « فَتْح المُبْدِع في شَرْح المُقْنِع »

لأبي يحي زين الدين زكريا بن محمد بن أحمد بن زكرياء الأنصاري السنيكي الشافعي (٨٢٣ - ٩٢٦ هـ) = (١٤٢٣ - ١٥٢٠ م) .

١ - مخطوط برلين (فهرس ألوادرت) - رقم ٣٩٦٦ ، وفيه يبدأ الكتاب على النحو التالي :

« الحمد لله الذى جبر قلوب العلماء بامداد جذره المتين .. وبعد -

فإنّ « المُقنع » المنظوم على بحر الطويل في علم الجبر والمقابلة ، للإمام المحقّق ، والحَبَر المدقّق ، أبي العباس الشهاب احمد بن على الشهير بابن الهايم .. لمّا كان من أبدع كتاب في الجبر نُظم ، وأجمع موضوع فيه على مقدار حجمه رُقِم ، طلب مني بعض الأعزّة عليّ من الفضلاء المتردّدين إليّ ، أن أضع عليه شرحاً يحلّ باطنه ، ويُبيِّن مراده .. » .

٢ - مخطوط دار الكتب المصرية - رقم ١٩٢ رياضة - ف ١٠٣٥ ، ويقع في ٣٠ ورقة ، ويرجع تاريخ نسخه إلى سنة ١١٠٣ هـ = ١٦٩١ م ، والمخطوط مُصوَّر بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة - رقم : ١١٢ - رياضيات .

٣ - مخطوط جامع الشيخ ابراهيم بالإسكندرية رقم ٩٢ - ٣٤٢ ، ويضم ٩٤ ورقة ، وقد فُرغ من نسخه عام ١٢٣٦ هـ = ١٨٢٠ م ، وهو مصّور بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة - رقم ١١١ - رياضيات .

٤ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رياضيات ٨٧ ، رقم ٦٠٠٨ - عام .

٥ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رياضيات ٨٨ ، رقم ٢٤ - عام .

٦ - مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رياضيات ٨٩ ، رقم ٩٢٥٢ - عام .

٧ - مخطوط مكتبة البلدية بالإسكندرية - رقم : ٢٣ حساب .

٨ - مخطوط مجموعة جاريسون - رقم ١٠٤٩ .

(و) من مخطوطات الشروح الأخرى

١ - « شرح المقنع في الجبر والمقابلة »

للشيخ قاسم بن صلاح الدين الخاني الحلبي القادري (المتوفى سنة ١١٠٩ هـ = ١٦٩٧ م) .

- مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب - رقم ١٧٨١ ، ويقع في ٣١ صفحة ، ومقاس الصفحة ١٥ × ٢١ سم ، وقد فُرغ من كتابته سنة ١٠٧٥ هـ = ١٦٦٤ م .

٢ - « شرح على شرح المقنع »

لعبد القادر بن محمد بن أحمد الفيُّومي (المتوفى سنة ١٠٢٢ هـ = ١٦١٣ م) .

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - ضمن المجموع رقم ٦٠١٣ : الكتاب ٦٢ .

(٧) **منظومة البقاعي في الحساب والمساحة**

لبرهان الدين ابراهيم بن عمر بن حسن بن الرُّباط البقاعي الشافعي (المتوفى سنة ٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م) ، أولها :

« الحَمْـــــدُ للهِ الحَسِيبِ الفَـرْد   حَمْـداً كَثِيراً مَـالَــهُ مِنْ عَـدّ »

وقد فرغ البقاعي من نظمها سنة ٨٣٦ هـ = ١٤٣٢ م ، وله عليها شرح بعنوان :

« إباحة الباحة من علمي الحساب والمساحة »

- مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة - رقم : ٣ رياضة - ف ١٠٣٦ ، ويقع في ٩٩ ورقة .

(٨) **« الكَسْرُ في علم الحساب »**

نَظْم يشتمل على ٤١ بيتاً من تأليف الفقيه النحوي أبي بكر محمد بن محمد بن إدريس القضاعي القللوسي ، (٦٠٧ - ٧٠٧ هـ) = (١٢١٠ - ١٣٠٧ م) ،
ومطلع النظم :

« حَمْـدُ الإلَـهِ بِـهِ نسْتَرشِـدُ الـذِّكرا   وشُكْرُ آلآئِـهِ نَهْـدِي بِـهِ الفِكْرَا »

- مخطوط الخزانة العامة بالرباط - رقم ٢٤٤٥ .

(٩) **« منظومة في علم الفرايض والجبر والمقابلة »**

ومسايل نافعة

لابراهيم بن ابراهيم بن محمد بن أحمد بن ناصر النواوي ، أبو اسحق (كان حياً حوالى سنة ٨٥٤ هـ = ١٤٥٠ م ، وتقع هذه الأرجوزة في حوالى ألف بيت ، ومطلعها :

« الحمـــدُ للهِ الـــذِي أنْشَـــا الأُمَم   أبْـــدَاهم كمَا يَشَـــا مِنَ العَـــدَم

سُبْحَــانَـــه مِنْ مَلِـــكٍ تكــرَّمَــا   وعَلَّم الإنســـانَ مَــا لَمْ يعْلَمَـــا
مِنْ بَعْــدِ مَــا قَــدمتُـــه نـــأتى إلى   قصــد الـــذى ابـــدا لنـــا امرا عــلا »

ويختمها الناظم بالبيتين :

« وحَسْبُنَــــا اللهُ تعــــالىَ وَعَفَـــا   عَنْ ذَنْبِنَـــا بِجـــاهِ زين الشُّرَفَـــا
فـــإنَّـــه خَيْـرُ نبـىٍّ يُرْتَجَــا   ومَنْ أَتَى جنَـــابــه لَقَـــدْ نَجَـــا »

- مخطوط برلين (فهرس ألـوارد) - رقم : 5993 - Spr. 1832 ، ويبيِّن النـاظم على الصفحة 85 b من هذا المخطوط اسمه حيث يقول :

« وبَعْـــد ذَا كَـلاَمُنـــا ختـــامُـــه   مِسْـــكٌ بـــإذْنِ اللهِ جَـــا تَمَـــامُـــه
منتسبٌ بــــاسم خَليـــلِ اللهِ   نَـاظمُهـــا يرجـــو رضَـىَ الاِلَـــه
واسـمُـه بـاسـمِ أبيـه فـاحمـدِ   وجـــدّه محمـــدٌ بنُ أحمـــدِ
جَــدَّتُـــه أمُّ أبيـــهِ الحـلّـــةُ   بنتُ على كـــان فيـــه الخـلـــة
أبـــوُ علىّ اسمُـــــه أتى شُرف   والـــد محيي الـــدين مـــا فيـــه سَرف
قـايلهـــا نجـــل النـــواوى بلـــده   بلـــدةٌ مِن منهـــاجِـــه نعتقـــدُه
نسـيبُـــه قَريبُـــــهُ ابنُ شَـرَف   محيي علـــوم الـــــدين زَادَةُ الشَّرف »

وعلى الصفحـة 86 a يُسجِّل النـاظم تـاريخ انتهـائـه من نَظْم هـذه الأرجوزة في أواخر شهر رمضان المبارك عام ٨٥٤ هـ (١٤٥٠ م) ، وقد نسخ هذا المخطوط أحمد بن حسن علي ، وذلك سنـة ١٠٠٨ هـ (١٦٠٠ م) في شهر جمادى الثاني .

وهناك حاشية على هـذه المنظومـة ليحي بن تقى الـدين بن اسماعيل ابن عبـادة الحلبي حوالى سنة ١٠٢١ هـ (١٦١٢ م) في حياته .

(١٠) **أرجـوزة « فتح الوهَّاب في علم الحساب »**

للشيخ الإمام نور الـدين أبي الحسن على ابن الشيخ شمس الـدين محمـد ابن الشيخ الإمـام أبي العلا مجد الدين اساعيل الزمزمي المكي (كان حيا سنة ٨٧٨ هـ = ١٤٧٣ م) .

ومطلعها :

« قَــالَ عليُّ الــزَمْــزَميّ المَكى   الحمـــــدُ لله عظيمِ المُلْـــــكِ

وبَعــدَ ذِى نَظَمتُ في الحســابِ   سميّتُهــا فَتْحــاً مِنَ الـوهــابِ »

وعليهـا شرح لمؤلف غير مـذكور بعنوان : « شرح الفتح الوهـاب » وصِحَّتـه : « شرح فتح الوهاب في علم الحساب »

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم : 6002 .Pm. 402 ، ١٩ صحيفة ، ويشتمل على ٧١ بيتاً فحسب ، آخرها :

« فــإنْ فَنِى تِـمْ ودَوِّن الأسْفَـــلْ   إنْ يَبْـقَ شئٌ سَمِّـــهِ مِنْـــهُ اعْقَـلْ »

(من باب القسمة)

ويرجع تاريخ نسخ المخطوط إلى حوالي سنة ١١٠٠ هـ = ١٦٨٨ م .

(١١) **« منظومة في علم حساب العقود »**

لأبي الحسن على المعروف بابن المغربي .

- مخطـوط مكتبـة عمـوميـة - رقم ١٠٨٨ - ف ٨٤٤ (٣ ورقـات) مُصـوَّر بمعهد المخطوطات العربية بالقاهرة - رقم ١٤٢ رياضيات .
- مخطوط برلين ، ضمن المجموع رقم ٦٠١٣ : الكتاب الثامن والثلاثون ، بخط من القرن التـاسع الهجري تقريباً .

وتتناول هذه المنظومةُ بيان كيفية عَقْد الأصابع لتعطى أشكالا متمايزة للدلالة على الأعداد المختلفة بدءاً من الواحد وانتهاء بالعدد ٩٩٩٩ .

ومطلعها :

« يقـــول راجى الله منشئ السُّحبِ ... علىّ المعروفُ بابنِ المغربى

اعْلَمْ بأنَّ عقدك الأحادَا ... خصُّوا بها ثلاثةً أفرادا

فخنصرٌ وبنصرٌ وَوَسطَا ... وذاك في اليمينِ فاعْلَم ضبطاً »

وتشتمل المنظومة على ٤٦ بيتاً ، ويختمها ابن المغربى بالبيتين :

« وقَدْ تقضي مَا أردْت ذكرَه ... مُبيّنا لما كشفت أمره

وذَاك أقصَى ما يُرامُ عندَه ... ويُستَطَاعُ باليدَيْن عَدُّه »

(١٢) أرجوزة في الحساب بالاصطلاح القبطي

تأليف أبي الحسن على المعروف بابن المغربي .

أولها بعد الديباجة :

« هَذَا كِتابٌ مِنْ لَوْح الضَّبْط ... نَظْمُ حِسَابٍ باصطلاح القِبْطِ

الحَمْدُ لِلهِ القَديرِ العَالِمِ ... مُقسِّمِ الأَرْزاقِ بَيْنَ العَالَمِ »

- مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة - رقم ٣٩٥٧ ك - ضمن مجموعة : الأوراق من ٢٥٤ إلى ٢٥٦ ، وهو مكتوب بقلم نسخ دقيق .

وعلى الأرجوزة شرح بعنوان :

« شرح لوح الضَّبط حوت علم حساب القبط »

لعبد القادر بن على بن شعبان العوفى .

- مخطوط مكتبة أمانت خزينة سى بتركيا - رقم ١٧٢٥ - ضمن مجموع : الصفحات من ١٢ ب إلى ١٨ أ ، وقد كُتب المخطوط سنة ١٠٧٢ هـ = ١٦٦١ م .

(١٣) أرجوزة « لوح الضبط حوت على علم حساب القبط[1] »

لم يُذكر ناظمها ولعله أبو الحسن على المعروف بابن المغربي .

وتعرض المنظومة لكيفية بيان الأعداد بعقد أصابع اليد بشكل خاص ، وتشتمل على ٥٣ بيتاً .

- مخطوط مكتبة الأوقاف الإسلامية بحلب - رقم ٩٨٥ - ضمن مجموع[2] .

ومطلع الأرجوزة :

« الحمدُ لِلهِ القَديمِ العَالِمِ ... مُقسِّمِ الأرْزَاقِ بيْنَ العَالَمِ
مُسكِنِ البحرِ ومُجري الفُلْكِ ... وعَالِمِ حَصْرِ نُجومِ الفَلكِ
أرْسلَ فينا من بني عدنان ... نبيَّهُ بالصِّدقِ والقرآنِ
عَلَّمنَا الإسلامِ والإيمَانَا ... وأظهرَ الحكمةَ والبَيَانَا
صلَّى اللهُ عليه ذو الجلالِ ... والآلِ والأطهارِ خيرِ آلِ »

ويبيِّن الناظم فضائل علم الحساب ، فيقول :

« وَبَعْدُ فالحِسابُ عِلْمٌ نَافِعُ ... وَلاَ يَشُكُّ فِي مَقَالِي سَامِعُ
وإنَّه عِنْدَ عَزِيزِ الفَهْمِ ... أَشْرَف قَدْراً مِنْ كثيرِ العِلْمِ
بِهِ يَقُومُ القِسْطُ فِي الأَمْصَارِ ... ويُعرَفُ الحقُّ بِلاَ تَمَارِي
وتُقَسَّمُ الزَّكَاةُ فِي الأمْوالِ ... والإرْثُ للنِّسَآءِ والرِّجَالِ
هَذَا وإنَّ العُلَمَا صَنَّفُوا ... فِي عِلْمِ ذاكَ كُتُباً وأَلَّفُوا
حَتَّ أتوا بكلِّ تَصْنِيفٍ بهي ... يَنفعُ به كلَّ مُبْتَدٍ وَمُنْتَهى
وإنَّنى أَتَيْتُ كا لَمُزَاحِمِ ... اتبع فيه أثراً كُلَّ عَالِمِ

(١) في المخطوط : الخطّ ، ولعلّه تصحيف من الناسخ .

(٢) بعد كتاب « تشنيف السامع بعلم حساب الأصابع » لشيخ الإسلام برهان الدين الشربيني .

وَقَـدْ حَـدَا في الفهم أنْ أُصَنِّفَـا ... في عِلْمِـه شَيْئـاً وأنْ أُؤَالِفـه
أرجـوزةً تُـدعى بِلَـوْحِ الضَّبـطِ ... حَـوَتْ عَلَى عِلْمِ حسـابِ القِبْـطِ[1] »

ثم يمضي الناظم في بيان كيفية عقد الأصابع للدلالة على الأعداد ونتائج عمليات الحساب .

فبعد هذه الديباجة التى تضمَّنت اسم الأرجوزة ،يورد الناظم أربعة أبواب هى :

١ - باب عقد الآحاد

٢ - باب عقد العشرات

٣ - باب عقد الميات

٤ - باب عقد الألوف

(١٤) منظومة « مُنْيَة الحُسَّاب »

مُزدوجة في الحساب من نظمْ أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن محمد بن على بن غازي العثماني المكناسي ، وقد عاش في الفترة من سنة ٨٥٨ هـ حتى ١٠ جمادى الأولى من عام ٩١٩ هـ (١٤٥٦ - ١٥١٣ م) ، مطلعها :

« يَقُـولُ رَاجي العَفْـو والمَفَـازِ ... مُحمَّـدُ بنُ أحمـدِ بنُ غَـازي
الحَمْـدُ للهِ الَّـذيِ قَـدْ نَـوَّرا ... قُلُـوبَنَـا مِمـا بِـهِ تَفَجر

وَبَعْـدُ فـالقَصْـدُ بِـذَا الكِتَـاب ... نَظْـمُ المهمَّـاتِ مِنَ الحِسَـاب
ضَمَّنْتُـهُ مسـائـلَ التَّلْخِيص ... وَرُبَّمـا أَزْيَـدَ مِنَ التَّمحِيص »

وتُختتم المزدوجة بالبيت :

« واطْـرَبَ العِيسَ بِحُسْنِ النَّغَـم ... حَـاد يَسُـوقُهـا لِخَيْرِ حَرَم »

---

(١) في المخطوط : الخطّ ، ولعلّه تصحيف من الناسخ .

- مخطوطة برلين (فهرس ألواردت) - رقم : ٢٩٥٣ ، وتشتمل على ١٧ صحيفة .
- مخطوطة المكتبة الوطنية بباريس - رقم ٢٢٠٤ .
- مخطوطة الخزانة العامة بالرباط - رقم ٢٤٣٧ ، وبها شرح على هذه المنظومة ، ولايوجد من هذه المخطوطة سوى ثمان ورقات فحسب .
- مخطوطة الخزانة العامة بالرباط رقم : 443 (D 338) ، وهي نسخة تامة .
- مخطوطة المتحف البريطاني بلندن - رقم ٤٢٠ (١) - ضمن مجموع ، الأوراق من ١ إلى ١٠٦ ، ويرجع تاريخ نسخها إلى سنة ١١٤٦ هـ = ١٧٣٣ م ، وتشتمل هذه المخطوطة على شرح للناظم على منظومته .

شرح ابن غازي على منظومته

وهو بعنوان : « **بُغْيَةُ الطُّلاَّبِ فِي شَرْحِ مُنْيَةِ الحُسَّابِ** »

وقد فَرَغَ من تأليفه بمدينة فاس في شهر رمضان المبارك سنة ٨٩٥ هـ = ١٤٨٩ م .

- مخطوط دار الكتب المصرية بالقاهرة - رقم ٤٣٩٣ ك ، كُتب سنة ١١٢٩ هـ = ١٧١٦ م بقلم معتاد في ١١٣ ورقة ، وبالنسخة خرم .
- مخطوط الخزانة العامة بالرباط - رقم ٢٤٣٧ ، وهي نسخة ناقصة .
- مخطوط المتحف البريطاني بلندن - رقم ٤٢٠ (١) ضمن مجموع ، نُسخ سنة ١١٤٦ هـ = ١٧٣٣ م .

(١٥) « **اللُّباب في أصول الحساب** »

لجمال الدين محمد بن محمد بن عمر الشهير ببحرق الحضرمي (المتوفى سنة ٩٣٠ هـ = ١٥٢٣ م) .

ومطلع الأرجوزة :

« الحَمْدُ لِلهِ القَدِيمِ الأَبَدِي   حَمْداً يجيلُ عنْ تَنَاهي العَدَدِ »

وعليها شرح لنفس المؤلف بعنوان :

« كشف الحجاب في شرح اللُّبابّ في أصول الحساب »

- مخطوط خزائن كتب الأوقاف بالعراق - رقم ٦٢٩٣ (كشّاف طلس - رقم ٢٩٥٤) .

كذا بعنوان :

« تُحفة الطُلاَّب في شرح اللُّباب في أصول الحساب »

- مخطوط خزائن كتب الأوقاف بالعراق - رقم ٦٢٧٨ (كشّاف طلس رقم ٢٩٣٢ ، وقد كتب هذا الشرح سنة ١٠٧٠ هـ (١٦٥٩ م) ، وفي آخره أرجوزة في البلاغة أولها :

« الحَمْدُ لِلهِ وَصَلَّى اللهُ   عَلَى نَبِيِّهِ وَمُصْطَفَاهُ »

(١٦) منظومة الأَخْضَرِيّ في علم الحساب

وهي رسالة منظومة في علم الحساب للشيخ الفقيه أبي زيد عبد الرحمن بن محمدبن محمد المعروف بابن سيدي الصغير الأخضري[(١)] (كان حيّاً سنة ٩٤١ هـ = ١٥٣٤ م) .

وتقع المنظومة في ١١٧ بيتاً تغطي ثمانية أبواب بدءاً بحروف الغبار ثم العمليات الحسابية الأساسية الأربع من جمع وطرح وضرب وقسمه ، ثمَّ تعرج المنظومة إلى أبواب التسمية والاختبار والكسور .

وتوجد المنظومة مطبوعة في كتاب « مجموع المتون » طباعة القاهرة سنة ١٣٤٧ هـ ، كما توجد أيضاً في كتاب « مجموع المتون في مختلف الفنون » ، طبعة دولة قطر ، سنة ١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م ، الصفحات : ٥٠٤ - ٥١١ .

---

(١) للأخضري منظومة شهيرة في المنطق بعنوان : أرجوزة « السُلَّم المُرَوْنق في عِلْمِ المَنْطِق » توجد لها نسخ مخطوطة كثيرة ، كما كتبت عليها شروح عديدة .

وتبدأ المنظومة بالأبيات الآتية :

الباب الأول : في حروف الغُباري[1]

« حُرُوفُــه مَعْلُـومَـــةٌ مَشْهُـورَهْ ... مِنْ وَاحِــدٍ لتسعــةٍ مَــذْكُـورَهْ
وجَعَلُـوا صِفْراً عَـلاَمَـــةَ الخَـلاَ ... وَهْــوَ مُــدَوَّرٌ كَحَلْقَـــةٍ جَــلاَ
وَأَرْبَــعٌ مَرَاتِبُ الأَعْــــدَادِ ... أَوَّلُهَـــاَ مَرْتَبَــةُ الآحَـــادِ
وَالْعَشَراتُ بَعْـدَهَـا المِئُـونَـا ... مِنْ بَعْـدِهَـا الآلاَفُ يَــذْكُرُنَـا
وَمِنْ هُنَــا تَبَــدَّلُ الأَعْــدَادِ ... وَتَرْجِـعُ الآلاَفُ كَــالآحَـــادِ »

ونسوق فيما يلي بعض نماذج مما نظمه الأخضري في العمليات والقواعد الحسابية :

« الجَمْـعُ ضَمُّ عَــدَدٍ لِعَـــدَدِ ... لِكَيْ تَعُـــدَّهُ بِلَفْــظٍ مُفْرَدِ
فَتُجْمَـعُ الآحَــادُ لِـلآحَـــادِ ... وَهَكَـذا البَـاقِي عَلَى التَّمَــادِي

. . . . . .

الطَّرْحُ إِسْقَــاطُ قَلِيـلٍ مِنْ كَثِيرْ ... وَهْــوَ عَلَى سِتَّــةِ أَقْسَـامٍ يَصيرْ
فَــإِنْ طَرَحْتَ القَــدْرَ مِنْ كَثِيرِ ... فَــالطَّرْحُ فِيـهِ واضِـحُ التَّقْــديرِ

. . . . . .

إِعْلَمْ بـانَّ الضَّرْبَ تَضْعِيفُ العَــدَدْ ... بِقَــدْرِ مَــا في آخَرٍ مِنَ العَـــدَدْ
فَـاجْعَلْهُمَـا سَطْرَيْنِ كُـلُّ مَرْتَبَــهْ ... مَقْرُونَــةٌ بِــأُخْتِهـا مُرَتَّبَــهْ

. . . . . .

وَعَمَــلُ القِسْمَـــةِ في الحِســـابِ ... مِنْ أَحْسَنِ الفُصُــولِ والأَبْـــوابِ
فَلْتَجْعَــلِ المَقْسُــومَ فَــوْقَ الآخَرِ ... وَتَجْعَـلِ الإِمَــــامَ تَحْتَ الآخِـرِ

. . . . . .

---

(١) يقصد سلسلة الأرقام المستخدمة في المغرب العربي ومنها انتقلت إلى أوروبا والغرب ، وهي : 1 2 3 4 5 6 7 8 9 ، وعلامة الصفر 0 .

تَسْمِيَــــةٌ نِسْبَتُــــكَ القَلِيــلاَ   مِنَ الكَثِير فَـــاعْرِفِ التَّمْثِيــلاَ
فَــأَلْقِــهِ أَئِمَّــــةٌ لِتَقْسِمَــا   مِنْ بَعْــدِ أنْ تُحِلْــهُ فَلْتَعْلَمَــا

. . . . . .

الاختِبَــارُ آلَــةٌ قَــدْ عُلِمَــا   يُفِيــدُ في جَمِيــعِ مَــا تَقَــدَّمَــا
فَــاخْتِبَــارُ الجَمْــعِ ذُو وَجْهَيْنِ   إمَّـــا بِطَرْحِ أحَـــدِ السَّطْرَيْنِ

. . . . . . »

(١٧) منظومة « المُجْمَع »

أرجوزة في الرياضيات من نَظْم شرف الدين يحي بن موسى بن رمضان بن عميرة الأنصاري العِمْريطي المصري (المعروف بـالشرف العِمْريطي)(١) (المتوفى بعد سنة ٩٨٨ هـ = ١٥٨٠ م) ،وتشتمل الأرجوزة على ٥١٣ بيتاً ، ومطلعها :

« قَـــالَ الفَقِيرُ الشَّرفُ العِمْرِطي   ذو العَجْـــزِ والتَّقْصِير والتَّفْرُطي
الحَمْــدُ للهِ الَّــذِي قَــدْ يَسَّرَا   لَنَــا الحِسَــابَ والسَّحَــابَ سَيَّرا »

وترد سِمَاتُ الأرجوزة في الأبيات الآتية :

« أَبْيَـاتُهَـا مَعْـدُودَةٌ خمسايـة   وبعـدهـا ثـلاثُ عَشَـر مجـزيـة
أودعتهـا مِنْ فَنِّهـا فـوايـد   نفيسـة صَـارَت بهـا فَـرَايـد
قَـدْ جَمَعَتْ مِنْ ذَلِـكَ مَـا لَمْ يُجْمَـع   فِي أَصْلِهَـا فَسُمِّيتْ بِـالمُجْمَـع »

- مخطوط المتحف البريطاني بلنـدن - رقم ٤٢٠ (٣) - ضمن مجموع ، الأوراق ١١٠ - ١٢٤ ، وقد تمَّ نسخ المخطوط في أواسط شهر المحرم من عام ١١٤٥ هـ = ١٧٣٢ م .

---

(١) للشرف العِمْريطي منظومات في علوم أخرى نذكر منها :
(أ) « الدرَّة البهيَّة نَظْم الآجرومية » في النحو .
(ب) « تسهيل الطرقات في نَظْم الورقات (لإمام الحرمين) » في أصول الفقه .
(جـ) ألفيَّة « نهاية التَّهذيب في نَظْم غاية التقريب » في الفقه الشافعي .

(١٨) أرجوزة « نخبة التفاحة حاوية قواعد المساحة »

لعبد اللطيف بن أحمد بن محمد بن علي الدمشقي ، أبي الرضى .

وهي نظمٌ لمختارات من متن « التفاحة في علم المساحة » الذي يظهر مطبوعاً ضمن كتاب « مجموع المتون في مختلف الفنون » ، طبعة قطر ، سنة ١٤٠٢ هـ = ١٩٨١ م ، الصفحات : ٥١٢ – ٥٢٧ .

متن كتاب « التفاحة في علم المساحة »

مؤلِّف كتاب « التفَّاحة في علم المساحة » هو أبو الحسن أحمد بن محمد بن ابراهيم الأشعري اليمني النسَّابة شهاب الدين ، المتوفى سنة ٥٠٠ هـ = ١١٠٦ م ، وفي قول آخر بعد سنة ٥٥٠ هـ = ١١٥٥ م ، وفي قول ثالث سنة ٦٠٠ هـ = ١٢٠٣ م[١] .

ويشتمل الكتاب على مقدمة وبابين ، حيث تتناول المقدمة موضوع علم المساحة من حيث الأشكال الخطيَّة والسطحية والجسمية ومساحاتها وحجومها والمسائل المرتبطة بها ، بينما يعرض الباب الأول لمعرفة الأشكال المسوحة وبيان أصنافها ، أمَّا الباب الثاني فيقدِّم طرائق حساب المساحات بالنسبة للأشكال المستوية كالمربع والمستطيل والمعيَّن ، والشكل ذي الزنقة الواحدة وذي الزنقات المختلفة ، كذا المثلثات بأنواعها ، والأشكال المستديرة والمقوَّسة ، وأخيراً الأشكال ذات الأضلاع الكثيرة المتساوية منها والمختلفة ، كذلك يتناول هذا الباب إيجاد حجوم المجسَّمات ، ويشير إليها بمساحة الجرم ، حيث يبدأ بحجم المكعب وينتهي بإيجاد حجم المنشور ، وفضلاً عن ذلك يعرض هذا الباب في خاتمته لبيان كيفية استخراج ارتفاعات الجبال والقلاع والمنارات والأشجار ، كذا أعماق الآبار والوديان وعروض الأنهار بالطرق المساحية .

---

(١) راجع بروكلمان ، ذيل ١ : ٥٥٨ ، والترجمة العربية : جـ ٦ ، ص : ٤٢ .

من مخطوطات « التفاحة في علم المساحة »

١ - مخطوط برلين (فهرس الواردت) - رقم ٥٩٥٩ ، ضمن مجموع : الكتاب الثالث عشر .

٢ - مخطوط مكتبة آيا صوفيا باستانبول - رقم ٤٨٢٧ ، الصفحات من ٩٩ أ إلى ١٦٠ ب ، وقد كُتب المخطوط سنة ٩٢٨ هـ = ١٥٢١ م .

من مخطوطات شروح « التفاحة في علم المساحة »

(أ) شرح بعنوان : « **شرح التفاحة في علم المساحة** »

لشرف الدين يحي بن تقيّ الدين بن اسماعيل بن عبادة بن هبة الله الحلبي الشهير بالفرضي (٩٥٣ - بعد ١٠٢٦ هـ) = (١٥٤٦ - بعد ١٦١٧ م) .

- مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم ٧٥٨٢ - عام (رياضيات ١١٢) .

(ب) شرح بعنوان : « **مَشمَّة التفاحة بتحقيق المساحة** »

لمحمد بن عبد القادر بن محمد اليمني (المتوفى سنة ١٠١٥ هـ = ١٦٠٦ م) .

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) - رقم ٥٩٥٩ ، ضمن مجموع : الكتاب الخامس عشر .

من مخطوطات أرجوزة « نخبة التفاحة »

١ - مخطوط بعنوان : « **نخبة التفاحة حاوية قواعد المساحة** »

لعبد اللطيف بن أحمد الدمشقي .

- مخطوط مكتبة جوتا - رقم ١٥٠٠ .

٢ - مخطوط بعنوان : « **نخبة التفاحة في قواعد الحساب والمساحة** »

لعبد اللطيف بن أحمد الدمشقي .

- مخطوط دار الكتب الوطنية بتونس - رقم ٤٠٠٠ ، ضمن مجموع من رسالتين ، والمجموع به ٤١ ورقة ، وهو مكتوب بخط مشرقي .

من مخطوطات شرح الأرجوزة

يوجد شرح على الأرجوزة بعنوان : « شرح نخبة التفاحة في علم المساحة » للناظم نفسه .

- مخطوط دار الكتب الظاهرية بدمشق - رقم ١١٠١٢ - عام (رياضيات - ١١٤) .

(١٩) **« منظومة في تصاريف الأصابع في عقد العدد »**

وتقع في ٣٦ بيتاً ، من نظم مشرف بن قطرف ، أوله :

« فـأوَّل الـواجِبِ أنْ تَعلَمَ مَـا أَقُـولُـه يَـا صَـاحِبي مُقَـدَّمـاً »

- مخطوط الخزانة العامة بالرباط - رقم ٢٤٤٦ .

(٢٠) **« أجنحةُ الرّغَابِ فِي مِعْرفةِ الفَرَائِض والحِسَاب »**

أرجوزة في ٣٦ بيتاً لأبي سالم بن أبي القاسم السملالي ، ومطلعها :

« الحمـــدُ للهِ العَظِـيمِ المُنْعِـم عَلَىذَوِى العِلْـمِ بِجَمّ النِّعَـم »

- مخطوط الخزانة العامة بالرباط - رقم ٢٤٣٩ ، وفي هذا المخطوط قد ذُيّلت هذه الأرجوزة بنظمٍ من تأليف الشيخ أبي العباس احمد بن سليمان الجزولي الرسموكي المراكشي (المتوفى سنة ١١٣٣ هـ = ١٧٢١ م) ، ويشتمل هذا النظم (المضاف إلى الأرجوزة) على ٨٤ بيتاً ، فصار المجموع ١٢٠ بيتاً ، وأول الذيل :

« يقـولُ أحمـدُ الضعيفُ المنتسب إلى سُلَيْمانَ مِتْمَـامـاً نَسَـب

إلى أبِي سَـالِمِ السّمْـلاَلي العـالِمِ الفصيـحِ فِي المَقَـال »

ويوجد شرح على المنظومة من تأليف على بن أحمد بن محمد الجزولي الرسموكي (المتوفى سنة ١٠٤٩ هـ = ١٦٣٩ م) .

- مخطوط الخزانة العامة بالرباط – رقم ٢٤٣٨ ، فُرِغَ من نسخه عام ١٠٩٩ هـ (١٦٨٧ م) ، كما توجد نسخة مخطوطة أخرى من الذيل تحت رقم ٢٤٤٠ بنفس الخزانة .

(٢١) « كتاب الإرشاد للعلم بخواص الأعداد »

لمحمد بن على بن محمد بن على الشبراملسي المالكي (٩٩٧–١٠٨٧ هـ) = (١٥٨٨–١٦٧٦ م) .

- مخطوط برلين (فهرس ألـواردت) – رقم : 5997. Lbg 656 ، ويقع في ٧١ صحيفة ، وتاريخ نسخه : حوالي ١١٥٠ هـ = ١٧٣٧ م .

(٢٢) « منظومة في الحساب »

لأحمد بن محمد بن أبي بكر صاحب النحال (المتوفى سنة ١٠٦٥ هـ = ١٦٥٥ م) .

- مخطوط برلين – ضمن المجموع رقم ٦٠١٣ : الكتاب الخامس والثلاثون .

(٢٣) « منظومة في حلّ الأعداد »

لعبد الكريم بن على الخليفتى العباسى المدنى (المتوفى سنة ١١٣٣ هـ = ١٧٢١/٢٠ م) ، وتقع في ١٨ بيتاً ، ومطلعها :

« هَـذِهِ مَنْظُومَـة – النِّصْـف وَالخُمْسِ كَـذَاك العُشْـر »

- مخطوطة وحيدة بمكتبة رضا برامپور بالهند – رقم : 6532 M – (902) ، وترجع إلى القرن ١٢ الهجرى (١٨ الميلادى) .

(٢٤) أرجوزة « بُغْيَة الطُلاَّبِ وتُحْفَة الحُسَّابِ »

نَظْم عبد الفتاح بن ابراهيم (اللاذقي ؟) المالكي ، أنشأها سنة ١١٤٣ هـ = ١٧٣٠ م ، والناظم صاحب كتاب : « أسنى الغايات في علم الميقات »

- مخطوط مكتبة جامعة ليِدن بهولندا – رقم ٨٣٥٢ ، ويقع في ١٢ ورقة .

(٢٥) **أرجوزة في حساب العقود**

لمحمد بن حرب بن عبد الله النحوي الحلبي ، أبي المرجا (المتوفي سنة ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) .

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) – رقم ٦٠١٣ ، ضمن مجموع : الكتاب التاسع والثلاثون .

(٢٦) **« منظومة في كيفية العقد الحسابي بالأصابع »**

وهي قصيدة من البحر الطويل تقع في ٢٥ بيتاً ، لم يُعرف اسم ناظمها ، مطلعها :

« بِحَمْـــدِكَ يـــا الله أَبـــدَاً أَوَّلاً　　　فَمَا زِلْتَ أَهْلاً لِلْمَحَـامِدِ مُفْضَلا »

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) – رقم ٦٠١١ .

(٢٧) **« أرجـوزة في رموز العـدد »**

لم يُذكر اسم ناظمها

- مخطوط برلين (فهرس ألواردت) – رقم ٦٠١٢ ، ضمن مجموع : الكتاب الأول .

(٢٨) **« مخـدرات الجـور »**

منظومة في الرياضيات وأبحاث الكسور

- مخطوط كان محفوظاً بخزانة الحجَّار (المتوفى سنة ١٢٧٨ هـ = ١٨٦١ م) بحلب .

وعليها شرح بعنوان : « الجوهر المنثور »

لعبـد الرحمن بن أحمـد بن قـاسم شنون الحجَّـار الحلبي (من القرن ١٣ هـ = القرن ١٩ م) ، وهو ابن صاحب الخزانة .

(راجع مجلة معهد المخطوطات العربية – المجلد الثاني – الجزء الثاني ، نوفمبر سنـة ١٩٥٦ م ، صفحة ٢٦١) .

إن الأراجيز والمنظومات التي تعرض للعلم الرياضي لايزال جلُّها حبيساً في المخطوطات المحفوظة في خزانات الكتب العامة منها والخاصة ، لم يلق بعد ما هو أهل له من البحث والتحقيق والدراسة والشرح والتحليل ، ناهيك عما ضاع وتلف من ذلك التراث التليد ، ولقد استعنت في الدراسة الحالية بفهارس شتى للخزانات التي تحتفظ بالمخطوطات العربية في الشرق والغرب ، كما أنه قد سنحت لي الفرصة لزيارة بعضها والاطلاع على جانب من المخطوطات التي أشرت إليها، والقيام بدراسة بعضها .

وفي ختام هذا البحث أودُّ أن أؤكد أنني لا أدعي إحاطة بكل ما كُتب من أراجيز ومنظومات في مجال الرياضيات ، وأقرر أنني لا أزعم إصابة استقصاء لها ، وإنَّما ما سقته هنا لا يعدو عن كونه مجرَّد إشارة وتنبيه ، ومحاولة متواضعة للتعرُّف على تراثنا المنظوم في الرياضيات ، وجمع شتاته المبعثر في مكتبات العالم ، سعياً إلى توضيح قسمات هذه المنظومات التي تقف شاهدة على الجهود والإنجازات المتميِّزة لعلماء العرب والمسلمين ، يحدوني الأمل والرجاء في أن يستحوذ هذا المجال على اهتمام الباحثين ، فيخصُّونه ببعض وقتهم ، ويُفردون له جانباً من جهدهم .

الآثار الاجتماعية والنفسية للتحضر

الأستاذ الدكتور
إسحق يعقوب القطب
أستاذ بقسم الاجتماع - جامعة الكويت

مقدمـــــة :

لقد أخذ الاهتمام يتزايد لدى علماء الاجتماع وعلماء النفس في دراسة اتجاهات التحضر وخصائصه والآثار الاجتماعية والنفسية المترتبة على تضخم مجتمعات المدن والظواهر المرضية للنمّو الحضري غير المتوازن . وتشهد الدول العربية مرحلة تاريخية هامّة من التغير الاجتماعي وبصورة خاصة في مجال الحراك السكاني من الريف والبادية باتجاه المدن . وأصبح مجتمع المدينة العربية المعاصرة مزيج غير متجانس من الثقافات والجنسيات وأخذت المؤسسات تحلّ محلّ الأسرة والحارة والقبيلة في مختلف جوانب الحياة الاجتماعية . وأخذت المدينة الشرقية الإسلامية تفقد هويتها تدريجياً بسبب الغزو الحضاري الغربي والشرقي الذي أخذ ينتشر بسرعة ويظهر تأثيره واضحاً في العمران والقوانين والتشريعات ، وفي النظم الاجتماعية التربوية ، والأسرية والاقتصادية ، وفي مجالات الإعلام ، والدفاع الاجتماعي ، والمرور ، والصحة ، وغيرها . ان الزيادة المضطردة في سكان المدن والتطور التكنولوجي يؤثر في البناء الاجتماعي وفي العلاقات الاجتماعية ، وكذلك في التكوين الطبقي والقيم الاجتماعية . أن التغيرات التي تحصل في النظم الاجتماعية والاقتصادية تعكس آثارها على الفرد والأسرة من حيث التركيب والوظيفة وكذلك في نطاق نماذج السلوك والقيم .

أن الهدف من هذا التحليل توضيح مفهوم التحضر ومعانيه وأبعاده ، وكذلك تحليل خصائص النمو الحضري في الدول العربية ثم مناقشة الآثار الاجتماعية والنفسية للتحضر في حالة النمّو الحضري الطبيعي ، وغير الطبيعي . وفي نهاية التحليل ، سوف نتناول بعض البدائل في معالجة الآثار السلبية ، وتدعيم الآثار الإيجابية ، لعملية التحضر .

ولابد منذ البدء النظر إلى التحضر على أنه عملية اجتماعية سياسية اقتصادية . ويقصد بالعملية أولاً أنها تفاعل ديناميكي بين العناصر المكوّنة للتحضر . وهي السكان والبيئة والمؤسسات والعلاقات ، وتمتاز العملية كذلك ، بأن لها مراحل ، وقواعد ، وعوامل ، واتجاهات ، وأسس ، ومفاهيم محددة . أما أن التحضر عملية اجتماعية فيتضح ذلك من تكوين المجتمع الحضري وبناءه وطبقاته ومؤسساته وأنه يتميز بطابع يختلف عن باقي المجتمعات الريفية والبدوية والصناعية . وفيما يتعلق بالتحضر كعملية سياسية ، فإن المدن ترتبط بالنشاط السياسي على الصعيدين المحلي والدولي وغالباً ما يتركز النشاط الرسمي والدبلوماسي ، وتتخذ القرارات في العواصم والمدن الرئيسية ، كما أن المؤسسات الحكومية الرئيسية تتواجد في المدن . وتعتبر المدن الواجهة الحضارية للمجتمع . وإذا نظرنا إلى التحضر كعملية اقتصادية ، نجد أن الحركة الاقتصادية تتركز في المدن التي تمتص حصة الأسد من الاستثمارات الرأسمالية والتجارية والاستهلاكية . إن قوة العمل في المدن العربية غالباً ما تقوم بالوظيفة الاستهلاكية أكثر من قيامها بالوظيفة الانتاجية . ولذلك نجد أن العلاقات الانتاجية تتميز بالطابع التجاري والاستثماري أكثر مما تتخذ الطابع الانتاجي الصناعي . وهذا النمط يسهم في تكوين القيم الاجتماعية التي تتسم بالنظرة المادية للحياة والتبعية للدول المصدرة للانتاج والارتباط بالثقافات الخارجية ، ذلك لأن الاستقرار والاستقلال الاقتصادي يساعدان على الاستقرار الاجتماعي والسياسي . هذا بالإضافة إلى أن تكلفة الحياة واقتصاديات التحضر نمط من العمليات التي تتّسم بالتكلفة المرتفعة ونسبة الفاقد العالية .

مفهوم التحضر :

يعتبر مفهوم التحضّر من المصطلحات التي تحمل العديد من الاتجاهات والمعاني وتتفاوت الدول والعلوم في استخدامه . فيشير علماء الاجتماع إلى ضرورة التميز بين التحضر - التي تشير إلى الجوانب السكانية (الديمغرافية) للتجمعات البشرية ، وكذلك إلى العلاقات الايكولوجية

والخصائص الفيزيقية لنمو المدن – وبين مفهوم الحضرية كأسلوب للحياة . إذ أن الحضرية تشمل القيم الإنسانية والمميزات الثقافية والعلاقات والأفكار والسلوك الذي يتخذ طابعاً خاصاً يتميز فيه السكان في المدن عن غيرهم . كما أن هناك فرقاً بين التحضر والنموّ الحضري حيث أن التحضر عملية تتضمن تغيراً في النسبة المئوية للسكان الذين يقطنون المناطق الحضرية من جملة سكان الدولة (ويتم في هذه الحالة تعريف حجم المنطقة الحضرية مثلاً قد يكون ١٠,٠٠٠ نسمة أو ٥,٠٠٠ نسمة أو ٣٠٠٠ نسمة) . أما النمو الحضري فيشير إلى التوسع العمراني أو النمو السكاني الخاص بالقطاع الحضري ، أو النموّ في المؤسسات الحضرية (الاقتصادية والاجتماعية والثقافية) سواء أكان النموّ أفقياً أو عمودياً[١].

ويعرف التحضر لأغراض احصائية وتحليلية بأنه مجموعة السكان المقيمة في تجمعات بشريّة تقع في تصنيف المدن . ويشير إلدرج (Eldridge)[٢] إلى عنصرين يتضمنهما مفهوم التحضر – الأول تعدد محاور التمركز والثاني زيادة حجم الكثافة البشرية ، الأمر الذي يؤدي إلى ارتفاع نسبة السكان في المدن . وتخضع تصنيفات التجمعات السكانية إلى عدّة اعتبارات منها الإدارية والسياسية والتاريخية والثقافية والديمغرافية .

وقد تناول علماء الاجتماع التصنيف الثنائي للمجتمعات كما نجدها لدى دوركهايم في تفرقته بين مجتمع التضامن العضوي ومجتمع التضامن الألي ، وعند « هنري مين » بين مجتمع المكانة ومجتمع التعاقد ، وعند « تونيز » بين المجتمع المحلي والمجتمع العام ، وعند « روبرت ردفيلد » و « لويس ورث » بين المجتمع الشعبي أو التقليدي والمجتمع الحضري[٣]. وتشير هذه التصنيفات إلى وجود نمطين من المجتمعات بالنسبة للتركيب الاجتماعي ، والوظائف الاجتماعية وخصائص النظم الأسرية والسياسية والتربوية والدينية والاقتصادية .

وتشير هذه التصنيفات إلى التحضر على أنه نمط للحياة يمتاز بالعلاقات الثانوية والمؤسسات التطوعية واتساع نطاق تقسيم العمل وتعقّد الأدوار وتفكك القيم الاجتماعية . فالمدينة في نظر علماء الاجتماع المشار إليهم هي مركز الانفتاح والإشعاع الحضاري وتعقّد العلاقات الاجتماعية ومحور الاتصال والمواصلات وكذلك تزداد فيها أنماط المشاكل الاجتماعية المختلفة[٤].

وفي نطاق تفسير عملية التحضر في الدول العربية ، فقد أشار علماء الاجتماع إلى ثلاثة اتجاهات (ديمغرافي واقتصادي واجتماعي) فبالنسبة للاتجاه الديمغرافي فإنه يرتبط بنموّ المدن السريع الذي

شهدته المدن العربية بعد الحرب العالمية الثانية بسبب النمو السكاني الحضري الناتج عن التصنيف المستحدث حيث شمل العديد من المدن التي كانت أصلاً من عداد القرى ، ب - نتيجة للزيادة الطبيعية للسكان حيث ازداد الفرق بين المواليد والوفيات ، ومن جراء الحركة السكانية من البادية والريف إلى المناطق الحضرية .

أما الاتجاه الاقتصادي فيشير إلى التغيرات التي طرأت في البناء الوظيفي حيث انتقلت أعداد ضخمة من القوى العاملة من العمل في الزراعة والفلاحة إلى العمل في الصناعات والخدمات المتنوعة .

ويوضح الاتجاه الثالث إلى دور المدينة في توليد ونشر التغيرات الاجتماعية على المستويين المحلي والقومي ، واعتبرت المدينة كمركز ونقطة انتشار للأفكار والأعمال المستحدثة والتكنولوجيا المعاصرة التي تؤثر في تغيير الأوضاع التقليدية السائدة . وهذا يؤكد وجهة النظر القائلة بأن للمدينة نظاماً اجتماعياً خاصاً ومميزاً يؤثر في تشكيل شخصية مميزة للأشخاص القاطنين فيها(٥).

ويفسّر التحضر على أنه عملية من عمليات التغيّر الاجتماعي يتم بواسطتها انتقال أهل الريف إلى المدن واكتسابهم تدريجياً أنماط الحضر ، ويحدث التكيّف الحضاري إذا ما اكتسبوا أنماط وقيم المجتمع الحضري(٦).

ويمتاز المجتمع الحضري بكثافة سكانية عالية وأنماط مميّزة من الثقافة والأيديولوجية والتكنولوجيا الصناعية (سواء الأصيلة أو المستوردة) التي تتفاعل مع بعضها لتؤدي إلى تكوين المجتمع الحضري . وأصبح هذا النمط ظاهرة اجتماعية بارزة في المجتمعات العربية . وتشترك المجتمعات الحضرية العربية في العديد من الخصائص والملامح الحضارية سواء في الفن المعماري أو المعطيات الثقافية الإسلامية والتراث الحضاري المشترك ، كما تشترك في العوامل التي ساهمت في التحضر السريع سواء الجاذبة منها أو الطاردة مثل تمركز الخدمات المتنوعة في العواصم والمدن الكبيرة والمتوسطة ونمّو المراكز الحضرية أسرع من نمو المجتمعات الريفية ونتيجة لهذا النمّو غير المتوازن فنجد أن المدن العربية تواجه العديد من المشكلات الإدارية والاجتماعية والتنظيمية التي أخذ تأثيرها يزداد سنة بعد أخرى لدرجة أن التحضر المعاصر اتخذ صفة التحضّر المرضي .

وحتى تتضح لنـا اتجـاهـات وخصـائص التحضر في الوطن العربي لابـدّ من إجراء تحليل سكاني لتحديد مقومات النمّو الطبيعي خلال فترة ربع قرن مضت وكذلك في العقدين القادمين حتى عام ١٠٠٠ . وقياس نسبة السكان الحضر يرتبط بالتصنيف الأحصائي الـذي تستخـدمـه الـدول العربيـة الـذي يتفـاوت بين دولـة وأخرى ، فـالأردن على سبيل المثـال يعتبر كل تجمـع يضمّ ١٠,٠٠٠ نسمـة مدينة ومصر ١١,٠٠٠ نسمة والعراق ٥,٠٠٠ نسمة .

أما المقياس الذي استخدم في الجدول فيشير إلى المعيار الـذي اتخـذتـه الأمم المتحـدة في كتـابهـا السنوي الديمغرافي حيث يعتبر كل تجمع يضمّ ٢٠,٠٠٠ نسمة فأكثر من المراكز الحضرية .

جدول رقم (١)
النمو السكاني في البلاد العربية[٧]
السـكان بالألف

الدولـة	١٩٦٥	١٩٧٠	١٩٧٥	١٩٨٠	١٩٩٠	٢٠٠٠	معدل النمو السنوي٪	نسبة سكان الحضر
الجزائر	١١,٩٢٠	١٤,٣٣٠	١٥,٦٨٠	١٨,٥٩٤	٢٦,٥٢٥	٣٦,٠١٦	٣,٤١	٥٣,٧
مصـر	٢٩,٣٩٠	٣٣,٣٢٩	٣٦,٩١٦	٤١,٩٩٥	٥٢,٨٠٦	٦٤,٦٧٢	٢,٥٨	٤٣,٥
ليبيـا	١,٠٦٢٠	١,٩٩٠	٢,٤٣٠	٢,٩٧٧	٤,٢٨٩	٥,٧٦٨	٤,٠٦	٤٣,٧
موريتانيا	١,٠٣٠	١,٢٥٠	١,٤٢١	١,٦٣٤	٢,١٩٢	٢,٩١٩	٢,٧٩	٢٣,١
المغـرب	١٣,٣٢٠	١٥,٥٢٠	١٧,٣٠٥	٢٠,٢٩٦	٢٧,٨٤٠	٣٦,١٤٩	٣,١٩	٣٧,٤
الصومـال	٢,٥٠٠	٢,٧٨٩	٣,١٧٠	٣,٦٤٥	٤,٨٤٥	٦,٢٦٠	٢,٧٩	٢٦,٥
السـودان	١٣,٧٣٠	١٥,٦٩٥	١٦,٠١٥	١٨,٣٧١	٢٤,٢٩٩	٣١,٢٧٠	٢,٧٤	٢٠,٤
تونس	٤,٦٢٠	٥,١٣٠	٥,٦٠٨	٦,٣٦٤	٨,٠٤٥	٩,٥٦٣	٢,٥٣	٤٧,٦
البحـرين	١٨٠	٢١٥	٢٥٦	٣٠٢	٤١٦	٥٣٨	٣,٢٩	٧٨,١
العـراق	٨,٠٥٠	٩,٤٤٠	١١,٠٢٠	١٣,٠٨٤	١٨,١٧٦	٢٤,٢٤٠	٣,٤٣	٦٥,٧
الأردن	١,٩٥٠	٢,٣٠٠	٢,٧٠٢	٣,١٩٠	٤,٤٠٧	٥,٨٩٤	٣,٣٢	٥٢,٩
الكـويت	٤٨٠	٧٥٠	١,٠٠٢	١,٣٧٢	٢,١٩٤	٣,١٦٦	٦,٢٩	٨٣,٨
لبنـان	٢,٤١٠	٢,٤٧٠	٢,٧٩٩	٣,١٦١	٣,٩٩١	٤,٨٩١	٢,٤٣	٦٩,٨
عُمـان	٥٧٠	٦٦٠	٧٦٦	٨٩١	١,٢١٨	١,٦٥١	٣,٠٢	٦,١
قطـر	٧٠	١١٠	١٧٠	٢٢٠	٣٢٦	٤٣٤	٥,١٣	٨٣,٧
السـعودية	٦,٧٥٠	٦,٢٠٠	٧,١٨٠	٨,٣٦٧	١١,٤٥٨	١٥,٥٦٥	٣,٠٦	٥٨,٧
سـوريا	٥,٣٠٠	٦,٢٦٠	٧,٣٥٤	٨,٦٤٤	١١,٩٩٢	١٦,٢٩١	٣,٢٣	٤٦,٧
دولة الإمارات	١٧٠	٢٣٠	٥٥٨	٧٩٦	١,٢١٥	١,٦٣٥	٧,١١	٦٥,٣
اليمـن	٤,٣٥٠	٤,٨٤٠	٥,٢٨٢	٥,٩٢٦	٧,٦٤٨	٩,٩٦٢	٢,٣	٧,٩
اليمن الديمقراطية	١,٢٤٠	١,٤٤٠	١,٦٥٤	١,٨٩٠	٢,٥٢١	٣,٣٨٠	٢,٦٧	٣٤,٣
قطاع غزة	٣٠٠	٣٥٠	٣٩٠	٤٣٨	٥٤٧	٦٧١	٢,٣٢	٨٧,٠
المجموع	١١٨,٩٥٠	١٢٤,٩٤٣	١٣٩,٦٧٨	١٦٢,١٥٧	٢١٦,٩٥٠	٢٨٠,٩٣٥	٣,٢	٤٦,٢

يتضح من الجدول الحقائق التالية :

١ - لقد بلغ إجمالي السكان حوالي ١١٩ مليون نسمة عام ١٩٦٥ ووصل عام ١٩٨٠ حوالي ١٦٢ مليون نسمة ومن المتوقع أن يصل بنهاية القرن الحالي حوالي ٢٨١ مليون .

٢ - يتراوح معدل النمو السنوي للسكان سواء بسبب الزيادة الطبيعية أو الهجرة الدولية الوافدة بين أعلى حدّ لها ٧,١١٪ سنوياً بدولة الإمارات وأدنى حدّ ٢,٣٪ (باليمن) ، أما الترتيب التنازلي فهو كالتالي : الكويت ، قطر ، ليبيا ، العراق والجزائر وسوريا والمغرب والسعودية والبحرين وعمان وتليها باقي الدول .

٣ - أما الدول التي تمثل معدلات نمو سنوية منخفضة فتمثل اليمن الشمالي وقطاع غزة وتونس ومصر واليمن الجنوبي والسودان والصومال . والصفة المشتركة بين هذه الدول أنها مُصدّرة للقوى العاملة سواءً للدول العربية أو الأوروبية .

٤ - أن الصفة المشتركة بين الدول ذات معدلات الزيادة السنوية المرتفعة أنها دولاً نفطية وأنها مستقبلة للقوى العاملة الوافدة سواءً من العرب أو الأجانب وأن السبب الرئيسي للزيادة يكمن بسبب الهجرة الوافدة أكثر من الزيادة الطبيعية .

نستنتج مما سبق أن الدول العربية تعتبر من الدول ذات معدلات الزيادة المرتفعة بالرغم من التفاوت فيما بينها ويرجع هذا التفاوت إلى العوامل الاقتصادية خاصة في الدول النفطية التي تعتمد بدرجة كبيرة على استيراد العمالة الوافدة الأسيوية . ومن التساؤلات الهامّة في هذا المجال هل سوف تستمر الزيادة السنوية في كل دولة بنفس المعدل أم سيحصل تغيرات ، وهل سيستمر هذا التفاوت بنفس الدرجة أم سيقل أو يزيد بين نفس المجموعات أو يحصل نوع من التبدل ، وما هي الآثار الاقتصادية والاجتماعية المترتبة على ذلك خاصة فيما يتعلق بالنموّ الحضري وأنماط التجمعات الحضرية . وحتى تتضح خصائص النموّ السكاني تجدر الإشارة إلى معدلات المواليد والوفيات وتوقعات الحياة ، كما هو موضح في الجدول التالي .

جدول رقم (٢)
معدلات المواليد والوفيات وتوقعات الحياة
في البــلاد العربيــة[٩]
(١٩٧٥ - ١٩٨٠)

الدولــة	معدل الزيادة السنوية	معدل المواليد الخام	معدل المواليد (٪) الإجمالي	معدل الوفيات الخام	توقعـات الحيـاة	
					ذكور	إناث
الصومال	٢,٧٩	٤٨,٣	٣	٢٠,٤	٤١,٤	٤٤,٦
الجزائر	٣,٤١	٤٧,٥	٣,٥٥	١٣,٤	٥٥,٢	٥٧,٤
مصـر	٢,٥٨	٣٨,٦	٢,٥٥	١٢,٨	٥٣,٦	٥٦,١
ليبيـا	٤,٠٦	٤٧,٤	٣,٦٠	١٢,٨	٥٣,٨	٥٧,٠
المغـرب	٣,١٩	٤٥,٤	٣,٣٥	١٣,٦	٥٣,٨	٥٧
الســودان	٢,٧٤	٤٥,٨	٣,٢٠	١٨,٤	٤٥,٥	٤٧,٥
تونس	٢,٥٣	٣٦,٧	٢,٨٠	١١,٥	٥٦,٣	٥٨,٤
موريتانيا	٢,٧٩	٥٠,٢	٣,٤٠	٢٢,٤	٤٠,٦	٤٣,٨
البحــرين	٣,٢٩	—	—	—	—	—
اليمن الديمقراطية	٢,٦٧	٤٧,٥	٣,٤٠	٢٠,٨	٤٢,٩	٤٥,١
قطاع غزة	٢,٣٢	—	—	—	—	—
العراق	٣,٤٣	٤٧,٢	٣,٤٠	١٣,٠	٥٣,٦	٥٦,٧
الأردن	٣,٣٢	٤٦,٠	٣,٤٠	١٢,٨	٥٤,١	٥٧,٢
الكويت	٦,٢٩	٤٦,٦	٣,٤٠	٤,٦	٦٧,٣	٧١,٦
لبنـــان	٢,٤٣	٣٢,٧	٢,٣٠	٨,٤	٦٣,٢	٦٧,١
عُمــان	٣,٠٢	٤٨,٩	٣,٥٠	١٨,٦	٤٦,٢	٤٨,٤
قطــر	٥,١٣	—	—	—	—	—
السعودية	٣,٠٦	٤٨,٨	٣,٥	١٨,٣	٤٦,٧	٤٩,٠
ســوريا	٣,٢٣	٤٥,٢	٣,٦	١٢,٩	٥٥,٧	٥٩,٣
الإمارات	٧,١١	—	—	—	—	—
اليمــن	٢,٣	٤٨,٣	٣,٣	٢٥,٤	٣٨,٧	٤٠,٣

يتضح من الجدول ما يلي :

١ - أن معدل المواليد الخام لدى معظم الدول العربية يزيد عن ٤٥ مولود لكل ألف من السكان باستثناء لبنان وتونس حيث ينخفض فيهما المعدل إلى ٣٢,٧ و ٣٦,٧ مولود لكل ألف من السكان على التوالي . وقد يرجع السبب في انخفاض معدلات المواليد إلى سياسة تنظيم الأسرة وتحديد النسل التي تتبناها الدولتين بالإضافة إلى عوامل حضارية وثقافية واقتصادية أخرى .

أما بالنسبة للخصائص المشتركة بين الدول العربية التي ترتفع فيها معدلات المواليد فإنها تنحصر في العوامل الدينية والنمط الاجتماعي والقيم الاجتماعية التي تدعو إلى الإنجاب وكثرة النسل . ونلاحظ أيضاً أنه بالرغم من التقدم الحضاري الذي شهدته البلاد خلال ربع القرن الأخير إلاّ أن ذلك لم يسهم في تغيير الاتجاهات نحو الإنجاب أو حجم الأسرة .

كما نلاحظ أنه بالرغم من ارتفاع نسبة السكان الحضر في العديد من الدول العربية إلا أن ذلك لم يؤثر في انخفاض معدلات المواليد على عكس النظريات الاجتماعية الديمغرافية التي تربط بين التحضر وانخفاض معدلات المواليد ويرجع ذلك إلى حقيقة واضحة وهي أن النموّ الحضري في معظم البلاد العربية ناجم عن الهجرة من الريف والبادية ، ويحمل المهاجرون للمدن معهم القيم الاجتماعية والثقافية لمجتمعاتهم ويسكنون في العشش وضواحي الكرتون والصفيح على أطراف المدن وقد تطول عملية التطبيع للقيم الحضرية والاتجاه نحو تنظيم الأسرة وتخطيط الولادات . هذا علاوة على السياسات التي تتخذها بعض الدول العربية التي تدعو إلى زيادة النسل وتوفير الحوافز المادية كما هو في السودان وسوريا ودول الخليج والعراق .

وإذا أخذنا معدلات الوفيات الخام فنلاحظ أيضاً أن الدول العربية يمكن أن تصنف من ضمن مجموعة ذات المعدلات المرتفعة ، كما يمكن أن تقسم الدول إلى مجموعتين :
الأولى ذات معدلات مرتفعة وتضم كلاًّ من : موريتانيا واليمن الشمالي واليمن الديمقراطي والصومال والسعودية والسودان وعمان .
والثانية ذات معدلات متوسطة وتضم كلاًّ من : الجزائر ، مصر ، ليبيا ، المغرب ، وتونس والأردن والعراق وسوريا . أما الكويت ولبنان فإن معدلاتها منخفضة قياساً بالدول الأخرى .

ونلاحظ العلاقة العكسية بين التحضر ومعدلات الوفيات ، إذ أن الدول التي تنخفض فيها معدلات التحضر ترتفع فيها معدلات الوفيات ، وأن الدول التي ترتفع فيها معدلات التحضر تنخفض فيها معدلات الوفيات ، ويرجع ذلك إلى عدة عوامل منها الوعي الصحي والتغذية والوقاية والمستوى التعليمي بالإضافة إلى العوامل الأخرى - الاقتصادية والثقافية والاجتماعية .

وأما فيما يتعلق بتوقعات الحياة عند الذكور والإناث فإن الدول العربية لا تختلف معدلاتها عن باقي الدول الأفريقية والأسيوية ودول العالم الثالث بصورة عامة حيث ترتفع المعدلات فيها قليلاً عن المتوسط في هذه الدول . ويصل أدنى حدّ للذكور في كل من اليمن الشمالي واليمن الديمقراطية والصومال (بين ٣٨,٧ و ٤١,٤ سنة) وللإناث بين ٤٠,٣ و ٤٤,٦ سنة . أما أعلى حدّ فقد سجلته الكويت (٦٧,٣ سنة للذكور) و (٧١,٦ سنة للإناث) تليها لبنان (٦٣,٢ سنة للذكور و ٦٧,١ سنة للإناث) أما بالنسبة للدول الباقية فتتراوح توقعات الحياة حوالي ٥٥ سنة .

هل هناك علاقة بين توقعات الحياة والتحضر ؟ في حالة الدول العربية يمكن أن ينطبق ذلك في حالة دولة أو دولتين فقط (الكويت ولبنان) في حالة ارتفاع معدلات التحضر وفي الصومال واليمن الديمقراطية وعُمان واليمن الشمالي في حالة انخفاض معدلات التحضر .

وباختصار فإن الخصائص الديمغرافية لها أهمية بالغة في عملية التحضر والنموّ الحضري في الدول العربية ، إذ أنها ترتبط بالعوامل الدينية والثقافية والاقتصادية والسياسية ، كما أن الفروق الحضرية - الريفية - البدوية في معدلات المواليد والوفيات ليس لها علاقة مباشرة بالتحضر كنمط حياة أو أسلوب معيشة ، ذلك لأن معايير التحضر المستخدمة في هذا المجال تنطوي على الخصائص الكمية السكانية أكثر من النوعية أو النظم الاجتماعية .

ومن المهمّ معرفة العلاقة بين معدلات النموّ السنوية للسكان ومقارنتها مع معدلات النموّ الحضرية في الدول العربية من ناحية ومعدلات النموّ في المدن الرئيسية (أو العواصم والمدن المسيطرة) لأن ذلك يوضح لنا جوانب هامة من خصائص النموّ الحضري .

والجدول التالي يوضح العلاقة بين النمو السكاني والنمو الحضري في بعض الدول العربية .

جدول رقم (٣)
نسبة السكان الحضر* إلى إجمالي السكان في البلاد العربية في السنوات المختلفة[١٠]

الدولة	١٩٥٠		١٩٦٦		١٩٧٥		١٩٨٠	
	السكان/مليون	الحضر ٪	السكان/مليون	٪ حضر	السكان/مليون	٪ حضر	السكان	٪ حضر
الجزائر	٨,٩	٢٥	١١,٨	٣٩	١٥,٦	٥٢,١	١٨,٦	٥٤,٢
مصر	٢٠,٥	٣٢	٣٠,-	٤١,٢	٣٧,-	٤٣,٧	٤٢,	٤٩,٥
ليبيا	١,١	٢٢	١,٧	٢٥,٨	٢,٤	٢٩,٨	٢,٩	٣٢,٧
موريتانيا	٠,٧	٢	١,-	١٢,-	١,٤	٢١,٧	١,٦	٢٣,١
المغرب	٩,-	٢٣	١٣,٧	٣٠,٥	١٧,٣	٣٧,٩	٢٠,٢	٣٨,٢
السودان	١٠,-	٦	١٤,١	١٠,٦	١٦,-	١٣,٢	١٨,٣	٢١,٤
تونس	٣,٦	٣١	٤,٥	٤٠	٥,٦	٤٦,١	٦,٣	٤٩,٣
الصومال	١,٨	٣	٢,٦	٦	٣,١	١٦,٢	٣,٦	٢٤,٥
البحرين	٠,١	٧١	,١٦	٧٤	٠,٢٢	٧٨,٥	٠,٣	٧٩,١
العراق	٥,٢	٣٥	٨,٣	٢٥,٥	١١,-	٦٢,٨	١٣,-	٦٦,٢
الأردن	١,٣	٢٥	٢,-	٣٨	٢,٧	٤٣	٣,٢	٥٣,٧
الكويت	,٢	٥١	,٥٢	٦٢	٠,٩٣	٨٨	١,٣	٩٠,٢
لبنان	١,٨	٤٠	٢,٥	٥٦	٢,٨	٦٥	٣,١	٦٨,١
عُمان	,٥	٣	٠٠,٥٨	٧,٥	٠,٧٦	١٠	٠,٨٩	١٣,١
قطر	,٠٢	٥٠	٠,٠٧	٦٧	,١٧	٧٧,٥	,٢٢	٨٥
السعودية	٥,٣	٩	٦,٩	٢٣	٧,١	٣٢,١	٨,٣٦	٦٠,٢
سوريا	٣,٤	٣٥	٥,٥	٤١	٧,٣	٤٦,١	٨,٦٤	٤٨,٣
دولة الإمارات	٠,٠٨	٢٥	٠,١٧	٥٠,٦	٠,٥٥	٦٥,٢	٠,٨	٦٨,٧
ج . ع . يمنية	٤,-	٢	٥,٢٥	١٠,١	٥,٢	١٦,١	٥,٩٢	١٨,٢
اليمن الديمقراطية	,٧	٩	١,٢	٢٦,٣	١,٦	٢٩,٢	١,٨٩	٣٦,٣
قطاع غزة	٠,٢١	٤١,-	,٣	٤٧,١	,٣٩	٥٢,١	٠,٤٣	٨٨,١
المجموع	٧٥,٤	٢٥,-	١١٣,٩	٣٦	١٣٩,٦	٤٣	١٦٢,١	٤٧,٢

* يقصد بالسكان الحضر الذين يقطنون المدن التي يبلغ عدد سكانها ٢٠,٠٠٠ نسمة فأكثر وفق المعايير الدولية .

يتضح من الجدول الحقائق التالية :

١ - لقد زاد معدل السكان الحضر خلال الفترة ما بين ١٩٥٠ و ١٩٨٠ حوالي ٢٢٪ أي تضاعف تقريباً ، أي أنه في نهاية القرن الحالي سوف يصبح نسبة السكان الحضر حوالي ٧٠٪ من إجمالي السكان . إن مثل هذا الوضع يشير إلى تطورات هامة في التوزيع السكاني وكذلك يشير إلى تغييرات أساسية في التنظيم الاجتماعي وكذلك في نمط وعلاقات الإنتاج وسوف نتطرق إلى هذا الموضوع في مرحلة لاحقة .

٢ - تتفاوت نسب التحضر بين الدول العربية بدرجة عالية بحيث يصل أعلى حدّ في الكويت (٩٠,٢٪) وأدنى حدّ في عمان (١٣,١٪) وذلك عام ١٩٨٠ . ويرجع هذا التفاوت إلى عدة عوامل منها النظام الاقتصادي وطبيعة الإنتاج الزراعي والصناعي والدخل القومي ومصادره وطبيعة تقسيم العمل وملكية الإنتاج وأدواته .

ويمكن تصنيف الدول العربية بالنسبة لدرجات التحضر حسب القياس الذي استخدمه جيرالد بريس مع تطويره بما يلائم الوضع في البلاد العربية على النحو التالي :

١ - تحضر مرتفع ٥٠٪ فما فوق في المناطق الحضرية .
٢ - تحضر متوسط من ٢٥٪ - ٤٩٪ .
٣ - تحضر منخفض أقل من ٢٥٪ .

وإذا طبقنا هذا المقياس على الدول العربية لعام ١٩٨٠ نخلص إلى ما يلي :

ا - الدول ذات التحضر المرتفع :

الكويت	(٩٠,٢٪)	البحرين	(٧٩,١٪)	قطر	(٨٥٪)		
قطاع غزة	(٨٨,١٪)	لبنان	(٦٨,١٪)	دولة الإمارات	(٦٨,٧٪)		
السعودية	(٦٠,٢٪)	العراق	(٦٦,٢٪)	الجزائر	(٥٤,٢٪)		
الأردن	(٥٣,٧٪)						

وأهم الخصائص المشتركة بين هذه الدول هي :

إنتاج النفط وتسويقه واستثمار العائدات في المشروعات الاقتصادية والاجتماعية وخاصة في بناء

المؤسسات الهيكلية في مجالات الإسكان والتعليم والصحة والإعلام والتصنيع والدفاع الاجتماعي والمرور والترويح وغيرها من الخدمات اللازمة وقد تمركزت معظم هذه المؤسسات في المدن الرئيسية والعواصم . أما لبنان فتختلف عن هذه الدول في أنها دولة عالمية تمكنت من جذب رؤوس الأموال واستثمارها في العمران والنشاط التجاري والمصرفي والثقافي الذي تركز بصورة رئيسية في مدينة بيروت . كما أن الدول الخليجية تعتبر من الدول المستوردة للعمالة العربية والأسيوية التي يعزى إليها ارتفاع معدلات النمو الحضري السنوية وكذلك ارتفاع نسبة التحضر في المدن الرئيسية . كما أن ارتفاع معدل دخل الفرد السنوي (بعضها يناهض المعدلات العالمية مثل الكويت وقطر ودولة الإمارات العربية المتحدة) وارتفاع مستوى المعيشة . وأما بالنسبة للأردن فإن النمو الحضري فيها يعزى إلى عدة أسباب منها هجرة الفلسطينيين بعد عام ١٩٤٨ وبعد حرب ١٩٦٧ وكذلك الهجرة بعد الأحداث اللبنانية بالإضافة إلى انفتاح الاقتصاد الأردني لاستثمارات المغتربين في دول الخليج الذين انحصرت استثماراتهم في عمان والمدن الرئيسية بصورة خاصة .

ب - دول ذات تحضر متوسط :

ويندرج تحت هذا التصنيف كلاً من :

مصر	(٤٩,٥٪) تونس	(٤٩,٣٪) سوريا	(٤٨,٣٪)
المغرب	(٣٨,٢٪) ليبيا	(٣٢,٧٪) اليمن الجنوبي	(٣٦,٣٪)

ومن الخصائص المشتركة بين هذه الدول أنها تمرّ في مرحلة انتقالية سريعة من الإنتاج الزراعي والحيواني إلى التصنيع المتوسط والخفيف بالإضافة إلى زيادة معدلات الهجرة الداخلية من الريف إلى المدن[11]. إن السبب الرئيسي للهجرة الداخلية هو عامل الطرد من الريف والبادية بسبب ضعف الإنتاج وانخفاض مستوى الدخل وارتفاع تكلفة الإنتاج الزراعي والحيواني وضعف مستوى الخدمات الاجتماعية والصحية والثقافية وقلة الاهتمام الذي تحظى به المناطق الريفية في خطط التنمية الاقتصادية والاجتماعية . ومن ناحية أخرى فإن نمو المدن الرئيسية زاد من جاذبيتها لما يتوفر فيها من فرص للعمالة ومميزات حضارية وتكنولوجية .

جدول رقم (٧)
التحضر وبعض المؤشرات الاقتصادية والاجتماعية في عدد من الدول العربية[١٣]
عـــام ١٩٧٥

الدولـــــة	نسبة التحضر (٪)	نسبة السكان النشيطين اقتصاديا ١٥ سنة + عدد السكان	الدخل القومي للفـــرد (دولار)	نسبة الأمية ذكور ٪	نسبة الأمية إناث ٪
البحـــرين	٨٠,١	٢٦,٧	١,٣٥٠	٤٢	٦٤
مصـــــر	٤٣,٧	٣٠,٥	٢٨٠	٤٣,٢	٧١
العــــراق	٦٢,٨	٢٥,٢	١,١٠٠	٥٨,٥	٨٢,٨
الأردن	٤٣,	٢٣	٤٣٠	١٩	٤٥,٧
الكـــويت	٨٨,٦	٣٠,٦	١١,٦٤٠	٣٢,-	٥٢,-
لبنـــــان	٦٥	٢٦,٩	١,٠٨٠	٢٠	٤٤
عُمـــــان	١٠	–	١,٦٦٠	٦٥	٦٨
اليمن الديمقراطية	٣٣,٣	٢٦,٦	٢٢٠	٥٢	٩١
قطـــــر	٧٧,٥	٤٧,٢	٧,٢٤٠	٦٥	٩٨
الســـعودية	٣٢,١	٢١,-	٢,٨٣٠	٤٦,٥	٩٨
ســـوريا	٤٦,١	٢٥,-	٥٦٠	٥٦,٥	٧٦
دولة الإمارات	٦٥,٢	٥٣,١	١٣,٥٠٠	٦١,٨	٦١,٩
ج . ع . يمنية	١٦,١	٢٥,١	١٨٠	٣٨,٣	٩٨,٤

يتضح من الجدول الحقائق التالية :

١ - هناك علاقة طرديّة بين التحضر وارتفاع معدل الدخل السنوي للفرد وبصورة خاصة في دول الخليج (دولة الإمارات ، والكويت ، وقطر ، والسعودية ، والبحرين ، والعراق) وتنخفض نسبة التحضر في الدول ذات معدل الدخل المنخفض مثل (اليمن الديمقراطية والجمهورية العربية اليمنية) .

أما بالنسبة للأردن وسوريا ومصر حيث ترتفع نسبة التحضر وتنخفض معدلات الدخل فإن السبب يرجع إلى حركة السكان الداخلية من الريف إلى المدن ، كما أن ارتفاع معدلات المواليد في المدن بالإضافة إلى الموارد الطبيعية المحدودة وأن الإنتاج القومي من المصادر المختلفة يختفي تأثيره في رفع معدلات الدخل للفرد بسبب الزيادة السكانية المستمرة .

وتجدر الملاحظة أن الدول النفطية ذات الدخل القومي المرتفع ومعدلات التحضر المرتفعة تعتمد على القوى العاملة الوافدة التي تتمركز في المدينة الرئيسية ، إذ أن عمليات إنتاج النفط واستثمار العوائد في المشروعات الإنمائية تتطلب زيادة الكثافة الحضرية وتوفير المستوى المعيشي المناسب وكذلك الخدمات والمؤسسات التابعة لها والارتباط الاقتصادي والتجاري الدولي وحركة المواصلات والاتصال الجوي والبري والبحري ... كل ذلك يؤدي إلى تضخم المدينة بل نمو المدينة الواحدة - مدينة الدولة .

أما العلاقة بين التحضر ومعدلات الأمية ، فإن الوضع يتفاوت بين الدول العربية ، وبصورة عامة يمكن القول أن ارتفاع معدلات الأمية سواء بين الذكور أو الإناث تتواجد في الدول ذات المعدلات الحضرية المرتفعة . وهذه الحقيقة تؤكد بعداً مميزاً لخصائص التحضر في الدول العربية مفادها أن نسبة التحضر المرتفعة وفق المعيار السكاني لايلازمها بالضرورة التقدم في المستوى الحضري النوعي والحياة العصرية ، والرقي الحضاري المماثل بل ربما أن مجتمعات المدن العربية المعاصرة وأن تعاظمت في ضخامتها إلا أن الحياة الاجتماعية والعلاقات والخصائص الثقافية قريبة من المجتمعات التقليدية . أي أن التحضر وفق المفهوم الديمغرافي لا يتسق مع التحضر النوعي وبخاصة في المدن العربية المعاصرة في هذه المرحلة التاريخية من تطورها السياسي والاقتصادي .

خصائص التحضر المَرضَية في البلاد العربية :

إن مناقشة خصائص التحضر في المجتمعات العربية المعاصرة يرتبط بالعوامل التاريخية التي تفسر العوامل التي أدت في تشكيل وصياغة الأوضاع الراهنة . ولكل دولة / أو مجموعة من الدول العربية ترتبط بأحداث تاريخية مميزة منها مايرجع إلى الماضي البعيد (القدس ، والمدينة والقاهرة ودمشق) ومنها ما يعود إلى الماضي القريب - الدول الخليجية النفطية (الكويت ودولة الإمارات المتحدة وقطر) ساهمت في النمو الحضري السريع والذي يتم بمعدلات مرتفعة . كما أن سياسة

الاستعمار الذي سيطر على الدول العربية كانت تميل إلى خفض عدد المدن الكبيرة وحصرها في مدينة أو اثنتين حتى تتمكن من أحكام السيطرة على الثروات المادية والبشرية . وحتى بعد مرحلة الاستقلال فنجد أن غالبية الدول العربية لم تتمكن من تحقيق اللامركزية الإدارية والسياسية بشكل يؤثر في التوازن الحضري سواءً في حجم المدن أو في نطاق تطور الحياة في مجتمعات المدن .

وفي مجال مشروعات التنمية الاجتماعية ، فإن الجزء الأكبر من أنفاق الدول العربية (عدا الانفاق على التسلح والقوات المسلحة) يوجه نحو تطوير الخدمات التعليمية والصحية والدفاع الاجتماعي والرعاية الاجتماعية والاعلام والإسكان والمرافق العامة والترويح والخدمات الدينية في المدن الرئيسية على حساب المدن المتوسطة والصغيرة والقرى . ويرجع السبب في ذلك إلى تضخم مشاكل زيادة الكثافة السكانية ومكافحة التلوث ومعالجة مشكلات ضواحي العشش والصفيح المنتشرة حول المدن والعواصم . كما أن الأنشطة الثقافية والعلمية والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية أصبحت عناصر جذب لمختلف الشرائح الاجتماعية في الريف والمدن الصغيرة والمتوسطة .

ويوجد في البلاد العربية (٥) مدن مليونية (القاهرة ٦ مليون - الأسكندرية ٢,٣٠ ، بغداد ٢,١ - الدار البيضاء ١,٣ - الجزائر ١,٢ مليون) . أما مجموع المدن المئة ألفية فيصل إلى ٧١ مدينة يتراوح عددها من دولة لأخرى حيث تحتل مصر أعلى نسبة (١٨ مدينة) ثم المغرب (١٠) فالسعودية (٧) ثم العراق (٦) وسوريا (٥) والسودان (٤) وباقي الدول تضم أقل من هذا العدد .

وتدور عملية النمو الحضري في الدول العربية في حلقة مفرغة تزداد تأزماً سنة بعد أخرى تحول دون معالجتها الإمكانيات والفعاليات اللازمة لمواجهة المشكلات المتفاقمة . إذ أن معظم الاستثمارات المحلية والدولية تتمركز في المدن الرئيسية التي تتطلب المزيد من الأيدي العاملة لإنجاز المشروعات العمرانية والخدمات اللازمة لها مما يزيد من معدلات الهجرة الداخلية والدولية وهذا بالتالي يزيد من الضغط على الإسكان والمؤسسات الحضرية - الشرطة والأمن العام ، المدارس والمعاهد ، المستشفيات والعيادات والتلوث وغيرها .

ومن العوامل التي ساعدت على التركز السكاني في المدن الرئيسية مايرجع إلى أن السلطة مركزية وتتخذ العاصمة المقرّ للخدمات والمؤسسات الاجتماعية والاقتصادية ولو أخذنا عمان وبغداد على سبيل المثال فنجد أنها تضاعفت في عدد سكانها أكثر من ١٠ مرات منذ الثلاثينات وتضم كلاً منها بين ٢٠ - ٣٠ ٪ من اجمالي السكان ويوجد في كل منها أكثر من ٥٠ سفارة وقنصلية وحوالي

٩٠٪ من البنوك والمحامين و ٨٠٪ من المهندسين و ٧٥٪ من الأطباء و ٦٠٪ من المؤسسات الصناعية والتجارية .

ومن خصائص النمو الحضري في الدول العربية المدن تؤدي وظائف استهلاكية أكثر مما تؤدي الوظائف الإنتاجية وازدادت الهجرة الدولية في الدول النفطية خلال العقدين الأخيرين مما أدى إلى تغيير النمط السكاني بصورة جذرية .

كما أن التنظيم الإداري والسياسات التخطيطية في بلديات المدن العربية ، بالرغم من الجهود الملموسة التي تبذلها في مواجهة تحديات النمو المرضي ، إلاّ أنها تفتقر إلى جذب الكفاءات على مستوى رسم السياسات واتخاذ القرارات في القضايا الحضرية الإساسية أو على مستويات التنفيذ والتخطيط في المدى القصير أو في المدى البعيد . إن غياب التخصصات في العلوم الإدارية والاقتصادية والاجتماعية يجعل مهمة المهندسين المعماريين والمدنيين صعبة وقاصرة عن التخطيط الواقعي لمجتمعات المدن العربية المستقبلية .

الآثار الاجتماعية للتحضر :

إن النموّ الحضري الذي يتمّ بصورة تدريجيّة وبخاصة في المجتمعات القبلية والتقليدية وكذلك الذي يتم بمعدلات مناسبة (تلك المعدلات التي تتمشى مع الزيادة السكانية الطبيعية أو أكثر قليلاً ، وتلك التي تقل في العادة عن معدّل الدخل القومي لكل دولة) ، إن هذا النمط من النموّ يسهم في الآثار الإيجابية في المجتمع بالنسبة للتغيرات الاجتماعية والاقتصادية التي تشهدها المدن سواء جاءت هذه التغيرات بصورة تلقائية أو ضمن إطار التخطيط التنموي .

إن زيادة المؤسسات الاقتصادية ومراكز البحوث والدراسات التكنولوجية ، وزيادة عدد المستشفيات المتخصصة والجامعات المتقدمة وكذلك الصناعات المتنوعة والجمعيات العلمية والاجتماعية والمنظمات الثقافية والأدبية المتنوعة وتمركزها في المدن ، يسهم في اثراء الوظائف التي تؤديها المدن كمركز اشعاع حضاري ومصدر تقدم علمي . إن الحركة السكانية من الريف إلى المدن يمكن التظر إليها على أنها ظاهرة صحية طالما تمّت في إطار التوازن السكاني وتخفيف الضغط على المجتمعات الريفية الناجم عن ارتفاع معدلات المواليد وزيادة فائض العمالة . أما إذا تخطت الهجرة الريفية

الحدود الطبيعية من حيث الكم والنوع ، فإنها تسبب آثاراً عكسية على المجتمعات الحضرية المستقبلة والمجتمعات الريفية المرسلة للمهاجرين .

ومن الآثار الإيجابية الاجتماعية للنمو الحضري في الدول العربية هو ظهور شرائح اجتماعية (طبقات) جديدة مثل طبقات العمال والإداريين والمثقفين والتكنوقراطيين ، كما يتضح النشاط النسائي في مجالات القوى العاملة وتتشكل الجماعات والجمعيات ذات الأغراض المتعددة . ومن النواحي العمرانية ، فان المدن تضم العديد من المدارس الهندسية العمرانية لمختلف أنماط العمران سواء للإسكان والأسواق والمرافق الدينية والترويحية والتربوية والاقتصادية والصناعية .

أما الآثار الاجتماعية السلبية التي تفرزها عملية التحضر في المجتمعات العربية المعاصرة فيختلف من دولة لأخرى وفق العوامل التاريخية والنظم الاقتصادية والسياسية السائدة . ومن ناحية أخرى تتفاوت حدة المشاكل حسب العوامل الأساسية المسببة لها (مثل سرعة التحضر ، أنماط التحضر ، معدلات النمو الحضري ، نمط الانتاج وملكيته وأدواته .. الخ والهجرة الداخلية والدولية) .

ويمكن تلخيص الآثار الاجتماعية السلبية للتحضر في المجالات التالية :

١ - إن الامتداد الأفقي للعمران يؤثر في تفكك العلاقات الاجتماعية ويزيد من عبء سلطة المدينة لتوفير الخدمات الأساسية اللازمة - مثل المدارس والمصحات والماء والكهرباء والطرق .

٢ - إن سرعة النمّو ومعدلاته المرتفعة يجعل المخططين عاجزين عن مواجهة التحديات ويزيد من تعقد المشكلات - مثل التلوث والنفايات والمواصلات والمجاري والإسكان ...

٣ - يزداد الصراع القيميّ بين القيم الحضارية التي يتمثلها سكان المدن الأصليين وتتعارض مع القيم الريفية والبدوية مما يعطّل عملية التكيّف الاجتماعي والثقافي .

٤ - إن العلاقات الثانوية وتعدد الأدوار واتساع نطاق تقسيم العمل ودخول المرأة ميدان التعليم والعمل ، وزيادة عدد المؤسسات والجماعات التي تعني بشئون التنشئة الاجتماعية والتوجيه والرعاية أدى إلى تفكك العلاقات الأسرية وفتور العلاقات وبالتالي أدى إلى السلوك الانحرافي وارتفاع معدلات الجريمة على اختلاف أنواعها .

٥ - أن النمو الحضري المعاصر يزيد الهوة بين المجتمعات الحضرية والمجتمعات الريفية والبدوية بالرغم

من تواجد سكان الريف في المدن وارتباطهم بمجتمعاتهم عن طريق الزيارات وإرسال المال للأهل والأقارب ، إلاّ أن التقدم الذي تحققه المجتمعات الحضرية في المجالات الاقتصادية والاجتماعية أسرع من التقدم في المجتمعات الأخرى .

٦ - لقد ارتفعت نسبة الطلاق في المجتمعات الحضرية العربية ، كذلك ارتفعت معدلات انحراف الشباب ، كما زادت معدلات الجريمة مثل الانتحار ، والقتل ، والاعتداء الجنسي والسرقات والغشّ والعبث بأموال الدولة وممتلكاتها والإدمان على المخدرات بأنواعها المختلفة .

٧ - لقد ظهرت مشكلة العشش وتجمعات الصفيح والكرتون التي تتمركز في ضواحي العواصم والمدن الرئيسية ، وتضم المهاجرين من الريف أو الذين يدخلون البلاد بصورة غير رسمية وغالباً ما يكون هؤلاء من ذوي الدخل المحدود وغير الحرفيين والأميين . إن المنشئات التي يقيمونها غير منظمة ولا تتوفر فيها الخدمات الأساسية وغالباً ما تتحول إلى مصدر للأمراض الاجتماعية والصحية التي تنتقل إلى مجتمعات المدن .

الآثار النفسية للنمو الحضري :

أصبح مجتمع المدينة مزيجاً من السكان يضم مختلف الأجناس والألسن والثقافات والديانات والمذاهب الفكرية والسياسية ومختلف الاتجاهات المهنية والهوايات والانتماءات . إن تضخم المدن بسبب الهجرات المحلية والدولية هزّ المجتمعات الحضرية وغير من شخصية مجتمعها وأدى الازدهار المادي إلى ضعف الروابط الأسرية التقليدية والقيم الروحية والأخوة والتعاون والشعور بالانتماء والاستقرار . إن القيم المادية التي أخذت تسيطر على العلاقات الاجتماعية - خاصة في الدول النفطية - قد زادت في الشعور بالاغتراب والانفصام بين القيم العربية والإسلامية الأصيلة وبين القيم الغربية والشرقية التي تغزوا المجتمعات الحضرية في مختلف مجالات الحياة .

إن الآلة والمصنع والسيارة والتلفزيون والفيديو قد أثر في سلب الإنسان العربي حريته وأفقده القدرة على الابتكار والإبداع طالما أن استيراد التكنولوجيا والانفتاح الاقتصادي والثقافي قد عمّق إحساس المواطن بتخلفه الحضاري وزاد من شعوره بالاغتراب .

لقد أدى التضخم الحضري السريع وغير المتوازن إلى أوضاع وظروف ساهمت في التركيب النفسي والاتجاهات والانفعالات لدى الأفراد والجماعات في المجتمعات الحضرية . لقد ازدادت أهمية

المؤسسات (الأمن العام والشرطة والقوات المسلحة) في توفير الحماية والوقاية وفي الضبط الاجتماعي بسبب التغيّر الذي حصل في العلاقات الأسرية والاتجاه نحو الذات والمصالح الفردية والاعتماد على النفس في تدبير شئون الحياة وضعف الروابط الأسرية والتحول في بعض الوظائف التي كانت تؤديها الأسرة وفي الأنماط السلوكية .

إن المهاجرين من الريف والبادية يواجهون العديد من المواقف السلوكية في نطاق البحث عن العمل أو اختيار المسكن أو في مجال التفاعل مع الشرائح الاجتماعية المختلفة من العمال والمديرين والموظفين على الصعيدين الرسمي وغير الرسمي ، بالإضافة إلى ما يشاهدونه من أنماط السلوك الحضرية في العادات والمأكل والملبس والسلوك الأخلاقي ، إن مثل هذه المواقف تحدث لهم الصدمة الثقافية ثم بالتالي تؤثر في الاتجاهات التي تتكون لديهم إزاء هذه المواقف . فنجد بعضهم يتمكن من التكيف مع بذل الجهد والتنازل عن القيم والمعتقدات الريفية ، في حين نجد الغالبية يواجهون المتاعب وقد يرفضون الانصياع لمطالب الحياة الحضرية وبالتالي يصابون بالأمراض النفسية المتنوعة - الانطوائية ، العدوان ، السلبية ، حب الانتقام ، عدم الانتماء ، الاغتراب ، ... الخ . وقد ينعكس ذلك في تطوير عادات وأنماط سلوكية غير مرغوبة مثل الإدمان على الكحول والمخدرات ، السلبية ، عدم الانتماء وضعف الإنتاجية في محيط العمل .

لقد ازداد عدد الإصابات بالأمراض النفسية والعقلية والعصبية وقد امتلأت المستشفيات الحكومية والخاصة بالمرضى من مختلف الشرائح الاجتماعية وفئات السن بسبب الانتقال الحضري السريع والتبدل القيمي وضعف الروابط والعلاقات الروحية والأسرية وبين أفراد الحيّ مما أدى إلى زيادة الضغوط النفسية على سكان المدن سواءً الأصليين منهم أو الوافدين من الداخل والخارج .

إن بعد المسافة التي يقطعها الموظف أو العامل بين المسكن والعمل أو السوق أو في زيارة الأهل أو في الترويح عن ذاته بالإضافة إلى المواقف المتناقضة التي تمر أمامه يومياً تؤثر في حالته النفسية والعصبية ، وتزيد من الارهاق والأعياء الجسمي والذهني الذي يتراكم يومياً وعلى مدار السنة . إن التغيرات الاقتصادية انعكست على الحياة الاجتماعية والسياسية والاستقرار النفسي للأفراد في المدن .

إن المجتمعات العربية تمر في مرحلة انتقالية وتتجه نحو التحديث والانفتاح علي النظم والأفكار والسياسات الشرقية والغربية ، وتبتعد عن البحث عن أصالتها وذاتها ويتضح ذلك في المدن

أكثر من الأريـاف . إن التكنولوجيـا المستوردة تتطلب التغير والتكيف النفسي والاجتماعي لتتلاءم مع حاجـات وتطلعـات الإنسـان العربي . لقـد أصبح كل شيء حول الإنسـان في المـدينـة العربيـة مستورداً من الشرق أو الغرب حتى ملابسه وطعامـه والأدوات التي يستخـدمهـا في العمل والإنتـاج والمواصلات والترويح والتعليم والصحة وكل منها تحمل أختام الـدول المنتجـة . ويزداد إزاء كل مـا يشاهده الإنسان الحضري من حوله من سلع وآلات مستوردة إحسـاسـاً بـالضعف والضيـاع وفقـدان الثقة بنفسه والتمثل بقيم مادية كما يفقد الصلة بعروبته وعقيدته .

كيف نعالج الآثار السلبيـة الاجتماعيـة والنفسيـة في ظلّ الاتجـاهـات المعـاصرة للنموّ الحضري ؟ وأين نبـدأ وكيف ؟ ومـا هي الاستعـدادات اللازمـة لتوفير الاستقرار والتماسـك الاجتماعي وتعميق الهوية والشخصية العربية سواءً في الجوانب الطبيعية والعمرانية للمدن العربية الإسلامية مستخدمين التكنولوجيا المعاصرة وأجهزة الكمبيوتر وفي نفس الوقت نبرز سمات الحضـارة الإسلاميـة الأصيلـة كما نبرز التراث والأصالة في قالب عصري حديث ؟

في المراحل الأولى فإن العبء الأكبر يقع على عاتق المخططين والعلماء العرب في إجراء البحوث والدراسات العمليـة التي تضم التخصصـات المتكاملـة (الاقتصـاد والاجتماع والنفس والأنثروبولوجيـا والتاريخ والجغرافيا والسياسة) والتي تشخص طبيعة ونطاق وعوامل النمو الحضري المرضـي وتحدد آثاره النفسية والاجتماعية على المجتمع القومي ثم على المجتمعات الحضرية ، ثم التخطيط المتكامل للتنمية الاقتصادية والاجتماعية التي تتضمن التوازن الحضري واللامركزية في تقسيم العمل وتحـديث وتطوير المجتمعات الريفية وضبط معـدلات النمو والتنميـة بمـا يتمشى مع حـاجـات البلاد واستقرار ورفـاهيـة المواطنين في حـدود بنـاء المجتمع العربي العصري والشخصيـة العربيـة المتكاملـة التي تؤمن بـأصـالتهـا وتعتمد على الذات في تحقيق التقدم الحضري المتميز والصحي .

هذا ولابد من الاستمرار في الحوار العلمي بين أجهزة الدولة المختلفة في مناقشة القضايا الأساسيـة التي ترتبط بالتخطيط التنموي على المـدى البعيـد وفي المـدى القصير ومعـالجـة المشكلات الاجتماعيـة والنفسية في إطار مخطط هيكلي شامل .

إن النمو الحضري الطبيعي يسهم في مسـاعـدة المـدن أن تقوم بوظـائفهـا العلميـة والتكنولوجيـة وتكون مصدر إشعاع حضاري ليس على مستوى الوطن العربي فحسب بل على المستوى العالمي .

الهوامش

(١) يعتبر ورث في كتابه (Urbanism as a Way of Line) بعض الخصائص مثل الحجم والكثافة والانفتاح كمؤشرات أساسية في تحليل العمل الاجتماعي - أما ردفيلد فيعتبر الانفتاح وقلة العزلة من الخصائص المميزة للمدينة . ويعرف العالمان التحضر كنمط للحياة على أنه يمتاز بالعلاقات الثانوية والمؤسسات التطوعية واتساع نطاق تقسيم العمل وتعقد الأدوار وتفكك القيم الاجتماعية ومحور الاتصال والمواصلات .

(٢) Hipe Tisdase Eldridge – The Process of Urbanization in J. J. Spengler and O. D. Duncan (Edit.) Demographic Analysis – Glenco, Free Press 1956 P. 388.

(٣) صلاح قنصوه « بعض ظواهر التنمية ذات الصلة بالسلوك » المنظمة الدولية الغربية للدفاع الاجتماعي - بحث مقدم في المؤتمر العربي حول التنمية والدفاع الاجتماعي .
الدوحة . ١٩٧٢ ص ٣٠ - ٣٢ .

(٤) أنظر كتاب أبو عباس ، واسحق القطب - الاتجاهات المعاصرة في الدراسات الحضرية - وكالة المطبوعات ١٩٨٠ ص ١٢١ - ١٢٥ .

(٥) أحمد كال وآخرون - دراسات في علم الاجتماع - دار الجيل للطباعة ، مصر ١٩٧٤ ص ٣٠ - ٣١ .

(٦) نفس المصدر السابق .

(٧) U. N. Selected World Demographic and Population Policy Indicators. 1978.

(٨) نسبة السكان الحضر ترتبط بتقديرات عام ١٩٧٨ كما هو وارد في المصدر السابق .

(٩) نفس المصدر السابق رقم (٧) المذكور .

(١٠) المصدر - United Nations – World Bank. Urbanization. 1972.

(١١) المصدر – الكتاب السنوي للأمم المتحدة ١٩٧٤ – ١٩٧٩ .

(١٢) أنظر كتاب منظمة المدن العربية – المؤتمر الخامس الذي ناقش الهجرة من الريف إلى المدن في الدول العربية وتناول آثار الهجرة وخصائصها ومقوماتها والحلول المناسبة لها . وقد عقد في المؤتمر في الرباط ١٩٧٨ .

(١٣) المصدر – نشرة اللجنة الاقتصادية لغربي آسيا ECWA . ١٩٨٠ .

مشكلة نمو المواهب الإبداعية عند الأطفال

دكتور محمد أحمد سلامة
استاذ مساعد بقسم علم النفس

مقدمـــــة

يمثل الأشخاص المبدعون أو المبتكرون أو العباقرة أهمية قصوى في حياة الإنسانية التي تعيش سباقاً هائلاً مستمراً مع الذات ومع الزمن يصنع الجديد في كل لحظة في كل مجالات الحياة . فهؤلاء الأشخاص - جهراً أو سراً - يصنعون التاريخ ويعيدون تشكيل حياة الشعوب . وحين تتنادى شعوب العالم اليوم إلى التنمية أو تتواصى بالتقدم ، فإن الأمر كله في النهاية يصبح في يد هؤلاء المبدعين . ولذا ، فإن المعيار الأساسي للتمييز بين الدول المتقدمة والطامحة إلى التقدم وغير المتقدمة لايجب أن يكون في القدر المتاح للأفراد من وسائل ووسائط التكنولوجيا الحديثة وأساليب الحضارة المعاصرة ، ولكن في القدرة على اكتشاف الموهبة ورعايتها وتشجيعها .

وقد عرض كثير من الباحثين لتعريف الإبداع أو الموهبة كمرادفات للابتكار ، واعتمد بعض هؤلاء الباحثين في تعريف الابتكار على تحديد سمات الشخصية التي تميز الابتكارية العالية من الناحية النفسية أو العقلية ، بينما اتجه البعض إلى تعريف الابتكار على أساس مضمون وكنه ومراحل العملية الابتكارية أو الابداعية ، وسار فريق ثالث في طريق تحديد العوامل والظروف البيئية التي تساعد على اكتشاف الابتكار وتنميته ، بينما اعتمد بعض آخر على معيار قيمة أو عائد أو نفع العملية أو الإنتاج الابتكاري للمجتمع والإنسانية .

ولأن مجال الدراسة الحالية هو الطفل الموهوب أو العبقري ، فإننا نعرض التعريف الذي قدمته لجنة التعليم والعمل بالولايات المتحدة الأمريكية (U.S.O.E.) سنة ١٩٧٢ للطفل الموهوب أو العبقري على أنه « صاحب الأداء المرتفع أو الإنجاز العالي في واحد أو أكثر من المجالات الآتية :

(١) القدرة العقلية العامة .
(٢) قدرة أكاديمية متخصصة .
(٣) تفكير ابتكاري أو خلاق .
(٤) موهبة القيادة .
(٥) الفنون البصرية أو التمثيلية .
(٦) القدرة النفس - حركية .[٢٦]

ويرى وارنر «Warner»[٥١] استاذ التعلم في جامعة واشنطن أن هذا التعريف يتميز على كل التعريفات السابقة عليه بأنه يؤكد على أهمية تقديم المساعدات للموهوبين لكي يصبحوا قادرين على تحقيق خدماتهم للذات وللمجتمع ، لأن التعريفات السابقة على ذلك كانت تولي اهتماماً ضئيلاً للحاجات النفسية للفرد والمجتمع .

وقد ساعد ذلك على أن تظهر في السنوات الأخيرة وجهة نظر وسطية جديدة تقول بأن العبقرية كخاصية نفسية مستقلة لاتوجد ، وأن عبقرية الإنسان المتوسط لا تتميز بتواجد خصائص فريدة أو شاذة ، ولكن بالنمو والتطور القوي لبعض الصفات أو الخصائص مع ثبات البعض الآخر ، ويمكن أيضاً مع كبت الثالثة . وبالتبعية ، فإن الأمر في هذه الحالة لا يتوقف على إدخال عنصر جديد أو مكون جديد في الشخصية ، ولكن في إعادة بناء أو إعادة تنظيم هذه المكونات . ويرى جيلفورد (Gulford)[١٤] أننا لو استطعنا رفع مستوى الإبداع عند الإنسان المتوسط - ولو بنسبة مئوية بسيطة - فإن النتائج الاجتماعية ستكون باهرة .

طبيعة الإبداع ومشكلة دراسته :

تمثل مشكلة الإبداع وتطور المواهب الخلاقة عند الأطفال مشكلة معقدة بالنسبة للبحث ، ولكن دراسة كل المداخل الممكنة إليها هامة للغاية في الوقت الحاضر . وتعقد هذه المشكلة مرتبط بعدد كبير من العوامل المختلفة التي تحدد طبيعة ومظهر المواهب الخلاقة . وبصورة أساسية يمكن

توحيد هذه العوامل في ثلاث مجموعات أعم وأشمل : تتضمن المجموعة الأولى : الصفات الموهوبة الطبيعية والخواص الفردية التي تحدد تشكيل الشخصية المبدعة - وفي المجموعة الثانية : تدخل كل أشكال تأثير الوسط الاجتماعي على تطور وظهور المواهب الخلاقة وأخيراً فالمجموعة الثالثة : هي ارتباط نمو الابتكارية (الشكل الإبداعي) بشكل ومضمون النشاط .

إن دراسة وتحليل العوامل المذكورة وعلاقاتها المتبادلة يمكننا من تحديد أسلوب التشكيل الهادف للقدرات الخلاقة للأطفال . وتشكل القاعدة النظرية والمعطيات الأمبيريقية المتضمنة في أعمال علماء النفس الغربيين أثناء تحديد الأطر الثلاثة لدراسة طبيعة وظروف نمو الإبداعية عند الأطفال مجالاً ممتعاً للدراسة . ويلزم التنويه أنه في علم النفس الغربي المعاصر يتزايد الاهتمام بمسألة النمو الإبداعي للأطفال ، وهذا ما يشرحه نفس المؤلفين بأنه الحاح الحاجة الاجتماعية إلى الكوادر المبدعة .

لقد توقفت التجارب الفقيرة عند الاختبارات المعتادة التي تدرس نسبة الذكاء ، التربية التقليدية ، التفكير القياسي أو المعياري مع غياب الأصالة أو الابتكار .

إن مشكلة نمو القدرات الإبداعية ترتبط كذلك بوضع الوطن الذي يتوقف على الإنتاج الإبداعي كمًّا وكيفاً ، وبالرضا الشخصي عن العمل ، وبمشكلة وقت الفراغ والاتجاهات الأسرية المتفائلة وغيرها (٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٦ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٢ ، ٤٥) .

ويجب التأكيد على أن الأسس الجديدة في مجال الإبداعية والقدرات الخلاقة تظهر كاحتجاج ضد الانتقاء أو الاختيار في التعليم وضد سيادة اختبارات الذكاء كطريقة لتحديد مستوى تطور القدرات العقلية للأطفال (٦ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٣٤ ، ٣٦ ، ٤٨) .

إن النظرية القوية والشاملة عن الإبداع وتطور القدرات الإبداعية لم توجد بعد ، رغم أنه في كل الأعمال التي نراها يمكن تتبع نزعة وحيدة وأسس واحدة كمدخل نحو حل هذه المشكلة ، وكلها مطبوعة بالنزعة العملية التي يقوم عليها المتخصصون أساساً في العملية التعليمية (٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٤٥) .

وتضع الدراسة الحالية في الاعتبار - وبصفة خاصة - المواقف العامة (التي تظهر مباشرة أو التي تعتبر مضموناً حقيقياً للأبحاث) والمعايير الخاصة ، والجوانب الفطرية ، والشروط الاجتماعية ،

والطرق المحددة لنمو وتطور القدرات الإبداعية عند ا

إن النزعة السائدة في الدراسات النظرية المتعلقة بالقدرات الإبداعية تعود إلى الأسس التالية :

(١) إن القدرات الخلاقة طبيعية وتوجد لدى كل طفل ، ولذا تصبح الساق الإبداعية الأولى هي الميول الفطرية وبالذات حب الاستطلاع والتقليد والمحاكاة ، وهذا يقود إلى أهمية التربية السليمة لعادات التفكير الأولى ، وصولاً إلى الساق الثانية وهي الابتكارية . والابداعية هي الوظيفة الطبيعية للمخ ، والتي تظهر وتتحقق في النشاط في شكل توفر مواهب خاصة بهذا النشاط الملموس أو ذلك (٢ ، ١٢ ، ٢٣ ، ٣٦ ، ٤٥) .

وهناك إبداعية العظماء ، والإبداعية في تنفيذ الأمور اليومية البسيطة ولا يجب أن ننسب الابتكارية فقط إلى عمل الكاتب أو الفنان أو العالم أو المصمم ، لأنها يمكن أن تظهر في النشاط التعليمي والتجاري وفي إعداد الأطعمة وفي أي نشاط آخر . والإبداعية هنا لاتظهر في النتائج المحسوسة أو الأفكار فقط ولكن أيضاً في أسلوب العمل ذاته (١٦ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٤ ، ٤٥) . والإبداعية بهذا المعنى يمكن أن ننظر إليها على أنها عديد من أساليب النشاط الخاصة وليست صورة النشاط أو مظهره . وأسلوب النشاط هذا لا يتطابق دائماً مع القدرات الخاصة بهذا النشاط أو ذاك . وبجانب ذلك فإن الابتكارية يمكن أن تظهر عند هذا الشخص أو ذاك في أشكال نشاط مختلفة ، فالعالم الذي لا يجد موضوعاته في العلم مثلاً يمكن أن يصبح مربياً عبقرياً أو منظماً أو هذه وتلك معاً (٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٨ ، ٣٤ ، ٤١) . هذا علاوة على أن الابتكارية لا ينظر إليها كعامل وحيد ولكن كمجموعة قدرات مختلفة يمكن لكل منها أن تظهر بدرجات متفاوتة عند هذا الشخص أو ذاك (٢٠) . ولذا أشار « سميث » (Smith) إلى أن العمليات المطلوبة للفنان الابتكاري هي نفس العمليات المطلوبة للعالم الابتكاري (٣٧) .

هكذا ، فإن المربي يجب أن ينظر إلى كل الأطفال على أنهم (ابتكارية كامنة) ، ويصبح واجب المربي هو الكشف عن الإبداعية الفردية للطفل والطموح إلى تطويرها – ولكن ذلك بالطبع يستلزم أن يكون المعلم نفسه مبدعاً .

(٢) إن تطور الابتكارية كأسلوب للنشاط يتم خلال النشاط ذاته ، وخلال النشاط المبدع ، وهذه هي الوضعية الهامة الثانية بالنسبة للنشاط التربوي . والنظرة إلى التفكير المبدع

كطبيعة عند كل فرد ، واعتبار أنه بهذا المبدأ خاصة يتم كل عمل الوعي الباطن ، فإن الباحثين يرون سبباً للشكل الآخر ، أي الأسلوب غير المبدع للتفكير . فالأطفال أثناء عملية التعلم في المدرسة يصطدمون باستمرار بالمسائل ذات الطابع المغلق - أي ذات العناصر المعطاة والحل الوحيد الصحيح . وعلى هذا الأساس صممت كل اختبارات الذكاء (٦ ، ١٠ ، ١٧ ، ٢٠) . ونتيجة لهذا يتحدد عند الأطفال أسلوب التفكير الذي يقوم على المعارف والعمليات المتحصلة والمحددة من قبل (القبلية) (١) . والخبرة أو المران على الخروج عن الإجابات المعروفة والمشهورة ، الأصالة والتفكير الاستقلالي ، شطحات الخيال والأفكار أي خواص التفكير الابتكاري يمكن أن تتكون فقط إذا ما توافرت للطفل امكانية التمرين على مسائل وواجبات الطابع المفتوح . فمسائل هذا الطابع تتطلب الاستقلالية الكاملة في اختيار طريقة الحل وتتيح امكانية اقتراح أي حل ذكي للمشكلة (٦ ، ١٠ ، ٢٠ ، ٣١) . ولتأكيد هذا الوضع تطرح المعطيات التي نحصل عليها من تنظيم إطار ابتكاري خاص عن طريق تحديد وحل المشكلات ذات التأثير الإيجابي على تطور الابتكارية (٢٩ ، ٣١) .

وفي البحث الذي أجرته (روى) (Roe) على أربعة وستين عالماً مشهوراً ظهر من دراسة تواريخ حياتهم نزعة عامة واحدة ، فكلهم في الطفولة مالوا إلى الإبداعية ، وكانوا يبتهجون للجديد (٣٣) .

كما يجب التأكيد على أن ظهور المواهب الإبداعية يكون أيسر في النشاط الذي يكون للطفل ميل واضح نحوه (١٢) . ومن هنا يلزم إشراك الأطفال وملاحظتهم في قدر كبير متنوع من النشاط ، وإعطائهم أكبر قدر متاح من مسائل واختبارات متنوعة الموضوعات (٢١ ، ٢٣ ، ٤٥) . وأثناء حفز أو توجيه الطفل نحو هذا الشكل من النشاط الذي يمكن فيه أن تتحقق صفاته الموهوبة فإن المربي يمكن أن يمهد لظهور وتكوين البداية الابداعية . إذ لا يجب أن نفهم التعلم كتحصيل بسيط للمعلومات واستيعاب لمعارف الآخرين الجاهزة واكتشافاتهم وأفكارهم ، ولكن كتمرين على الأشكال المختلفة للنشاط العقلي : في تحديد المشكلة ، في التحكم في المعلومات المتاحة وتحويلها ، وفي التفسير (٢٣) .

(٣) والأمر الثالث الذي لا يقل أهمية بالنسبة للنشاط التربوي يتلخص في أن الباحثين يؤكدون على الدور الهام (للوسط الاجتماعي) بالنسبة لظهور وتشكيل الابداعية الفردية . ورغم أن

الوسط (لا يصنع ولكن يكتشف العبقري) (١٢) ، فإن إليه يعزي القدر الأكبر من التـأثير على تشكيل المتغيرات المختلفة للابداعية أو الابتكاريـة ، وتبقى نسبـة ضئيلـة لحتميـة الوراثـة (٥ ، ٨ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٣٢ ، ٤٥) .

إن متطلبات الوسط الاجتماعي ، المحيط القريب ، التقاليد والاتجاهـات في التعليم يمكن أن تحفز أو - على العكس - تحبط المواهب الخلاقة للأفراد الذين لا يملكون ابتكارية كامنـة عالية . وبالنظر إلى حقائق الحياة التي تشهد على أن العباقرة المبـدعين قـد عـاشوا في صراع دائم مع الوسط الاجتماعي المحيط (مشتملاً على الصراع في الأسرة) (٣٢ ، ٤٠ ، ٤١) ، فـإن المؤلفين يصلون إلى استنتاج بـأن هـذا يعزي فقـط إلى حـالات فرديـة وبـالـذات للموهوبين البارزين الـذين يملكون الصفـات الشخصيـة المنـاسبـة (١٠ ، ٤٥) . ولـذا يجب أن يتجـه المربون والباحثون إلى الأغلبية المتوسطـة ، أي الـذين يمكن أن تظهر قـدراتهم الابـداعيـة في ظروف (الجو الملائم) فقط (١٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٤٥) . فالأطفال المبتكرين الذين قد شكلوا فعلاً في سنوات مـا قبـل المـدرسـة كابـداعيـة فرديـة يمكن أن يسـاعـدوا في دراسـة طبيعيـة الابتكارية والعوامل التي تحدد تشكيل القدرات الخلاقة (١٠ ، ١٢ ، ١٨) .

أدلـــة الابتكـــارية

لم يحظ الإبداع والابتكار بالاهتمام الكافي في الدراسات النفسية حتى الخمسينات من هـذا القرن، إذ يشير «جيلفورد» إلى أن من بين (١٢١,٠٠٠) دراسـة قـام بمسحهـا في (Psychological Abstracts) كان هنـاك (١٨٦) كتـابـاً وأداة فقـط تبحث في الابتكاريـة ، أي أقل من ٢ ٪ من مجموع الأبحـاث والكتب المنشورة . وأشار « جيلفورد » إلى أن ذلك يرجع إلى صعوبة تحـديـد مستويـات محسوسـة للابتكارية وإلى صعوبات قياس القدرات الابتكارية للأفراد (١٣) ، ثم بدأ هذا الموضوع يأخذ حقـه من الاعتبـار في كثير من الأبحـاث . ولقـد نوقش سـؤال عن امكانيـة استخـدام المقـاييس الخـاصـة بتحديد الجهد الابداعي للكبار - من حيث الحداثة والمعنى الاجتماعي للانتـاج الابـداعي وتـأثيرهـا على الأفكار والاتجاهات التالية - على الأطفال لتحديد نفس الجهـد عنـدهم . وبقـدر عـدم اشتراك الأطفال بعد في القيمة الاجتماعية للنشـاط فـإن نـاتج الموهبـة عنـدهم لا يمكن تقييمـه بحسب قـاعـدة (المعنى الموضوعي) أو (الفائدة الموضوعيـة) . وبـالنسبـة للأبحـاث على الأطفـال يقترح استخـدام

ما يسمى (الشواهد الذاتية للابتكارية) . وهذه موجهة نحو تقدير نفس العملية أي أسلوب أو نمط النشاط الفكري ، وليس نتيجة تنفيذ النشاط الابداعي . فالطفل مثلاً يكتشف في الدرس قانون الأعداد الأصلية (كما كان ذلك في الطفولة مع رياضة جاوس) . وهذا القانون مكتشف بالفعل ، ولذا فإن الاكتشاف من جانب الطفل ليس له المعنى الاجتماعي الموضوعي ، رغم أنه يعتبر دليلاً على الابتكارية الذاتية للطفل (١٠ ، ٢٣) .

وكل الاختبارات المقترحة على الابتكارية موجهة للكشف عن بعض (الأدلة الأولية أو المبدئية) للابتكارية ، والتي تؤدي إلى ظهور الابتكارية الذاتية أي أسلوب النشاط الابداعي دون ارتباط بالحداثة الموضوعية وقيمة النتائج (٦ ، ١٠ ، ٢٣) . وهذه الأدلة المبدئية عامة بالنسبة للأطفال والناضجين ، وهي تشكل في رأي بعض المؤلفين أساساً لأي شكل للنشاط الانتاجي ، كما أنها بمثابة خواص تمثل منطلقات عامة لكل صور النشاط الابداعي (علمي – فني – تصميمي ... الخ) (٥ ، ٢٣) .

إن مفهوم الابتكارية – كما قيل من قبل – يتضمن بعضاً من تجمعات المواهب الفكرية والشخصية (الصفات) ، تلك التجمعات التي تحدد تواجد وظهور الابداعية . وظهور الجهد الابتكاري يتم عن طريق المقابلة المستمرة (المقارنة) لنوعي التفكير : المنطلق أو المنفتح (البنائي والمبدع) ، والمحدد أو المنغلق (الحذر ، الناسخ ، غير المبدع) ، وبالتالي نمطي الشخصية المبتكرة والمحددة (١٠ ، ١٢ ، ٤٥ ، ٤٧) .

ولتحديد سمات وخواص الابتكارية فإن كل باحث تقريباً يقترح نظامه الخاص الذي يضم الأدلة الأكثر أهمية من وجهة نظره ، رغم أنه في كل الأنظمة توجد أدلة يتفق الجميع على اعتبارها أساسية . وهذه الأدلة الرئيسية تظهر في النشاط العقلي ، كما تظهر في المحتوى العام في الابداعية الفردية . وسنتوقف عند هذه الأدلة العامة بالذات دون الدخول في تفاصيل أدلة الأبحاث كل على حدة .

الدليـــل الأول :

الذي يميز في رأي أغلب المؤلفين بين الأفراد المبدعين (المبتكرين) وغير المبدعين يتلخص في تفتح تجربتهم أي الحساسية للجديد ، للمشاكل الجديدة . وعلى عكس غيرهم ، من الذين يستطيعون

حل حتى أصعب المسائل أو المشاكل بنجاح بشرط أن تكون جاهزة من قبل ومحددة من قبل آخرين ، فإن المبتكرين قادرين على أن يكتشفوا المشكلات ويحددونها بأنفسهم (١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ٣٤ ، ٤٥) . فغير الابتكاريين يمكنهم الحل فقط بينما يصنع المبتكرون المواقف بأنفسهم . وبهذا الشكل فإن الابتكارية تتحدد في المقام الأول بمبادرات عقلية مبدعة أو خلاقة ، وبالنظر فيما وراء حدود المشكلة واحتياجات النشاط المباشر . وهذا الدليل يعتبر هو الدليل الرئيسي في أغلب اختبارات الابتكارية (١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٦ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٤٥) .

الدليـــل الثـــاني :

وهو (اتساع المقولات) أي اتساع مجال الارتباط أو الاقتران أو التداعي أو (مدى تباعد الارتباطات) . فأصحاب أسلوب التفكير المبدع يميلون إلى الظواهر الواسعة والأكثر عمومية والغير مرتبطة فيما بينها ظاهرياً وبارتباط محدد أو منطقي . واتساع المقولات دليل على اتساع دائرة اهتمامات الشخص وانتباهه . ففي ارتباط شيئين يخلع الجزء الذي يكون مثار الاهتمام صفته على الكل وتصبح الأشياء التي لم تكن مثار اهتمام في فاعلية وقوة الجزء الأول . وهذا ما يحدث أيضاً في تداعي الأفكار وترابطها حيث تلقح الفكرة الفكرة وتغذيها بما تحمله في طياتها من اهتمام انفعالي حين ترتبطان في صورة من صور التفكير الكلي . هكذا فإن سقوط البرتقالة من على الشجرة لا يرتبط بنضجها ولكن بقانون الجاذبية العامة (وهذا بخلاف نمط التفكير المحدد الذي ينحصر في إطار العنصر الواحد والمحدد) (٦ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٤٩) .

وتباعد الارتباطات ، والاستخدامات غير المتوقعة للمادة وإعطائها معنى وظيفياً جديداً أو تغيير أهميتها ، كل هذه أدلة على اتساع المقولات في اختبارات الابتكارية . ففي اختبارات استعمالات المواد لجيلفورد فإن الخاصية المذكوره تظهر بوضوح حين يطلب إلى المفحوص أن يعدد الاستعمالات الممكنة لمجموعة مواد (مثل الطوب أو المشابك وغيرها) . فأصحاب التفكير المحدد يعددون فقط أوجه الاستخدام الوظيفي المباشر الخاص بمجال واحد (بالنسبة للطوب – البناء) ، أما أصحاب التفكير المنفتح فإنه يقترح استعمال المواد المعطاة بأكثر الطرق غير المتوقعة والأكثر أصالة (صناعة البودرة من الطوب مثلاً) وفي أكثر المجالات اختلافاً (١) .

الدليـــل الثالث :

هو سلاسة التفكير وطلاقته ، وهو يتحدد بغنى وتنوع الأفكار ، الارتبـاطـات التي تتولـد حتى مع أبسط المثيرات ، فالشخص المبدع يمكن أن يدخل المادة في كم من العلاقات والمقولات الشـديـدة التنوع والبعيـدة عن المتوقـع ، وذلـك مـايحـدد طـلاقـة التفكير (٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٢٢ ، ٣٠ ، ٣١) . ولذلك فإن القدرة على إدراك عناصر الموقف الحر (مثل اللعب الحر) تعتبر طوراً أسـاسيـاً قبل النضج والانطلاق (٣٠ ، ٤٩) . وقد وجد « جيلفورد » أن هنـاك ثلاثـة أشكال للطلاقـة في الاختبارات اللفظية هي : الطلاقة الفكرية ، الطلاقـة الترابطيـة ، الطلاقـة التعبيريـة . ويؤكـد « جيلفورد » بالذات على أهمية الطلاقة التعبيرية كعامل للمستوى العالي للابتكارية (١٦) .

الدليـــل الرابــع :

هو مرونة التفكير - أي القدرة على الانتقال بسرعة من فصيلة أو اقتران إلى آخر ومن طـريقـة حـل إلى أخرى . ومفهـوم المرونـة أيضـاً يتضمن سرعـة الانتقـال من الـوعي (الشعـور) إلى عمـل اللاشعور (الوعي البـاطن) والعكس . فخـاصيـة التفكير المنفتـح تتميز عن المحـدد بغيـاب التصلب (الجمود) الداخلي والخـارجي أي التثبيت على المثير وعلى أسلوب الحل (كما تسمى المرونـة العفويـة أو التلقائية) . أما أصحاب التفكير المحدد فيتصفون أحيـانـاً بمـا يسمى (المرونـة التكيفيـة) ، فهم نتيجة لتسمرهم أو تثبيتهم الكبير على المثير يعيدون بسهولة بالغـة تنظيم وجهـة تفكيرهم تحت تـأثير الموقف والمثير والمطلب الاجتماعي (٥ ، ٦ ، ١٠ ، ١٢ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٩) .

الدليـــل الخـامس :

هو أصالة التفكير ، وهذا هو الدليل الأكثر صعوبة في توضيحه وتحقيقـه (٥ ، ٦ ، ١٢ ، ١٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٤٩) . ولذا يقترح هنا أولاً مقاييس أو معايير أكثر بساطة لأصالـة إجـابـات الأطفـال الإبداعية إثناء حل الاختبار (مثل الإجابة التي تقابلنا قليلاً ، أو الاستجابة الأقل حـدوثـاً) . رغم أن المضمون الأساسي الرئيسي لدليل الأصالـة هو استقلاليـة الحل ، عـدم شيوعـه ، ولماحيتـه (في علاقته بالمثير أو بالأساليب التقليدية للحل) . إن الفكرة الأصيلة فكرة غير مألوفة ، غير عادية ، بعيدة المدى في أهدافها وارتباطاتها ، مفيدة اجتماعياً . (١٤) .

وهذه الأدلة الأولية التي عددناها للتفكير الإبداعي تتشابك فيا بينها بقوة ، رغم أن لكل منها خاصيتها ومقاييسها (الكم - السرعة - الكيف - المقارنة - الاتجاه) . وعناصر التفكير الإبداعي هذه بالذات هي التي تعتبر مادة الدراسة والتطور ، رغم أنه لتطوير الكيف المتاح للنشاط العقلي لابد من معرفة طبيعية الاختلافات في أساليب التفكير وما هو سبب الاختلافات الواضحة في أساليب النشاط العقلي للناس ؟ . وتقصي الإجابة على الإجابة على هذا السؤال يتم في عدة اتجاهات مختلفة حيث تحدث محاولات لمعرفة الارتباطات النفسية والفيزيولوجية والشخصية والاجتماعية للابتكارية .

المعايير النفسية للابتكارية

يرى العديد من المؤلفين أن الأنماط المختلفة للنشاط الفكري تتشكل تحت تأثير عمليات نفسية تختلف في خواصها الكيفية . والعملية النفسية الرئيسية التي تنظم النشاط الابداعي في رأي أغلبية الباحثين هي : الإدراك (٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤) . ومن هنا تجري محاولة تحديد الخواص اللازمة لكل مجالات الإدراك الإنساني مقترنة بالشواهد المعبرة عن الابتكارية . ويمكن أن نلاحظ الخواص التالية لمجال الإدراك لدى الأفراد المبدعين :

(١) حساسية غير عادية نحو المعطيات غير المحسوسة .

(٢) براعة اكتشاف عدم الدقة ، العيوب أو النواقص ، الخواص الفريدة في نفس الموضوعات المألوفة .

(٣) القدرة على اكتشاف علامات التقاطع والالتقاء بين المواد التي تبدو منفصلة ظاهرياً أو المستقلة شكلاً والتي لا يوجد بينها صلة ملحوظة . وهذه الصفة تقوم على الإدراك التجميعي والتركيبي الذي يساعد على اكتشاف التشابه بين الموضوعات ، والذي يتغيب تماماً بالنسبة للشكل الآخر - النمط التحليلي للإدراك - إذ بالنسبة للأفراد ذوي الشكل التحليلي للإدراك يجب أن يكون هناك تشابه كبير في الموضوعات حتى يمكن ملاحظته أو اكتشافه (٦ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٤٧) .

(٤) ويتمتع المبدعون بالحدس الخاص أو البديهية المميزة في إدراك العنصر الرئيسي المؤثر أو الظاهرة الرئيسية المؤثرة ، والتغيرات أو التحويلات المحتملة للموضوع أو الظاهرة . فالشخص المبدع مثلاً لا يرى الجذع والأفرع كجزء من الشجرة ولكنه فوراً يحولها إلى مجال جديد

للنحت أو الموبيليات المبتكرة ، ذلك أن ملاحظة جوهر الموضوع يستدعي إدراك (الاستخدامات الوظيفية الجديدة للموضوع) والتنبؤ بكل استخداماته الممكنة وتغيراته الكامنة (٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٤) .

(٥) وكثيراً ما يتكلمون عن الإدراك العفوي أو التلقائي للمبدعين ، وعن تحررهم من المواقف والاتجاهات الجامدة والثوابت . فهم يدركون العالم كما هو مجرد في ذات اللحظة وليس من خلال رقع الكلمات والمفاهيم . فهم مثلاً لا يرون العشب أخضراً على وجه العموم ولكن بكل درجاته في اليوم المشمس أو اليوم الغائم . وهذه الخاصية الإدراكية تستدعي إقامة (العلاقة الخاصة مع الوسط المؤثر مباشرة وبدون وسيط) ، (فهم الموضوعات في جوهرها الجديد المتميز عن الجوهر المألوف) (١٢ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٤) .

(٦) وبالنسبة للأشخاص ذوي النمط التفكيري الإبداعي فإن أكثر الموضوعات جاذبية هي الموضوعات غير المحددة ، غير المنظمة ، غير المتناسقة ، الموضوعات المعقدة ، تلك الموضوعات التي يحولونها بقوة خيالهم الخصب إلى (نظام أرقى وأكثر تناسقاً) (٢٠ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٣٦ ، ٤٤ ، ٤٥) . وفي الإدراك ذاته (تتهيأ) المادة أو الموضوع لعمل التفكير المقبل ، وللإدراك ذاته كل العلامات أو الأدلة الأولية للابتكارية . ولذا يرى كثير من الباحثين ضرورة أن نعلم الأطفال إدراك وفهم العالم أولاً (١٠ ، ١٢ ، ٣١) . وأهمية الإدراك بالنسبة للإبداع تظهر أيضاً في النظر إلى الإدراك كمصدر لتحصيل وحفظ المعلومات التي لا غنى عنها لأي شكل من أشكال النشاط الإبداعي . فلصنع شيء ما جديد يلزم الاعتماد على شيء ما معروف وامتلاك مادة كافية وواسعة تحفظ في الذاكرة حتى يمكن استعمالها بحرية (٢٠ ، ٢٥) . وهنا يرى بعض المؤلفين أن المادة المتحصلة بسلبية لا تقوم دائماً بوظيفتها الإبداعية وتحفظ في اللاشعور كشيء لا أهمية له . وحتى لا يحدث ذلك مع المادة المطبوعة يلزم توجيه الأطفال نحو الإدراك الفكري النشط ، أي هذا الذي يرتبط بالاتجاه الشامل نحو الاسترجاع أو التذكر ، ونحو إحياء أو تنشيط المادة المتحصلة أثناء تنفيذ أي وجه من أوجه النشاط الملموس (١٠ ، ١٢) .

العملية النفسية الثانية - الأوثق صلة ، والتي - في الأغلب - تغلف عملية الإبداع أو تتشابك معها ، والتي تشخص التفرد الابتكاري - هي الخيال أو الأحلام . فالمبدعون يتميزون بأحلام غنية وبخيال خصب . ومن المعروف أن هذه العملية تمثل تجمعاً غير مألوف لعناصر النشاط الحقيقي ،

واضفاء وظائف ودلالات جديدة على المادة وتقديم تصميات أو تركيبات جديدة لم يكن لها حتى هذه اللحظة أي استعمال مباشر في النشاط . ولذا ففي كثير من الأبحاث ينظرون إلى الخيال والأحلام على أنها الأساس الطبيعي لأي نشاط مبدع ، ويسمونها (الطريق الملوكي إلى الوجدان) الذي يعمل أيضاً بنفس المبدأ (١٢ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٣٢ ، ٣٦) .

والخيال والأحلام يوجدان عند كل شخص ، ولكن الناس يختلفون في اتجاه الخيالات وقوتها ووضوحها ، والتعبير عن هاتين العمليتين يظهر بصفة خاصة في الطفولة . وهذا يرتبط بما نسميه عند الأطفال الميل الواضح للكذب . والكذب في الطفولة خيال غير محدد ، وهو محاولة أولية للإمساك بأطراف الموضوع - محاولة الخروج فيما وراء مجتمع الكبار - ودليل للحاجة إلى مدركات جديدة - ومحاولة للوقوف في وجه الراشدين وإثبات الذات - وهو بداية الفطام بعد الاندماج ، كما أنه تعويض لفظي عن احساس بدأ ينمو عند الطفل بكذب الشعور الأولى للقدرة المطلقة الذي يعيشه الطفل في أعوامه الأولى . والخيال والأحلام تفقدان بالتدريج الوضوح والقوة ، ومن الطبيعي أن يظهر سؤال عن سبب ذلك . في رأي بعض المؤلفين (١٠ ، ١٢ ، ٢٠ ، ٤٧) فإن ذلك يحدث لأنه في مرحلة التعليم المدرسي تفقد هذه الوظيفة العقلية أهميتها وتخمد ولا تستعمل ولذا فإن البرامج المدرسية يجب أن تشحذ ذكاء الطفل وتستثير قدراته وتعمل خيالاته . إذ في المدرسة يصبح الخيال والأحلام غير لازمين لتذكر بعض القوانين أو المعلومات . ولذا فإنه في الطفولة يجب أن يتعايش الأطفال مع عالم الواقع المرتبط بنشاطهم المدرسي ، وإلى جانب ذلك مع عالم الخيال والأحلام . وفضلاً عن الارتباط القوي مع الوظيفة الإبداعية للعقل فإن الخيال يعتبر شرطاً لازماً لتوسيع معارف وميول الأطفال (بقدر تغلغله بلا حدود في التاريخ وفي المستقبل وفي الفضاء) (٢٠) . ويقول (جونز) (Jones) بأن تدريب الخيال واستعماله ضروري (كالعقل أو الجسم وأنه يجب أن يستعمل بصورة مستمرة وليس بصورة عرضية) (٢٠) . ونقطة البدء لتطور الخيال ونموه يجب أن تكون النشاط الموجه بمعنى استعمال أحلام الأطفال وخيالاتهم في حل أي مشكلة أو مسألة ملموسة (١٠ ، ١٢ ، ٢٣) .

وبحسب وجهة النظر هذه فإن العمليتين الرئيسيتين اللتين توفران علاقة أو علاقة أو رباطاً مع الواقع أو انحرافاً عنه هما العمليتان المرتبطتان اللتان تحددهما السمات الرئيسية للابتكارية : قدرة ملاحظة المشكلة وتحديدها ، المرونة ، غنى المجال الاقتراني أو ثراء الارتباطات ، ولكنهما لا تستغرقان كل العوامل المحددة للابتكارية .

والمكان الرئيسي في مضمون الموهبة الابتكارية هو مكان العمليات المنظمة أو الضابطة - الانفعالات والمشاعر ، وأيضاً مجال التنظيم الذاتي والتحكم الذاتي . والدوافع والحاجات في الإبداعية تتشكل - في رأي كثير من المؤلفين - تحت تأثير انفعالات الشخص السائدة . ومن الانفعالات التي تسود في كثير من الأحيان عند الأفراد المبدعين العدوان والابتهاج (١٢ ، ٢٥ ، ٤٥) . هكذا فإن « جتزل وجاكسون » أثناء بحث على الأطفال ذوي الإبداعية العالية والذكاء العالي يلاحظان عدداً كبيراً من العناصر العدوانية في الإنتاج الابداعي للأطفال المبتكرين (١٢). ومن الخواص التي تكررت عند المبدعين والتي أحصاها «تورانس» (٤٥،٤٣) عدداً كبيراً من الخواص الانفعالية والشخصية التي يمكن أن تظهر فقط كنتيجة لسيطرة انفعال العدوانية (كانطلاقة للأنا في الخارج) . ومن هذه الخواص الميل إلى السيادة والتفوق والميل إلى المخاطرة وخرق النظام المألوف والميل نحو الاستقلالية ، والراديكالية ... الخ . وإلى جانب ذلك يلاحظ عندهم التفاؤل ، الاستعداد لتقديم المساعدة ، المشاعر الطيبة ، روح الفكاهة (١٢ ، ٢٥ ، ٤٥) . والصفتان الأكثر ظهوراً هما : الميل إلى السيادة والتفاؤل (١٠ ، ٢٢ ، ٢٥) .

وإذا كانت هذه الانفعالات تساعد على ظهور الإحساس بالحاجة إلى الإبداع (رغم أن درجات هذه الاتجاهات مازالت بعيدة عن الوضوح) . فإن سيادة انفعال الخوف - في رأي العديد من الباحثين - تشكل حائلاً طبيعياً أمام تكوين محددات الخلق أو الابتكار . ومن وجهة نظر التحليل النفسي فإن الخوف وتوقع الاحباط يجمدان تفكير الشخص ويدفعان إلى التعلق بالأشكال التقليدية ويضيقان من مجال نزعة الأبحاث المستقلة وطرق الحل الجديدة (٢٣ ، ٤٩) . وعند أصحاب الطابع المحدد (المنغلق) للتفكير نلاحظ مثل هذه الصفات الشخصية التي تقوم بصورة أساسية على سيادة انفعال الخوف : الانصياع ، الميل إلى اكتساب الهيبة والثقة والثبات ، والتدقيق الزائد في الشكليات ، والميل نحو النظام والتحديد (٢٣) . وانفعال الخوف هو بصفة عامة مضاد تماماً لعملية الإبداع . وقد طلب من المفحوصين في أحد البحوث حل اختبارات على الذكاء والابتكار في موقف هادىء ومريح للأعصاب (حيث أبلغوا أنه تجري معالجة اختبار بسيط) وعلى العكس في موقف توتر (حيث أبلغوا أن الالتحاق بالجامعة يتوقف على نتائج الاختبارات) ، وقد وجد أن حل اختبارات الابتكارية يتم على وجه أفضل في المواقف الهادئة ، بينما يتم حل اختبارات الذكاء على وجه أفضل في مواقف التوتر (٢٧) . وكل فاعلية ما يسمى (الاقتحام العقلي) أثناء حل المشاكل الإبداعية تتلخص في تنحي خوف تقدير أو درجات الإجابة غير الصحيحة (٢٣) . وأثناء وضع

التوجيهات التربوية الخاصة بنمو الابتكارية فإن عزل مواقف الاحباط في التعلم يجب أن يحظى بعناية كبيرة (١٠ ، ١٢ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٤٩) .

الصفة التالية التي تدخل في بناء الإبداعية الفردية هي التوجيه الذاتي الذي يتضمن التوجيه نحو معالجة أي فكرة كبيرة والميل إلى شكل معين من أشكال النشاط ، وما يرتبط بذلك من ثبات وقوة الانتباه . (٥ ، ٢٠ ، ٢٥ ، ٥٠) . وفي رأي العديد من الباحثين أنه (بدون توجيه تيار التداعي والارتباطات والألعاب العفوية الخيالية والموجه نحو بعض الأهداف لا يمكن أن نحصل على الإنتاج الإبداعي الأصيل) (٥٠) . فالعفوية والمرونة واتساع تيار التداعي ووجهته هي جوانب للعملية الإبداعية ترتبط فيما بينها ، ويمكن أن تتم على مستوى الشعور وكذلك على مستوى اللاشعور . فالتحديد السليم والدقيق للمشكلات والأسئلة على مستوى الشعور تنظم وتوجه عمل الوجدان وتضع إمكانية الوضوح والكشف (٥٠) . ولذا نلفت نظر المربين إلى أهمية تربية التوجيه الهادف عند الأطفال في أي نشاط عقلي . ونحذر إلى جانب ذلك من التعظيم الزائد للاستثارة العفوية ولحرية ظهور نزوات الأطفال على وجه العموم (٢٠ ، ٤٩) .

الصفات الشخصية للأطفال المبدعين

فيما يتعلق بالصفات الشخصية للأطفال ذوي الموهبة الإبداعية ، والإبداعية الفردية عموماً ، فإنه عند أربعة وثمانين شخصاً من المبتكرين جمعهم (تورانس) (Torrance) (٤٥) يمكن أن نجد عدداً كافياً من الصفات المتناقضة : فمن جانب نجد عدم الثقة ، التهيب ، الخجل والحياء ، حب العزلة ، عدم الشعبية وسط الناس ... الخ ، ومن جانب آخر - النزعة إلى السيادة ، الجرأة في الدفاع عن أفكارهم ، الحاجة إلى العلاقات الاجتماعية والنشاط الاجتماعي ، الاجتماعية والشعبية وسط الناس . وبهذا الشكل فعلى الأساس العقلي نجد هؤلاء الناس يتجمعون في مجموعة واحدة (المبتكرين) ، وعلى أساس علاقاتهم الاجتماعية - في مجموعتين متناقضتين : الأولى تتصف بالانعزالية والتنابذ وذكاء ابتكاري عالي ، والثانية بجانب هذا الذكاء الابتكاري تتصف أيضاً بتفتح كبير ، وعلاقات اجتماعية ، ومقدرة ابتكارية اجتماعية . رغم أنه في كلا المجموعتين لم تلاحظ صفة الميل إلى المسايرة والانصياع (٢٢ ، ٢٣ ، ٣٤) .

والإجابة التشخيصية عن طبيعة الصلات الاجتماعية المختلفة يقدمها البحث الذي أجراه والاش وكوجان (Wallach) and (Kogan) (٤٩) . ففي تقدم لأعمال (جتزل وجاكسون) لأنها عند إجراء البحث قد اعتمدا فقط على مجموعات معروفة والقدرات الإبداعية ، اعتمد هذان المؤلفان على أربعة مجموعات للأطفال تم تقسيمها على أساس النجاح في حل اختبارات الذكاء والابتكارية ، وقد أظهروا نجاحاً إما في حل شكل واحد من المسائل أو في حل شكلي المسائل أو عدم القدرة التامة على حل هذه المسائل أو تلك . ولقد تحددت عند مختلف الأطفال في وقت واحد بواسطة البرنامج المقدم هذه الصفات الشخصية مثل النشاط الاجتماعي والشعبية وسط الدارسين والثقة في النفس ... الخ . ولقد تبين أن الصفة الأكثر ظهوراً عند الأطفال ذوي الذكاء العالي والابتكارية العالية هي النشاط الاجتماعي (كاحتجاج ضد الملل وعدم الكفاية في برنامج التعليم ... الخ) . وظهرت عندهم بوضوح أيضاً النزعة إلى جذب الانتباه نحو الذات ، العدوانية الزائدة ، الثقة في النفس ، الاستقلالية ، الاجتماعية وحب الرفاق لهم . وقد تمتعوا أيضاً بالحرية الداخلية والتحكم الخارجي . وقد كان سلوكهم مزيجاً من النضج والصبيانية . أما الأطفال ذوي الابتكارية العالية مع الذكاء المنخفض ، فقد كانوا في أكثر الأوضاع التي تبدو سيئة في الجماعة ، إذ كانوا غير معروفين وسط الأتراب ، أحسوا بأنفسهم ميلاً للإيذاء ، رغم أنهم قد احتجوا بفتور ضد أوضاعهم . ولقد عاشوا صراع دائم وعنيف مع أنفسهم ومع المحيطين . وتميز الأطفال ذوي الذكاء العالي والابتكارية المنخفضة بثقة في النفس وكانوا معروفين وسط الأتراب والمربين ، ولكنهم لم يبحثوا بأنفسهم عن مجتمع أصدقائهم (اجتماعية من جانب واحد) ، ولم يظهروا نشاطاً اجتماعياً وقد اتجهوا وجهة مفيدة نحو النجاح الأكاديمي . أما الأطفال ذوي الذكاء المنخفض والابتكارية المنخفضة فقد تميزوا إما بثقة زائدة في النفس أكثر من بقية مجموعات الأطفال ، مع ميل إلي النشاط الاجتماعي ولكن بلا مبادأة أو ابتكار وإما كانوا سلبيين جداً ، منعزلين ، وبحثوا باستمرار عن ميكانيزمات الدفاع النفسية وتعويض القدرات غير الكافية .

وهذه الأبحاث تستوجب القول بأن الصفات الشخصية والعقلية توجد في وحدة قوية وكافية مما يؤكد نظرة بعض العلماء الآخرين (٥ ، ١٢ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٣١ ، ٤٥ ، ٤٧) .

وهكذا ، يصبح من الطريف أن نذكر أن التدريب الخاص للقدرات الإبداعية يقود قبل كل شيء إلى تغيير بعض الصفات الشخصية وليس فقط إلى تغيير نفس القدرات . وبعد برنامج التدريب الملائم على الابتكارية ظهرت عند الأطفال خاصية عامة هي النزعة نحو السيادة (١٧ ، ٤٣ ، ٤٤) .

والجدير بالذكر أيضاً أنه إلى جانب إثبات العلاقة بين الصفات الشخصية والعقلية ، يشير الباحثون إلى أن هذه وتلك تخضع لتأثير الوسط الاجتماعي (١٧ ، ٤٩) .

من جانب آخر ، فقد حاول الكثير من المؤلفين والباحثين ممن يستخدمون المصطلحات الطبية إرجاع العبقرية أو الإبداع إلى الجنون ، وتاريخ الحياة إلى تاريخ المرض . ولكن الأبحاث التجريبية التي بدأت مع جالتون (Galton) منذ القرن التاسع عشر قد أثبتت أن شيوع الجنون بين العباقرة أقل منه بين البشر العاديين . إلا أن الربط بين العبقرية والجنون مازال يتردد في كثير من الكتابات . ولعل ذلك يرجع إلى أن المبدعين يتصفون في أغلب الأحوال بكثير من خصائص الطفولة ، وأنهم يميلون إلى الإنطلاق ، ولا يبالون كثيراً بالعادة الاجتماعية . وهذا مايدفع الآخرين إلى اتهامهم بالجنون لقصورهم عن فهم عالمهم الداخلي وأسلوب حكمهم على الأمور . والواقع أن كل محاولات الشخص للتغيير وطرح الجديد غير المألوف في الفكر والإنتاج ، ومحاولاته صناعة نفسه جيداً ، هو ما يراه المجتمع مرضاً .

ونظر آدلر (Adler) إلى الإبداع على أنه محاولة تعويض عن نقص يعاني منه الشخص المبدع ، ويرجع بعض تلاميذ فرويد الكلاسيكيون الإبداع إلى الانحراف في النمو الجنسي .

ولكن الدراسات الاحصائية في السنوات الأخيرة تدل على أن الأعصبة والأمراض النفسية الخطيرة توجد عند المشاهير من الناس بنسبة أقل كثيراً منها عند البشر العاديين .

وكشفت الأبحاث التشريحية الاحصائية الدقيقة أن متوسط طول ووزن العلماء المشهورين يفوق المعدلات إلى حد ما ، وأن الجمجمة عند الكثيرين منهم كانت من النوع الذي يسمى النمط الدماغي أو المخي ، أي الذي يغلب الهيكل العظمي المخي له على الوجه ، وصاحب حدبات الجبهة الكبيرة مع قوس حاجبي ضعيف . ومن ناحية الصحة الجسمية فيمكن أن نذكر سلسلة من عظماء البشر كانوا يتميزون بصحة جسمية فائقة . ولكننا لا يجب أن نعول كثيراً على هذه الخاصية الجزئية ، حيث يمكننا في المقابل أن نذكر أمثلة مضادة غير قليلة لعظماء تميزوا بصحة جسمية ضعيفة .

الظــروف الأســرية
التي تساعد على نمو الإبداع

كشفت أبحاث العديد من المؤلفين أن الدور الأكبر في تطور الابتكاريـة تلعبـه خبرة الطفل في سن ما قبل المـدرسـة وكـذلـك الخبرة التي يحصل عليهـا في الأسرة (١٠ ، ١٢ ، ٢٣) . وقـد وجـد « جتزل وجاكسون » في أبحاثها على الظروف التي تسـاعـد على تطور الابتكاريـة العـاليـة والـذكاء العالي عند الأطفال أن المستوى المـادي للأسرة لا يلعب دوراً في تربيـة الجوانب العقليـة المختلفـة ، وأن الـدور الأكثر تـأثيراً هـو دور مهنـة الـوالـدين ووضعها الاجتماعي في عـلاقتـه بـالاتجـاه نحـو الأطفال .(١٢). وكشفت الدراسات عن أطفـال الآبـاء الأذكيـاء قـد حصلوا في أغلب الأحيـان على مستوى تعليم أعلى من أطفال الآباء المبتكرين . وأن آباء الأطفال الأذكيـاء هم في الغـالـب موظفون (قانونيون مثلاً أو معلمون في الجامعة) ، بينما يكون آباء الأطفال المبدعين غالباً من رجال الأعمال المنتمين إلى أسر من الطبقة المتوسطة أو المتوسطة العالية ، وهم من المستقلين مهنياً ، يمارسون أعمـالاً أو مهنـاً تستلـزم منهم الشجـاعـة والجرأة والـدأب والاستقـلال والمخـاطرة ، وهي صفـات يتميز بهـا المبـدعون . ويجـد الأطفـال المبـدعون في الآبـاء أو الأقـارب مثـالاً للتقليـد ونموذجـاً لـلاقتـداء من جانب ، ومن جانب آخر فإن آباءهم يكونون أكثر إيجابية وولاء في اتجاهاتهم نحو الأطفال (٢٥) .

إن الـدراسـات على تـأثير اتجـاهـات الوالـدين نحو الأطفـال على تطـور الابتكاريـة تـوفر لنـا معطيات ممتعة . فـآبـاء الأطفـال المبتكرين يكتشفون في أطفـالهم جوانب نقص أو عيوب أقل من تلك التي يكتشفها آباء الأطفال الأذكياء فيهم . ويظهر هؤلاء الآباء موقفاً ملائمـاً من تمـايز الطفل (تفرده) ، يشجعونـه ويحترمونـه ، ويبـدون الثقـة التـامـة في قـدرتـه على عمـل كل شيء بصـورة صحيحة ، كما يشجعون حب الاستطلاع لدى الطفل وميله إلى البحث وتقديم أفكار أو حلول تخرج على الحقائق المألوفة أو الموضوعية . ويحظى الأطفال المبدعون في أسرهم بالتسامح الوالدي والتـدعيم الـوجـداني والحث على الاستقـلال والتعبير عن الـذات ولا تقـوم تنشئتهم على الضغـط والسيطرة والمراقبة، ولذا فإنهم يتحررون من المكبوتـات التي تعيق النمو السوي في مختلف المجـالات . ويتصف آباء الأطفال المبدعين بـالاجتماعيـة ، ولا يسيطر على أسرهم الفكر الـدوجماطي القـائم على التعصب والانغلاق الفكري .(٢٤) .

وبينما يتجه اهتمام آباء الأطفال الأذكياء نحو العوامل الخارجية التي تؤثر على الطفل ، فإن آباء الأطفال المبتكرين يعيرون الانتباه الأساسي للمكونات الداخلية للطفل . وتتصف تنشئة المبدعين بصفة عامة بمساعدة الفرد على إقامة معاييره من الداخل (توجيه ذاتي) ، وعدم الاعتماد على الآخرين (الاستقلالية). (٢١ ، ٢٥) .

وتوضح الدراسات كذلك أن اشتراك آباء الأطفال المبتكرين في المجلات والصحف أقل من اشتراك آباء الأطفال الأذكياء .(١٢) . وأن أمهات أغلب الأطفال المبدعين قد عملن أو كانت لهن مهنة حتى الزواج على الأقل ، بينما انشغلت أمهات الأطفال الأذكياء بالأعمال المنزلية وتربية الأطفال .

وقد لاحظت أغلبية الباحثين أن الدور الأكبر في تطور المواهب الخلاقة للأطفال هو لوضعهم في الأسرة ، ومركزهم بالنسبة لبقية اخوتهم . فالأطفال الأول (البكر) وهؤلاء الأطفال الذين يكون لهم - لسبب أو آخر - وضعاً قيادياً خاصاً في الأسرة إنما يعبرون بذلك عن قدرات إبداعية خاصة (١٠ ، ٢٣ ، ٣٣) . وبتعبير آخر ، فإن مواقف الاستقلالية النسبية والحرية وتعبيرات الاحترام نحو الطفل وغياب مظاهر اللهفة عليه ، كل ذلك يساعد على تشكيل القدرات الإبداعية لديهم . وهذه الاستقلالية الذاتية للطفل في الأسرة نحصل عليها من جراء الدفء والقرب في الاتجاهات بين الوالدين والأطفال .

ان تحديد وتضييق الميول الخاصة بالأطفال يؤدي إلى تكبيل وتقييد الفكر ، يؤدي إلى النضج قبل الأوان ، وهو ما يعجل بذبول النفس الإنسانية . والتناول التربوي الخشن والعنيف ، والموجة إلى التعجيل بالنمو النفسي ، ينتهي في أغلب الأحوال نهايات غير ناجحة . فنتائج التطور المتعجل - إذا أمكن تسجيلها - تكون واهية وقصيرة العمر . وسبب هذه الظاهرة يرجع - كما يبدو - إلى أن مثل هذا النشاط التربوي غير المتخصص في الأسرة ، وتأثيره غير السليم يفرضان على الطفل مجالاً محدداً وضيقاً من الأعمال والواجبات التي تؤدي قبل الأوان إلى تخصص للتفكير ، وإلى الحد من إمكانيات تطور القدرات ، وإلى التضييق من مجالات الميول والاهتمامات ، وهي كلها تعتبر شروطاً لازمة للابتكارية .

وفي سن ما قبل المدرسة يصبح إنشاء وتعميم رياض الأطفال من الأهمية بمكان للتعويض عن الفقر الثقافي وفقر المثيرات الحسية في بيئات الكثير من الأطفال . وتشير الدراسات إلى أن متوسط

الذكاء (وهو عامل من عوامل الابتكارية) يمكن أن يزيد بمقدار الضعف في البيئة الصالحة عن البيئة غير الصالحة (١٢ نقطة ، ٦ نقاط فقط) . وأن نقل الطفل من بيئة فقيرة في المثيرات الحسية والثقافية إلى بيئة غنية يرفع ذكاءه بين ٢٠ ، ٣٠ نقطة ، وربما أكثر من ذلك . ويعطي « جنسن » (Jensen) في دراساته التي تمت سنة ١٩٦٩ لتأثير البيئة ٢٠ ٪ من صور التباين في الذكاء بين الأطفال ، بينما يعطي « كرونباخ » (Cronbach) للبيئة في دراساته التي تمت في نفس العام تأثيراً أعلى قد يصل إلى نسبة ٥٠ ٪ من التباين . (٧) .

على أن الأسرة تشكل فقط جانباً من جوانب تأثير الوسط الاجتماعي على الطفل ، ويبقى الدور الأكبر في تشكيل الإبداعية الفردية للمدرسة ، لأن كل المواقف التي تنتج عن الاتجاهات بين الوالدين والأطفال - والتي تساعد على النمو المبدع للطفل - تحفظ وتتكرر أيضاً في الاتجاهات بين المربين والتلاميذ .

الظروف المدرسية
التي تساعد على نمو الإبداع

تعرضت دراسات كثيرة للكشف عن القواعد الهامة التي تساعد - في الغالب - على تطور ونمو القدرات الإبداعية لدى التلاميذ . ومن بين هذه القواعد يبرز مجالان يتعلقان بما نرجوه من المربي في اتجاهه نحو الأطفال المبدعين ونحو محتوى المنهج الدراسي . فحتى لا نعوق أو نعطل ظهور القدرات الخلاقة للأطفال بل ، على العكس ، نستحث تطورها ، فإن المربين يجب أن يحافظوا - من وجهة نظر علماء النفس - على المبادىء التالية :

(١) التصرف بوعي وحرص نحو كل مظاهر النشاط الخلاق للأطفال . وكما يوضح الكثير من الدراسات (٦ ، ١٢ ، ٣٤ ، ٤٥ ، ٤٦) ، فإن اتجاه المعلمين نحو الأطفال المبدعين يكون سلبياً في الأساس . وحين طلب من المعلمين كتابة أسماء الأطفال الذين يفضلون رؤيتهم في الفصل بصفة خاصة ، فإنهم قد اختاروا الأطفال الذين يتميزون بمستوى عال للذكاء ، وليس بالابتكارية . وقد فسر الباحثون ذلك بأن الأطفال المبدعين كثيراً ما يبدون (تعالياً على المربين) ، كما أننا لا نستطيع أن نحدد دائماً (ماذا نتوقع منهم ؟) ، في نفس الوقت الذي

يحقق الأطفال الأذكياء دائماً توقعات المربين وينفذون مطالبهم بدقة . ولذا فإن الأطفال المبدعين يكونون غالباً في موقف التلاميذ (غير المرغوبين) و (المستهجنين) من المعلمين . وهذا الاتجاه من جانب المربى يؤثر بلا وعي على اتجاه الأطفال الآخرين نحو الأطفال المبدعين . ولذا يوجه فوستر Foster (١٠) سؤالاً خاصاً للتلميذ ، يساعد في رأيه - إلى جانب أسئلة أخرى - على الكشف عن الإبداعية الفردية بطريقة غير مباشرة وهو : هل أنت محبوب وسط زملائك ؟ والإجابة السلبية على السؤال تؤخذ كدليل على الابتكارية . ومن هنا فإن على المربين العمل على تغيير مواقفهم من الأطفال المبدعين وخلق جو مناسب لهم (جو دفء) يمكن أن يساعد على ازدهار - مواهبهم . هكذا ، فإن المربى يجب - قبل كل شيء - أن يشجع الأطفال على التعبير عن أفكارهم المبدعة ، وتوفير الوقت لذلك ، والاستماع بانتباه إلى الطفل ، وأن يكون مستمعاً حساساً . كما يجب أن يساعد المربي التلميذ على أن يفهم نفسه وإبداعيته ، وأن يساعد الوالدين على فهم أطفالهم الابتكارية (١٠ ، ١٢ ، ٣٤ ، ٤٥) .

وبهذا الشكل ، فإن توفير المناخ الملائم للأطفال المبدعين يجب أن يقود إلى تغيير المركز الاجتماعي لنفس الطفل من جانب ، وإلى تغيير (التوجيه القيمي) لكل الدارسين في الفصل ، واحترام التفكير الابداعي وتقديره من جانب آخر . وكل ذلك بدوره سيؤثر على تطور المواهب الإبداعية .

(٢) تغيير اتجاه المعلم نحو كل تلميذ ، بمعنى ضرورة الكشف عن القدرات الإبداعية الكامنة عند كل تلميذ (١٠ ، ١٧ ، ٤٥) . لقد كشفت الدراسات أن الأطفال ذوي الابتكارية المنخفضة يحققون نجاحاً يفوق المتوقع منهم حين يعيرهم المعلم انتباهه المستمر . ويجب أن ينظر المعلمون للإبداع كدليل على الإنجاز أو النجاح الدراسي والتفوق فيه ، تماماً مثل عامل الذكاء . وفي هذا الصدد يقترح تورانس (٤٧) الخطوط التالية لعمل المعلم إذا أراد توفير المناخ المناسب لنمو القدرات الإبداعية عند تلاميذه :

أ - أن يتقبل المعلم برحابه صدر أسئلة التلاميذ غير العادية .

ب - أن يحترم المعلم أفكار الأطفال غير العادية .

جـ - أن يظهر للأطفال معقولية أفكارهم وقيمتها .

د - أن يوفر فرص التعليم الذاتي للتلاميذ ويقدرها .

هـ - أن يسمح بـالعمل والتعلم الحر غير المقوم ، وهو مـا يحرر التلاميـذ من الضغط العصبي للامتحانات والتقويم .

(٣) قدرة المربي على ملاحظة مظاهر الإبـداع لـدى تلاميـذه ، ليس فقـط في وقت الـدروس في الفصل أو الواجبات الخاصة ، ولكن أيضاً في أي نشاط آخر خارج المدرسة أو داخلها . ومن أجل ذلك يجب إشراك التلاميذ في أشكال النشاط المختلفة تماماً ، ذلـك أن السلوك الإنسـاني في أي صورة من صورة (عقلياً كان أو يدوياً) هو عملية كلية كتلية يستحيل تجريـدهـا . إن المربي الـذي يريـد الكشف عن القـدرات الابتكاريـة وتطـويرهـا يجب ألا يعتمـد على الأحكام القبلية فيما يتعلق بقدرات التلاميذ ، تلـك الأحكام التي تظهر في العمليـة التعليميـة على أساس درجات الاختبارات المدرسية التقليدية بصفة عامة . كما يجب أن ينطلق - ومنذ البداية - من مسلمة تقول بتواجد القدرات الخـاصـة عنـد كل إنسـان مع اختلاف أشكالها ، فيكون دوره هو مساعدة التلاميذ في الكشف عنهـا ومعرفتهـا ، ثم يـأتي دور الإثنين : المعلم والتلميـذ في تتبعهـا وتطـويرهـا . وبمعنى آخر ، فـإن كل تلميـذ يجب أن يمـارس كل أشكال النشاط أولاً .

وكما ذكرنا من قبل ، فإن المواهب الخلاقة تظهر كأفضل مـا تكون بـالـذات في النشـاط الذي يكون لدى التلميذ قدرات خاصة به . وهذا يرتبط بلا شك بـاهتمام التلميـذ بـالموضوع وشغفه بـه . ولـذا يجل أن يتخلى المربون عن الصراخ من تشتت الانتبـاه أو عـدم التركيز في الدرس ، وبدلاً من ذلك يجب أن يبحثوا فوراً عن النقطة أو اللحظـة التي بـدأ فيهـا تشتت الانتباه لأن ذلك يكون في الغالب خيطاً يصلهم بنقطة الاهتمام . ويجب أن نتذكر أن عـدم تركيز الانتباه العام والنسيان لم يكونا دائماً نقطة بداية سيئة . كما أن تشجيع ظهور القدرات الخاصة للتلاميذ يمكن أن يساعد على تكوين أنماط النشـاط الفردي عنـدهم ، تلـك الأنمـاط التي تعكس الاستقـلاليـة والابتكاريـة (١٠ ، ١٢) . ومثـل هـذه النتيجـة يمكن أن نحصـل عليها بإعطاء واجبات فردية خاصة داخل إطار الواجبات المحددة للجماعة .(١٠) .

(٤) المطلب الجاد الآخر من المعلمين هو تربية تقييم ذاتي على مستوى عال وكاف عنـد التلاميـذ ، يمكن أن يحفزهم نحو النشاط . ومن أجل ذلك فإن تقييم التقدم الإبـداعي للتلاميـذ لا يجب أن يتم على أساس القواعد العامة أو المستويات المتعارف عليهـا أو المتبعـة من قبل : فـالمربي يجب أن يكون قادراً على ملاحظـة التقـدم الفردي للتلاميـذ ، ومن الجوهري أنـه لكي يمهـد

المربي التربة لتحقيق النجاح ، للإدراك الذاتي الإيجابي للتلاميذ ، فإن الدرجة يجب أن تكون متناهية الموضوعية (وتتضمن هدف التعلم في المستقبل) وشكل التشجيع في هذه الحالة يجب أن يكون مرناً تماماً ، فإذا كان أسلوب التشجيع يمكن أن يصبح معتاداً فيجب منعه . والمهم أن يحس الطفل بالرضا عن الموضوع المنفذ بصورة جيدة ، وعن الموضوعات التي ينفذها هو واكتشافاته هو بحيث تصبح المصدر الرئيسي لرضاه ، وبحيث تنتقل صور وأشكال التقدير (من الذات إلى الهدف) . (١٠ ، ١٢ ، ١٧ ، ٣٢ ، ٤٦ ، ٤٩) .

(٥) والمطلب التالي يتلخص في تنمية المربي لابتكاريته . فالمربى يجب أن يخفي في نفسه دائماً قوى الخمول والتقاليد المتبعة والشكلية في التعليم . ويجب أن يطمح إلى أن يكون عمله في مستوى عمل الباحث : حيث يوجه اهتمامه لدراسة موضوع نشاطه أي تلاميذه ، واكتشاف الطرق الأمثل والأساليب الجديدة دائماً لتطوير الإبداعية الكامنة عند الأطفال (تنظيم مناظرات ، وضع أهداف جديدة ، نصائح ، الصمت الواعي ، الإيحاء ... الخ) . أن تطوير القدرات الإبداعية عند التلاميذ يستلزم أن يكون المربي نفسه مبدعاً .(٢٠ ، ٤٥) .

لقد كشفت الدراسات أن الإبداع المنخفض عند كل من المعلم والتلميذ يعطي نتائج دراسية في بعض المواد أفضل من الإبداع المنخفض عند المعلم والمرتفع عند التلميذ ، وأن الأطفال الذين يحظون بمعلمين ذوي حماسة مبدعة يتقدمون كثيراً على الأطفال الذين يقوم على تربيتهم معلمون تنقصهم هذه الحماسة (٤٦) .

إن الفرق بين معلم وآخر هو في شيء من الابتكارية يستطيع بها أحدهما أن يكون ذا عقل يلمع بركائز الارتباط بين درس جديد وبين الخبرات الأخرى للأطفال ، حيث يمتلىء حديثة مثلاً بالقصص والحكايات والنوادر والذكريات ، وبذا يكون قادراً على إثارة الشغف والاهتمام ، ويفيض وتفيض معه الحصة بالحيوية والحياة - قانون الأهبة والاستعداد عند هربارت - بينما يكون معلماً آخر مفتقداً لذلك (خامل ، ممل ، يفيض درسه بالسآمة والجدب) . ويرتبط بذلك قدرة المعلم على التنويع في الموضوع ، وذلك باكتشافه جوانب جديدة في الموضوع وتغيير طريقة العرض وإثارة الأسئلة بشأنها .

وهناك توصيات أخرى جزئية ترد في أعمال كثيرة (١٠ ، ١٧ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٤٥) ، إلاّ أنها جميعاً تدخل في إطار التوصيات الخمس العامة السابقة .

على أن الحاجة الآن ملحة لتغيير بعض التصورات الشائعة فيما يتعلق بالنمو الإبداعي للإنسان . فهناك كثير من علماء النفس يرون أن العلامة المحددة للإستعداد الطبيعي لنمو الموهبة هو ظهورها المبكر ، وكذلك التفرد والاستقلالية – بمعنى انتباه الطفل لها ، مما لا يستلزم مؤسسات تربوية خاصة للكشف عن هذه الموهبة . وهناك رأي مضاد يقول بأن النمو المبكر للموهبة يؤدي إلى ذبولها السريع ، وأن كل العباقرة يجب أن يكونوا بطيء النمو النفسي في بداية العمر ، وقد انتشر هذا الرأي في الغرب – وخاصة في الكتابات الأمريكية – في أوائل القرن العشرين . على أن دراسة تاريخ العظماء يمكن أن تؤكد كلاً من وجهتي النظر هاتين . فالبعض مثل باسكال وفيثاغورس وليست وموزار وغيرهم كانوا غير واضحي المواهب في الطفولة . وقد تعلم أنيشتين الكلام متأخراً . وكان روبرت ماير وديكارت من التلاميذ الفاشلين في المدرسة ، واستدعى والد أديسون لاستلامه من المدرسة لعدم كفاءته في الدراسة ، وطرد ليبيخ من المدرسة بسبب تكرار رسوبه ، أما نيوتن ووالترسكوت فقد كان تعلمهما بطيئاً وسيئاً . وكثيراً ما تختفي القدرات أو المواهب حتى في التعليم العالي ، فقد جاء في تقارير « هيجل » الدراسية أنه يتمتع بمواهب طيبة ولكن معلوماته قليلة جداً ، وانه في الفلسفة بليد إلى حد البلاهة .

الأمر الثاني الذي نود أن يكون واضحاً باستمرار ، هو أن كراهية المعلمين والتلاميذ العاديين للتلميذ الابتكاري ترجع في الأساس إلى تناقض واضح بين المدرسة كمؤسسة ذات برنامج محدد وأهداف مرسومة ، وتقوم على النقل غير الناقد للتراث والحضارة والقيم الاجتماعية عبر الأجيال ، والتلميذ المبدع صاحب التفكير الناقد والخيال الواسع والاستعداد المستمر للتمرد على ما هو معروف أو مألوف . ومن هنا فهو لايقدم نموذج التلميذ الهادىء والمطيع صاحب العقل السلبي (المستقبل فقط) .

الأمر الثالث الذي يمثل مشكلة ملحة بالنسبة للدول النامية هو توجيه التلميذ – أو توجهه – إلى اختيار شعبة التخصص الدراسي العلمية أو الأدبية في المرحلة الثانوية . إذ ينتشر رأي يقول بأن الدراسات الأدبية لا تحتاج إلى التفكير ذي الطابع المفتوح ، وأن الدراسات العلمية والمعملية تحتاج إلى ذكاء أكثر من المواد النظرية . والواقع أن ذلك يحتاج إلى دراسات عديدة وإلى إعادة نظر في ضوء نتائج بحوث هدسون (Hudson) في أعوام ١٩٦٦ ، ١٩٦٨ إذ وجد أن علماء الطبيعة (الفيزياء) يكونون في الغالب من أصحاب التفكير ذي الطابع المحدد أو المنغلق ، وأن الأدباء والفنانين يكونون في الغالب من أصحاب التفكير ذي الطابع المفتوح . كما وجد هدسون أن عدد

من يدرسون اللغة الإنجليزية والتاريخ من أصحاب التفكير ذي الطابع المفتوح يزيد كثيراً عن عدد أصحاب التفكير المحدد الذين يدرسون هذه المواد ، وأن عدد من يدرسون الرياضيات والفيزياء والكيمياء من أصحاب التفكير المحدد يفوق عدد من يدرسها من أصحاب التفكير المفتوح (١٨ ، ١٩) .

وإلى جانب ذلك ، فإن هناك مجموعة من التوصيات والمقترحات يعرضها الباحثون فيما يتعلق بتنظيم برنامج النشاط التعليمي ، ويمكن إجمالها فيما يلي :

(١) قبل كل شيء يتحتم توسيع نطاق العلوم أو المواد المرتبطة مباشرة بالإبداعية . ويأتي في الصف الأول منها تلك المواد المرتبطة بالنشاط التعبيري (الرسوم ، التصوير ، الفن التشكيلي ، التصميات ... الخ) . هذه المواد التي احتلت سابقاً مكاناً غير هام في برامج التعليم ينظر إليها في الوقت الحاضر على أنها - تلك المواد التي تساعد على تطور المواهب الإبداعية للأطفال .

ولكن لماذا حظى الرسم والفنون التشكيلية دون المواد الفنية الأخرى كالموسيقى والأدب بالاهتمام الشديد ؟ يمكن تفسير ذلك بأن الأشكال المذكورة للنشاط الفني لاتحتاج من التلاميذ وقتاً طويلاً لاستيعاب خبرة ومهارة الأداء ، (التي يجب أن يحصل عليها قبل أن ينفذ حماسة الإبداعي) والتلميذ صاحب المران البدائي على الرسم يمكن أن يعبر عن فكره واتجاهاته وتصوراته عن العالم والفضاء . علاوة على ذلك فإن نفس عملية اكتساب خبرات النشاط اليومي تتضمن في ذاتها تمرين وتدريب العناصر التي لا غنى عنها في أي شكل للنشاط الإبداعي فيتطور الإدراك والملاحظة ، يجري تمرين المهارات البصرية والحركية ، يساعد على تطوير الخيال والتصور ، يعايش الأطفال الإبداعية المباشرة (١٠ ، ٢٠) .

أما فيما يتعلق بأشكال النشاط الفني الأخرى فإنها هامة أيضاً وضرورية لنمو القدرات الخلاقة عند الأطفال . رغم أنه لكي تساعد دروس الموسيقى والأناشيد - على سبيل المثال - على تطوير هذه البداية الخلاقة ، فإن نفس عملية استيعاب المهارات الموسيقية يجب أن تحتوي عناصر إبداعية . ولذا يوصي بتوسيع مجالات تلك المواد التي لا تعتمد فقط على ذاكرة الطفل ، التي لا توجه فقط إلى استيعاب فكر الآخرين وإلى التحصيل ، ولكنها موجهة مباشرة نحو تشكيل الخبرات الإبداعية للأطفال (١٠ ، ٢٠ ، ٢٣ ، ٤٥) .

(٢) النوع الثاني من المقترحات يقوم على توسيع الصلات ما بين العلوم (المواد) فهذا (جان فوستر) (Foster) على سبيل المثال - يصف تنفيذ درس في الرسم بدأ فيه الأطفال بعد الاستماع إلى الموسيقى . ولقد استدعت الموسيقى عندهم الأشكال أو التصورات التي بدأوا بعد ذلك في رسمها . ولذا يقترح أيضاً الاستخدام الواسع والمستمر لأعمال الرسم لتطوير القدرات اللغوية والأدبية ، والشعر والأشكال الأدبية الأخرى لتطوير الرسم وهكذا . وهذا التوحيد بين مختلف العلوم يوجه لتطوير قدرات الأطفال نحو الفصائل الواسعة ، القدرة على إقامة صلات أو علاقات بين الظواهر المتباعدة (١٧ ، ٢٣) .

(٣) المجموعة التالية من المقترحات تقوم على استخدام الواجبات أو المسائل الإبداعية في البرنامج الخاص بكل مادة ، وهذه الواجبات يمكن إدخالها في برنامج أي مادة . فمثلاً في درس الحساب يكتب المعلم على السبورة شكلاً بسيطاً للأرقام والقوانين (مثلاً : ٢ ، - ، ٦ ، ×) ويطلب المدرس تنفيذ أكبر عدد ممكن من العمليات بهذه المعطيات من الأرقام والقوانين . وفي نفس الوقت يجري تصحيح القدرات الإبداعية للتلاميذ ، فإذا كان التلميذ يبني المعادلة بدون أن يحول الأرقام المعطاه في جمع أو كسور ، ويستعملها بوجهة النظر التي يقدمها المعلم ، فإن هذا يعتبر إجابة غير إبداعية . والإجابات الإبداعية ، مع التحويل وتعقيد الأرقام يجب تشجيعها (١٠) .

وفي دروس الأدب يوصي بالبدء في تطوير القدرات الإبداعية للتلاميذ بإثراء الذخيرة اللغوية عندهم ، ذلك أن التحديد اللغوي الضيق وبالذات الذخيرة القليلة من الكلمات تعوق التعبير عن الأشكال الغنية للتخيل ، والتي تتولد أحياناً عند الأطفال (٢٣) . ويتلخص واجب المربي في أن يحصل من التلاميذ على تعبيرات بسيطة عن أفكارهم ، انطباعاتهم ، انفعالاتهم عن أي حادث ، أو مواقف حقيقية ، الكتب المقروءة والمقالات الصحفية وهذا يمس أيضاً الأعمال المكتوبة ، إذ كثيراً ما يخشى الأطفال التعبير عن أفكارهم نتيجة عدم معرفة القواعد النحوية . ولذا يوصي باستعمال مثل هذه الواجبات التي لا تدخل الأخطاء النحوية في الاعتبار عند تقييمها ، ويخطر التلاميذ بذلك ويترك لهم التعبير في حرية وهدوء عن أفكارهم دون خوف من الأخطاء المحتملة في النحو وطريقة الكتابة (٢٣) .

ويرى (جونز) على سبيل المثال أن السماح بدرجات للحرية في التعامل مع القوالب اللغوية يلعب دوراً إيجابياً حتى في استيعاب نفس القواعد النحوية : فعلى أساس الأخطاء يحصل المعلم على تصور كاف دقيق عن أي القواعد استوعبها التلاميذ أسوأ من غيرها وبالتالي يمكن أن يركز عليها انتباهه وانتباه تلاميذه (٢٠) . ولتطوير الخيال أثناء دروس الأدب يقترح استخدام الموضوعات غير المعتادة والتي يمكن أن تستثير خيال التلاميذ مثل (الكلب الذي لا يريد أن ينبح ، القط الذي يجري إلى الخلف فقط ، الثلاجة التي أكلت الطعام) (١٠) .

ولتدريب القدرة على التجميع أو التركيب يجب اعطاء التلاميذ واجبات خاصة بالصياغة أو التصميم فيعطي مثلاً طاقم من المواد المختلفة (أزرار ، أسلاك ، فلين ، ألوان) ومنها يطلب صنع مادة غير عادية وجذابة أو تصميم غير عادي مع التفكير في استخدام غير مألوف لها . (١٠ ، ٢٣) .

والأهمية الكبرى في رأي (فوستر) لتطوير القدرات الخلاقة للأطفال هي للأعمال ذات النماذج أو الأشكال الكبيرة ، حيث يشترك الأطفال في بناء نموذج كبير لباخرة ، لقاطرة أو لفيل مثلاً ، فأثناء ذلك - كما يدلل فوستر - يحدث نمو متعدد الجوانب للطفل ، إذ يشترك في عملية الخلق أو الإبداع الجماعي ، تلك العملية التي تخفض عنده من توتر المسئولية الفردية والخوف من الأداء غير السليم ، والطفل حين يتعرف على المواد وخواصها ، وحين يعمل مع الأشكال الكبيرة ومع أجزاء النماذج أو الموديلات إنما ينمي طاقته الجسمية ويتسع نطاق تفكيره ويحصل على الرضا من العمل .

وأثناء العمل مع النماذج الكبيرة فإن المربي يمكن بصورة طبيعية جداً أن يوسع معارف التلاميذ عن قوانين الطبيعة والإنتاج والتكنولوجيا . والعمل مع النماذج الكبيرة يمكن أن يستخدم لإنجاح أي موضوع دراسي كبير أو واسع ، رغم أن استخدام مثل هذه الواجبات - كما يقول فوستر - يجب أن يكون في حدود معقولة . فإذا كان الهدف أساساً هو (توفير الإمكانيات الكاملة والفعالة للنشاط الإبداعي) فإنها في هذه الحالة فقط ستساعد على تطور إبداعية الطفل (١٠) .

لقد استعرضنا فيما سبق آراء أكثر من تحدثوا في مشكلة الابتكارية والقدرات الخلاقة في السنوات الأخيرة ، ولكن في الخاتمة يجب أن نلاحظ أن الأعمال التي تمت على مشكلة الانتاجية

والخلق وتطور مواهب الأطفال الإبداعية ، والتي تمت في السنوات الأخيرة تحت تأثير الحاجة العملية ، لها في ذاتها جوانب إيجابية كما أن لها جوانب سلبية .

والأخيرة من وجهة نظرنا ترتبط بالمبالغة في الوجهة البراجماتية للأبحاث . فالحاجة إلى الأداء الخلاق أو التنفيذات المبدعة في كل مجالات الإنتاج والخدمة قد دفعت إلى الابتعاد عن الاختبارات المستخدمة لفترة طويلة على الذكاء ، وأدت إلى الحاجة إلى أشكال اختبارية جديدة (إمتحانات) (والمعروف أن طريقة الامتحانات تستخدم باتساع أثناء اختيار الكوادر خاصة في الولايات المتحدة) (٢٤) . ولذا نتساءل : هل الأمر كما يقول (هادسون) (١٨) من أن أبحاث الابتكارية مستقلة وأصيلة (٦ ، ٨ ، ١٨ ، ٢٥ ، ٤٩) ، أم أنها أدلة أو تعبيرات عن بعض المواهب الطبيعية العامة ؟ (٤) ، هذا الخلاف يحل الآن على مستوى معاملات الارتباط التي يحصل عليها بواسطة اختبارات الذكاء والاختبارات على الابتكارية ومع ذلك فإن هذه الدلائل أو المظاهر لا تتطابق دائماً – وإلى حد بعيد – مع مظاهر الإبتكارية في الحياة (٢٣ ، ٤٢) وهذا السؤال الهام لم يدخل بعد في اعتبار الباحثين بدرجة كافية .

المراجـــــع

1. Adamson, R.E. (1952): Functional fixedness as it is related to problem solving and verbal definition.
   Stanford University. (Unpublished Doctoral Thesis).
2. Anderson, H.H. (Ed.) (1959) : Creativity and its cultivation.
   New York. Harper.
3. Burt, C.L. (1962) : Critical Notice : The psychology of creative ability.
   "British Journal of Educational Psychology". Vol. 32.
4. Butcher, H.J. (1972) : Human Intelligence : Its nature and assessment.
   London, Metheum.
5. Cattell, R.B. and Butcher, H.J. (1972) : Creativity and personality.
   In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".
6. Crutchfield, R.S. (1967) : Instructing the individual in creative thinking.
   In R.L. Mooney and T.A. Razik (Eds.). "Explorations in Creativity". Harper and Row.
7. Cronbach, L.j. (1969) : Research for Tomorrow's schools. N.y. Macmillan.
8. Cropley. A.J. (1971) : Creativity.
   Longman.
9. Dewing, K. (1970) : The reliability and validity of selected tests of creative thinking in a sample of **7th** grade Western
   Australian Children.
   "British Journal of Educational Psychology". 40.
10. Foster, J. (1971) : Creativity and the theatre.
    Macmillan.
11. Getzels, J.W. and Csikzentmibaly, P.W. (1967) : Creative thinking. "Science Journal".
12. Getzels, J.W. and jackson, P.W. (1968) : Creativity and Intelligence.
    John Wiley and Sons.
13. Guilford, J.P. (1950) : "Creativity".
    American Psychologist. 5.
14. Guilford, J.P. (1968): Intelligence, Creativity and their Educational Implications. Robert R. Knapp,
    Publisher San Diege, California.
15. Guilford, J.P. (1972) : Trait of Creativity.
    In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

16. Guilford, J.P., Christensen, P.R. (1973): The One–way relation between creative potential and I.Q.
Journ. of creative behafviour. Buffalo. Vol. 7.

17. Haddon, F. and Lytton, H. (1968): Teaching approach and divergent thinking abilities.
"British journ. of Educational Psychology". Vol. 138.

18. Hudson, L. (1966) : Contrary Imaginations.
London. Methuem.

19. Hudson, L. (1968) : Frames of mind, ability, perception and self perception in the arts and sciences.
London, Metheum.

20. Jones, T.P. (1972) : Creative learning in perspective.
London Press.

21. Knowlson, T. Sh. (1917) : Originality.
London, T.W. Lowrie, Ltd.

22. Koestler, A. (1959) : The sleep walkers.
London. Hutchinson.

23. Lytton, H. (1971) : Creativity and education.
London. Routledge & Kegan.

24. Machkinnon, D.W. (1965): Personality and the realization of Creative potential.
American Psychologist, Vol. 20.

25. Mackinnon, D.W. (1972) : The personality correlates of creativity : A study of American architects.
In P.E. Vernon (Ed.), "Creativity".

26. Marland, S.P. (1972) : "Education of the Gifted and Talented".
Report to the Subcommittee on Education, Committee on Labor and Public welfare, U.S. Senate.
Washington, D.C. P. 10.

27. Martindale, C. and Greenough, J. (1973) : Evaluation of Training in creative problem–solving test.
"The Journ. of genetic psychol.", 123 No. 2.

28. Maslow, A.H. (1959) : Creativity in self–actualising people.
In Anderson, H.H. "Creativity and its cultivation".
Harper.

29. Meadow, A.: Parnes, S.J. (1959): Evaluation of training in creativity

problem–solving test.
Journ. appl. Psychol. Vol. 43.

30. Madnick, S.A. and Mednick, M.T. (1964) : An associative interpretation of the creative process.
In Taylor C.W. (Ed.) "Widening horizons in creativity."

31. Parnes, S.J. (1972) : Education and creativity.
In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

32. Razik, T.A. (1972) : Psychometric Measurement of creativity.
In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

33. Roe, A. (1952) : A psychologist examines sixty–four eminent scientists.
"Scientific American". 187.

34. Rogers, C.R. (1972) : Towards a theory of creativity.
In Vernon P.E. (Ed.) "Creativity".

35. Shapiro, R.J. (1972) : The criterion Problem.
In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

36. Sinnot, E.W. (1959) : The creativeness of life.
In H.H. Anderson "Creativity and its cultivation".
Harper.

37. Smith, P. (Ed.) (1959) : Creativity.
New York : Hastings House.

38. Stein, M.I. and Heinze, S.j. (1960) : Creativity and the individual.
Free Press.

39. Stein, M.I. (1968) : "Creativity", in E.F. Borgatta and W.W.
Lanfert (Eds.), Handbook of personality, Theory and Research.
Chicago : Rand, McNally.

40. Taylor, C.W. and Ellison, R.Z. (1972) : Prediction of Creativity with the biographical inventory.
In P.E. Vernon (Ed.). "Creativity".

41. Terman, L.M. (1972) : Psychological Approaches to the biography of genius.
In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

42. Thibault, F. (1960) : Teaching creative thinking in High School.
Minnesota. (Unpublished Thesis).

43. Torrance, E.P., De Young, K.N. (1958) : Explorations in creative thinking in mental hygiene.
Minnesota, N.II.

44. Torrance, E.P. Explorations in Creative Thinking in the early school years.
Minnesota, N. VI. 1959.

45. Torrance, E.P. (1962) : Guiding creative talent.
Prentice–Hall.

46. Torrance, E.P. (1965) : Rewarding creative behaviour.
Prentice–Hall.

47. Torrance, E.P. (1970) : Encouraging Creativity in the classroom.
Georgia.

48. Vernon, P.E. (1967) : Psychological Studies on Creativity.
"Journ. of Child Psychology and Psychology and Psychiatry". 8.

49. Wallach, M.A. and Kogan, N. (1972): A new look at the creativity intelligence distinction.
In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

50. Wallas, G. (1972) : The art of thought.
In P.E. Vernon (Ed.) "Creativity".

51. Warner, D.A. (1977) : "The School, The Community, and the Gifted Child".
Educational Leadership.
CTB–McGraw–Hill, Vol. 34, No. 6.

52. Watson, M.O. (1968) : Creativity in schools.
"New Era" 19.

المنسوجات العربية في الشعر الجاهلي

الأستاذ الدكتور
يحيى وهيب الجبوري
أستاذ بقسم اللغة العربية

كان اهتداء الإنسان الأول إلى الملابس هو حاجته إلى ستر العورة ، واتقاء المطر والبرد ولفح الحر ، ولا شك أن أول ما لفت نظر الإنسان هو جلد الحيوان ، فاتخذه وقاية له وستراً ، فكان يصطاد الحيوان أو يربيه ليتخذ من صوفه أو شعره أو وبره نسيجاً بدائياً يرتديه ، أو يتخذ من ألياف النباتات من قنب وكتان وقطن ، ويصنع من ذلك خيوطاً يبرمها براحة الكف ، أو بمغزل بسيط ، هو خيط ينتهي طرفه بحجر أو عصا ، ثم ينسج من ذلك شملة أو رداء .

وهناك أساطير تروى عن أول من اتخذ الملابس وكيفية اتخاذها ، فتروى الأسطورة أن البطلة برتا Berta كانت أول امرأة غزلت بيدها ثم نسجت أول ثوب في العالم لتجتذب به أنظار المعجبين[1]. أما العرب فينسبون صناعة الملابس إلى النبي إدريس عليه السلام[2]، ويقول الثعالبي : « إنه أول من خط الكتاب وخاط الثياب ، وإنما كان من قبله يلبسون الجلود »[3]، وينسب اليونان صناعة الملابس إلى هرمس Hermes (عطارد) ، كان الإنسان في البداية يتخذ من الجلد رداء يغطي به جسمه ، سواء في ذلك النساء والرجال ، ثم لما عرفت الملابس بقى الجلد زيًّا

(١) الأزياء الشعبية وتقاليدها في سورية ص ١١ .
(٢) مقدمة ابن خلدون فصل صناعة الحياكة والخياطة ص ٤٥٩ .
(٣) لطائف المعارف ص ١٦ .

تقليديًا لفئة خاصة هي فئة الكهنة التي استعملت جلد الفهد زيًّا دينياً فوق نقبة بسيطة في كل العصور الفرعونية[٤].

وأقدم لباس للرجال عند الفراعنة كان يتكون من حزام يشد حول الوسط ويتدلى منه ما يشبه الكيس أو الجعبة لستر العورة ، وظهرت بعد ذلك النقبة القصيرة وهي قطعة قماش (فوطة) تلف حول الوسط وتصل إلى الركبة ، وقد جاءت في الرسوم الفرعونية على هيئة خطوط تتدلى من الحزام وتتعامد عليه فهي تشبه زي السكان الأصليين في جزر هاواي[٥]، ثم صارت الملابس تتطور فأصبحت ثوباً مستطيلاً مغلقاً من الأمام وله فتحتان من أعلاه ، الأولى كبيرة للعنق والذراع الأيمن ، والفتحة الثانية للذراع الأيسر ، وكان قصيراً يجاوز طوله الركبة بقليل . أما ملابس النساء الفرعونيات فكان ثوباً بسيطاً خالياً من الثنايا ، وكان من الضيق بحيث يبرز تقاطيع الجسم بوضوح ، وكان ينحدر من الثدي ويمتد حتى يبلغ العقبين ، ويثبت بشريطين يمران بالكتفين ، وكان القميص عادة من لون واحد لا زخرفة فيه إلا عند حافته العليا إذ كانت تطرز وتزخرف[٦].

ثم بدأت بمرور الزمن تظهر النقوش والزخرفة على الملابس ، وفي العصور الآشورية في العراق القديم تطورت صناعة الملابس وصارت حرفة شائعة ، وكان يقوم بها العبيد خاصة ، وكذلك الأحرار من النساء والرجال ، وكان هؤلاء النساجون يأتلفون في شبه تنظيم نقابي يرأسه شخص قدير يحمل لقب rebkisir she أي نقيب النساجين[٧] ، وكانت لهم بيوت خاصة تعرف ببيت النساج ، وكانت قصور الملوك والمعابد تمول هؤلاء بالمواد الخام من قطن وكتان وصوف وحرير[٨].

لباس العرب في الجاهلية :

كانت حياة العرب في الجاهلية بسيطة ، وكانت البساطة في طرق معايشهم وطعامهم وسكنهم ، فهي أشبه بحياة البدو حتى في الوقت الحاضر ، كان لباس العرب يتكون من القميص

(٤) معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ص ٤٣ .
(٥) المرجع السابق ص ٤٣ ، والموسوعة الأثرية العالمية ص ٦٦٤ مادة : ملابس .
(٦) معالم حضارات الشرق الأدنى القديم ص ٤٣ .
(٧) الحرف والصناعات اليدوية ص ١٥ .
(٨) تاريخ المنسوجات ص ١٢ ، المنسوجات العراقية الإسلامية ص ١٠ .

والحلة والإزار والشملة والعباءة والعمامة ، وثيابهم قصيرة إلى أسفل الركب ، ولم يعرف العرب السراويل ولا الأقبية وإنما هي فارسية[9]، أما النعال والخفاف فقد كان يلبسها بعض الخاصة ، وأفضل مثال للباس العرب لباس النبي ﷺ ، فقد قيل إن أحب اللباس إليه البرود والبياض والحبرة وكان كمه قصيراً إلى الرسغ ، يلبس أحياناً حلة حمراء وإزاراً ورداءاً والإزار قصير إلى أسفل الركبة ، ولبس الخف والنعل[10]. وكانت أنسجة العرب من القطن والصوف[11]، وتأثر عرب الجاهلية بأهل الشام والعراق وخاصة الأغنياء والتجار الذين كانوا يفدون عليهم فيقلدونهم في ملابسهم ، وصاروا يلبسون الخز والطيلسان والأقبية ، وقد شهر عند العرب أن أول من لبس الخز الأدكن عبد الله بن عامر ، وكان ذلك في أول الإسلام ، وأول من لبس الدراريع السود[12] المختار ابن أبي عبيد الثقفي ، وأول من لبس الطيلسان في المدينة جبير بن مطعم[13]، وأول من بدأ بتقليد الأعاجم في لباسهم وأسباب بذخهم معاوية بن أبي سفيان وعماله ، وكان زياد بن أبيه أمير العراق لمعاوية أول من قلد الفرس فلبس قباء الديباج[14] وهو أول من لبس الخفاف الساذجة بالبصرة ، ثم شاع الترف عند الأمويين فلبسوا الحرير وأحبوا الوشي وأكثروا من لبسه فقلدهم الناس ، واتخذوا كثيراً من ألبسة الروم ، ولكنهم ظلوا يلبسون العمائم ويعلقون السيوف على العواتق وهي السمة العربية التي بقيت لديهم ، ويقول الأحنف بن قيس : « لاتزال العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف»[15]. وقد زالت هذه السمة العربية في العصر العباسي إذ أمر المنصور رجاله سنة ١٥٣هـ أن يلبسوا القلانس الفارسية الطويلة التي تثبت بعيدان من داخلها بدل العمائم ، أو يعتموا فوقها بعمائم صغيرة ، وأن يعلقوا السيوف في أوساطهم ، وأقبل العرب في ذلك العصر على تقليد الفرس في الملابس ولاسيا رجال الدولة ، فلبسوا الأقبية والسراويلات والطيالسة والخفاف وغيرها وبقيت ألبسة العرب عند العامة ، وصار لكل طبقة لباس خاص بهم يميزهم عما سواهم[16].

(٩) البيان والتبيين ٢/٥٣ .

(١٠) تهذيب الأسماء ص ٦٠ .

(١١) تاريخ التمدن الإسلامي ٥ / ٩٢ .

(١٢) الدراعة : قميص طويل أو جلباب من القطن مفتوحة الصدر إلى الوسط وفي فتحتها أزرار ، وقد صارت لباس الوزراء فيا بعد .

(١٣) المعارف – ابن قتيبة ص ١٨٧ .

(١٤) الأغاني ١٤ / ١٠٤ .

(١٥) الكامل – المبرد ص ١٠٠ ، وتاريخ التمدن الإسلامي ٥ / ٩٣ .

(١٦) تاريخ التمدن الإسلامي ٥ / ٩٣ .

صناعة الملابس :

ترجع صناعة الملابس إلى عهود سحيقة ، ليس من اليسير تحديدها ، ولكن يصح القول إن الملابس المنسوجة كانت شائعة الاستعمال في عصر البرونز ، ولابد أن تكون الصناعة قد عرفت منذ قرون عديدة سابقة[١٧]، ولا شك أن صناعة الملابس أي الحياكة والنسج كانت سابقة في المناطق التي تميل إلى البرد ، فهم بحاجة إلى الدفء ، أما البلاد التي تميل إلى الحر فكانت الحاجة إليها أقل ، ولذلك بقي حتى هذا العصر سكان المناطق الحارة كجنوب السودان والحبشة وأفريقية السوداء عراة في الغالب[١٨].

كانت الملابس في العصور الحجرية من جلود الحيوانات التي يصطادونها ، ولكن في العهود التالية وجدت في العراق أقراص الغزل الفخارية والإبر الخشبية والعظمية التي كشفت عنها الحفريات في بعض المواقع الأثرية العراقية ، وظهرت في العصور الآشورية في العراق صناعة متقدمة للنسيج كان يقوم بها العبيد ، وكانت لهم دور تمولها قصور الملوك والمعابد بالمواد الخام[١٩]، أما في الجزيرة العربية فتشير نصوص المسند إلى أن الملوك كانوا قد أسسوا دوراً للنسيج يباع ما تنتجه في الأسواق ، وقد اشتهرت اليمن بأنسجتها المتنوعة ، فكانت دور النسيج من الموارد التي تأتي بالمال إلى أولئك الملوك[٢٠].

وقد برع العرب في الحياكة والنسج وخاصة في المدن ، أما في البادية فكانت هذه الصناعة أولية وفي أضيق الحدود ، لأن العرب في البادية كانوا ينظرون إلى هذه الصناعة ، شأن الصناعات الأخرى ، نظرة احتقار ، وكانت تقوم بها النساء لسد حاجة الأسرة ، أما في الحاضرة فقد شاعت وتقدمت في كثير من المدن بحيث صارت المنسوجات الجيدة تنسب إلى مواطن صنعها في اليمن والعراق والشام ومصر .

وقد جاءت في الشعر الجاهلي وكتب اللغة أسماء لأدوات الحياكة والنسج ، ومن هذه الأدوات :

---

(١٧) الموسوعة الأثرية العالمية ص ٦٦٤ .

(١٨) بلوغ الأرب ٣ / ٤٠٤ .

(١٩) تاريخ المنسوجات ص ١٢ .

(٢٠) جواد علي ٥ / ٢٦١ .

الحَفّ : وهو الذي تلمظ به اللحمة أي تلقم ويُصْفَق ليلتقمها السدى ، والجمع الحِففَة ، قال الأصمعي : الحفة المنوال ، وهو الخشبة التي يلف عليها الحائك الثوب ، قال : والذي يقال له الحف هو المِنْسَج[٢١] ، والحفة القصبات الثلاث ، والحِفَّة (بكسر الحاء) التي يضرب بها الحائك كالسيف ، والحَفُّ (بفتح الحاء) القصبة التي تجيء وتذهب[٢٢].

الوشيعة : وهي المِنْسَج ، وهي قصبة في طرفها قرن يُدْخل الغزل في جوفها وتسمى السهم ، وقال الجوهري : الوشيعة لفيفة من غزل وتسمى القصبة التي يجعل النساج فيها لحمة الثوب للنسج[٢٣]، وجاءت الوشيعة في شعر ذي الرمة بصيغة الجمع في قوله :[٢٤]

به ملعب من معصفات نَسَجْنَه كنسج اليماني برده بالوشائعِ

والتوشيع : لف القطن بعد الندف ، وكل لفيفة منه وشيعة ، قال رؤبة :[٢٥]

فانصاع يكسوها الغبار الأصيعا ندف القياسي القُطن المُوَشَّعا

المِشْيَعَة : ما يلف عليه الغزل[٢٦]، والمشيعة : قُفَّة تضع المرأة فيها قطنها[٢٧].

الثِّناية : التي يُثنى عليها الثوب ، قال الجوهري : الثناية حبل من شعر أو صوف ، قال الراجز :[٢٨]

أنا سحيم ومعي مدرايهْ أعددتها لفتك ذي الدوايهْ

والحجر الأخشن والثِّنَايهْ

(٢١) التاج : حفف ، والمعاني الكبير ١ / ٥٠ ، وبلوغ الارب ٣ / ٤٠٤ - ٤٠٥ .

(٢٢) اللسان : حفف .

(٢٣) التاج : وشع ، وبلوغ الارب ٣ / ٤٠٥ ، وجواد علي ٧ / ٥٩٤ .

(٢٤) اللسان : وشع .

(٢٥) اللسان : وشع ، الأصيص : الغبار الذي يجيء ويذهب ، والوشيع : علم الثوب ، ووشع الثوب : رقمه بعلم ونحوه ، والوشيعة : الطريقة في البرد .

(٢٦) بلوغ الارب ٣ / ٤٠٥ .

(٢٧) اللسان : شيع .

(٢٨) الصحاح واللسان : ثنى ، وأما الثِّناء : فعقال البعير ونحوه من حبل مثنى .

العَـدْل : خشبة لها أسنان كأسنان المنشار يقسم بها السدى ليعتدل .

الصيصـة : عود من طرفـاء كلما رمى بـالسهم فـألحمه أقبل بـالصيصة وأدبر بهـا ، وقيل : الصيصة شوكة الحائك التي يسوي بها السداة واللحمة ، قال دريد بن الصمة :[٢٩]

فجئت إليـه والرمـاحُ تنوشـه ... كـوقع الصَّيـاصي في النسـيج المُمَـدَّدِ

النِّـيْر : الخشبة المعترضة التي فيهـا الغزل ، وثوب منَيَّر ذو نيرين مضـاعف النسج ، وقيل : النير لحمة الثوب ، فـإذا نسج على نيرين كان أصفق وأبقى ، ونير الثوب علمه ولحمته أيضاً ، ونير الثوب : هدبه ، وأنشد بيت امرىء القيس :[٣٠]

فقمتُ بهـا تمشي تجرُّ وراءَنَـا ... على أثَرينـا نِيْرَ مِرْطٍ مُرَجَّـلِ

الصِّنَّـارة : رأس المغزل ، وقيل الحديدة الدقيقة المعقَّفة التي في رأس المغزل ، وقـال الليث : الصنارة مغزل المرأة ، وهو دخيل[٣١].

المـداد : عصـا في طرفيهـا صنـارتـان يمـدد بهـا الثـوب ، وجمعهـا أمِـدَّة ، وفي اللســان : المِسَاك في جانبي الثوب إذا ابتدىء بعمله[٣٢].

الكُفَّـة : الخشبة المعترضة في أسفل السدى[٣٣].

الحماران : يوضعـان تحت الكفـة ليرفع السـدى من الأرض ، وأصل الحمـارة : حجـارة تنصب حول الحوض لئلا يسيل مـاؤه ، والحمـائر : حجـارة تنصب حـول قترة الصـائـد واحـدهـا حمـارة ، والحمارة أيضاً : الصخرة العظيمة[٣٤].

المِثْلَث : قصبات ثلاث تسمى بالفارسية (سِكَانَهْ)[٣٥].

---

(٢٩) الصحاح واللسان والتاج : صيص ، وبلوغ الارب ٣ / ٤٠٥ وجواد علي ٧ / ٥٩٤ .

(٣٠) اللسان : نير ، وفي الديوان ص ١٤ : ذيل مرط مرحل .

(٣١) اللسان والتاج : صنر .

(٣٢) اللسان والتاج : مدد .

(٣٣) بلوغ الارب ٣ / ٤٠٥ .

(٣٤) اللسان : حمر .

(٣٥) بلوغ الارب ٣ / ٤٠٥ .

المِبْرَم والبريم : الحبل الذي جمع بين مفتولين ففتلا حبلاً واحداً ، والمبرم من الثياب : المفتول الغزل طاقين ، ومنه سمي المبرم وهو جنس من الثياب ، والمبارم المغازل التي يبرم بها ، والبريم : خيطان مختلفان أحمر وأصفر ، وكذلك كل شيء فيه لونان مختلفان[٣٦].

وسدّى الثوب تسدية : إذا مد الغزل ليسقيه الخزيرة ، وهي كالحساء من دقيق .

والشَّفْشِقَة والشفاشق : قصب يشق ويوضع في السدى عَرْضاً ليتمكن به من السقي .

الدعائم : خشبات تنصب ويمد عليها السدى .

الكحمّة : ما يلحم به[٣٧].

المنوال : أداة الحائك المنصوبة ، وهو النول أيضاً ، وهو الخشبة التي يلف الحائك عليها الثوب[٣٨].

عرف النول Loom منذ عصر مبكر ، فقد عرفه سكان وادي الرافدين السومريون والآشوريون والبابليون[٣٩]، ويسمى النول (الجومة) ، وتطلق الجومة على حفرة تحفر في أرض الغرفة بحيث تتيح للنساج أن يدخل رجليه إلى الركبتين فيها ، وينصب النول فوق هذه الحفرة بوضع يسهل على الحائك أن يصل خيوط النسج المراد نسجها[٤٠]. وهناك نوعان من النول ، النول الأفقي Horizontal loom والنول العمودي Vertical loom ويتكون هذا الأخير من عارضتين عموديتين تربط بينهما عارضتان أفقيتان ، وتشكل كل عارضة أفقية بالعارضة العمودية زاوية قائمة في كل جهة ، كما تمتد بين العارضتين العموديتين خيوط السدى ، أما خيوط اللحمة فتنزل من الأعلى بواسطة بكرات معلقة في سقف الحجرة ، وعن طريق هذه البكرات تنزلق خيوط النول فتدخل بالنسيج ، ويضاف إلى النول عادة إطار أو برواز يحصر حاشية النسيج[٤١] . ومما يكمل النول من الأدوات : المسمار والمطرقة والمشط والحف والوشيعة والعدل والنير والمداد والصنارة

---

(٣٦) اللسان : برم ، والبريم : حبل فيه لونان مزين بجوهر تشده المرأة على وسطها وعضدها .
(٣٧) بلوغ الارب ٣ / ٤٠٤ - ٤٠٦ ، وجواد علي ٧ / ٥٩٥ .
(٣٨) اللسان : نول .
(٣٩) قصة الحضارة ٢ / ٢٠٢ .
(٤٠) المنسوجات العراقية ص ١٧ ، والحرف والصناعات اليدوية ص ٩٤ .
(٤١) المنسوجات العراقية ص ١٨ .

والحماران والشفقة واللحمة[٤٢].

المُغْـزَل (أو المِغْزَل) (بضم الميم وكسرها) : مـا يغزل بـه ، وهو من أغزل أي أدير وفتل ، وأغزلت المرأة : أدارت المغزل ، وجاء في شعر امرىء القيس :[٤٣]

كأن طَمِيَّـــــة المجيمر غُـــــدوةً   من السيـلِ والغُثَّـاء فَلْكـةُ مِغْـزَلِ

والمغزل : نوع بسيط يحمل باليد وهو قديم جـداً ، ومـازال مستعملاً حتى اليوم ، ومنـه مـا هو على هيئة دولاب يدار بالأرض فيكون سريعاً بالغزل بعض السرعـة بـالنسبـة إلى اليـد[٤٤]، فـأمـا النوع البسيـط فيتكون عـادة من جسم خشبي مخروطي الشكل تلف عليـه الخيوط المغزولـة ، ومن قرص دائري مثقـوب الـوسـط يرتكـز عليـه جسم المغـزل ، وهـو ينظم حركـة المغـزل وارتكاز الخيـوط المبرومة ، ويصنع هذا القرص من الخشب أو الطين المفخور ، وأما النوع الثاني فهو الدولاب الـذي يدار باليد ويكون على شكل عجلة يلف عليها الغزل[٤٥].

وقـد يسمى المغـزل (المِرْدَن) وهـو المغـزل الـذي يغـزل بـه الردن ، والردن : الخـز الأصفر ، والردن : الغزل يفتل إلى قـدام ، وقيـل هـو الغـزل المنكـوس ، وثـوب مردون : منسـوج بـالغـزل المردون ، وقيل الردن : الغزل الذي ليس بمستقيم[٤٦].

الخيــــاطة :

ومما يتعلق بالنساجة والحياكة حرفة الخيـاطـة ، وهي حرفـة تحويل الأقمشـة إلى كسوة وصنع الثيـاب والعمائم بتفصيل القماش وقصـه ثم خيـاطتـه وفق القيـاس المطلـوب ، وهي حرفـة تروج في المدن ، أما في البادية فالمرأة هي التي تقوم بعمل الضروريات ويشتري أهل الباديـة حـاجـاتهم من الثياب من المدن والقرى[٤٧].

(٤٢) بلوغ الارب ٣ / ٤٠٥ .

(٤٣) ديوانه ص ٢٥ ، واللسان والتاج : غزل .

(٤٤) جواد علي ٧ / ٥٩٥ .

(٤٥) المنسوجات العراقية ص ١٥ .

(٤٦) اللسان : ردن .

(٤٧) جواد علي ٧ / ٦١١ .

وظهرت في الجاهلية أسماء تدل على الخياطة أو على أجزاء الثوب المخيط ، ومن هذه الأسماء ما هو معرب مثل (الدخريص) و (التخريص) ، قيل إن أصلها فارسي ، وهي تعني (البَنِيقَة) و (اللَّبِنَة) ، وجاءت الدخارص في شعر الأعشى في قوله :[٤٨]

قوافيَ أمثالاً يُوَسِّعْنَ جِلْدَهُ كما زِدْتَ في عَرْضِ القميص الدَّخارِصَا

وقال أبو منصور : سمعت غير واحد من اللغويين يقول : الدخريص معرب أصله فارسي وهو عند العرب : البنيقة واللبنة والسُّبْجَة والسُّعَيْدة[٤٩].

وصانع الخياطة الخياط ويقال له (دَرْز) ، والكلمة من الدخيل ، وبنو درز : الخياطون والحاكة[٥٠]، ومن أسماء الخياط (القراري) ، وكذلك جاء في شعر الأعشى :[٥١]

يَشُقُّ الأمورَ ويجتابُها كشَقِّ القَراريِّ ثوبَ الرَّدَنْ

ومن الألفاظ الدالة على الخياطة في اللغة قولهم : شمج الخياط الثوب يشمجه شمجاً : خاطه خياطة متباعدة ، ويقال : شمرجه شمرجة ، وثوب شمروج ومشمرج : رقيق النسج ، والشمرج كل خياطة ليست بجيدة ، وجاء هذا اللفظ في قول ابن مقبل يصف فرسا :[٥٢]

ويُرْعِدُ إرعادَ الهجينِ أضاعَهُ غَداةَ الشَّمالِ الشُّمْرُجُ الْمُتَنَصَّحُ

والخيط : الذي يخاط به الثوب ، ويجمع على أخياط وخيوط وخيوطة ، وجاء هذا الجمع الأخير في شعر ابن مقبل :[٥٣]

قَريساً وَمَغْشِيًّا عليه كأنَّهُ خُيوطةُ ماريٍّ لواهُنَّ فاتِلُهْ

ويسمى الخيط (السِّلْكَة) وجمعه سلك وأسلاك وسلوك ، والأخيران جمع الجمع[٥٤].

---

(٤٨) ديوان الأعشى ص ٢٠١ ، والمعرب ص ١٤٣ – ١٤٤ ، واللسان والتاج : دخرص .

(٤٩) اللسان : دخرص .

(٥٠) اللسان : درز ، ومعجم الألفاظ الفارسية ص ٦٢ .

(٥١) اللسان : ردن وديوان الأعشى ص ٧٥ .

(٥٢) اللسان : شمج ، شمرج ، وديوان ابن مقبل ص ٣٦ .

(٥٣) اللسان : خيط ، وديوان ابن مقبل ص ٢٥٣ .

(٥٤) اللسان : سلك .

والحائك الذي يغزل الصوف أو الشعر يسمى الغَزّال ، ويسمى العصّاب أيضاً ، وجاء في قول رؤبة :[٥٥]

طَـيَّ القَسَـامِيِّ بُـرودَ العَصَّـابْ

و (الخِياط) : بكسر الخاء الإبرة التي يخاط بها ، وذلك بإدخال الخيط في سَمِّها أي في ثقب الإبرة ، والخياطة صناعة الخائط ، والخياط والمخيط : ما خيط به وهما أيضاً الإبرة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخِياط** ﴾[٥٦] أي في ثقب الإبرة والمخْيَط[٥٧]. والإبرة : واحدة الإبر وهي مسلة الحديد ، وقد جاء جمعها على ابار في قول القطامي :[٥٨]

وقول المرء ينفذ بعد حين أماكن لا تجاوزها الابار

ويقال للذي يسوى الابر (الأبّـار) .

عملية النسج والخياطة :

بعد أن يعد الغزل تنسج الخيوط أسداداً في الطول وألحاماً في العرض ، ويوضح ابن خلدون عملية النسج والخياطة في قوله : « ولابد لذلك من الحام الغزل حتى يصير ثوباً واحداً وهو النسج والحياكة ، فإن كانوا بادية اقتصروا عليه ، وإن كانوا إلى الحضارة فصلوا تلك المنسوجات قطعاً يقدرون منها ثوباً على البدن بشكله وتعدد أعضائه واختلاف نواحيه ، ثم يلائمون بين تلك القطع بالوصائل حتى يصير ثوباً واحداً على البدن ويلبسونها ، والصناعة المحصلة لهذه الملائمة هي الخياطة » ، ويقول : « وهاتان الصناعتان ضروريتان في العمران ، لما يحتاج إليه البشر من الرفه فالأولى لنسج الغزل من الصوف والكتان والقطن اسدادا في الطول والحاما في العرض ، واحكاما لذلك النسيج بالالتحام الشديد ، فيتم منها قطع مقدرة ، فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال ، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس » .

---

(٥٥) اللسان : عصب .

(٥٦) الأعراف ٤٠ .

(٥٧) اللسان : خيط .

(٥٨) اللسان : أبر .

ويقول عن الخياطة : « والصناعة الثانية لتقدير المنسوجات على اختلاف الأشكال والعوائد ، تفصل أولاً بالمقراض قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ، ثم تلحم تلك القطع بالحياكة المحكمة وصلاً أو حبكاً أو تنبيتاً أو تفتيحاً على حسب نوع الصناعة » . ويرى أن صناعة الخياطة خاصة بأهل الحضارة ، لأن أهل البادية يستغنون عنها وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً ، وإنما تفتيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها ، ويعلل السبب في تحريم لبس المخيط في الحج : لما أن مشروعية الحج مشتملة على نبذ العلائق الدنيوية كلها بالرجوع إلى الله تعالى(٥٩).

المـــواد الخـــام :

عني العرب الموسرون عناية فائقة بملابسهم ، فلبسوا أجود الملابس المصنوعة من الكتان والقطن والديباج والخز ، الموشاة بالذهب ، البيض منها والمصبوغة والملونة ، والمزينة بضروب الوشي ، وقد كان الملوك والأغنياء والكهنة والرؤساء يرتدون أنسجة دقيقة مصنوعة صنعاً خاصاً بأيد ماهرة متقنة لعملها ، لا تصنع إلا الأنسجة الثمينة الغالية ، ومن هذه الأقمشة ما كان يصنع من الكتان الخالص أو الصوف الناعم الرقيق ، ومنه ما كان يصنع من الحرير الخالص أو المخلوط بمادة أخرى ، وقد يقصب القماش بالذهب أو يوشي به ، وكانوا يرتدون ملابس موشاة ومطرزة في أثناء أدائهم الصلوات وإقامة الشعائر الدينية ، وقد كان الملوك والكهان يستوردون الأقمشة الجيدة من أماكن أخرى اشتهرت باتقانها واجادتها صنع الأقمشة الجيدة مثل بابل وبلاد الشام والهند ومصر وفارس وغيرها لمثل هذه الأغراض(٦٠) .

الصـــوف :

الصوف من المواد المتيسرة في جزيرة العرب وغيرها التي تصنع منها الملابس نظراً لكثرة الأغنام في المدن ، وكانت وما زالت تصنع من الصوف البسط والسجاجيد ، وأكثر صوف الجزيرة العربية من النوع الخشن الذي يصلح لصنع السجاد ، وقد تصنع منه الخيام أيضاً ، وإن كان شعر الماعز هو الأصلح لصنع الخيام ، أما صوف الأغنام الناعم الدقيق فتصنع منه الأنسجة اللطيفة والملابس الجيدة .

---

(٥٩) مقدمة ابن خلدون ص ١٥٨ - ١٥٩ فصل الحياكة والخياطة .

(٦٠) جواد علي ٧ / ٥٩٩ .

ويحضَّر الصوف قبل إعداده للغزل بأن ينظف وذلك بنشره وتنظيفه من المواد الغريبة ، وقد يضرب بعصا أو بآلة خاصة على نحو ما يصنع النداف لتنظيف المادة المراد غزلها وجعلها سهلة للغزل ، وقد يغسل الصوف ثم ينشف وينظف ، وقد جاء في التوراة وصف لكيفية إعداد الصوف وشعر الماعز للغزل ، وجاءت صور لعمال من قدماء المصريين كانوا يقومون بغسل المواد على نهر النيل وقد صورت على جدران مقابر قدماء المصريين(٦١).

أما في بلاد وادي الرافدين فقد ساعدت البيئة ووفرة المياه والنباتات والأعشاب القصيرة على تربية الأغنام والاستفادة من أصوافها وخاصة الخراف ذات الإلية الكبيرة التي عرفت بجودة صوفها ، وقد شهرت بابل بتصدير الأصواف الجيدة وراجت تجارتها(٦٢).

وكانت هناك مواسم لجز الصوف كثيراً ما تقام في احتفالات خاصة كاحتفالات رأس السنة البابلية ، ثم تجمع كميات الصوف المجزوزة وتنقع بالماء كي تتخلص من الأتربة أو الفضلات الحيوانية وغيرها من الشوائب ، ثم تشطف عدة مرات حتى تنظف ، ثم تجفف تحت أشعة الشمس ثم تكون جاهزة للغزل والنسج .

ويجعل الصوف على شكل لفائف مستطيلة ومستديرة قبل غزله ، وتسمى هذه اللفيفة (عميتة) وفي اللسان : « عمت الصوف والوبر يعمته عمتا لف بعضه على بعض مستطيلا ومستديرا حلقة فغزله » ، وقال الأزهري : « كما يفعله الغزّال الذي يغزل الصوف فيلقيه في يده والإسم العميت » وأنشد :(٦٣).

يظَلُّ في الشَّاء يرعاها ويحلبها   ويَعْمِتُ الدهرَ إلا رَيْثَ يَهْتَبِدُ

قال : يعمت يغزل ، من العميتة وهي القطعة من الصوف . واستعملت اللفظة في اللهجات العربية الجنوبية لدلالتها على دور النسيج وعرفت بـ (تعمت) أي دور النسيج(٦٤).

---

(٦١) جواد علي ٧ / ٥٩٦ .

(٦٢) قصة الحضارة ٢ / ١٥ .

(٦٣) اللسان والتاج : عمت .

(٦٤) جواد علي ٧ / ٥٩٨ .

وقد يخلط الصوف مع الوبر ثم يغزل فيكون نسيجاً ناعماً ، وقد ذكر الشعر هذه العملية في بيت حكاه سيبويه :(٦٥)

حَلْبانَةٍ رَكْبانَةٍ صَفُوفِ ... تَخْلِطُ بينَ وبَرٍ وصُوفِ

قال الأصمعي : يقول تسرع في مشيتها ، شبه رجع يديها بقوس النداف الذي يخلط بين الوبر والصوف .

الكتان :

اسم الكتان عربي الأصل ، وفي اللسان : الكَتَّان بالفتح عربي سمي بذلك لأنه يخيس ويلقي بعضه على بعض حتى يكتن ، وذكره الأعشى محذوف الألف للضرورة وسماه (الكتن) فقال :(٦٦)

هو الواهبُ المُسْمِعاتِ الشُّرُو ... بَ بين الحريرِ وبينَ الكَتَنْ

وعرفت شقائق الكتان في العصر الجاهلي باسم (السِّب) ووردت في شعر عبد الله بن سليم الأزدي يشبه الطريق اللاحب الأبيض بالسبوب :(٦٧)

وناجيةٍ بعثتُ على سبيلٍ ... كأنَّ بياضَ مَنْجَرِه سُبُوبُ

صنعت من الكتان الملابس الغالية التي كان يلبسها الأغنياء والوجهاء ، وتعطي أنسجة الكتان برودة خاصة في الصيف ، وكانت مصر ذات شهرة خاصة في تصدير أنسجة الكتان ، فقد عرف كتانها بالجودة والنعومة ، وكان غالي الثمن .

كان نبات الكتان من النباتات المنتشرة في مصر ، وعرفت صناعته عند المصريين القدماء ، فكانوا يقتلعون السيقان من التربة دون تقطيعها وذلك للحصول على أطول خيوط ممكنة ، ثم تحزم السيقان مجموعات وتربط من قبل جذورها وتترك لتجف في الحقل ثم يمشط الكتان ، وكانوا أحياناً يسلقون سيقان الكتان في وعاء كبير الحجم ثم تطرق بالمطارق لفصل اللحاء عنها ثم تندى الألياف

---

(٦٥) اللسان : صوف .

(٦٦) اللسان : كتن ، وديوان الأعشى ص ٧١ .

(٦٧) قصائد جاهلية نادرة ص ٢٠٤ وانظر ما يأتي : (السب) من أنواع الملابس .

وتفتل بمغزل ، وقد حفظت بعض الصور الفرعونية التي تمثل النساء وهن يقمن بغسل الكتان وتمشيطه ونسجه ، وعرفت المنسوجات المصرية بالرقة المتناهية وكان بعضها شفافاً مع نعومة تشبه نعومة الحرير(٦٨).

أما في العراق فقد عرفت زراعة الكتان منذ العصر السومري الأول وقد أطلق عليه لفظ Gade السومرية(٦٩)، وكان لباسه مقتصراً على الآلهة والملوك وبعض الكهنة ، وكانت صناعته في مدينتي أور وأريدو السومريتين ، وكانت صناعته تابعة للمعبد فهو الذي يشرف عليها ويمولها . وظهرت الأزر النسائية والرجالية في العصر البابلي منسوجة من الكتان ، وقد ازدهرت هذه الصناعة وانتشرت فصار التجار يصدرونه من بلاد وادي الرافدين إلى المناطق الأخرى .

الحـــرير :

عرف الجاهليون الحرير وشاع استعماله في لباسهم ، وشهرت مدن كثيرة بصناعته وكثرت أسماؤه وتعددت أنواعه ، وأصل الحرير من الصين ، وعرف عند الآشوريين والمصريين القدماء ، وذكرته الوثائق القديمة ، ولكنه لم يصل من تلك العصور لأن الحرير سريع البلى ، ويرجع اكتشاف الحرير إلى خمسة وعشرين قرناً قبل الميلاد ، وارتبط اكتشافه بقصة طريفة ، فيقال إن أميرة صينية تدعى (سي لنج تشي) استلفت نظرها ديدان صغيرة كانت تعيش على أوراق التوت فراقبتها مراقبة دقيقة ، واهتمت بتربية هذه الديدان وعرفت كيفية استخراج خيوط الحرير من شرانقها ، وقد نزلت هذه الأميرة منزلة كبيرة في نفوس الصينيين إذ رفعوها إلى مصاف الآلهة ، وقد ذاع سر اكتشاف الحرير على يد أميرة صينية أخرى كانت قد تزوجت حاكم مدينة خوتان (بخارى الصغرى) وعند خروجها إلى مدينة زوجها خبأت في ثنايا شعرها بويضات دودة القز ، وفقست هذه البويضات في موطنها الجديد وتوالدت وانتشرت ، ونقل من هناك قسم منها خلسة إلى بيزنطة حيث انتشرت في معظم البلدان(٧٠)، وقد شاع الحرير في العراق منذ القدم لأن العراق ممر للقوافل التجارية الصينية وحلقة وصل بين الشرق والغرب بالإضافة إلى أن مناخ العراق يساعد على نمو أشجار التوت طوال العام .

(٦٨) تاريخ الحضارة المصرية العصر الفرعوني ص ٤٨٥ – ٤٨٦ .

(٦٩) **Lutz**: Textiles and Costumes among the Peopies of the Ancient near east; P 62 ; Leipzig 1223.
والمنسوجات العراقية الإسلامية ص ١٢ .

(٧٠) الزخرفة المنسوجة في الأقمشة الفاطمية – مرزوق ص ٤٢ .

وشاع عند الجاهليين الحرير (الخسرواني) وهو من الحرير المستورد من العراق بدلالة اسمه عليه ، يقول علماء اللغة إنه منسوب إلى الأكاسرة وانه حرير رقيق حسن الصنعة(٧١)، وقد تكلمت به العرب ، قال الفرزدق ذاكراً الحرير الخسرواني وقد نسبه إلى العراق :(٧٢)

لَبِسْنَ الفِرِنْدَ الخُسْرَوانيَّ فوقَه ... مشَاعِرَ من خَزِّ العراق المُفَوَّفِ

وقال ذو الرمة :(٧٣)

كأن الفِرِنْدَ الخُسْرَوانيَّ لُثْنَهُ ... بأعطافِ أنقاءِ العقُوقِ العَوَاتكِ

ومن الأسماء المستعملة الدالة على الحرير (الدِّمَقْس) ، ويرى بعض العلماء أنها تعني حريراً دمشقياً أي معمولاً بدمشق ، وذهب آخرون إلى أن اللفظة محرفة من (دمقس) المستعملة في العربية ويراد بها الحرير أو الحرير الخام(٧٤)، وقيل أن الدمقس تحريف (مدقس) وهو الحرير الأبيض وأن أصلها يوناني هو Metaxa (٧٥)

وقد يراد بالدمقس القز الأبيض وما يجري مجراه في البياض والنعومة ، وقال الجواليقي : أعجمي معرب ، وقد تكلمت به العرب قديماً ، قال امرؤ القيس :(٧٦)

فظَلَّ العذارَى يرتَمِينَ بلحمِها ... وشَحْمٍ كهُدَّابِ الدِّمَقْسِ المفتَّلِ

و (الديباج) ضرب من الحرير ، قيل : أعجمي معرب(٧٧)، وقد تكلمت به العرب وأطلق على الثياب المتخذة من الابريسم ، وجاء في شعر مالك بن نويرة :(٧٨)

ولا ثيابَ من الديباج تَلْبَسُها ... هي الجيادُ وما في النفس من دَبَبِ

---

(٧١) المعرب ص ١٣٥ ، وجواد علي ٧ / ٦٠٤ .
(٧٢) المعرب ص ١٣٥ والبيت من قصيدة في ديوانه ص ٥٥١ والنقائض ص ٥٤٨ .
(٧٣) المعرب ص ١٣٥ .
(٧٤) **Smith:** Dictionary of the Bible, Vol. 111, P. 1310.
(٧٥) غرائب اللغة ص ٢٥٨ وجواد علي ٧ / ٦٠٦ .
(٧٦) المعرب ص ١٥١ ، ديوان امرىء القيس ص ١١ .
(٧٧) المعرب ص ١٤٠ ، قيل : أصله بالفارسية (ديو باف) أي نساجة الجن ، والدبج : النقش مأخوذ من الديباج .
(٧٨) المعرب ص ١٤٠ ، والدبب : العيب .

وجاء كذلك في شعر الأعشى :[٧٩]

وكل زَوْجٍ من الــديبَــاجِ يلبسُــه أبــو قُــدامــةَ محبــوّاً بــذاكَ معــا

أما (السندس) فقد جاء في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ **ويلبسون ثيابا خضرا من سندس واستبرق** ﴾[٨٠]، وفي قوله تعالى : ﴿ **يلبسون من سندس واستبرق متقابلين** ﴾[٨١]، وقوله تعالى : ﴿ **عاليهم ثياب سندس واستبرق** ﴾[٨٢]، قيل : السندس رقيق الديباج ، وقال الليث : السندس ضرب من البزيون يتخذ من المرعزاء ، ولم يختلف أهل اللغة في أنه معرب ، قال الراجز :[٨٣]

وليلــــةٍ من الليــــالي حِنْـــدِسِ لــونُ حــواشِيهــا كَلَــونِ السُّنْــدُسِ

أما (الاستبرق) الذي جاء في القرآن الكريم مقروناً بالسندس ، فقيل : انه غليظ الـديبـاج ، وفي اللسان : هو ما غلظ من الحرير والابريسم[٨٤]، وهو فـارسي معرب قيل : أصلـه (اسْتَفْرَهْ) ، وقال ابن دريد (إسْتَرْوَهْ) ونقل من العجمية إلى العربية[٨٥].

و (السَّرَق) الحرير الجيـد ، وقيـل : شقـق الحرير ، أو الأبيض ، أو الحرير عـامـة ، وفي المعرب : أصله (سَرَهْ) بالفارسية أي جيد ، قال الزَّفَيان :[٨٦]

والبيضُ في أيمــانِهم تـــألَّــقُ
وذُبَّــلٌ فيهـــا شَبَــا مُــذَلَّـــقُ
يطيرُ فـــــوق رؤوسهنَّ السَّــرَقُ

(٧٩) ديوان الأعشى ص ١٥٧ .
(٨٠) سورة الكهف ٣١ .
(٨١) الدخان ٥٣ .
(٨٢) الإنسان ٢١ .
(٨٣) المعرب ص ١٧٧ .
(٨٤) اللسان : استبرق .
(٨٥) المعرب ص ١٥ .
(٨٦) المعرب ص ١٨٢ .

وقال أبو عبيدة : أصله (استبْرَهْ) بالفارسية ، أي البيض من شقق الحرير وأنشد للعجاج :(٨٧)

ونسـجتْ لـــوامِـــعُ الحَـرورِ   من رَقْرقَـــانِ آلِهَـــا المسـجـورِ
سَـبائِباً كسَـرَقِ الحـــريرِ

وفي شعر الأخطل :(٨٨)

يرفلنَ في سَرَقِ الحـريرِ وقَـــــزِّهِ   يسحبْنَ من هُـدَّابِـهِ أذيـــــالا

وفي الحـديث : (انـك في سرقـةٍ من حرير)(٨٩)، ومنهم من جعل أصـل السرق يـونـانيـاً أخـذ من سريكون Sirikon (Sericium) في اليونانية ويراد بها الحرير عامة .

ويراد بـ (الخَـزّ) الثيـاب المنسوجـة من صـوف وابريسم ، وقيـل : الثيــاب المعمـولـة من الابريسم(٩٠)، وقد نهِي عن لبسـه للرجـال في الإسـلام كما نهى عن لبس الحرير ، وفي الحـديث : (قوم يستحلون الخز والحرير)(٩١).

وإذا كان الخز أصفر فيسمى (الإضريج) ، وقيل هو كسـاء يتخـذ من جيـد المرعـزي ، وقـال الليث : ضرب من الأكسية أصفر ، وهو عند اللحياني الخز الأحمر ، وأنشد :(٩٢)

وأكســية الاضــريجِ فــوقَ المَشـاجبِ

و (القَـزّ) ثياب صوف كالمرعزي وربما خالطها الحرير(٩٣)، وقال الأزهري : هو الـذي يسوَّى منـه الابريسم ، وقـد يسمى (القَهْو) ، قـال ابن سيـده : هي ثيـاب صوف كالمرعـزى وربمـا خـالطهـا حرير ، وقيل هو القز بعينه وأصله بالفارسية (كَهزانَهْ) ،وأكثر اللغويين يجعلون القز اعجمياً معرباً إلا ابن دريـد فيقول : القز الملبوس عربي معروف(٩٤) ولم يفرق ابن سيـده بين القز والقهـز وجعلـه

---

(٨٧) اللسان : سرق .

(٨٨) اللسان : سرق .

(٨٩) بخاري : مناقب الأنصار ٤٤ ، مسلم : فضائل الصحابة ٧٩ . المعرب ص ١٨٢ .

(٩٠) اللسان : خزز .

(٩١) بخاري : أشربة ٦ ، أبو داود : لباس ٦ ، ١٨ .

(٩٢) اللسان : ضرج .

(٩٣) المخصص ٤ / ٦٨ .

(٩٤) الجمهرة ١ / ٩٠ ، والمعرب ص ٢٧٣ .

واحداً قال : وقد يشبه الشعر والعفاء به ، قال رؤبة يصف حمر الوحش وقد سقط عنها العفاء ونبت تحته شعر لين :(٩٥)

وادَّرَعَتْ من قَهْـزِهـــا سَرابِـــلا
أطـــارَ عنهـــا الخِرَقَ الرَّعَـــابِـلا

وقال أبو عبيدة : القَهْز والقِهْز (بفتح القاف وكسرها) ثياب بيض يخالطها حرير ، وأنشد لذي الرمة يصف البزاة والصقور بالبياض :(٩٦)

من الـــزرقِ أو صُقْـعٍ كأن رؤوسَهـــا ... من القِهْـزِ والقُـوهِيّ بيضُ المقَـانِـعِ

وقال الراجز يصف حمر الوحش :(٩٧)

كأن لـونَ القِهْـزِ في خُصـــورِهـــا ... والقبطريِّ البيضِ في تـــأزيرهـــا

القطـــــن :

ترتبط زراعة القطن بالاستقرار ، فبعد أن استقر الإنسان في المدن بدأ بزراعة القطن والاستفادة منه ، وعرفت زراعة القطن في مصر منذ العصور القديمة ، وعرفت بلاد وادي الرافدين زراعة القطن منذ سبعمائة سنة قبل الميلاد ، فقد ورد نص من العهد الآشوري يعود إلى الملك سنحاريب يقول فيه : « الشجرة التي تثمر الصوف قطعوها واستخرجوا منها القطن الشعر »(٩٨) .

وعرف الجاهليون أقمشة القطن وكانوا يسمونه (الطوط)(٩٩)، وورد في الشعر الجاهلي في قول أمية بن أبي الصلت :(١٠٠)

والطُّـوطُ نـــزرعُـــــه أغَنّ جِراؤهُ ... فيـــه اللبـــاسُ لكلِّ حَـوْلٍ يُعْضَـــدُ

(٩٥) اللسان : قهز .
(٩٦) و (٩٧) اللسان : قهز .
(٩٨) قصة الحضارة ٢ / ٢٠٢ ، ٢٨٠ .
(٩٩) اللسان : طوط ، ويقال : الطوط قطن البردى .
(١٠٠) اللسان والتاج : طوط . أغن : ناعم ملتف ، جراؤه : جوزه الواحد جرو ، يعضد : يوشى .

وكانوا يستجيدون أقمشة القطن فهي باردة لينة ناعمة لا تقل عن الدمقس جودة ، وبذلك جاء قول الشاعر :(١٠١)

من المُدَمْقَسِ أو من فاخِـــر الطُّــوطِ

وترد كلمة (الكربس) بمعنى القطن ، وجاءت في التوراة (كربس Karpas)أي الكرباس ، وقيل الكرباس ثوب من القطن الأبيض معرب عن الفارسية(١٠٢)، وفي حديث عمر رضي الله عنه : (وعليه قميص من كرابيس)(١٠٣) جمع كرباس وهو القطن ، وفي حديث عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه : (فأصبح وقد اعتم بعمامة كرابيس)(١٠٤).

ومن أسماء القطن أيضاً (الخُرْفُع) ، هو القطن الذي يفسد في براعيمه ، وقيل هو ثمر العُشَر وله جلدة رقيقة إذا انشقت عنه ظهر منه مثل القطن ، قال ابن مقبل :(١٠٥)

يعتاد خيشومها من فرطها زَبَد   كأن بالأنف منها خُرْفُعَا خَشِفا

وقال الأزهري : ويقال للقطن المندوف خرفع ، وأنشد ابن بري للراجز :(١٠٦)

أتحملون بعديَ السيوفا   أم تغزلونَ الخُرْفُعَ المندوفَا

أنـواع المنســوجات :

ازدهرت صناعة النسيج والحياكة في العصر الجاهلي ، وعرفت مجموعة من المنسوجات بالجودة واتقان صنعها ، وغلاء ثمنها ، ونسبت المنسوجات إلى أماكن صنعها واشتهرت مدن معينة بصناعة أنواع خاصة من المنسوجات نسبت إليها وعرفت بها ، ومن أهم هذه المنسوجات :

---

(١٠١) اللسان : طوط .
(١٠٢) القاموس المحيط واللسان والتاج : كربس ، المعرب ص ١٩٤ .
(١٠٣) اللسان : كربس .
(١٠٤) اللسان : كربس .
(١٠٥) اللسان : خرفع ، وديوان ابن مقبل ص ١٨٨ .
(١٠٦) اللسان : خرفع .

١ - الثيـاب اليمنيــة :

اشتهرت اليمن بصنع الثياب الفاخرة ، وكانت تصدر أنواعاً كثيرة من الأقمشة والثياب إلى أنحاء مختلفة من جزيرة العرب ، وكان لليمن شهرة واسعة ، لجودة صناعتها ونفاسة مادتها ، كما امتازت بألوانها ووشيها ، والوشى : النمنمة والنقش ، وعرف أهل اليمن بالإضافة إلى ذلك بكثرة المشتغلين منهم بالحياكة من الرجال والنساء ، وقد ذكر ذو الرمة مهارة نساء حضرموت في الحياكة في قوله :(١٠٧)

كأن عليها سحق لفق تأنقت　　بها حضرميات الأكف الحوائك

وكان أهل مكة يقصدون اليمن فيشترون منها الألبسة الجيدة ويحملونها إلى الأسواق لبيعها(١٠٨).
ومن ثياب اليمن هذه :

الأتحميــة :

من برود اليمن الملونة ، ومعنى الأتحمية أي الموشاة ، قالوا : الأتحمي ضرب من البرود ، يقال : تحمت الثوب إذا وشيته ، وفرس متحم اللون إلى الشقرة ، كأنه شبه بالأتحمي من البرود وهو الأحمر ، ويروي عن الفراء قوله : التحمة البرود المخططة بالصفرة ، وقال أبو عمرو : التاحم الحائك ، وقد جاءت هذه البرود في الشعر قال رؤبة :(١٠٩)

أمسَى كسَحْقِ الأتْحَمِـيِّ أرْسُمُهْ

وقال آخر :(١١٠)

وعليه أتْحَمِيٌّ　　نَسْجُهُ من نسْجِ هَوْرَمْ
غزلته أمُّ حِلمي　　كلَ يومٍ وزْنَ دِرْهَمْ

---

(١٠٧) التاج : حوك ، وجواد علي ٧ / ٥٢٨ .
(١٠٨) جواد علي ٧ / ٥٢٨ .
(١٠٩) ، (١١٠) اللسان : تحم .

وقال شاعر آخر :

وصهـــوتُــــــه من أتحميٍّ مُشَرْعَبِ

وقال آخر يصف رسماً :

أصبــح مثــلَ الأتحمــيّ أتْحَمُــــــهْ

أراد : أصبح أتحميه كالثوب الأتحمي ، وقد أتحمت البرود اتحاما فهي متحمة ، قال الشاعر[111]

صفراء متحمـــــةً حيكت نَمائِمُهـــا من الدِّمَقْسِيِّ أو من فــاخِرِ الطُّوْطِ

وقال أبو خراش :[112]

كأنَّ المُـلاءَ المَحْضَ خلف ذِراعِـــهِ صُراحِيَّـــــــــــــهُ والآخِـنيٌّ المُتَحَّمِ

وقد يعبر عن الهجاء الشديد بالبز الأتحمي ، يقول أوس بن حجر أنه يهجو أعداءه هجاء يرى عليهم ويشتهرون به كما يشتهر لابس البز الأتحمي :[113]

وإنْ هَــزَّ أقــوامٌ إليَّ و حَــــدَّدوا كســـــوتُهمْ من حَبْرِ بَـــزٍّ مُتَحَّمِ

ويذكر بشر بن أبي خازم الثياب الأتحمية في قوله :[114]

كأن الأتحميـــــةَ قــــام فيهــــا لحسنِ دلالهـــــا رَشَـــأً مــــوافي

الجيشـــانية :

برود يمنية مـوشـاة منسـوبـة إلى جيشـــان ، مخلاف في اليمن ، وجـــاءت في شعر عبيـــد بن الأبرص :[115]

(١١١) اللسان : تحم والطوط : القطن .

(١١٢) اللسان : تحم .

(١١٣) ديوان أوس بن حجر ص ١٢٣ ، والمعاني الكبير ص ٤٨٤ ، ١١٧٥ .

(١١٤) ديوانه ص ١٤٣ .

(١١٥) ديوان عبيد ص ١١٩ ، والأغيال : جمع غيل العلم في الثوب أو السعة فيه ، وفي ياقوت : جيش (ذات أعسال) والأعسال الخطوط والوشي .

فمِلْنَا ونـازَعْنَـا الحـديثَ أوَانِسـاً   عليهن جَيْشَـانِيَّـةٌ ذاتُ أغْيَـالِ

وأنشد ابن الأعرابي :[116]

قـامتْ تَبـدَّى في جَيْشَـانِهـا

قال : لم يفسره ، قال ابن سيده : وعندي انه أراد في جيشانها أي قوتها وشبابها فسكن للضرورة ، ولعل الصواب : قامت تبدي في جيشانها أي تتبختر في ثوبها الجيشاني .
وجيشان : مخلاف باليمن كان ينزلها جيشان بن غيلان بن حجر بن ذي رعين ، فسميت بـه ، وهي مدينة وكورة ينسب إليها الخُمُر السود .

الحـبرة :

الحِبَرَة والحَبَرَة (بكسر الحـاء وفتحهـا) ضرب من برود اليمن منَمَّر ، والجمـع حِبَر وحِبَرات ، وهي برود مـوشـاة مخططـة من أثمن البرود اليمانيـة ، قـال الليث : برود حبرة ضرب من البرود اليمانية ، يقال : برد حبير وبرد حبرة ، مثل عنبة على الوصف والإضافة ، وبرود حبرة ، قـال : وليس حبرة موضعاً أو شيئاً معلوماً إنما هو وشي ، كقولك ثوب قرمز ، والقرمز صبغة[117]. والحبير من البرود ما كان موشياً مخططاً ، وفي الحـديث أن النبي ﷺ لما خطب خـديجة رضي الله عنهـا وأجابته استأذنت أباهـا في أن تتزوجه وهو ثمل ، فـأذن لهـا في ذلـك وقـال : هو الفحل لا يقرع أنفه ، فنحرت بعيراً ، وخَلَّقت أباها بالعبير وكسته برداً أحمر ، فلما صحا من سكره قال : مـا هـذا الحبير وهذا العبير وهذا العقير ، أراد بالحبير البرد الـذي كستـه ، وبـالعبير الخلوق الـذي خلقتـه ، وبـالعقير البعير المنحور ، وكان عقر سـاقـه[118] وفي حـديث أبي ذر : الحمـد لله الـذي أطعمنـا الخمير وألبسنـا الحبير[119]، وقـال رسـول الله ﷺ : (مثـل الحـواميم في القرآن كمثـل الحِبَرات في الثيـاب)[120]، ولمـا قـدم وفـد نجران على رسول الله ﷺ كانوا يلبسون الحبرات « فـدخلوا المسجـد

(116) اللسان : جيش .
(117) اللسان : حبر .
(118) اللسان : حبر .
(119) اللسان والتاج : حبر .
(120) اللسان : حبر .

عليهم ثياب الحبرة وأردية مكفوفة بالحرير »[١٢١] ولما توفى النبي ﷺ سجي بحبرة[١٢٢].

وقد يراد بالحبر النعومة والجدة ، فمن النعومة قول المرار بن منقذ العدوى :[١٢٣]

قـد لَبِستُ الـدهـرَ من أفنـائِـه   كلَّ فَـنٍ نـاعمٍ فيـه حَـبِرْ

وثوب حبير جديد ناعم ، وفي هذا جاء قول الشماخ بن ضرار يصف فرسا كريمة على أهلها :[١٢٤]

إذا سقـطَ الأنـداءُ صِيْنَتْ وأُشْعِرتْ   حَبِيرا ولم تُـدْرَجْ عليهـا المَعَـاوِزُ

وثياب الحبرة من الثياب الغالية الجيدة التي يلبسها الأغنياء والسادات ، وكثيراً ما يوصف الرداء بالمحبر أي المزين ، يقول عبيد بن عبد العزى السلامي يشبه الرسوم بالرداء المحبر :[١٢٥]

أتعرفُ رَسْما كالرِّداء المُحَبَّرِ   برامـةَ بين الهَضْبِ والمتَغمِّرِ

وقد يشبه الكلام المنمق المزوق باليمنة الحبرة ، لما في الحبرة من وشى وزخرفة ولين ونعومة ، كما في قول أبي قردودة الطائي :[١٢٦]

يـا جَفْنـةً كإزاء الحوضِ قد هـدمـوا   ومنْطِقـاً مثلَ وَشْيِ اليمـنة الحِبَرة

الخـــال :

وهو ثوب ناعم ، وضرب من البرود ، وبرد أرضه حمراء فيها خطوط سود ، وقيل : ضرب من برود اليمن الموشية ، والثوب الناعم من ثياب اليمن[١٢٧]، وقد ذكر هذا الضرب من البرود الشماخ في قوله :[١٢٨]

(١٢١) طبقات ابن سعد ١ / ٣٥٧ .

(١٢٢) بخاري ومسلم : جنائز ، وطبقات ابن سعد ١ / ٣٥٧ الوفا بأحوال المصطفى ٢ / ٧٩٥ - ٧٩٦ وجامع الأصول ٧ / ٤٧٨ والتاج : حبر .

(١٢٣) المفضليات ص ٨٢ .

(١٢٤) اللسان : حبر .

(١٢٥) قصائد جاهلية نادرة ص ١٢٩ .

(١٢٦) قصائد جاهلية نادرة ص ١٦٧ .

(١٢٧) اللسان : خيل .

(١٢٨) اللسان : خيل ، التاج : خول . وفي اللسان : (من جلد الماعز) .

وبُرْدَانِ من خَـــالٍ وسبعــون دِرْهَمًا على ذاكَ مقروظٌ من القَــدِّ مــاعــز

وذكره امرؤ القيس أيضاً :[١٢٩]

ذعَرْتُ بهــا سِرْبــاً نقيــاً جُلــودُه وأكــرُعُــه وَشْيُ البُرُودِ من الخَـــالِ

الخِمْـــس :

ومن برود اليمن ضرب يعرف بالخِمْس أو الخميس ، قيل سمى كذلك نسبة إلى ملك من ملوك اليمن يقال له (الخِمْس) كان أول من أمر بعمل هذه الأردية فنسبت إليه[١٣٠]. قال الأعشى يصف الأرض ويشبهها ببرد الخمس :[١٣١]

يــومــا تراهــا كشِبْــه أرديــةِ الــ خِمْسِ ويــومــا أدِيمَهــا نَغِـلا

قال ابن الأثير : وجاء في البخاري خَمِيص (بالصاد) ، قال : فإن صحت الرواية فيكون مذكر الخميصة ، وهي كساء صغير فاستعارها للثوب . وقيل : الخميس الثوب الذي طوله خمس أذرع ، كأنه يعني الصغير من الثياب[١٣٢]، ويقال : هما في بردة أخماس ، إذا تقاربا واجتمعا واصطلحا ، أنشد ثعلب :[١٣٣]

صَيَّرني جُــودُ يــــديــــهِ ومَنْ أهْـــواهُ في بُرْدةِ أخْمـــــــاسِ

قال في تفسيره : قرَّب بيننا حتى كأني وهو في خمس أذرع ، قال ابن السكيت : يقال في مثل : « ليتنا في بردة أخماس » أي ليتنا تقاربنا ، ويراد بأخماس أي طولها خمسة أشبار ، ويرى ابن الأعرابي أن قوله :هما في بردة أخماس ،أي يفعلان فعلاً واحداً يشتبهان فيه كأنهما في ثوب واحد لاشتباههما[١٣٤] .

(١٢٩) ديوانه ص ٣٧ ، والعجز في اللسان : خول .

(١٣٠) اللسان والتاج : خمس .

(١٣١) ديوان الأعشى ص ٢٨٣ ، واللسان خمس .

(١٣٢) اللسان : خمس .

(١٣٣) اللسان : خمس .

(١٣٤) اللسان : خمس .

السحولية :

السَّحْل : ثوب أبيض رقيق من قطن ، وصفها المتنخل الهذلي بالبياض في قوله :(١٣٥)

كالسُّحُلِ البيضِ جلا لونَها ... سَحٌّ نِجاءِ الحَمَلِ الأَسْوَلِ

قال الأزهري : جمعه على سُحُل ، مثل سَقْف وسُقُف .

والسحل والسحيل : ثوب لا يبرم غزله ، أي لا يفتل طاقتين ، قال زهير :(١٣٦)

يميناً لَنِعْمَ السيدان وُجدتما ... على كلِّ حالٍ من سَحيلٍ ومُبْرَمِ

والسحل والسحيل أيضاً : الحبل الذي على قوة واحدة ، والسحيل : الخيط غير مفتول ، والسحيل من الثياب : ما كان غزله طاقا واحداً ، والمبرم المفتول طاقين ، والمُتْآم ما كان سداه ولحمته طاقين طاقين ليس بمبرم ولا مسحل ، والمبروم على طاقين هو المرير والمريرة ، وأنشد أبو عمرو في السحيل :(١٣٧)

فتلَ السحيلَ بمُبْرَمٍ ذي مِرَّةٍ ... دونَ الرجالِ بفَضْلِ عَقْلٍ راجحِ

والمُسَحَّلة : كُبَّة الغزل وهي الوشيعة المسمَّطة .

فأما الثوب فإنه لا يسمى سحيلا ، ولكن يقال للثوب سَحْل ، وخصصه الجوهري بأنه الثوب الأبيض من الكُرْسُف من ثياب اليمن ، قال المسيب بن علس يذكر ظُعُنا :(١٣٨)

ولقد أرى ظُعُنَا أبَيِّنها ... تُحْدَى كأنَّ زُهَاءَها الأَثْلُ
في الآلِ يخفِضُها ويرفَعُها ... رِيْحٌ يلوحُ كأنَّهُ سَحْلُ

شبه الطريق بثوب أبيض ، وسحول قرية من قرى اليمن يحمل منها ثياب قطن بيض تسمى السُّحولية (بضم السين) ، قال طرفة :(١٣٩)

---

(١٣٥) اللسان : سحل .

(١٣٦) ديوان زهير ص ١٤ ، واللسان : سحل .

(١٣٧) اللسان : سحل .

(١٣٨) اللسان : سحل .

(١٣٩) ديوانه ص ٨١ ، واللسان والتاج : سحل .

وبـالسَّفْحِ آيـاتٌ كأنَّ رسُومَهـا يَمَـانٍ وشَتَّـهُ رَيْـدَةٌ وسَحُـولُ

أراد : وشته أهل ريدة وسحول ، وريدة وسحول قريتان .

وقد أعجبت هذه الثياب كثيراً من الشعراء الجاهليين فذكروها وشبهوا بها ، وأعجبهم لونها الأبيض ، فشبه زهير لون الثور الوحشي الأبيض الناصع ذي البريق بهذا الثوب وقد غسل بالاشنان والماء فهو ناصع ملتمع :(١٤٠)

فـآض كأنَّـهُ رجـلٌ سليبٌ على عليـاءَ ليس لـه رِداءُ
كأن بريقَـهُ بَرَقـانُ سَحْـلٍ جـلا عن مَتْنِـه حُرُضٌ ومـاءُ

ويشبه زهير أيضاً الطريق الأبيض الواضح في الصحراء بالسحل اليماني :(١٤١)

وأبيضَ عـاديٌّ تلـوحُ مُتـونُـه على البيـدِ كالسَّحْـلِ اليماني المُبَلَّـجِ

وفي شعر طرفة صورة لمشية صبية تتبختر بثوب سحولي طويل تسترعى بذلك نظر زوجها :(١٤٢)

وذالتْ كما ذالتْ وليـدةُ مجلسٍ تُري ربَّهـا أذيـالَ سَحْـلٍ مُمَـدَّدِ

ويشبه المسيب بن علس السراب بالثوب السحل حين يصف هوادج النساء من بعيد وقد لفها السراب :(١٤٣)

في الآل يرفعُهـا ويخْفِضُهـا رَيْـعٌ كأنَّ مُتُـونَـهُ سَحْـلُ
عقما ورَقْما ثم أردفـه كِلَـلٌ على أطرافهـا الخَمْـلُ

أما في الحديث النبوي ، فقد ورد في وفاة رسول الله ﷺ أنه : « كفن في ثلاثة أثواب سحولية كرسف ليس فيها قميص ولا عمامة »(١٤٤).

(١٤٠) ديوان زهير ص ٧١ .
(١٤١) ديوانه ص ٣٢٢ .
(١٤٢) ديوان طرفة ص ٢٨ .
(١٤٣) جمهرة أشعار العرب ص ١٩٧ .
(١٤٤) جوامع السيرة ص ٦ ، واللسان والتاج : سحل . قال : سحولية (بفتح السين وضمها) فالفتح منسوب إلى السحول وهو القصار ، لأنه يسحلها أي يغسلها ، أو إلى سحول قرية باليمن ، وأما الضم فهو جمع سحل وهو الثوب الأبيض النقي ولا يكون إلا من قطن ، وفيه شذوذ لأنه نسب إلى الجمع . (اللسان : سحل) .

السيراء :

السِّيَرَاء (بكسر السين وفتح الياء والمد) برد فيه خطوط صفر ، وجاءت هذه الصفة في شعر النابغة الذبياني :(١٤٥)

صفراءُ كالسِّيَرَاء أُكمِلَ خلْقُها ... كالغُصْنِ في غُلَوَائِه المَتأوِّدِ

وهي ثياب من ثياب اليمن ، وقيل : ثوب مسير فيه خطوط تعمل من القز كالسيور ، وقيل : برود يخالطها حرير ، قال الشماخ :(١٤٦)

فقال إزارٌ شَرْعَبِيٌّ وأربعٌ ... من السِّيَرَاء أو أوَاقٍ نواجِزُ

والسيراء الذهب ، وخصصه بعضهم بالذهب الصافي .

وجاء ذكر السيراء في الحديث ، قيل : (أهدى إلى رسول الله ﷺ أُكَيْدِرُ دُومةَ حُلَّةً سِيَرَاءَ)(١٤٧)، قال ابن الأثير : هو نوع من البرود يخالطه حرير كالسيور وهو فعلاء من السير القد ، وشرح السيراء بالحرير الصافي ومعناه حلة حرير ، وفي الحديث : (أعطى عليا بُردا سِيَرَاء وقال : اجعله خُمُرا)(١٤٨)، وفي حديث عمر : (رأى حلةً سِيَرَاءَ تُباع)(١٤٩)، وفي حديث عمر أيضاً : (إن أحد عُمَّاله وفد إليه وعليه حلة مُسَيَّرة ، أي فيها خطوط من ابريسم كالسيراء)(١٥٠).

العبقري :

ضرب من البسط تصنع من الأصواف وشعر الماعز ، وقيل : إن (عبقرة) موضع باليمن أو بالجزيرة يوشى فيه الثياب والبسط ثيابه في غاية الحسن والجودة ، فصارت مثلاً لكل منسوب إلى شيء رفيع ، ويقال : (العباقري) أيضاً(١٥١). وقال الفراء : العبقري الطنافس الثِّخان ، واحدتها

---

(١٤٥) ديوان النابغة ص ٩٥ ، واللسان : سير .

(١٤٦) اللسان والتاج : سير .

(١٤٧) أبو داود : لباس ٧ ، النسائي : زينة ٨٣ ، جامع الأصول ١٠ / ٦٨٤ .

(١٤٨) ابن حنبل ٢ / ٩٥ ، جامع الأصول ١٠ / ٦٨٥ .

(١٤٩) بخاري : جمعة ٧ ، مسلم : لباس ٦ - ٩ جامع الأصول ١٠ / ٨٠ .

(١٥٠) اللسان والتاج : سير .

(١٥١) اللسان والتاج : عبقر ، ياقوت : عبقر .

عبقرية ، وقال مجاهد : العبقري الديباج ، وقال سعيد بن جبير : هي عتاق الزرابيّ ، فهؤلاء جعلوها اسماً لها ولم ينسبوها إلى موضع .
وقيل : عبقر موضع بالجزيرة كان يصنع به الوَشْي(١٥٢)، وقيل : هي أرض كان يسكنها الجن ، يقال في المثل : (كأنهم جن عبقر) ، وبذلك جاء قول زهير :(١٥٣)

بخَيْلٍ عليها جِنَّةٌ عبقرية — جديرونَ يوماً أن ينَالوا فيسْتَعْلوا

وجاء العبقري أيضاً في شعر عبيد بن الأبرص يصف أغطية الهودج وأستاره وزينته في قوله :(١٥٤)

عالينَ رَقْماً وأنماطاً مُظَاهرةً — وكِلَّةً بعتيق العَقْلِ مقرومة
للعبقريِّ عليها إذ غَدَوا صَبَحٌ — كأنَّها من نَجِيع الجَوْفِ مدمومة

وفي حديث عمر : (انه كان يسجد على عبقري)(١٥٥) وهي هذه البسط التي فيها الأصباغ والنقوش(١٥٦).

العَصْب :

ضرب من برود اليمن ، سمي عَصْبا لأن غزله يعصب ، أي يدرج ثم يصبغ ، ثم يحاك ، وليس من برود الرقم ، ولا يجمع ، انما يقال : بُرْد عَصْب وبرود عصب لأنه مضاف إلى الفعل . وفي الحديث : (المعتَدَّة لا تلبس المصَبَّغة ، الاثوب عَصْب)(١٥٧) أي أن النهي للمعتدة عما صبغ بعد النسج . قال : العصب برود يمنية يعصب غزلها أي يجمع ويشد ثم يصبغ وينسج ، فيأتي موشياً لبقاء ما عصب منه أبيض لم يأخذه صبغ ، وقيل هي برود مخططة ، وجاء في الشعر في قول الشاعر : (١٥٨)

يبتذلنَ العَصْبَ والخَزْ — زَ معاً والحَبِراتِ

(١٥٢) ياقوت : عبقر .
(١٥٣) ديوانه ص ١٠٣ ، واللسان وياقوت : عبقر .
(١٥٤) ديوان عبيد ص ١٣٤ .
(١٥٥) بخاري : فضائل الصحابة ٥ ، ٦ ، مسلم : فضائل الصحابة ١٧ ، ١٩ .
(١٥٦) اللسان : عبقر ، ياقوت : عبقر .
(١٥٧) بخاري : طلاق ٤٨ ، ٤٩ ، نسائي : طلاق ٦٤ ، اللسان : عصب .
(١٥٨) اللسان : عصب .

وفي حديث عمر رضي الله عنه : أنه أراد أن ينهي عن عصب اليمن وقال : نبئت أنه يصبغ بالبول ، ثم قال : نهينا عن التعمق[١٥٩].

والعصب نبات كالورس وكلاهما ينبتان في اليمن ، وتستخرج من نبات العصب صبغة تصبغ بها البرود ونحوها[١٦٠].

الفـــوف :

الفُوف من برود اليمن وهي ثياب رقاق موشاة[١٦١]، والفوف : الجبة البيضاء ، وفي حديث عثمان رضي الله عنه : (خرج وعليه حُلَّةٌ أفواف) ، الأفواف جمع فوف وهو القطن ، وواحدة الفوف فوفة وهي في الأصل القشرة على النواة . وقال الليث : الأفواف ضرب من عصب البرود ، وبرد مفوف أي رقيق ، وقال الجوهري : الفوف قطع القطن ، وبرد أفواف ومفوف فيه بياض وخطوط بيض[١٦٢].

والفوف : الزهر ، قال ابن أحمر يشبه الزهر بالفوف من الثياب تنسجه الدبور إذا مرت عليه :[١٦٣].

والفُـوفُ تَنْسِجُـه الـدَّبـورُ وأتْـ ـــلالٌ مُلَمَّعَـــةُ القَرَا شُقْرُ

والمفوف : المزين ، وفي حديث كعب : (تُرفع للعبدِ غرفةٌ مُفَوَّفَةٌ) وتفويفها لَبِنة من ذهب وأخرى من فضة[١٦٤] .

المُصَـلَّب :

وكما سمي الثوب الذي فيه تصاوير الرحال المرحَّل ، فكذلك سمي الثوب الذي فيه صور الصليب المصلَّب ، قال أبو علي الفارسي : وثوب مصلب فيه نقش كالصليب ، وقد نهى الرسول

(١٥٩) اللسان والتاج : عصب .

(١٦٠) جواد علي ٧ / ٥٢٤ .

(١٦١) اللسان والتاج : فوف .

(١٦٢) اللسان : فوف .

(١٦٣) و (١٦٤) اللسان : فوف .

ﷺ عن لبس هذه الثياب والصلاة فيها ، ففي حديث عائشة : (أن النبي ﷺ كان إذا رأى التصليب في ثوب قَضَبه)[165] أي قطع موضع التصليب منه ، وفي الحديث أن رسول الله ﷺ : (نهى عن الصلاة في الثوب المصلب)[166]، وهو الذي فيه نقش أمثال الصلبان ، وفي حديث عائشة أيضاً : فناولتها عطافاً فرأت فيه تصليباً ، فقالت : نحِّيه عني . وفي حديث أم سلمة : أنها كانت تكره الثياب المصلبة[167].

المعاجــر :

المِعْجَر والمعَاجِر ضرب من ثياب اليمن ، والمعجر : ثوب تعتجر به المرأة أصغر من الرداء وأكبر من المقنعة ، وقيل : ثوب يمني يلتحف به ويرتدى[168]، والمعجر أيضاً : ما ينسج من الليف كالجوالق ، والاعتجار : لبسة كالالتحاف ، قال الشاعر :[169]

فمـــا ليلى بنـــاشِزَةِ القُصَيْرى ولا وَقْصَـــاءَ لِبْسَتُهـــا اعتِجَـــارُ

والمعجر والعجار : ثوب تلفه المرأة على استدارة رأسها ثم تجلبب فوقه بجلبابها ، ومنه أخذ الاعتجار وهو لَيّ الثوب على الرأس من غير إدارة تحت الحنك ، والاعتجار لف العمامة دون التلحي ، وروى عن النبي ﷺ : (أنه دخل مكة يوم الفتح معتجراً بعمامة سوداء)[170].

المعـافرية :

وَمَعَافِر بلد باليمن ، نسبت إليه الثياب ، قال الأزهري : برد معافري منسوب إلى معافر اليمن ، ثم صار اسماً لها بغير نسبة فيقال معافر ، ويقال : منسوب إلى رجل اسمه معافر[171].

---

(١٦٥) بخاري : لباس ٩٠ ، أبو داود : لباس ٤٤ .

(١٦٦) بخاري : صلاة ١٥ .

(١٦٧) اللسان والتاج : صلب .

(١٦٨) التاج : عجر .

(١٦٩) اللسان : عجر .

(١٧٠) مسلم : حج ٤٥١ ، ٤٥٢ ، أبو داود : لباس ٢٠ ، ترمذي : لباس ١١ ، جامع الأصول ١٠ / ٦٣٢ ، زاد المعاد ١ /١٣٦ ، اللسان : عجر .

(١٧١) اللسان : عفر .

وفي الحديث : (أنه بعث مُعَاذا إلى اليمن وأمره أن يـأخـذ من كل حـالم دينـاراً أو عِـدْلَـه من المعافريّ)[١٧٢]، وهي برود باليمن منسوبة إلى معافر وهي قبيلة ، ومنه حديث ابن عمر : أنه دخل المسجد وعليه بردان مَعَافِريَّان ، ومَعـافر (بفتح الميم)حي من همـدان وإليـه تنسب الثيـاب المعافرية[١٧٣].

المقطعـــات :

المَقَطَّعات برود عليها وشي مقطَّع ، واحدتها قِطْع ، والمقطعات من الثياب شبه الجباب ونحوها من الخز وغيره ، وفي التنزيـل :﴿ **فـالـذينَ كفروا قُطِّعَتْ لهم ثيـابٌ من نـار** ﴾[١٧٤]، أي خيطت وسويت وجعلت لبوساً لهم ، وفي حـديث ابن عبـاس في صفـة نخل الجنـة : (نخل الجنـة سَعَفُها كِسوة لأهل الجنة منها مقطَّعاتُهم وحُلَلُهم)[١٧٥]، قال ابن الأثير : لم يكن يصفها بالقصر لأنه عيب ، وقـال ابن الأعرابي : لا يقـال للثيـاب القصـار مقطعـات ، وقـال شمر : ومـا يقوى قـولـه حديث ابن عباس في وصف سعف الجنة لأنه لا يصف ثياب أهل الجنة بالقصر لأنه عيب[١٧٦].

ومن اللغويين من اعتبر (المقطعات) لا واحـد لهـا ، فلا يقـال للجبـة القصيرة مقطعـة ، ولا للقميص مقطع ، وإنما يقال لجملة الثياب القصار مقطعات ، وللواحـد ثوب ، وفي الحـديث : (أن رجلاً أتى النبي ﷺ وعليه مقَطَّعاتٌ له)[١٧٧]، قـال ابن الأثير : أي ثيـاب قصـار لأنهـا قُطِعَت عن بلوغ التمام[١٧٨].

وقيل : المقطع من الثياب كل ما يُفَصَّل ويخاط من قميص وجباب وسراويلات وغيرهـا ، ومـا لا يقطع منها كالأردية والأزر والمطارف والرياط التي لم تقطع ، وإنما يتعطف بها مرة ويتلفع بهـا

---

(١٧٢) أبو داود : زكاة ٥ ، النسائي : زكاة ٨ .
(١٧٣) اللسان : عفر .
(١٧٤) الحج ١٩ .
(١٧٥) اللسان : قطع .
(١٧٦) اللسان : قطع .
(١٧٧) مسلم : حج ٧ ، النسائي : مناسك ٤٤ .
(١٧٨) اللسان : قطع .

أخرى[١٧٩]، وأنشد شمر لرؤبة يصف جلد ثور وحشي أبيض :[١٨٠]

كأن تحتي نـــاشِطَـــا مُــوَلَّعَـــا ... بـــالشـــام حتى خِلْتَـــهُ مُبَرْقَعَـــا
بنيقــــــةٍ من مَرْحلِيٍّ أسْفَعـــــا ... تَخـالُ نِصْعـاً فـوقَهـا مُقَطَّعَـــا
يخالِطُ التَّقْلِيصَ إذْ تدرَّعَـــا

قال ابن الأعرابي : يقول تخال أنه ألبس ثوباً أبيض مقلصا عنه لم يبلغ كراعه لأنها سود ليست على لونه .

وقد يسمى الحديد المتخذ سلاحـاً (مقطعـاً) ، لأنـه يقطع أي يصنع ، واستشهـدوا على ذلـك بقول الراعي :[١٨١]

فقـودوا الجِيـادَ المُسْنفـاتِ وأحْقِبـوا ... على الأرحَبِيَّـاتِ الحـديـدَ المُقَطَّعَـا

يعني الـدروع ، وسميت الأبيـات القصـار مقطعـات تشبيهـاً بـالثيـاب القصـار ، وسميت الأراجيز مقطعات لقصرها ، ويروي أن جرير بن الخطفى كان بينـه وبين رؤبـة اختلاف في شيء فقـال : أما والله لئن سهرت له ليلة لأدعنّه وقلما تغنى عنه مقطعاته ، يعني أبيات الرجز[١٨٢].

وتسمى الثيـاب الموشاة قطوع جمع قطـع ، والمقطعـات برود سميت بـذلـك لأن عليهـا وشيـا مقطعـاً . وتسمى النمرقـة قطعـا وكـذلـك الطنفسـة تكـون تحت الرحـل على كتفي البعير ويروى للأعشى قوله :[١٨٣]

أتَتْـــكَ العِيسُ تَنْفَــحُ في بُرَاهـــا ... تكشَّفُ عن منـــاكِبهـــا القُطُـــوعُ

---

(١٧٩) اللسان : قطع .
(١٨٠) اللسان : نصع .
(١٨١) اللسان : قطع .
(١٨٢) اللسان : قطع .
(١٨٣) اللسان : قطع وينسب لعبد الرحمن بن الحكم ولزياد الأعجم ولم أجد البيت في ديوان الأعشى .

المرجـــــل :

المُرْجَل والمُرَحَل (بالجيم وبالحاء المهملة) ، والمراجل ضرب من برود اليمن وفي المحكم : والمرجل ضرب من ثياب الوشى فيه صور المراجل ، واستشهد سيبويه :(١٨٤)

بشِيَةٍ كشِيَةِ المُرْجَلِ

وثوب مِرْجَلي : من المرجل ، وفي المثل : « حديثا كان بردُك مِرْجَليا » ، أي انما كسيت المراجل حديثاً وكنت تلبس القباء ، وقال الأزهري : وفي الحديث : (حتى يبني الناس بيوتاً يوشونها وشي المراحل) يعني تلك الثياب ، قال : ويقال لها المراجل بالجيم أيضاً ، ويقال لها الراحولات(١٨٥).

وكانت البرود توشى بتصاوير منها الرحال فسمي الثوب المرحل ، قالوا : والمرحل ضرب من برود اليمن ، سمي مرحلا لأن عليه تصاوير الرحل ، ومرط مرحل : إزار خز فيه علم . والرحل الموشي يسمى الراحولات على فاعولات ، وفي شعر الفرزدق :(١٨٦)

عليهنَّ راحُولاتُ كلِّ قطيفةٍ ... من الخَزِّ أو من قَيْصَرانَ عِلامُها

ومرط مرحل عليه تصاوير الرحال ، وقد ذكره امرؤ القيس في معلقته يصف ثوب حبيبته :(١٨٧)

خرجتُ بها تمشي تَجُرُّ وراءَنا ... على أثَرَيْنا ذيلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ

ويشبه امرؤ القيس بن جبلة السكوني الدم على خاصرتي الأتان بالنير المرحل :(١٨٨)

ومارَ عَبيطٌ من نجيعٍ كأنه ... على مستوى الإطلين نِيرٌ مرَحَّلُ

---

(١٨٤) اللسان والتاج : رجل .

(١٨٥) اللسان : رحل .

(١٨٦) اللسان : رحل ، قيصران : ضرب من الثياب الموشية .

(١٨٧) ديوان امرىء القيس ص ١٤ ، والتاج : رحل .

(١٨٨) قصائد جاهلية نادرة ص ١٤٢ .

وفي الحديث : (أن رسول الله ﷺ خرج ذات يوم وعليه مِرْط مرحَّل)[189]، وفي الحديث أيضاً : (كان يصلي وعليه من هذه المرحَّلات) يعني المروط المرحلة[190].

وفي حديث عائشة وذكرت نساء الأنصار : (فقامت كلٌّ واحدة إلى مِرْطها المرحل)[191]، والرحال : الطنافس الحيرية ، ومنه قول الأعشى :[192]

ومصَابِ غاديةٍ كأنَّ تِجَارَها نَشَرتْ عليه بُرُودَها ورِحَالها

الوَصَائِل :

حِبَر اليمن ، وهي ثياب يمانية حمر ، أو ثياب حمر مخططة ، وقيل : برود حمر فيها خطوط خضر[193]، وكذلك (الوصيل) الواحدة وصيلة ، وفي الحديث : (أن أول من كسا الكعبة كسوة كاملة تُبَّع ، كساها الأنطاع ثم كساها الوصائل أي حِبَر اليمن)[194].

ونسبت إلى اليمن أنواع أخرى من الأردية منها الريط اليماني ، والنصع اليماني أو الحميري ، وغيرها كثير ، وسيرد ذكرها عند الحديث عن أنواع الثياب .

٢ - العدنيات :

وهناك ثياب أخرى غير اليمنية ، نسبت إلى مدن بعينها ، وإن كانت أقل شهرة مما نسب إلى اليمن ، منها عدن ، وسميت العدنيات .

عرفت عدن بصنع البرود وشهرت بها ، وهي ثياب كريمة نسبت إلى عدن وعرفت بـ

---

(١٨٩) مسلم : لباس ٣٦ ، فضائل الصحابة ٦١ ، مسند عائشة ص ٤٥ ، زاد المعاد ١ / ١٤٤ ، جامع الأصول ١٠ / ٦٩٢ ، اللسان : رحل .

(١٩٠) أحمد بن حنبل ٦ / ٩٩ ، ١٩٩ أبو داود : طهارة ١٣٣ ، اللسان : رحل .

(١٩١) اللسان : رحل .

(١٩٢) ديوان الأعشى ص ٧٧ ، اللسان : رحل .

(١٩٣) التاج : وصل .

(١٩٤) بخاري : باب كسوة الكعبة ، حج ٤٨ ، اللسان : وصل .

(العدني) و (العدنيات) ، واشتهرت برياطها فقيل : (رياط عدنية)(١٩٥)، وجاء في الحديث : أن رسول الله ﷺ كان قد استعمل برودا عدنية(١٩٦).

٣ - القطـــرية :

والقِطْرِية (بكسر القـاف وسكـون الطـاء) ضرب من البرود(١٩٧)، ونقـل شمر عن البكراوي قال : البرود القطرية حمر لها أعلام فيها بعض الخشونة ، وقال خـالـد بن جَنْبَة : هي حلل تعمل بمكان لا أدري أين هو ، وقال : وهي جياد وقد رأيتها وهي حمر تـأتي من قبل البحرين . وقـال أبو منصور : وبالبحرين على سيف (الخـط) وعمـان(١٩٨) مـدينـة يقـال لهـا قطر ، قـال وأحسبهم نسبوا هذه الثياب إليهـا فخففوا وكسروا القـاف للنسبـة ، وقـالوا : قِطْرى (بكسر القـاف واسكان الطـاء) ، والأصل قَطَرى (بفتحتين) كما قـالوا للفَخِـذ (بفتح فكسر) فِخْـذ (بكسر فسكون) ، قال جرير :(١٩٩)

لـدَى قَطَرِيـاتٍ إذا مـا تغـوَّلتْ ... بها البِيـدُ غـاوَلْنَ الحُـزُومَ الفَيـافِيَـا

أراد بـالقطريـات نجـائب نسبهـا إلى قطر ومـا والاهـا من البر(٢٠٠)، قـال الراعي وجعـل النعـام قطرية :(٢٠١)

الأوْبُ أوبُ نَعـــائمٍ قَطَرِيَّـــةٍ ... والآلُ آلُ نحـــــــائِصٍ حُقُبِ

نسب النعائم إلى قطر لاتصالها بالبر ومحاذاتها رمال يبرين .

وجـاء ذكر الثيـاب القطريـة في الحـديث ، فروى أنـه عليـه السلام : (كان متـوشحـا بثـوب قِطْري)(٢٠٢)، وفي حديث عائشة ، قال أيمن : دخلت على عـائشـة وعليهـا درع قِطْري ثمنـه خمسـة

(١٩٥) التاج : عدن .

(١٩٦) مسند أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ١٠ / ٣٨ وما بعدها ، جواد علي ٧ / ٥٢٦ .

(١٩٧) القاموس المحيط : قطر .

(١٩٨) اللسان : قطر ، وفي معجم البلدان (قطر) : قـال أبو منصور : في أعراض البحرين على سيف الخـط بين عمـان والقعير قريـة يقال لها قطر .

(١٩٩) اللسان : قطر ، وديوان جرير ص ٥٠٠ وفيه : بناء البيد ... الحزوم القياقيا .

(٢٠٠) القاموس المحيط : قطر .

(٢٠١) اللسان : قطر .

(٢٠٢) ابن حنبل ٣ / ٢٥٧ ، ٢٦٢ مسند عائشة ص ١٠٨ ، الاتحافات الربانية ص ٩٧ ، ١٧٧ ، واللسان والتاج : قطر .

دراهم ، قال أبو عمرو : القِطْر نوع من البرود ، وأنشد :[٢٠٣]

كساك الحنظَليُّ كِساءَ صوفٍ وقِطْرِيَّاً فأنت به تفيدُ

٤ - الهَجَريَّة :

وعرفت هجر بجودة ثيابها ، وهجر مدينة وهي قاعدة البحرين ، وقيل : ناحية البحرين كلها هجر[٢٠٤]، وفي طبقات ابن سعد : لما أرسل رسول الله ﷺ سليط بن عمرو المعافري إلى هوذة بن علي الحنفي ، أجاز هوذة سليطا بجائزة وكساه أثوابا من نسج هجر[٢٠٥].

٥ - الصُحَاريَّة :

وعرفت صحار ، قصبة عمان مما يلي الجبل[٢٠٦] بثياب عرفت بها فقيل ثوب صُحَاري وثياب صُحَارية[٢٠٧]، وقيل قرية باليمن نسب الثوب إليها ، وفي الحديث : (كُفِّنَ رسول الله ﷺ في ثوبينِ صُحَارِيَّينِ)[٢٠٨].

٦ - الحِيريَّة :

واشتهرت الأنماط الحيرية نسبة إلى الحيرة بجنب الكوفة ، وكان ينزلها نصارى العباد ، والنسبة إليها حيري وحاري[٢٠٩]. والحَاري : أنماط نُطُوع تعمل بالحيرة تزين بها الرحال ، أنشد يعقوب :[٢١٠]

عَقْماً ورَقْماً وحَارِيًّا نُضاعِفُه على قلائِصَ أمثالِ الهَجَا نِيعِ

(٢٠٣) اللسان : قطر ، جامع الأصول ١٠ / ٦٦٦ .

(٢٠٤) ياقوت : هجر .

(٢٠٥) طبقات ابن سعد ١ / ٢٦٢ ، وجواد علي ٧ / ٥٢٧ .

(٢٠٦) ياقوت : صحر .

(٢٠٧) اللسان والتاج : صحر .

(٢٠٨) ابن حنبل ٥ / ٢٤ ، الترمذي : بيوع ٧ ، اللسان والتاج : صحر .

(٢٠٩) اللسان والتاج : حير .

(٢١٠) اللسان : حير .

والمراد بالنمط : ظهارة فراش ما ، والنمط والزوج ضروب الثياب المصبغة ، ولا يقولون نمط ولا زوج إلا لما كان ذا لون من حمرة أو خضرة أو صفرة ، فأما البياض فلا يقال نمط ، ويجمع أنماطاً(٢١١)، والنمط : ضرب من البسط والجمع أنماط مثل سبب وأسباب ، قال ابن بري : يقال نمط وأنماط ونِماط ، قال المتنخل :(٢١٢)

علامات كتحبير النِّمَاطِ

وفي حديث ابن عمر : (أنه كان يجَلِّل بُدْنَه الأنماط)(٢١٣)، قال ابن الأثير : هي ضرب من البسط له خمل رقيق(٢١٤).

ومن الثياب الحارية ضرب من البرود يعرف بـ (الشَّرعَبية) ، يقول امرؤ القيس إنه دعا أصحابه أن يرفعوا له خيمة فيها ثياب أتحمية وشرعبية من نسج الحيرة :(٢١٥)

وقلنا لفتيانٍ كرامٍ ألا أنزلوا ... فعالوا علينا فضْلَ ثوبٍ مُطَنَّبِ
وأوتادُه ماذيةٌ وعِمادُه ... رُدَيْنِيَّةٌ فيها أسِنَّةُ قعضَبِ
وأطنابُه أشْطَانُ خُوصٍ نجَائبٍ ... وصهوتُه من أتْحَمِيٍّ مُشَرْعَبِ
فلما دخلنَاهُ أضفنَا ظهورَنا ... إلى كلِّ حاريٍّ جديدٍ مُشَطَّبِ

وقد يراد بالحاري الثوب المخطط ، أو السيف الذي فيه طرائق ونقوش ، وأنشد الأزهري :(٢١٦)

كالبستان والشرعبي ذا الأذيال

---

(٢١١) اللسان والتاج : نمط .

(٢١٢) اللسان : نمط .

(٢١٣) الموطأ : حج ١٤٦ .

(٢١٤) اللسان : نمط .

(٢١٥) ديوان امرىء القيس ص ٥٢ – ٥٣ .

(٢١٦) اللسان : شرعب .

٧ - القطيفيات :

ونسبوا إلى القطيف وهي مدينة بالبحرين[٢١٧] نسيجاً وأردية وضربا من الخمل وقد ذكر الأعشى خمل القطيف المصبوغ بالأرجوان بعد أن ذكر مراكب النساء وما عليها من أكسية الخز والشفوف والباغز :[٢١٨]

خاشِعَاتٍ يُظْهِرنَ أكسيةَ الخَـ ـزِّ ويُبْطِنَّ دونَها بشُفُوفِ
وحشَوْنَ الجِمالَ يسْهَكْن بالبَا غِزِ والأُرجُوانِ خَمْلَ القَطِيفِ

ويشبه عنترة الدم الذي خضب جسم فرسه في غمرة القتال كالارجواني ، وهي القطايف الحمر :[٢١٩]

وأُكْرِهُهُ على الأبطالِ حتَّى يُرَى كالأُرجُوانِيِّ المَجُوبِ

والقطيفة وجمعها القطائف والقطف ، وهي القراطف جمع قرطفة ، فرش مخملة ، وجاءت بهذا اللفظ (القراطف) في شعر معقر بن حمار البارقي وهو يتحدث عن أُمنية امرأة ذبيانية أن يغنم بنوها القراطف والقروف :[٢٢٠]

وذبيانيَّةٍ أوصتْ بنيها بأنْ كَذِبَ القَرَاطِفُ والقُروفُ
تجهِّزُهم بما وجدتْ وقالتْ بَنِيَّ فكُلُّكُمْ بطَلٌ مُسِيفُ

والقطيفة : دثار مخمل ، وقيل كساء له خمل ، وفي الحديث : (تعس عبد القطيفة)[٢٢١] وهي كساء له خمل ، أي الذي يعمل لها ويهتم بتحصيلها[٢٢٢].

---

(٢١٧) اللسان : قطف ، ياقوت : القطيف ، والقطيفة تصغير القطيفة عند ياقوت : كساء له خمل يفترشه الناس ، وهو الذي يسمى اليوم زولية ومحفورة ، وهي قرية دون ثنية العقاب للقاصد إلى دمشق من طرف البرية من ناحية حمص (ياقوت : القطيفة) .

(٢١٨) ديوانه ص ٣٦٣ .

(٢١٩) ديوان عنترة ص ٣٢٢ .

(٢٢٠) قصائد جاهلية نادرة ص ١١٣ .

(٢٢١) ابن ماجة : زهد ٨ .

(٢٢٢) اللسان : قطف .

٨ - نسـج العـراق :

وجاء في الشعر الجاهلي نسبة المنسوجات إلى مواضع أخرى ومـدن بعينهـا منهـا العراق ، فجـاء (حوك العراق) الذي ورد في شعر امرىء القيس[٢٢٣]

جعلنَ حَـوايـا واقتعـدنَ قعَـائِـدا وحَفَّفْنَ من حَـوْكِ العِراق المنَمَّـقِ

وجاء النسج العراقي في شعر الطفيل الغنوي الذي عبر عنه بحوكي العراق المرقم أي المنقـط ، ويصفـه بأنه نسيج أحمر عريض واسع :[٢٢٤]

لقـد بَيَّنَتْ للعينِ أحـداجُهـا معـاً عليهن حَـوْكِيٌّ العِراقِ المُرَقَّمِ
عقـارٌ تظـل الطيرُ تخطفُ زَهْـوَهُ وعـالَيْنَ أعـلاقـا على كل مُفْـأمِ

وجاء الرَّيْط العراقي في شعر ربيعة بن مقروم يصف أنماط الظعائن :[٢٢٥]

جعلنَ عتيـقَ أنمـاطٍ خُـدورا وأظهرنَ الكـداريَ والعُهـونـا
على الأحـداجِ واستشعرنَ رَيْطـا عراقِيَّـا وقِسِّيَّـاً مصُـونـا

٩ - القبطيـة :

ثياب كتان رقـاق بيض تعمل بمصر ، وهي منسوبـة إلى القبـط على غير قيـاس والجمع قُبَـاطِيّ (بضم القاف وفتحها) ، وقال شمر : القباطي ثياب إلى الدقة والرقة والبياض ، قال زهير :[٢٢٦]

لَيـأتينَّـكَ منّي منطِـقٌ قَـذَعٌ بـاقٍ كما دنَّس القُبطيَّـةَ الـوَدَكُ

وقال الكميت يصف ثوراً :[٢٢٧]

لِيـاحٍ كأنْ بـالأتحميَّـةِ مُسْبِـعٌ إزاراً وفي قُبطيَّـةٍ مُتَجَلْبِبُ

---

(٢٢٣) ديوان امرىء القيس ص ١٦٨ .
(٢٢٤) ديوان طفيل الغنوي ص ٧٤ .
(٢٢٥) ياقوت : القس .
(٢٢٦) ديوانه ص ١٨٣ واللسان : قبط .
(٢٢٧) اللسان : قبط .

وفي حديث أسامة : (كساني رسول الله ﷺ قبطية)[٢٢٨]، وفي الحديث : (أنه كسا امرأة قبطية فقال : مرها فلتتخذ تحتها غلالة لا تصف حجم عظامها)[٢٢٩] وفي الحديث دلالة على دقة وشفافية القباطي لأنها تلتصق بالجسد ، ومنه حديث عمر رضي الله عنه : (لا تُلبسوا نساءكم القُباطيَّ فإنه إن لا يشِفُّ فإنه يصِفُ)[٢٣٠]. وكانت القباطي والأنماط مما تكسى بها الكعبة في الجاهلية والإسلام .

و (القبطرى) : ثياب بيض ، وزعم بعضهم أن هذا غلط ، وقد قيل فيه : إن الراء زائدة مثل دمث ودمثر ، وشاهده قول جرير :[٢٣١]

قـومٌ ترى صـدأ الحـديـدِ عليهم والقُبْطِريَّ من اليَـلامـقِ سُـودَا

١٠ - القَسِّيَّة :

ثياب من كتان مخلوط بحرير يؤتى بها من مصر ، نسبت إلى قرية على ساحل البحر قريباً من تنِّيس يقال لها القَس[٢٣٢] في ديار مصر تنسب إليها الثياب القسِّية ، وقال بعضهم : القسِّي القزِّي ، أبدلت زايه سينا ، وفي بلاد الهند بين نهر وارا بلد يقال له القس مشهور يجلب منه أنواع الثياب والمآزر الملونة ، وقيل هو موضع بين الفرما والعريش ، وأنشدوا لربيعة بن مقروم :[٢٣٣]

على الأحـداجِ واستشعرنَ رَيْطـا عراقيـا وقَسِّيـاً مصُـونـا

وفي حديث علي أن النبي ﷺ (نهى عن لبس القسِّي)[٢٣٤]، قال أبو عبيد قال عاصم بن كليب وهو الذي روى الحديث : سألنا عن القسي فقيل هي ثياب يؤتى بها من مصر فيها حرير[٢٣٥].

---

(٢٢٨) بخاري : لباس ٣٠ ، ابن حنبل ٥ / ٢٠٥ ، اللسان : قبط .
(٢٢٩) اللسان : قبط ، جامع الأصول ١٠ / ٦٤٦ .
(٢٣٠) اللسان : قبط .
(٢٣١) ديوان جرير ص ١٣٤ ، اللسان : قبط .
(٢٣٢) اللسان : قسس .
(٢٣٣) ياقوت : القس .
(٢٣٤) بخاري : جنائز ٢ ، لباس : ٢٨ ، ٣٦ .
(٢٣٥) ياقوت : القس ، اللسان : قسس .

١١ - مـدن أخـرى :

وجاء في الشعر الجاهلي ذكر لمنسوجات وثياب منسوبة إلى مدن أخرى ، من ذلـك مـاجـاء في شعر سلامة بن جندل حيث ذكر نسج بصرى والمدائن :[٢٣٦]

من نَسْـجِ بُصْرى والمـدائنِ نُشِّرتْ   للبيـع يـومَ تَحَضُّرِ الأسـواقِ

ووصف امرؤ القيس نساء عليهن ثياب من صنع انطاكية :[٢٣٧]

علونَ بـانطـاكيَّـةٍ فـوق عِقْمَـةٍ   كجِرْمـةِ نَخْـلٍ أو كجَنَّـةِ يَثْرِبِ

١٢ - منسـوجات فارسـية :

وهناك منسوجات فارسية أو منسوبة إلى مدن فارسية ، أو فيها أسماء أعجمية فـارسيـة جـاءت في الشعر الجاهلي ، من ذلك :

الدَّيَـابُوذ :

الديابوذ وهو (دُوَابُوذ) بالفارسية ، أي : ثوب ينسج على نيرين ، قال الشـاعر يصف ظبيـة وولدها ، وأنها في خصب وسعة فقد حسنت شعرتها فكأنما عليها ثوب ذو نيرين :[٢٣٨]

كأنهـا وابنُ أيَّـامٍ تُرَبِّبُـهُ   من قُرَّةِ العـينِ مُجْتَـابـاً دَيَـابُـوذِ

وجاء في شعر الأعشى يصف ثور الوحش :[٢٣٩]

عليـه دَيَـابُـوذٌ تَسَرْبَـلَ تحتَـهُ   أرَنْـدَجَ إسكافٍ يُخَـالـطُ عِظلِمَـا

---

(٢٣٦) ديوان سلامة بن جندل ص ١٣٩ .

(٢٣٧) ديوان امرىء القيس ص ٤٣ . والعقمة : ضرب من الوشى الأحمر .

(٢٣٨) المعرب ص ١٣٨ .

(٢٣٩) ديوان الأعشى ص ٣٤٥ وانظر المعرب ص ١٣٩ .

الدِّيْبَــــاج :

ومن الثياب الفارسية ثياب الديباج ، وأصل الديبـاج بـالفـارسيـة (ديو بـاف) أي نسـاجـة الجن[٢٤٠]، وجاءت هذه الثياب في الشعر في قول مالك بن نويرة :[٢٤١]

ولا ثيــابٌ من الـديبــاجِ تلبَسُهـــا   هي الجِيـادُ ومـا في النفسِ من دَبَبِ

و (الدبج) كذلك أعجمي أي النقش ، مأخوذ من الديباج[٢٤٢].

وجاءت ثياب الديباج في شعر الأعشى وهو يمدح هوذة الحنفي :[٢٤٣]

وكلُّ زَوْجٍ من الــدِّيبــاجِ يلبسُـــهُ   أبــو قُـدَامــةَ محبُــوًّا بــذاك مَعَـــا

وذكرها أوس بن حجر حين يصف النساء :[٢٤٤]

لَبِسْنَ رَيْطَــاً ودِيبــاجَــاً وأكسِيَـــةً   شَتَّى بهـــا اللّــونُ إلا أنَّهـــا فُــورُ

(٢٤٠) في معجم الألفاظ الفارسية المعربة ص ٦٠ : أن أصله (ديبا) مركب من (ديو) أي جن و (باف) أي نسيج .

(٢٤١) المعرب ص ١٤٠ ، والدبب : العيب .

(٢٤٢) المعرب ص ١٤٣ .

(٢٤٣) ديوان الأعشى ص ١٥٧ .

(٢٤٤) ديوان أوس بن حجر ص ٤٠ .

"There's something in't that is deceivable" : "Present mirth" and "what's to come" In *Twelfth Night*

by

A.M. Kinghorn

The title of Shakespeare's most mature comedy, **Twelfth Night** or **What You Will** gives no clue to its content. "Twelfth Night", the conclusion of the Christmas Feast, may have been chosen because this was the time of the play's very first recorded performance in 1601 [1]. **What You Will** was the title of a later comedy by John Marston[2]. But Shakespeare's titles are occasionally irrelevant and although a great deal of scholarly energy has been expended in discussions of these alternatives, the results are not critically helpful. In any case, comedies are not to be satisfactorily described through their titles.. **As You Like It** and **Much Ado About Nothing**–are equally poor guides and in fact **What You Will** and **As You Like It** appear to carry the same import, inviting the audience to judge.**Much Ado** with its three connected plots, is certainly about "something", for even if the first two may be thought trivial, the third, about the courtship of Beatrice and Benedick, is not. When Charles I was a boy, he retitled the play "Benedick and Beatrice", indicating the part of it that interested him most[3].

Twelfth Night's subject is, however, easily settled upon. Comedy as Shakespeare conceived it is always[4] about love, with marriage as a desirable end, so that illicit love, self–love, more than one love and unnatural attachments become barriers to this accepted state of bliss. **Twelfth Night** makes comedy out of the force of passion, especially when it is directed at the wrong object, thus creating absurd situations which bring about deadlock or threaten chaos. The morality of the playwright's comedies emerges indirectly, since the disappearance of chaos produces the order which makes suitable marriage possible. True love prevails, false love is banished. But Shakespeare's dictum, put into the mouth of Theseus in **A Midsummer Night's Dream** :

> Lovers and madmen have such seething brains,
> Such shaping fantasies, that apprehend.

More than cool reason ever comprehends.
The lunatic, the lover and the poet,
Are of imagination all compact. **(op. cit.**,V, i, 4–8)

is a comment on the difficulties which lovers cannot help making for themselves, for they are dominated by fancy and share the "seething brains" of madmen.

Written shortly before **Hamlet**[5], **Twelfth Night** represents a change from the innocuous world of Bottom's dream or the escapism of the Forest of Arden. The melancholy of Hamlet is beginning to make itself felt in **Twelfth Night,** although Orsino's affliction is not fatal. "Twelfth Night" is the last night of the Feast of the Epiphany, when the revels and over–indulgences are ended and people are brought back to clarity of vision, to face the vicissitudes of a new year. Perhaps this was why Shakespeare settled on the title on the ground that it was as good as any other. The play could be made "what you will" or what you want, with all its possible accompanying surprises. One can never tell how one's desires may be realised. He was dramatising a timeless period, a stage in life recognisable only in retrospect and never to be recaptured.

The action of this play begins, flourishes and ends in music. Orsino, Duke of Illyria (a name suggestive of delirium and the rapturous condition of ecstasy felt by passionate lovers), is a self–concerned melancholic who is first discovered solacing himself with music. One can hear the "strains" (melodies) and "falls" (embellishments)[6] of the viols and virginals of the Elizabethan court consort as he speaks the well–known opening lines :

If music be the food of love, play on,
Give me excess of it, that, surfeiting,
The appetite may sicken, and so die.
That strain again, it had a dying fall :
O, it came o'er my ear like the sweet sound
That breathes upon a bank of violets,
Stealing and giving odour

(I,i,1–7)

but, before his encouraging observation is complete, he is already noting the drooping of his spirits :

'Tis not so sweet now as it was before

he sighs, denoting the abrupt collapse of his ecstasy into a typically romantic depression, produced by excess of emotion. Love at its most passionate is fleeting, quickly touched by reality and sustained by fancy for a short time only[7].

The trio, love, food and music are brought together in Act I, scenes i–iii, through the actions of Orsino (whose name means "bear", a ravenous, clumsy beast). His music is a static well of emotion and when Curio asks him if he wants to hunt the hart, a symbol both of light–footedness and hopeless passion, he envisions his own transformation into a hart though it is soon evident taht this is mere license. Orsino must have been a recognisable type on the Elizabethan stage, a "drop–out" unfitted for conventional activity because of an over–elaborate humanistic education. Holofernes in **Love's Labour's Lost** is his prototype and this satirical tilt at impractical intellectualism comes out again and again in Shakespeare, in the sololoquys of Hamlet, for example. In **Twelfth Night** it is most directly shown up through Malvolio, whose cold logic does not save him from disaster.

Viola, a name suggesting a musical instrument, a viol or lute, which may be bowed or plucked, also confirms the atmosphere of the prologue to this comedy ... her music is in contrast to Orsino's ... it is not static but active. Her simile comparing her missing brother Sebastian to "Arion on the dolphin's back" (I,ii,15) is one subtle reminder and in scene iv Orsino describes her voice as" thy small pipe ... shrill and sound" (32–3)[8]. The action becomes much more lively after her entrance in scene ii. Orsino's inward–looking mood is left behind and her dialogue with the sea–captain promises action. It is to be noted how much conversation moves the plot in this play, especially in the first two acts, when the relationships between characters are being established ... in I, v and II, iv, for example. In I, v we meet Malvolio for the first time ... his insulting talk to the Clown, to whom he refers as "a barren rascal" (82) gives the former a clear motive to revenge. II, iv revives the atmosphere with which the play opens, with the Duke calling for music .. "that old and antic song we heard last night" (3). The Clown is not there to perform and so the Duke and Viola discuss love against a musical accompaniment, the tune without the words. Later, the Clown is brought in to sing it :[9]

> Come away, come away death,
> And in sad cypress let me be laid

a dual reminder that life is fleeting and that the Duke's dying of love is an ironic human condition[10]. Orsino fails to understand this and the irony in the Clown's brief speech which follows :

> Now the melancholy god protect thee, and the
> tailor make thy doublet of changeable taffeta, for
> thy mind is a very opal. I would have men of
> such constancy put to sea, that their business

might be everything, and their intent everywhere,
for that's it that always makes a good voyage of
nothing. (II,iv,73–79)

In the scene preceding the Clown had explored the character of love in a song.

What is love ? "Tis not hereafter,
Present mirth hath present laughter :
What's to come is still unsure
In delay there lies no plenty,
Then come kiss me, sweet and twenty :
Youth's a stuff will not endure

(II,iii,48–53)[11]

He alone sees that time is of the essence ... "in delay there lies no plenty" ... so, "gather ye rosebuds" is his mildly ironic advice, born of the Fool's wisdom. He recommends action, not thought. Hamlet was to be trapped in procrastination, inhibited from acting by too much pondering on the nature of things but Feste's audience, the truly foolish Sir Toby and Sir Andrew, for whom life is purely material and sensual, do not allow reason to trouble them.

The protagonists in **Twelfth Night** are all on the threshold, or approaching it – reluctant to perceive reality, they hold back, preferring to take refuge in a world of fancy. One of the meanings of the word **fancy**, now obsolete, was "love" and it is in this interpretation that Orsino uses it both in his opening speech :

So full of shapes is fancy
That it alone is high fantastical

(I,i,14–15)[12]

and in his closing one, addressing Cesario–Viola and calling her "Orsino's mistress, and his fancy's queen" (V,i,387). Under the domination of fancy, he is in love with the idea of being in love, rather than with a real woman. Olivia sets off his hopeless passion at first sight :

O, when mine eyes did see Olivia first,
Me thought she purg'd the air of pestilence;
That instant was I turn'd into a hart,
And my desires, like fell and cruel hounds,
E'er since pursue me

(**ibid** ., 19–23)

he tells Curio when the latter asks him if he will go hunt the hart – a common poetical symbol of hopeless passion, depending on an obvious play on words, and originating in a story from Ovid.

Olivia's bout of self–indulgence is another form of false love, but, like Orsino, she cannot see her own errors. She has taken the veil, and vowed to sequester herself for seven years to preserve the love which her dead brother bore towards her ... "a debt of love" ... as the Duke calls it, which

> Hath killed the flock of all affections else
> That live in her; when liver, brain and heart,
> These sovereign thrones, are all supplied, and fill'd
> Her sweet perfections with one self king.
>
> (**ibid.**, 36–9)

He lives in fond hope of being this same "king" and his "love–thoughts" are intensified by erotic imaginings, which the final lines clearly imply.

Viola is the most complex character. When she becomes Cesario, she is not what she seems[13]. Her pursuit of Orsino is calculated and she is prepared to await results :

> ... for I can sing,
> And speak to him in many sorts of music,
> That will allow me very worth his service,
> What else may hap, to time I will commit;
> Only shape thou my silence to my wit
>
> (**ibid.**,iii,57–61)

she tells the Captain who agrees to aid her deception. Viola's complexity is not confined to her transvestitism. She keeps her own counsel and is obviously efficient since we soon learn that she has been in the Duke's service for only three days and is already much favoured. She asks Valentine if their master is inconstant in his favours and his remarks on entry (**ibid**.iv,11–14) inform the audience that he has already told his new page all about his love for Olivia. But in line 42 of the same scene, we are told that her aim is to marry him. She is hunting Orsino as persistently as he hunts Olivia, but with much greater skill.

She starts by meeting Olivia, ostensibly to carry out the Duke's instructions and act as a surrogate lover. Her persistence is shown by her refusal to be put off by Malvolio. Her dialogue with Olivia is a masterpiece of equivocation – she tells the truth in such a way as to be consistently misunderstood. "I am not that I play" she explains (**ibid**,v,185) and when Olivia replies to her "But you should pity me" (280) with "You might do much" the audience realises that she (**i.e.** Olivia) has rejected Orsino and wants Cesario–Viola[14]. Her pretence that the latter has left a ring behind, which concludes Act I, makes her emotional state even clearer. Viola instantly understands the import of the ring

She loves me, sure; the cunning of her passion
Invites me in this churlish messenger.

(II,ii,21–2)

and later goes off into a soliloquy on the "frailty, thy name is woman" theme prominent in **Hamlet,** but expressed from a feminine point of view :

Also, our frailty is the cause, not we,
For such as we are made of, such we be

(**ibid.**, 30–31)

though the irony of her disguised condition overwhelms her :

O time, thou must untangle this, not I,
It is too hard a knot for me t'untie

(**ibid.**39–40)

However, one does not feel that she will be defeated by this awkward situation. She is one of Shakespeare's most competent heroines, more feminine than Portia perhaps, but just as well fitted to play the male role for her own advantage. Just as she tells Olivia the truth about herself, so does she try out her logic on the Duke. He calls woman's love "appetite" and Cesario–Viola replies ambiguously :

In faith, they are as true of heart as we.
My father had a daughter loved a man,
As it might be perhaps, were I a woman,
I should your lordship

(**ibid.**,iv,107–110)

but he is unable to grasp what she is really saying, though she goes on to elaborate and gives him every chance of interpretation.

Olivia is no more capable than he of penetrating Viola's mystery. "I am not what I am", (III,i,143) and the ensuing conversation leaves the countess none the wiser ... the audience is in the secret and can smile at both her and the Duke who are blinded by their passion. Cesario–Viola purveys words adroitly and misleads as she sees fit. In the final Act of the play, the Duke admits that she told him the truth about herself :

Boy, thou hast said to me a thousand times
Thou never should'st love woman like to me

(V,i,265–6)

but Olivia is given no concluding observations of this kind. Her attentions are fully occupied with Malvolio and she is happy to accept the unexpected outcome

of events. She has found a husband even though he is not the one she thought she wanted. Her retreat from the world is ended and she returns to as much reality as is possible for her: she had asked Sebastian "Would'st thou be rul'd by me :" (IV,i,63) and, he agrees, though the irony of this is not to be realised until the subterfuges have all been abandoned and Sebastian becomes Olivia's husband and though even at this late stage in the action the confusion of identities is kept up for the benefit of the audience.

Maria, Olivia's waiting–gentlewoman, is the spring of the sub–plot, the comic action involving Malvolio with her mistress. She is portrayed as a jester, intelligent, quick–witted and a match for the Clown, with whom she holds her own in I, v and for Sir Toby and Sir Andrew, whom she leads in the Malvolio plot. She sums up Malvolio's character accurately and designs and executes a practical joke of the most suitable kind, guaranteed to bring about precisely the result which follows. In III,iii she describes his absurd behaviour gleefully :

> He does obey every point of the letter
> that I dropped to betray him : he does
> smile his face into more lines than is
> in the new map with the augmentation of the
> Indies : (74–7)

and Sir Toby, impressed by her skill as a "gull–catcher" (she even imitates Olivia's handwriting convincingly) considers her a good marriage–prospect and indeed he does marry her for that reason (V,i,361–3). Her last ploy is to disguise the Clown as Sir Topas the curate, who visits Malvolio in prison. Her motive is the traditional one of revenge on "Puritans," of whom she regards Malvolio as a prime example, though her chief dislike is centred on his being

> a time–pleaser[15], an effectioned ass that
> cons state without book, and utters it by
> great swarths; the best persuaded of himself,
> so crammed (as he thinks) with excellencies,
> that it is his grounds of faith that all that
> look on him love him : and on that vice in him
> will my revenge find notable cause to work
>
> (II,iii,147–53)

reinforcing Sir Toby's irritated query earlier in the same scene, when he demands of Malvolio :

> Art any more than a steward ? Dost thou think
> because thou art virtuous, there shall be no
> more cakes and ale ?
>
> (sc.cit.113–5)[16]

This is one of the best-known quotations from the play and it states the fundamental opposition between warmth and coldness; the bibulous Sir Toby and his scatter-brained companion Sir Andrew are contrasted with the humourless, ambitious Malvolio, a symbol of restriction and frowning superiority. How far Shakespeare intended to create sympathy for Malvolio is not to be known, but a modern audience probably feels more than did the Elizabethan, for whom his tight-laced integrity held fewer attractions. His personal habits are irritating and his social attitudes condescending–he describes Sir Toby's group as "the lighter people" (V,i,338).

Olivia shows some slight sympathy for him :

> Alas, poor fool, how have they baffled thee : (368)

is not so harsh, since "fool" is here a compassionate expression, meaning "fellow" though it also carries the connotation of "dupe" or "mark", and it has to be remembered that it was Olivia who first criticised Malvolio, when he attacked the Clown in her presence :

> O, you are sick of self–love, Malvolio, and taste with
> a distempered appetite (I,v,89–90)

and who goes on to defend the professional fool or jester, a class of which Malvolio disapproves[17]. Of easy–going tradition he is contemptuous. His dislike of music and song, his mincing speech and prim mannerisms are all sources of offence to his enemies. Maria's joke goes to the heart of this inward–looking arrogance, the self–love which bars him from self–criticism. He is shamed, called mad, put in prison, learns how he has been tricked but gains nothing from the experience. His exit line in V,i,377 :

I'll be reveng'd on the whole pack of you :

and Olivia's comment

He hath been most notoriously abus'd

gives the Duke cause to make amends – "Pursue him, and entreat him to a peace" is his command to Fabian but the audience is left with the uneasy situation as it stands.

Malvolio feels justified in seeking revenge – as a comic figure he is right on the edge of tragedy and, many critics perceive something of him in Hamlet – the intellectualism, the posturing and the inability to communicate. But Malvolio, unlike Hamlet, thinks that he understands his fellows. Ironically, of the two women he thinks love him one, Maria, despises him while the other, Olivia, regards him as a gentleman in her service. He is loved by neither, nor by Sir Toby and his group – in fact, they each hate him. Only the Clown gives a specific reason for his part in the humiliation of Malvolio – the others reject the man not because he does not regard them as congenial but because he goes so far as to say so and to set himself above them :

> You are idle, shallow things, I am not of your element
>
> (III,iv,124–5)

is his self–delusion for he is seen to be brought down to earth even more violently than his incarceration in prison can do. At this stage in the action, he does not realise the exact nature of the conspiracy against him and can still maintain his poise, even in the "dark room and bound" as Sir Toby directs.

Although Malvolio is a minor character in **Twelfth Night** in terms of the play's dramatic pattern, it is impossible to conceive of it without him and he represents rather more than his absurdities suggest for it is through him and the Clown that the comedy is made to reveal its darker side[18]. Malvolio is robbed of the one thing he values most, his own dignity. Self–love is his undoing and opens him to the schemes of Maria and the vengeance of Sir Toby so that he is stripped bare, and turned into a human soul disrobed. His parting shot suggests the quarry at bay, the image is of the hounds who have been eluded and cheated of their prey, the outsider without supporters. "I'll be reveng'd" makes a stronger impression on the audience than the Duke's gesture of amends to which Fabian's earlier confession looks forward :

> How with a sportful malice it was follow'd
> May rather pluck on laughter than revenge,
> If that the injuries be justly weigh'd
> That have on both sides pass'd
>
> (V,i,3647)

It is Fabian whom the Duke sends after Malvolio – the other authors of the plot are then conspicuously absent and one does not feel that they would care one way or the other about the steward's hurt feelings[19].

The Clown expresses melancholy in song and takes part in the practical joke[20]. His grudge against Malvolio and his shrewd understanding of human

nature, based on observation and experience, make him the most dangerous of the conspirators. As Viola says of him :

> This fellow is wise enough to play the fool,
> And to do that well, craves a kind of wit :
> He must observe their mood on whom he jests,
> The quality of persons and the time,
> And like the haggard, check at every feather
> That comes before his eye. This is a practice
> As full of labour as a wise man's art :
>
> (III,i,61–7)

In the end it is Malvolio who becomes the fool – the Clown regards him as "mad", has him shut away in the dark, like a devil from Hell in the old miracle plays. The Clown has the last laugh and, like Malvolio, he ends with nothing – the other principals all get a prize of some sort but for these two only isolation remains. At the conclusion of Act V, all leave the stage except the Clown, who ends the drama with a song on the ages of Man, grounded in a metaphor of falling rain, another of those water images which recur throughout, though most of these have to do with the sea, with salt water, suggesting salt tears, the romantic joy in grief which shields the individual from a realisation of life's brevity. The Clown's final song states it plainly and tries to indicate that some purposeful pattern must surely underlie human action, though it is not given to us to know its true nature.

Reference has been made to affinities between **Twelfth Night** and **Hamlet.** These are numerous, not only in the atmosphere of melancholy with which both romantic plots are tinged but also in more precisely defined similarities of incident and expression. For example, Sir Andrew Aguecheek asks, in response to Sir Toby's "**Pourquoi**, my dear knight ?"

> What is **pourquoi ?** Do, or not do ? I would have
> bestowed that time in the tongues that I have
> in fencing, dancing and bear–baiting, O, had I
> but followed the arts;
>
> (I,iii,90–3)

a comic parallel with Hamlet's "To be, or not to be" soliloquy and his obsessive intellectualism. Again, there is Viola's comment, cited previously, on the liability of her sex to be deceived by handsome and deceitful men which, as we have remarked, suggests Hamlet's "Frailty, thy name is woman"complaint, though in

this case he is talking about Ophelia whereas Viola is thinking of Olivia whose love longings have to be regarded ironically by the audience, since they are based on a mistake.

The Duke's

> If ever thou shalt love,
> In the sweet pangs of it remember me :
>
> (II,iv,15–6)

is echoed by the Ghost of Hamlet's father on the battlements of Elsinore :

> If thou didst ever thy dear father love ..
> Revenge his foul and unnatural murder
>
> (**Hamlet**, I,v,23–5)

and the final "Adieu, adieu, adieu, remember me" before he vanishes.
Sebastian's soliloquy at the start of IV,iii on the question of whether he is mad or not recalls his earlier question :

> Or I am mad, or else this is a dream
>
> (**Twelfth Night**, IV,i,60)

and in this same scene Malvolio is imprisoned because he is thought to be mad. This theme of comic madness, induced by unaccountable happenings or errors in judgment is darkened in **Hamlet**, in which the question of whether the hero is actually mad or only "mad in craft" becomes central.

Again, the comic duel in III,iv of **Twelfth Night**, a parody on the battle between sexes, becomes a batle to the death in the final scene of **Hamlet**. In both comic and serious conflicts the action is controlled by irony–in the first the irony lies in the fact that Sir Andrew thinks he is fighting with a man, said by Sir Toby to be" a very devil", whereas his rival is really a girl, Viola. She, on her part, believes Sir Andrew to be, in Fabian's words, "the most skilful, bloody and fatal opposite that you could possible have found in any part of Illyria" (**sc.cit**, 27–3). In **Hamlet** the irony is tragic, since the duel seems to be sport to Hamlet, whereas for his adversary Laertes it is a killing–match.

But the most frequently–cited resemblance is that of Malvolio to Hamlet, though Malvolio is not a leader in the action of **Twelfth Night** and initiates nothing, being under orders all the time. Hamlet resists control and debates with himself as to the source of mastery of his own fate. So what is it that brings these two dissimilar characters together? What springs to mind most immediately is this imputed madness but whereas Malvolio is definitely not mad

and lands in prison as the result of a trick, Hamlet may be, at least part of the time, as he himself observes :

> I am but mad north–north–west; when the wind is
> southerly I know a hawk from a handsaw
>
> (II,ii,383–4)

and, equally detached, before the duel he makes formal apology to Laertes :

> That might your nature, honour and exception
> Roughly awake, I here proclaim was madness
>
> (V,ii,229–30)

from which it is possible to conclude that his "madness" was under the domination of reason except for brief moments of passion and was originally conceived as a device to help him gain his own ends. Malvolio cannot understand the reasons for his own predicament, and keeps asserting his sanity to the Clown, Feste,[21] who keeps baiting him :

> **Clown.** But tell me true, are you
> not mad indeed ? Or do you but counterfeit ?
> **Mal.** Believe me, I am not, I tell thee true.
>
> (IV,ii,117–9)

To suggest that Malvolio, puffed up with pride, can be "counterfeiting" is a mockery born of a deep dislike, amounting almost to hate, for that is what the Clown really feels for the man who described him to Olivia as "a barren rascal". The Clown is motivated by revenge and is eventually seen to get it, when he reiterates those same words as he reveals his part in the plot to the humiliated steward :

> I was one, sir, in this interlude, one Sir Topas,
> sir, but that's all one. 'By the Lord, fool, I am not
> mad. 'But do you remember, 'Madam, why laugh you at
> such a barren rascal, and you smile not, he's gagged' ?
> And thus the whirligig of time brings in his revenges,
>
> (V,i,37–6)

Malvolio's parting shot only serves to emphasise his impotence. It pulls him into the dramatic tradition of the revenger, but what form could this revenge take ? His record in the play does not suggest great skill at anything other than verbal exchanges and there he is outclassed by the Clown, Maria and even by Sir Toby. His threat, like himself stripped of his customary pomposity, is an empty one and Olivia's "He hath been most notoriously abus'd (378) is not entirely

sympathetic. The Duke's order to Fabian which follows is perfunctory. Malvolio at the last does not count for very much in the lady's court.[22]

Hamlet as a "revenger" is no last–minute threatener – although he may take his time to reach his objective, it is as the instrument of retribution that he is presented in the first Act.

> Haste me to know't, that I with wings
> as swift
> As meditation or the thoughts of love
> May sweep to my revenge
>
> **(ibid.,29–31)**

However, the Prince's opposite number in **Twelfth Night** is not so much Malvolio as the Clown, Feste, whose conduct and conclusion of his vendetta are resolute and for his victim, serious. Hamlet himself plays the clown when it suits him, and his fool's wit is a match for Polonius, Rosencrantz and Guildenstern and a puzzle to Claudius. Malvolio despises Feste and ridicules him together with his profession; in the end, the tables are completely turned and it is Malvolio who bears the ridicule, though Feste's triumph is sinister when it is finally revealed, .. clown or no clown, he is not a fellow to be insulted with impunity[23]. He is not present when Maria hatches her plot, so cannot be directly associated with the composition of the letter sent to Malvolio, though he is familiar with its content. However, he readily obeys her instruction to disguise himself in order to deceive the steward in prison. There he introduces himself as "Sir Topas the curate, who comes to visit Malvolio the lunatic" (IV,ii,22), calls the latter "madman" and pretends to humour him.

But **Twelfth Night** is essentially a romantic love–story and it is a problem of dramatic presentation as to how much buffoonery is to be given prominence. Malvolio's fall is mostly comic, since he is an insignificant personage in the first instance and only the Clown is more important in terms of critical interpretation. He stands as a witness to and commentator on the coming change, the inevitable concomitant of youth's fading, the thrusting–on of man's responsibilities and the weakening of romantic illusion, a recurrent process in the cycle which has been going on since the beginning of time.

NOTES

* All quotations and textual references to **Twelfth Night** relate to the Arden edition, ed.J.M. Lothian and T.W. Craik (2nd edn revised, London 1977).

1. cf. Geoffrey Bullough, ed., **Narrative and Dramatic Sources of Shakespeare** (London 1957–75 8 vols), II, 269 and see Arden edn., introd. xxvi **et seq.**
2. Printed 1607 but probably written at least five years earlier and thus not much later than **Twelfth Night.** See Arden edn., introd. xxxiii–v.
3. He wrote "Malvolio" on his copy of **Twelfth Night**
4. Or nearly always .. his comedies record a progress towards maturity, of which harmonious sexual relationship within marriage is considered a natural and desirable end – the antithesis of the "courtly love" ideal, which implied adultery.
5. No external evidence exists as to the date of its first composition and it is argued by musicologists and others that Shakespeare continued to revise the text until 1606. **Hamlet** was recorded by the Stationers on 26 July, 1602 but this was probably not the first version. The First Quarto represents the final version, dated 1603–4. (Summed up in Hardin Craig, **Shakespeare** (Glenview, Illinois 1958)707–8).
6. cf. **OED** (Revised edn. 1970), **strains** (X,1064 III,11/12); **fall** (IV, 36/10).
7. In line 9 the pulse of the verse quickens as blank verse takes over from the elegant conventional imagery which merely describes his feelings. He embodies tham in the metaphor of the sea to which he likens the spirit of love. (9–14) Compare Berowne's attitude to love in **Love's Labour's Lost.** It is for him a revitalising force, not an enervating one.
8. The fact that Viola's part was taken by a boy with voice unbroken must have strengthened the irony for the first audiences.
9. In the original version of the play, Viola sang **Come Away Death,** given to the Clown in a later revision : cf. F.W. Sternfeld, Shakespeare's **Use of Music** (London 1963 : 2nd impression revised 1967), 172–3.
10. **Cypress** – lawn, a fine linen or cotton fabric. Cypress branches were a symbol of mourning, so that the allusion here is doubled also.
11. Frederick Turner, **Shakespeare and the Nature of Time** (Oxford 1971), chapters 4 & 5 examines the implications of time in **Twelfth Night** and **Hamlet.**

12. cf. **OED**, IV,61,8B gives love, or amorous inclinations. The word was first used as a synonym for "imagination" and developed an independent meaning in the 18th century though a clear distinction was not drawn before Coleridge explained it in **Biographia Literaria** (1817)

13. M.C. Bradbrook points out that because she and her twin Sebastian are not of the same sex this has a different effect on the audience from that caused by the two sets of male twins in **The Comedy of Errors.** Note that Orsino continues to call her Cesario right to the end of the play (V,i,384). She has tried to copy and replace her lost brother. Like Rosalind in **As You Like It** she contrives in fantasy to woo Orsino but her adopted **persona,** Cesario, is real, unlike Rosalind's Ganymede who has no actual existence. Shakespeare was to repeat the double disguise device in **Cymbeline.** Cf. Bradbrook, **Shakespeare, the Poet in His World** (London 1978), 145–7.

14. "pity" is here used in the courtly sense of a mistress's mercy on her abject suitor, enslaved by his emotions and bound to obey her.

15. "time–pleaser" denotes Malvolio's obsession with his future status. He is never content with the present time so that "present laughter" is denied him.

16. The "cakes and ale" imagery suggests the holiday mood of which the Clown is an essential part and to which Malvolio is hostile (cf. Patrick Swinden, **An Introduction to Shakespeare's Comedies** (London 1973)). 132–4.

17. cf. **n.**16

18. One source of the comic in this play lies in the character of Malvolio, who illustrates the tendency of inflexibility collapsed to evoke laughter, as Bergson postulated in his **Essay on Laughter.** cf. Hobbes' theory that laughter is the result of a "sudden glory", related to a feeling of superiority, a notion which also became the basis of Hegel's speculations on the nature of the comic.

19. The more dignified Malvolio is made when he first enters at I, v,304, to which the impression of him as unpleasant to the disguised Viola when he "returns" Olivia's ring in II,ii is soon added, the more the audience is prepared for the eventual fall of this conceited underling, in V,i. His other appearances – when he berates Sir Toby and the others for making a nocturnal disturbance, his private remarks overheard **en cachette** in II,v, both before and after he has found the letter, – the absurd spectacle of him in yellow stockings, cross–gartered, smiling at his mistress, and his incarceration in prison – show him with his own dignity intact. The audience may share the amusement of the others all this time but it is only

when Malvolio himself learns from Olivia, Fabian and more harshly from the Clown that he has been "gulled" that his disintegration takes place. This occurs very rapidly so that the high and mighty is soon transformed into the abject. Malvolio is a shallow creature of props, precise speech, affected phrases and sober attire – all of which are eliminated at the end when, absurdly garbed, he can do no more than utter an impotent threat and take himself off from public gaze.

20. He is of the same stuff as Lear's Fool who sings a snatch of his cryptic final song (**King Lear,** III,iii,74)

21. The Clown's name is given only once in the play (II,iv,II), spoken by Curio, though the single reference has stuck and provides him with a more distinct personality.

22. How seriously the audience regards his threat may be largely a matter of the individual actor's interpretation. The part can so easily be played mainly "for laughs" and the mock–tragic effect thereby reduced or a note of real poignancy may be injected into Malvolio's final moments on the stage.

23. The essence of clowning is often thought of as teetering on the very edge of disaster rather than collapsing into ruins because of incompetence. But this Clown is not funny – his use of language is rapier–like, and suggests one facet of Hamlet.

Vegetation Changes in the Long Abandoned Farms In Qatar

By

Dr. Ahmed Abdalla Ahmed

Department of Geography

ABSTRACT:

An attempt was made in this study to investigate the changes that occur in vegetation cover in the totally abandoned farms in Qatar. An effort was also made to compare the vegetation communities found in the abandoned farms with those in the uncultivated "natural" depressions. The following hypothesis was formulated : In the long abandoned farms vegetation is gradually recovering to the original pre–cultivation communities due to the steady decrease in soil salinity. To test the above hypothesis soils and vegetation of both the uncultivated "natural" depressions and the long abandoned farms were sampled and analysed. Soil samples were taken for chemical analysis and their salinity content was determined. Empirical sampling methods of the vegetation were applied. Species frequency and density were calculated, while the degree of species similarity was estimated by Kulezynski's (1937) formula for comminity coefficient given by Oosting (1956). It was found out that following total farm abandonment, the vegetation communities start to recover in a rather slow process. This recovery procsess is caused and at the same time paralleled by a steady decrease in soil sllinity, as salts are washed away by rain water. Different vegetation communities as well as different species within the communities were found to be in different stages of recovery, i.e., secondary succession. Only few species from the origianal vegetation were encountered in some abandoned farms, while in the other end of the spectrum some totally abandoned farms have almost attained full recovery.

INTRODUCTION:

Most farms in Qatar are confined to surface depressions known as "Rohdat" or "Riyad". It is estimated that, out of the eight hundred and fifty (850) surface depressions, there were five hundred and seventy three (573) registered farms mostly in the north and north east of Qatar (FAO, 1981). It is agreed by several investigators (UNDP/FAO 1977, FAO 1981) that the origin of these depressions is due to subsurface solution of evaporites and subsequent collapse. Depressions receive runoff water in addition to water–borne and/or wind blown materials, thus giving rise to deep, fine–textured deposits. These are colluvial soils made up of calcareous loam, sandy loam and sandy clay loams which have accumulated to depths ranging from 30–150 cm. overlying limestone debris and bedrock (FAO, 1981).

In their natural conditions, depressions harbour denser vegetation compared to the surrounding areas. In his recent study, Batanouny (1981) found out that vegetation cover varies among the different depressions due to differences in soil characteristics. Usually in deeper depressions with water–borne, fine–textured deposits **Ziziphus nummularia** is dominant. In depressions with shallow surface deposits, **Z. nummularia** disappears and is replaced by **Acacia tortilis.** Where the sediments are fine–textured, compact an mainly water transported, **Acacia ehrenbergiana** dominates. Both **Acacia** species, however, often occur together in the same depression. The spiny shrub **Lycium shawii** occurs in nearly all depressions, while **Cymbopogon parkeri** is the dominanat perennial grass (Batanouny 1981).

These vegetation communities have been disturbed in as much as 70% of the country's depressions. Pre–cultivation indiscriminate cutting is usually practised. Few individual plants of certain species are, however, saved from cutting either for their shade or fruits. These are usually larger plants of **Acacia spp. and Ziziphus nummularia.**

However, due to unfavourable soil–water–plant relationships a large number of these farms are ultimately abandoned. The FAO experts consider only 228 out of the 573 registered farms as productive (FAO 1981). Moreover, they estimated that 5% of the arable land is going out of production each year as a result of soil salinization (FAO 1981).

This process of farm abandonment is a driect result of poor quality, saline or brakish water resulting from excessive pumping coupled with poor soil and water management. In recent years a substantial amount of research has been done in groundwater quality, irrigation problems and other problems related to agriculture particularly the problem of farm abandonment. Readers are directed to

look into Parker and Pike 1976, Parsher 1977, Hashim 1980, Pike 1980, Lloyd, Eccleston and Pike 1981, Halcrow–Balford 1981 and FAO 1981. These high quality professional reports and papers make impressive diagnosis to the farm abandonment problem. To start with these depression soils have poor water–holding capacity together with low organic content. Therefore, under cultivation these poor properties give rise to serious management problems. Surface crusting soon becomes a problem and interfers with the emergence of seedlings and creates unfavourable relationships. This situation is usually aggravated by the poor quality irrigation water due to excessive abstraction and the poor soil and water management. As the total dissolved solids in the irrigation water range from 1000 to 2000 mg/1 with a high salinity hazard and low to medium (alkali) hazard, there is usually a rapid build up of salts in the surface layers leading to reduced yields and eventual abandonment.

THE STUDY:

This study was stimulated by the recent study made by professor Batanouny (1981). In his study, Batanouny concludes that abandoned farms support plants different from the originally present before agriculture was practiced (Batanouny 1981). He (Batanouny 1981) further concludes that the change in vegetation depends on the reason of the failure of agriculture, e.g., due to salinization, lack of water or formation of hard pans.

In this study, however, the above conclusions are further extended. The vegetation communities on the long abandoned farms are thought to represent different stages of recovery. In other words the vegetation communities in the long abandoned farms represent different stages in the secondary succession.

The above additional ideas were built up during the several field visits undertaken by the author to some of the long abandoned farms in the years 1981 and 1982. During these field trips, it was noticed that the vegetation communities in the long abandoned farms share many species with the communities of the uncultivated "natural" depressions. Not only that, but the species associations are more or less the same.

Thus, the following hypothesis is formulated: Following total farm abandonment, salts are steadily washed away by rain water from the top soil and simultaneously the vegetation cover starts a gradual recovery process back to the original climatic climax. The present vegetation cover represent different stages in a secondary succession.

METHODS:

In order to test the above hypothesis soil and vegetation samples were studied on both the long abandoned farms and uncultiveted "natural" depressions. Sampling was preceded by field reconnaissance and a literature review aimed at determining the major trends in soil and vegetationalcomposition.

Basic information on the number and location of the long abandoned farms was obtained from the records of the Ministry of Industry and Agriculture of the State of Qatar. Here the long abandoned farms are those officially registered as abandoned for more than ten years. All information concerning the number and actual sites of the long abandoned farms has been double checked in the field. Eventually, the long abandoned farms were plotted on a map together with the currently cultivated and the uncultivated "natural" ones (Figure 1).

The above map (Figure 1) was used to select and locate samples. Samples were randomly selected using stratified techniques. Twenty five per cent of the long abandoned farms and an equal number of the uncultivated "natural" depressions were selected and studied. Both soil and vegetation on the long abandoned farms and the uncltivated depressions were sampled.

In each selected abandoned farm and uncultivated depression 5 x 5 m quadrates were located by random numbers and were used for soil and vegetation sampling. The number of quadrates was allocated in proportion to the farms or depression's area.

Samples of the top 25 cm were taken for chemical analysis. Within the quadrate the vegetation cover is described and plants present were counted and recorded by species. Nomenclature of species follow that of Batanouny (1981). The total data set for the vegetation analysis consisted of 48 quadrates. Included were 20 species of vascular plants (Appendix 1). Data were talublated as frequency and density for each species in both abandoned farms and uncultivated "natural" depressions. The degree of species similarity was estimated by Kulczynki's (1937) formula for community coefficient given by Oosting (1956).

RESULTS:

Soil salinity, expressed as electric conductivity in Mhos/cm at 25°C has been determined for all samples. As a general guide soils with values ranging from zero to 4 are considered to be free from salts, those with values from 4–8 as having medium salinity, 8–12 high slainity and those with values over 12 are considered hazardous. These limits are based on the finidings of the Ministry of Industry and Agriculture soil scientists*.

Only two of the long abandoned farms soil samples show medium salinity values, while the rest of the soil samples in the whole study show little or no salinity (Tables 1 and 2). These soil analysis results clearly demonstrate the basic fact that salts have been washed or in th process of being washed away from the long abandoned farm soils.

As for the vegetation cover, the natural depressions hold 16 out of the 20 encountered species, while the long abandoned farms hold only 11 species. The most frequent species in all area sampled are in the following order: **Lycium shawii, Ziziphus nummularia, Acacia tortilis, Zygophyllum quatarense, Cymbopogon parkeri, Stipa capensis and Capparis spinosa** (Table 3).

The long abandoned farms share seven species with the unclutivated "natural" depressions of which five species are among those having the highest mean frequencies claculated for all quadrates. These species are: **Acacia ehrenbergiana, A. tortils, Corchorus depressus, Cymbopogon parkeri, Lycium shawii, Stipa capensis and Ziziphus nummularia.** With the exception of **Corchorus depressus,** which grows in all types of loamy compact soils, all other six species are dominant and co–dominant plants in uncultivated "natural" depressions in Qatar, particularly in the center and the north of the peninsula (Batanouny 1981). They are also frequently encountered in association with one another, e.g., **Ziziphus nummularia and Lycium shawii** (Table 4 and 5).

On the other hand, there are frequently encountered species in the uncultivated "natural" depressions and they are rare or absent in the long abandoned farms and vice versa. For instance, the aromatic perennial grass **Cymbopogon parkeri** is a frequent plant in uncultivated "natural" depressions while it is rarely encountered in the long abandoned farms. On the other hand the cultivated plant **Phoenix dactylifera** is only confined to the long abandoned farms.

---

* Personal conversation with the Ministry of Industry and Agriculture soil scientists.

In general, nine species out of the twenty encountered are only found in natural depressions, though some are in vey low densities (Table 4). These are six shrubs and undershrubs and three herbaceous plants. The shrubby plants are : **Capparis spinosa, Ephedra foliata, Francoeuria crispa, Heliotropium subsp. tuberculosum, Ochradenus baccatus and Salvia aegyptiaca.** The three herbs are : **Anagallis arvensis, Aizoon canariense and Herniaris hemistemon.** With the exception of the shrub **Francoeuria crispa,** which grows in fine textured soils wherever water accumulates and the herb **Herniaria hemistemon,** which is a widespread plant in Qatar on compact and gravelly soils, all other species are common on the alluvial soils in depressions in northern and central Qatar (Batanouny 1981).

Only four species are however found to be confined to the long abandoned farms. These are **Phoenix dactylifera Salsola baryosma, Schanginia aegyptiaca and Zygophyllum quatarense.**

The vegetation covers on both the long abandoned farms and the uncultivated "natural" depressions are found to be very similar, i.e., the community coefficient for all samples is 70. Community coefficients calculated for each pair of a long abandoned farm and an uncultivated "natural" depression are found to range between 22.2 and 84.6.

DISCUSSION:

As mentioned above the process of farm abandonment is directly related to the poor quality groundwater due to excessive abstraction and/or inefficient irrigation methods which degrade the soil through excessive salinization . It is also mentiond above that this study was confined to the farms which have long been abandoned.

The chemical analyses of the soil samples show that the salinity content have decreased steadily as salts are annually washed by rain water. In fact the chemical analyses of most samples taken from long abandoned farms, show that there is little or no difference between the soils in the long abandoned farms and those in the uncultivated "natural" depressions especially in their salt content (Tables 1 and 2).

Thus, as a direct result of this decreasing soil salinity the vegetation cover on the long abandoned farms is found to be fairly similar to that on the nearby natural depressions, the community coefficient being 70. Not only the vegetation cover is similar, but the frequently encountered species in both the abandoned farms and the uncultivated depressions are usually common associates. For instance, the five most frequent species which are also common

associates are : (ordered according to their frequent presence) **Lycium shawii, Ziziphus nummularia, Acacia tortilis, Cymbopogon parkeri and Stipa capensis.**

However, the major differences in vegetation cover between the long abandoned farms and the uncultivated depressions are in species frequencies and densities and in the percent of vegetation cover (Tables 4 and 5). The general picture in the long abandoned farms is of widely scattered trees and bushlets. In other words, the vegetation cover on the abandoned farms is far less dense compared to that on the uncultivated "natural" depressions (Tables 4 and 5). The individual plant species are less frequent in the long abandoned farms, while the vegetation percent cover is far less (Tables 4 and 5). The percentage of bare ground calculated for all quadrates sampled in the long abandoned farms is 49.6 %, while it is only 28 % in the uncultivated "natural" depressions.

Moreover, nine out of the twenty species encountered in all quadrates are confined to the uncultivated "natural" depressions, while four other species are only found in the long abandoned farms.

Although the number of dissimilar species is high, it does not give any indication to major changes in the vegetation composition on the long abandoned farms. That is because four out of the nine species confined to the uncultivated "natural" depressions are not particularly among the important constituents although they are quite common in shallow depressions. These are the two shrubs **Francoeuria crispa and Heliotropium bacciferum** and the two herbs **Aizoon canariense and Herniavia hemistemon.** Another three of the nine species confined to the uncultivated depressions are more or less related if not dependent in their growth on either the microhabitat developed by members of the climatic climax community or are physically supported by these members. This close relationship between certain species probably explains why some of the common species are still absent from the long abandoned farms. For instance, the woody climber **Ephedra foliata** is often encountered in the uncultivated "natural" depressions ascending in **Ziziphus nummularia** bushes, while species like **Ochradenus baccatus** also grow protected by the dense growth of **Ziziphus nummularia. A third example is Anagallis arvensis** which usually grows in the shade of **Acacia** trees (Batanouny 1981).

The above mentioned major associates in the climatic climax community, of the uncultivated "natural" depressions i.e., **Acacia spp.** and **Ziziphus nummularia,** though are frequently encountered in the long abandoned farms, are still young shrubs and have not yet developed the right microhabitat for closely associated species.

The remaining two shrubs which are not encountered in the long abandoned farms are **Capparis spinosa snd Salvia aegyptiaca.** There are two possible exlpanations for the absence of these two species from the long abandoned farms while they are usually common in uncultivated "natural" depressions. The first one is probably that they haven't got enough time to reestablish themselves in the long abandoned farms and the second explanation is that they might have simply missed the sample quadrates.

On the other hand, the four species which are only confined to the long abandoned farms and absent from uncultivated "natural" depressions are: **Phoenix dactylifera, Salsola baryosma, Schanginia aegyptiaca** and **Zygophyllum quatarense.** The date plams are the major and usually the only conspicuous remnants of the cultivation era. **Salsola baryosma and Schanginia aegyptiaca** are representative of the very early abandonment stages as they usually common on fallowlands and salinized cultivated lands (Batanouny 1981). Another possible explanation is that; these two species have low frequencies therefore they might not be true representatives of the vegetation and they might have just been picked up by the sampling methods. A third possible explanation is that; the vegetation on certain sectors of some of the long abandoned farms might possibly be stranded in the very early recovery stages due to high soil salinity resulting from minor topographical differences. This last explanation could also be used to explain the presence of **Zygophyllum quatarense** only in the very early stages of the secondary succession though it is the most frequently encountered species in all area sampled in the long abandoned farms. **Zygophyllum quatarense** dominates the early recovery stages because it is a common plant in slightly saline habitats (Batanouny 1981).

CONCLUSIONS:

The above discussion clearly demonstrates that whatever the original reason of farm abandonment might be, given enough time the vegetation cover ultimately recovers and becomes quite similar to that on the uncultivated "natural" depressions. The steady decrease in soil salinity in the long abandoned farms appears to be the prime factor enhancing change and development in vegetation cover. However, due to different reasons of the failure of agriculture and different histories of abandonment, each single long abandoned farm is unique in the sense that it is in one vegetation recovery stage or another or, as it is often the case, it desplays a mosaic of different successional stages.

REFERENCES

Batanouny K.H. (1981) **Ecology and Flora of Qatar.** Alden Press Ltd., Oxford 245 pp.

FAO (1981) **Qatar – The water Resources of Qatar and their Development :** Vol. I Technical Report No. 5, FAO–DOHA.

Halcrow–Balfour Ltd. (1981) **Master water Resources and Agricultural Development Plan.** Doha, Qatar.

Hashim, M. A. (1980) **Water Resources Utilization in Qatar–Problems and Solutions.** Unpublished Report–Ministry of Industry and Agriculture.

Kulcyzynski, S (1972) Zespollo roslin W Pieninach. Die Pflanzenassoxiationen der pieninen.
Polon. Acad. des Sci. et Letter, Cl. des Sci. Math. et Nat. Bull. Internatl. ser B (Suppl. II) : 25–203.

Lloyd, J. W., B.L. Eccleston and J. G. Pike (1981) **The Hydrochemistry of the Groundwaters of Qatar.** FAO Project Technical Note No. 14 (NS) Doha, Qatar.

Oosting, H.J. (1965) **The Study of Plant Communities – An Introduction to Plant Ecology.** W.H. Freeman Company. San Francisco.

Parker, D. H. and J.G. Pike (1976) **Groundwater Resources of Qatar and their Development** FAO Project Technical Note No. 34, Doha Qatar.

Pike, J.G. (1980) "Water Resources and Agriculture in Qatar". **Arabian Studies** Vol. V Centre for M.E. Studies, Cambridge University.

Prasher, C.R.K. (1977) **Water Management and Irrigation Methods in Qatar.** FAO Technical Note No. 43, Doha, Qatar.

UNDP/FAO (1977) **Water Resources and their Development.** Technical Report No. 1.

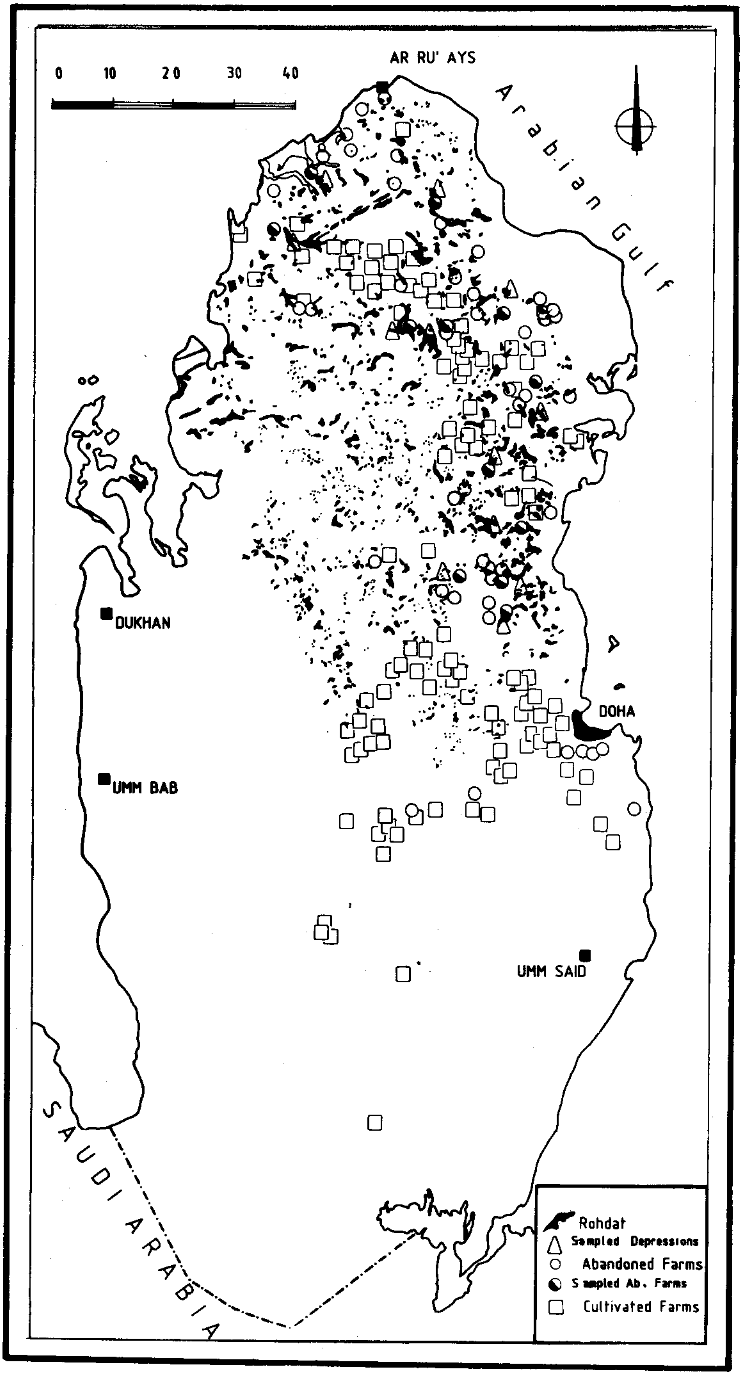


Figure Captions

Figure 1 A map showing the distribution of abandoned farms, uncultivated "natural" depressions and cultivated farms. Notice the location of samples.

Sample Number		PH	E.C	Organic Matter %
1	Sample No 1	8.06	1.15	0.40
2	Sample No 2	7.98	1.55	0.76
3	Sample No 3	7.80	3.52	0.20
4	Sample No 4	8.03	1.70	0.62
5	Sample No 5	7.86	2.10	0.62
6	Sample No 6	7.96	2.40	0.73
7	Sample No 7	7.88	2.60	0.76
8	Sample No 8	7.50	5.45	0.90
9	Sample No 9	7.84	4.50	1.73
10	Sample No 10	8.23	0.60	0.45
11	Sample No 11	7.92	1.70	0.93
12	Sample No 12	8.02	1.90	0.90

E C = Mhos/cm 25°C

Table 1 Analysis results of soil samples taken from abandoned farms showing PH, organic matter and soil salinity expressed as Electrical Conductivity (EC in Mhos/cm at 25°C)

Sample Number		PH	EC	Organic Matter %
1	Sample No 1	7.14	0.50	0.74
2	Sample No 2	8.32	1.10	0.31
3	Sample No 3	8.03	0.70	0.94
4	Sample No 4	7.84	1.80	0.79
5	Sample No 5	7.02	2.10	0.45
6	Sample No 6	8.02	1.14	0.67
7	Sample No 7	7.81	1.40	0.40
8	Sample No 8	7.71	1.70	0.42
9	Sample No 9	7.95	1.90	0.98
10	Sample No 10	8.02	1.55	0.90
11	Sample No 11	8.08	1.15	0.64
12	Sample No 12	7.19	1.70	0.64

E C = M hos/cm 25°C

Table 2 Analysis results of the soil samples taken from uncultivated "natural" depressions showing PH, organic matter and soil salinity expressed as Electrical Conductivity (EC in Mhos/cm at 25°C).

Plant Species	Mean Frequency %
Acacia ehrenbergiana	3.2
Acacia tortilis	6
Aizoon canariense	0.4
Anagallis arvensis	2.4
Capparis spinosa	4.4
Corchorus depressus	3.2
Cymbopogon parkeri	5.2
Ephedra foliata	0.4
Francoeuria crispa	0.8
Heliotropium bacciferum subs. tuberculosm	0.4
Herniaria hemistemon	0.4
Lycium shawii	7.6
Ochradenus baccatus	0.8
Phoenix dactylifera	0.4
Salsola barysoma	0.4
Salvia aegyptiaca	4
Schanginia aegyptiaca	0.4
Stipa capensis	5.2
Ziziphus nummularia	6.4
Zygophyllum quatarense	6
Bare ground	41.2

Table 3 Individual species mean frequencies in percent total metres sampled.

Individual Plant Species	Frequenceis %	Densities %
Acacia ehrenbergiana	4.8	1.6
Acacia tortilis	10.4	9.6
Aizoon canariense	0.8	1.6
Anagallis arvensis	4.8	6.4
Capparis spinosa	8.8	10.4
Corchorus depressus	3.2	4.8
Cymbopogon parkeri	9.6	12.8
Ephedra foliata	0.8	0.8
Francoeuria crispa	1.6	4.0
Heliotropium bacciferum subsp. tuberculosm	0.8	0.8
Herniaria hemistemon	0.8	0.8
Lycium shawii	9.6	8.0
Ochradenus baccatus	0.8	1.6
Salvia aegyptiaca	4.8	4.0
Stipa capensis	0.8	0.8
Ziziphus nummularia	11.2	9.6
Bare ground	26.4	

Table 4 Individual species frequencies and densities on abandoned farms.

Individual Plant Species	Frequencies %	Densities %
Acacia ehrenbergiana	3.2	1.6
Acacia tortilis	5.0	3.2
Corchorus depressus	3.2	3.2
Cymbopogon parkeri	1.6	3.2
Lycium shawii	5.6	5.6
Phoenix dactylifera	1.6	1.6
Salsola baryosma	0.8	0.8
Schanginia aegyptiaca	0.8	0.8
Stipa Capensis	7.2	19.2
Ziziphus nummularia	6.4	2.4
Zygophyllum quatarense	12.0	26.4
Bare ground	52.6	

Table 5 Individual species frequencies and densities on uncultivated "natural" depressions.

Species list :

Acacia ehrenbergiana
Acacia tortilis
Aizoon canariense
Anagallis arvensis
Capparis spinosa
Corchorus depressus
Cymbopogon parkeri
Ephedra foliata
Francoeuria crispa
Heliotropium bacciferum subsp. tuberculosm
Herniaria hemistemon
Lycium shawii
Ochradenus baccatus
Phoenix dactylifera
Salsola barysoma
Salvia aegyptiaca
Schanginia aegyptiaca
Stipa capensis
Ziziphus nummularia
Zygophyllum quatarense

Appendix 1

LIVES OF DICKENS

by

Neil McEwan

Dickens's admirers place him with Shakespeare, although sometimes grudgingly: 'I maintain it – – a little Shakespeare:' wrote Edward Fitzgerald in 1879, 'a Cockney Shakespeare, if you will: but as distinct, if not so great, a piece of pure Genius as was born in Stratford'.[1] Edmund Wilson, writing in 1941, was less condescending (and less snobbish): Dickens was the greatest dramatic writer that the English had had since Shakespeare, and he created the largest and most varied world'.[2] The placing offers endless scope for comparing and contrasting, which can be useful: George Gissing is still readable on Mrs Gamp in relation to Juliet's nurse.[3] Dickens, obviously, enjoyed one advantage. His rereading of Shakespeare in 1842 influenced his subsequent books.[4] One striking difference appears in how much we know about Dickens. Work continues on the great 'Pilgrim' edition of his letters, which was begun by Humphry House in 1949. The discovery of a single Shakespeare letter would make a stir in the world; nothing survives that is known to be in his handwriting.[5] Accounts of Shakespeare's life are mostly conjecture. A biographer of Dickens is almost overwhelmed with material. Edgar Johnson's **Charles Dickens: His Tragedy and Triumph**, the standard modern biography,[6] tells a full and well authenticated story. Perhaps we ought not to want to know more of Dickens's private life than is known at present.

Benjamin Jowett's sermon at Dickens's funeral made a plea for the artist's right to privacy:

> I am not going to attempt to draw a portrait of him. Men of genius are different from what we suppose them to be; they have greater pleasures and greater pains, and greater temptations than the generality of mankind, and they can never be altogether understood by their fellow–men. We do not wish to intrude upon them, or analyse their lives and characters. They are extraordinary persons, and we cannot prescribe to them what they should be. But we feel that a light has gone out, the world is darker to us when they depart. There are so very few of them that we cannot afford to lose them one by one and we look vainly round for others who may supply their places.[7]

There is a certain irony in this, for Jowett was preaching at the state funeral which was conducted for Dickens at Westminster Abbey, contrary to Dickens's known wishes: public men are in a sense public property once they are dead. As a churchman Jowett was anxious to quieten rumours about the novelist's liaison with Ellen Ternan. As Master of Balliol he was possibly thinking of the freakish and irregular life of his former pupil A.C.Swinburne who was at the height of his genius and troublesomeness in 1870. The passage is a nice example of how Romantic respect for artistic genius could conflict with Victorian decorum. Jowett's is the voice of the Oxford of his time: although we revere great men for their achievements, the lives of Shelley, Swinburne, even Samuel Johnson, will not bear too much public scrutiny. Cultured opinion in England today has almost reversed these values. Any findings of research which are in any way detrimental to a great writer of the past are published at once and discussed in detail in the literary press. T. S. Eliot was obliged to take legal action to prevent the publication in **Essays in Criticism** of an article concerning his private life which he held to be libellous. Other living writers, in more need of publicity, tend to advertise their weaknesses. While Jowett could appeal to the special status due to genius, to justify discretion, we are more inclined to intrude upon genius out of disrespect for privilege. Although Shakespeare is relatively safe from the intrusions of literary historians, historical fiction attributes to him an extraordinary variety of vices -- most entertainingly and learnedly in Anthony Burgess's **Nothing Like the Sun.**[8] We seem to need to be assured that men of genius are as human as ourselves, and that they can be 'understood by their fellow-men'. But if we are right to investigate their lives exhaustively, we are wrong if we think that we understand that aspect of them which is the only reason for our curiosity, their talent. Where this is concerned Jowett is right, for we do not understand what genius is, and biography at its most frank, or scientific, is very little help.

Jowett and his contemporaries took for granted certain assumptions about genius, the first of which was that the word says something. They took genius to be different in kind from talent or ability; talent pleased by performing well what was expected; genius astonished. Genius was unconscious, as Hazlitt argued.[9] Genius was both a joy and an ordeal for its possessor. 'Genius always pays for the gift', said Henry James.[10] Genius was akin to madness. None of these thoughts was new. All are as old as belief in divine possession of the artist. Aristotle said that no great writer 'has ever been without some madness'.[11] But the nineteenth century gave them a Romantic aura, and often abused them. Mystic bardolatry got in the way of what research could show about Shakespeare. The concept has continued to intrigue. T.S.Eliot declared that 'sensibility alters from generation to generation in everybody, whether we will or no, but expression is only altered by a man of genius'.[12] W.H.Auden thought that 'geniuses are the luckiest of mortals because what they must do is the same as what they most want to do'.[13] His geniuses, then, are still possessed.

All this is superstition to many modern minds. 'Better beware of notions like genius and inspiration,' wrote Ortega y Gasset, 'they are a sort of magic wand and should be used sparingly by anybody who wants to see things clearly'.[14] Roland Barthes argued that genius and all other claims for authorial authority are 'myths' since all interpretations of a text are equally valid and cannot be limited by reference to the author.[15] Philippe Sollers argued that an author does not 'write' but 'is written' by his society. In the English–speaking world Frank Kermode has recently suggested that since language is 'not transparent on reality', there is no distinction to be made (or very little) between fact and interpretation, or between history and fiction: Dickens's novels are one body of fiction; biographies of Dickens are another.[16] Such views have in common a wish to oust the author from critical attention, and especially to deny the author's active creative power. He can be said to be irrelevant because his composing of the work has nothing to do with our readings of it; or he can be rendered the passive agent of social forces. Nothing individual is allowed to come between society and the reader.

That tendency ends in a complete subjectivism where where nothing is more worth saying than anything else. It may have some merit in making us think again about the beliefs on which objective criticism and critical biography stand. Ours is a period of distinguished literary biography, in scholarship, as in Leon Edel's **Life of Henry James,**[17] and in creative reconstruction, as in Angus Wilson's **The Strange Ride of Rudyard Kipling.**[18] We are by no means short of writers willing to explain the work by reference to the life, undeterred, and often unaware, of semiological objections to their whole enterprise. But the empiricists share with their opponents, very often, a disregard for what remains inexplicable in Shakespeare or in Dickens when all possible explanations have been offered. The social, cultural and psychological influences are illuminating. It is good to see how the writer developed within his own time and his own personality. But why is it that we feel we know Dickens and Shakespeare while Ainsworth and Decker, if we can read through them, dated as they now seem, are strangers. 'Men seem to have lost, not a great writer only, but one whom they had personally known', Jowett ended his sermon. It is still true. How is it that while a lesser talent neatly fits what we know of his social cicumstances and personal make–up, of his education and reading, Dickens astounds us? If that difference of quality is a mere extra, so that had he had less genius Dickens would be much the same but less compelling, then our analytical biographies are fully justified. But if it is the **sine qua non,** the product of his daemon, without which he would not have written, then there is a disappointment even in Edgar Johnson's fine book, and it is possible to feel that the Barthesian' disbelief in his kind of analytical cause and effect may be wholesome without wishing to substitute Barthes for Johnson. Attempts to explain genius, rather than to illustrate through biography the forms it took, may end be diminishing the achievement they seek to proclaim.

Dickens is an even more special case, given the extent of the biographical evidence, and the quality of his gift, because of the document, known to Dickensians as the **Autobiographical Fragment (A.F.)**, which has always seemed to be the key to understanding the man and his work. The aim of the next few pages is to look again at the use which has been made of this piece of evidence, and to argue that it has often been a distraction rather than an illumination because of a misconceived desire to **explain**; to neglect the glaring fact of Dickens's genius, and, in Ortega y Gasset's phrase, 'to see things clearly' where they are not yet clear at all.

> No words can express the secret agony of my soul as I sunk into this companionship; compared these everyday associates with those of my happier childhood; and felt my early hopes of growing up to be a learned and distinguished man crushed in my breast. The deep remembrance of the sense I had of being utterly neglected and hopeless; of the shame I felt in my position; of the misery it was to my young heart to believe that, day by day, what I have learned and thought, and delighted in, and raised my fancy and my emulation up by, was passing away from me never to be brought back any more, cannot be written. My whole nature was so penetrated with the grief and humiliation of such considerations, that even now, famous and caressed and happy, I often forget in my dreams that I have a dear wife and children; even that I am a man; and wander desolately back to that time of my life.

The circumstances of Dickens's trauma can be simply summarised. He reached his twelfth birthday on 7 February 1824, unusually intelligent, good at his studies, and full of ambition to become 'a great man'. His father John Dickens, an improvident and pretentious clerk in the Navy Pay Office, had encouraged him to think of himself as a young gentleman. Bankrupt and about to be seized for debt, John Dickens was obliged to tell his son that he must go out to work. Two days after his birthday Charles started at Warren's Blacking Warehouse, between the Strand and Hungerford Stairs, wrapping and labelling pots of boot–blacking for twelve hours a day at six shillings a week. On 20 February his father was arrested and three days later was imprisoned in the Marshalsea. (He announced to his family that the sun had gone down on him for ever.) The furniture at the house the Dickenses were renting in Gower Street was taken by the court or sent to the pawnbrokers, but Mrs Dickens camped there until 21 March 1824 when the lease expired and she went with her younger children to join her husband in the Marshalsea. Charles went into the cheapest possible lodgings and visited the family in the evenings at the prison. Meanwhile he grew deft at his job and was set to work in the window to amuse passers–by with his skill. His title among his fellow–workers, 'the young gentleman', grew increasingly ironic, and his situation painful to him. In one most 'Dickensian' incident he was summoned to have his

clothes priced by an official of the debtors' court, because the family of an insolvent was allowed to retain only minimal possessions. An improvement in John Dickens's finances secured his release on 29 May 1824 and Charles was released soon afterwards, after about four months of labour. He was then sent to school on his father's insistence, but 'I never afterwards forgot, I never shall forget, I never can forget, that may mother was warm for my being sent back' **(A.F.)**.

Dickens's account gives no dates and no indication of the length of his drudgery. He could not remember, 'whether for a year, or much more, or less'. Those who believe that all history is fiction might urge that, hazy in memory, Dickens fictionalised his past; that the once cheerful young blacker at last made a character of himself in an image familiar and moving to his readers, so that the work produced the 'life'. But there is no reason to doubt the truth of the Fragment. The point at which the tense slips into present perfect as the writer remembers ('what I have learned') is telling. And the time at the Warehouse would have seemed endless. It is not surprising that Dickens never researched this period of his life; he could not bear to think about it. 'From that hour until this at which I write, no word of that part of my childhood which I have now gladly brought to a close has passed my lips to any human being ... ... my own wife not excepted' **(A.F.)**. A few words had passed to his friend John Forster who published the Fragment in his **Life** in 1872, to the astonishment of Dickens's family. These forty years of silence about events so crucial to the development of the man and the novelist, encourage the determinist inclination in critics since our age believes that the trauma which is suppressed is the most powerful. The Fragment does supply strong evidence that the Warehouse was decisive for Dickens. 'No emphasis', says Edgar Johnson, 'can overstate the depth and intensity with which these experiences ate into his childish soul'.[19] Dickens was haunted by these memories in spite of himself. He had sat after work in a coffee room brooding on the words reversed through the glass of the door: MOOR–EEFFOC. Whenever afterwards he noticed the same effect he felt 'a shock through my blood'. For years he avoided the scenes of his 'servitude'.

> Until old Hungerford Market was pulled down, until old Hungerford Stairs were destroyed, and the very nature of the ground changed, I never had the courage to go back to the place where my servitude began. I never saw it. it. I could not endure to go near it. For many years, when I came to Robert Warren's in the Strand, I crossed over to the opposite side of the way, to avoid a certain smell of the cement they put upon the blacking–corks, which reminded me of what I was once. It was a very long time before I liked to go up Chandos Street. My old way home by the Borough made me cry, after my eldest child could speak. **(A.F.)**.

Here is proof of a deep social shame in one who, as a friend reported, 'knew it all [London] from Bow to Brentford',[20] and delighted in all of it. So here is David Copperfield. It is because this evidence is so startlingly relevant to the books, and so amenable to formulaic reductions of Dickens's Shakespearian gifts to 'because of the Blacking Warehouse he...', that one can sometimes wish that Dickens had kept quiet to the end.

The obvious points were made at once, in reviews of Forster's **Life**, and they have been reiterated ever since. The first is that Warren's 'gave' or 'taught' the novelist his sympathy with the poor and outcast. He had been poor and had felt himself outcast more intensely than those accustomed to deprivation. Hence Oliver, Smike and Jo the crossing–sweeper;[21] hence Magwitch and other good–hearted varmints to whom life was harsh in childhood. But 'hence' ought not to be facile, in justice to Dickens and to the facts of life. Matthew Arnold reflected that Murdstone in **David Copperfield** is 'the natural product' of the appalling school, Salem House, to which he consigns David. Bad schools, according to Arnold, naturally produced the type of hard Englishman whom the Irish so rightly disliked. On this view of how environment conditions character, the Warehouse, followed by a bad school of the Salem House kind, would naturally have made the adult Dickens a harder man than Murdstone, perhaps a master of warehouses, indifferent to the poor. There are signs that he grew up charitable in spite of Warren's. He tells us, a detail which helps to validate the Fragment, that the warehouse–lad who befriended him was called Bob Fagin. When he chose a name for the villainous fence who tries to make a pickpocket of Oliver Twist, he was prompted, it seems, by an old resentment. The 'young gentleman' could not belong in the Warehouse, ought not to be made at home there. For some critics this betrays hypocrisy: the suffering was **bourgeois**, and 'produced' the bourgeois happy endings which so depressed George Orwell. Oliver is received back into the middle–class, far from Fagin and his kind, at the end of the story. The borrowed name has led to much critical sarcasm on predictable grounds: championship of the poor was humbug; Dickens really feared and hated the poor. 'He had ridden to glory on the shillings of a public which may very well have included Bob Fagin.'[23] If we consider Boz ten years after he knew Fagin, it is plain that he still meant to be a great man as soon as possible, and not a potlabeller, and equally plain that his boyish aversion to low companionship had vanished from his journalistic instincts, from his habit of exploring London from Bow to Brentford, from his politics, and above all from his imagination. In contrast to the 'Yellowplush' whimsy which Thackeray was selling to the papers in the middle thirties, Boz is remarkably free of snobbishness even by modern standards. He shrank from Hungerford Stairs and from MOOR–EEFFOC, but not from the urchins who must have recalled how he had lounged hungry in the streets. Why not? Instead we have the Dodger and Charlie Bates and, suitably genteelised, Oliver Twist. There are many sketches of

pickpockets in the newspapers of the time, written by men now forgotten.[24] It was Dickens who reworked his own such sketches from the waif's point of view. Plainly his experience was behind it, but not in any way we can know. 'The heart' was one of the surest terms for Dickens and for most Victorians. Boz had a good head and a good heart, and he may have had both before he had ever thought much about blacking.

The creative energy, artistic discipline and very hard work which were inseparable from Dickens's genius are supposed to derive from the same source as his largeness of sympathy. The Blacking Warehouse was 'formative', says Edgar Johnson, in 'steeling' Dickens's resolve never to risk another approach to the social abyss.[25] It showed him, in his father, what indolence and recklessness could bring about, and scared him into a lifetime of hard endeavour. If he was enslaved at Warren's, he was ever afterwards 'to work like a slave', in Orwell's phrase,[26] as a result. Twelve hours a day of menial work, carried on for months against a background of family castastrophe, followed by an adolescence of relative comfort, would have made a wastrel of many people -- which leaves us with the question of what Dickens was like in January 1824. We know. He was keen, bright and very ambitious. Perhaps Edgar Johnson's cause and effect could be reversed. It was because his lifelong drive to succeed was already present that young Charles was traumatised by the waste of time at Warren's. The Fragment says so. His misery was chiefly in the loss of what he had 'learned, and thought, and delighted in, and raised my fancy and emulation up by'. He did not become dedicated because he had been wretched; he was so wretched because his dedication was already alive in him. Of course there is some connection between memories of the Marshalsea and the urge to make money which shows in all the novelist's business dealings, although Thackeray who grew up rich was equally keen to be rich in later life, as were most able Victorians. We cannot know where Dickens found his colossal energy, but we should object to an equation which makes it look automatic. Dickens felt himself driven by his talent. 'I hold my inventive capacity on the stern condition that it must master my whole life, often have complete possession of me, make its own demands upon me, sometimes for months together put everything else away from me... Whoever is devoted to an Art must be content to deliver himself wholly up to it, and to find his recompense in it.'[27] This was not a public declaration, but an admission, into which he had been goaded, made in reply to an overinsistent hostess. He was shy of such admissions which touched on personal pride. Certainly the recompense was enormous. Dickens richly enjoyed his talent. Trollope's tribute in **St Paul's** for July 1870 describes him as he appeared in his last weeks: 'whatever he did seemed to come from him easily, as though he delighted in the doing of it... above all, he laughed like a man in the full vigour of his life'. The ease and freedom in this impression belie the routine accounts of how drudgery in the Warehouse steeled a determination to succeed.

'To hear him speak', Trollope continued, was to wish to be a speaker oneself, because the thing, when properly managed, could evidently by done so easily, so pleasantly, with such gratification not only to all hearers but to oneself.' There was something alive in Dickens for which present–day criticism lacks terminology. In looking for simple explanations, we often belittle him.

Much modern commentary has sought to make the novels critically manageable by emphasising themes which recur throughout. Most creative writers, including Shakespeare, treat their own earlier work as a principal source, reworking certain scenes and relationships as their art develops. Dickens's preoccupations – – with money, with fathers, with prisons, with childhood, with food – – have been explored in a number of good studies. A.O.J.Cockshut's **The Imagination of Charles Dickens** is one of the best to adopt this approach.[28] It has become another routine assumption, as a result, that the scope of Dickens's art was ruled by the 'formative' months at at Warren's where the major 'preoccupations' (or, more crudely, 'obsessions' or 'fixations') arose. Introducing **A Tale of Two Cities** for the Penguin English Library, George Woodcock, for example, writes:

> The novel begins and ends with the opening of prison doors, even it, for Carton, they open only death.
>
> There is no need to search deeply for the source of this preoccupation. Dickens bore as a deep emotional scar the memory of his father's detention for debt in the Marshalsea prison. It was a wound to his childhood pride which he never forgave society, and never forgave his father, for he linked it with the fecklessness with which John Dickens allowed his son, educated for better things, to spend the most wretched months of his childhood working in Warren's blacking factory. The looming memory of the prison experienced in childhood never left Dickens, and from **Pickwich Papers** to **Great Expectations** his novels contain prisons and fathers or father substitutes immured in them. **In A Tale of Two Cities** the imprisoned father appears in dual guise: as Dr. Manette at the beginning, and as Darnay (the father of little Lucie) at the end. In a hidden way each imprisoned father is also a delinquent father...[29]

The business of Dickens criticism, it might well seem to students reading such a passage, is to link the novels to the time of the Warehouse, to show how Dickens rewrote his own little private story in various guises, sometimes concealing fathers in father substitutes, or making them delinquent 'in hidden ways'. 'Dickens's second preoccupation', George Woodcock continues, 'is the obsession – – the word is hardly too strong – – with destructive violence', and especially with the mob whose rage, like the author's has been long suppressed,

so that 'in one self he is there, dancing among them, destroying prisons and taking revenge for the injustices of childhood'. Explication which grows so routine becomes dull. When it seems to set the critic above the creative writer, it is irksome. Dickens is massively creative; the critic, here, is nigglingly small. Again one comes close to wishing that we knew as little of Dickens as we know of Shakespeare.

We should not wish it. Edgar Johnson is right to say that Dickens is himself a Dickens character, and one of the most fascinating. Nor can we read the sixth chapter of **Little Dorrit**, 'The Father of the Marshalsea', without remembering what 'father' and 'Marshalsea' meant to Dickens -- in each case something far more complex than suppressed rage. We cannot read **David Copperfield** without thinking of Warren's, and wondering just what it meant to Dickens to say that David was his 'favourite child'. Listening to Pip in **Great Expectations** on the keenness of a child's sense of injustice, or to Nancy in **Oliver Twist** ('the cold wet dirty streets are my home'), we are bound to recall the Autobiographical Fragment:

> I know that, but for the mercy of God, I might easily have been, for any care that was taken of me, a little robber or a little vagabond.

Wonder is the proper response -- that Dickens was **not** imprisoned by his past but released from it into 'the largest and most varied [created] world' since Shakespeare's.

The meanest of all the attempts to belittle a great talent first appeared in a review of Forster's **Life**:

> Charles Dickens, having crushed into his childish experience a whole world of sorrow and humorous insight, so loaded his soul that he never grew any older. He was a great, grown-up, dreamy, impulsive child, just as much a child as little Paul Dombey or little David Copperfield. He saw all from a child's point of view -- strange, odd, queer, puzzling... Never perhaps, has a fragment of biography wakened more interest or amazement than the first chapters of Mr Forster's biography...[30]

This is more damaging because it is partly true. Dickens could, better than any writer before him, represent a child's consciousness of the world. But the distortion of 'just as much a child' has offered a false clue to all who have written apologetically about Dickens -- who have found him unintellectual, politically naive, melodramatic and sentimental at the core but full of affections and vitality; and so forth. Graham Greene, who holds that all literary art begins early in life, is more positive: 'if, as one is inclined to believe, the creative writer perceives his world once and for all in childhood and adolescence, and his whole career is an

effort to illustrate his private world in terms of the great public world we all share, we can understand why Fagin and Sikes in their most extreme exaggerations move us more that the benevolence of Mr Brownlow or the sweetness of Mrs Maylie —they touch with fear as the others never really touch with love'.[31] **Oliver Twist,** he goes on, is a world without God -- lost to Dickens in the Warehouse. But this really tells us more about Greene than about his master, and it easily degenerates into Romantic vagueness, and Romantic cadences, even today: 'his childhood has been lost there and all his wanderings were a search for it', say Norman and Jeanne MacKenzie in their 1979 biography.[32]

Dickens can be called Shakespearian in his humanity, which emerged warm and strong from the childhood murk of shame and frustration, for reasons we cannot explain. It was that which made him far more, in his own time, than a great popular writer, so that Jowett could fairly conclude his address, 'no one was ever so much beloved or so much mourned'. The crowds who packed London on the day of the funeral offered a tribute stronger even than Jowett's. The same humanity touched Tolstoy and Dostoievsky, immune as they were to the style and the eye for English oddity. Recalling Dickens, in a letter of 1886, George Lear mentioned a laundress known to them both: 'Dickens took great interest in her, and would mimic her manner of speech, her ways, her excuses, etc., to the very life'.[33] Mimicry was part of his gift but interest in human variety was another, and the Dickensian order of mimicry requires a power to sympathise. A passage of the Autobiographical Fragment tells how he would sit for hours thinking about the debtors in the Marshalsea. Dickens's love of life was not born in the Warehouse; it was there already, and so the origins of his boundless urge to express it may have been. If he was to be obsessed, as many lives are, the openness and scope of his obsessions arose from Dickens and not Dickens from them. If the child lived on within him, it was exceptionally wide-awake; if it shared his nightmares and forbade certain memories, it must have been placated by the great man it had become because the man Jowett and Trollope knew had full control of his mature work. That can be illumined by biography, as by most of the critical methods which have been brought to bear. But there is still a mystery, as there is with Shakespeare when all has been said about sources and playhouse conventions and the state of the language in 1600. Those who are intrigued by Shakespeare's genius may well pay attention to Dickens, to his insistence, for example, that he 'heard' his characters speaking as he wrote. 'You know... that I feel my power now, more than over I did', Dickens wrote to Forster.[34] What was it? There is much to find out, for all the Dickens industry has achieved. Mechanical analysis of the life should not be allowed to block the way.

Endnotes

1. From a letter to Fanny Kemble, 25 April 1879.
2. 'Dickens: the Two Scrooges', **The Wound and the Bow** (London 1941).
3. **Charles Dickens: A Critical Study** (London 1898); reprinted in Stephen Wall, **Charles Dickens** (Harmondsworth 1970), pp. 225–6.
4. Forster gave him a copy to read on his American journey.
5. There is no proof that the passage of **Sir Thomas More** now attributed to Shakespeare is in his hand.
6. New York 1952; London 1953, 1977.
7. See Wall, **op. cit.**, p. 176.
8. London 1964.
9. 'Whether Genius Is Conscious of its Powers', **The Plain Speaker** (London 1826).
10. This is the epigraph to Norman and Jeanne MacKenzie, **Dickens: A Life** (Oxford 1979).
11. Quoted by Seneca, 'On Peace of Mind'.
12. Introduction to S. Johnson, **London: A Poem** (London 1930).
13. Foreword to Dag Hammarskjold, **Markings** (London 1964).
14. From **Notes on the Novel** (London, 1925).
15. 'La Genie', **Mythologies** (Paris 1953).
16. **The Genesis of Secrecy** (Cambridge Mass 1979) **passim.**
17. Harmondsworth 1977.
18. London 1977.
19. **Op. cit.**, p. 41.
20. See Wall, **op. cit.**, p. 220.
21. See E. Johnson, **op. cit.**, p.41.
22. See Wall, **op. cit.**, p. 217.
23. Angus Calder, Introduction to **Great Expectations** (Harmondsworth 1965).
24. See Neil McEwan, 'The Significance of the Periodical Sketch, 1824–48, With Special Reference to Dickens and Thackeray', unpublished B.Litt. thesis, Bodleian Library.
25. **Op. cit.**, p.41.
26. See Wall, **op. cit.**, p.303.
27. Letter to Mrs Maria Winter, 3 April 1855.
28. London 1961.
29. (Harmondsworth 1970), p.17.
30. **St Paul's Magazine**, Vol. 10, 1872.

31. 'The Young Dickens', **The Lost Childhood and Other Essays** (London 1951).
32. **Op. cit.,** p.17.
33. See Wall, **op. cit.,** p.220.
34. 2 November 1843.